

الحبُّ يا بِيْ بَهْدُوْ

غامرت إلى الغرب
مع الرجل الذي أحبته،
ولكن في يومٍ واحدٍ
ذهب الحلم...

جانيت أولك



الكتاب الأول



الخبيرُ يابني بحدرو

جانيت أوك

ترجمة: سعيد باز



ophir

[مكتبة الخبر الإلكتروني](#)

[مكتبة العرب الحصرية](#)

Copyright © 1979, 2003 **Janette Oke**.
Originally published in English under the title:
Love Comes Softly by Bethany House Publishers,
a division of Baker Publishing Group,
Grand Rapids, Michigan, 49516, USA.
All rights reserved.

Arabic Edition Copyright © 2019 by **Ophir Printers & Publishers**.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

الحبُّ يَأْتِي بِهُدوءٍ

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمّان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٣٣٨١ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢ +، فاكس: ٣٣٨٥ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢ +

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo



رقم الإيداع: ٢٣١٣/٥/٢٠١٨

ISBN 978- 90- 5950- 262- 8

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه،

المحتويات

- ١ الحاصدُ الرَّهيبُ ٧
- ٢ ماما لمسي ١٥
- ٣ زواجُ مصلحة ٢٠
- ٤ لقاءُ صباحي ٢٧
- ٥ ليتني أستطيعُ الاحتمال ٣٦
- ٦ تنظيفُ البيت ٤٢
- ٧ زائرةٌ مُرحَّبٌ بها ٤٩
- ٨ إنَّه عالمٌ قاسٍ ٥٦
- ٩ يَوْمُ الرَّبِّ ٦٥
- ١٠ ذبحُ خنازيرٍ عند الجيران ٧٣
- ١١ ألفةٌ بلا كُلفة ٧٧
- ١٢ إنجازُ خياطتي ٨٠
- ١٣ ألين ٨٧
- ١٤ مسي ٩٣
- ١٥ سِرٌّ مكشوف ١٠٣
- ١٦ مُتَفَهِّمٌ ومُهَيِّمٌ ١٠٧
- ١٧ غيابٌ غامض ١١٢
- ١٨ تحضيراتُ عيدِ الميلاد ١١٧
- ١٩ في حبسِ الثَّلج ١٢٢
- ٢٠ زيارةٌ من ما غراهام ١٣٤
- ٢١ طفلاً جديداً ١٤٣
- ٢٢ ما غراهام تكشفُ قلبها ١٤٩

- ٢٣ زائرات ١٥٤
- ٢٤ اكتشافات جديدة ١٦٦
- ٢٥ كارثة! ١٦٩
- ٢٦ معونة في بناء حظيرة ١٧٨
- ٢٧ لورا ١٨٢
- ٢٨ اليوم الكبير ١٨٦
- ٢٩ زرع ١٩٢
- ٣٠ حزن ١٩٩
- ٣١ قوة جديدة ٢٠٣
- ٣٢ الحب يأتي بهدوء ٢٠٧

إلى صديقتي العزيزة ومُعَلِّمتي سابقاً
السيدة آيرين لِنْدَبِرغ



الحاصدُ الرَّهيبُ

أشْرَقَتْ شَمْسُ الصَّبَاحِ ساطِعَةً على شادرِ العَرَبَةِ المُغَطَّاةِ، وَاِعدَةً بِنَهَارٍ دافئٍ على نحوٍ غيرِ مألوفٍ للمُنَاخِ في مُنتَصَفِ تَشْرينِ الأوَّلِ/أكتوبرِ. كَافَحَتِ مَارَتِي لِأَجْلِ الاستيقاظِ، خَارجَةً بِبطءٍ من نَومٍ مُضطربٍ ومُتقطِّعٍ. لِمَاذَا شَعَرَتِ بِهَذَا القَدْرِ من الثَّقَلِ والانزعاجِ، هِيَ الَّتِي كَانَتْ تَسْتيقِظُ عَادَةً بِحَمَاسَةٍ وتَأهُبُ لِمُغامِرَةٍ كُلِّ يَومٍ جَدِيدٍ؟ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا مَا جَرَى كَسِيلٍ، فَرَمَتِ نَفْسَهَا وَصَارَتْ كَومَةً وَاحِدَةً على اللِّحَافِ الَّتِي كَانَتْ قَدِ نَهَضَتْ مِنْ تَحْتِهِ تَوًّا. وَهَزَّ البُكَاءُ المُتَقَطِّعُ السَّرِيعُ جِسمَهَا، فَضَغَطَتِ العِطَاءَ على وَجْهِهَا لِتَكْتُمَ الصَّوْتِ.

لَقَدْ رَحَلَ كَلِيمٌ! وَكَانَتْ حَقِيقَةُ ذَلِكَ لَا تَكَادُ تُصَدِّقُ. فَقبلَ أَقلِّ من سَنَتَيْنِ، اسْتَطَاعَ كَلِيمُ القَوِيُّ المُغامِرُ الفَتِيُّ، بِسُرْعَةٍ وَسَهولَةٍ، أَنْ يَجْعَلَهَا تُحِبُّهُ. وَإِذْ كَانَ واثِقًا بِنَفْسِهِ وَجَرِيئًا، أَسَرَ قَلْبَهَا وَيَدَهَا. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بِأربَعَةِ عَشَرَ شَهْرًا بَاتَتِ امْرَأَةً مُتَزَوِّجَةً بَعِيدًا في الغَربِ، حَيْثُ ابْتَدَأَتْ مُغامِرَةً جَدِيدَةً وَحَافِلَةً بِالتَّحَدِّيِّ مَعَ الرَّجُلِ الَّتِي أَحَبَّتَهُ... حَتَّى يَومِ أَمْسِ.

وَبَكَتْ قَائِلَةً: آه، كَلِيم! لَقَدْ انْهَارَ عَالَمُهَا كُلُّهُ حَوْلَهَا لَمَّا جَاءَ الرَّجَالُ
لِيُخْبِرُوهَا بِأَنَّ كَلِيمَ تُوفِّي. لَقَدْ مَاتَ فَوْرًا، إِذْ سَقَطَ حِصَانُهُ. وَكَانَ
عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْضُوا عَلَى الْحِصَانِ. هَلْ أَرَادْتَ أَنْ تَذْهَبَ مَعَهُمْ؟
لا، سَتَبْقَى.

أَتَوَدُّ أَنْ تَأْتِيَ زَوْجَةً أَحَدِهِمْ إِلَيْهَا؟
لا، سَتُدَبِّرُ الْحَالِ.

وَتَسَاءَلْتُ كَيْفَ اسْتَطَاعَتْ حَتَّى إِخْرَاجِ الْكَلِمَاتِ مِنْ شَفَتَيْهَا.
سَيَهْتَمُ الرَّجَالُ بِالْجُثْمَانِ، كَمَا قَالَ لَهَا أَحَدُهُمْ؛ فَرَوْجَتُهُ تُتَقِنُ ذَلِكَ.
وَالجِرَانِ سَيُرْتَبُونَ الدَّفْنَ. وَمِنْ حُسْنِ الصِّدْفِ أَنَّ الْقِسْيَسِ كَانَ يَقُومُ
بِزِيَارَتِهِ فِي أَنْحَاءِ الْمِنْطَقَةِ. كَانَ سِيرْحَلُ الْيَوْمِ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى يَقِينٍ
بِأَنَّهُ سَيَبْقَى. أَهِيَ مُتَيَقِّنَةٌ بِأَنَّهَا لَا تُرِيدُ أَنْ تَذْهَبَ مَعَهُمْ؟
لن تَذْهَبَ، وَسَتَكُونُ بِخَيْرٍ.

شَقَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتْرَكُوهَا وَحْدَهَا.

كَانَتْ بِحَاجَةٍ لِأَنْ تَبْقَى وَحْدَهَا.

سَيَرُونَهَا غَدًا. فَلَا دَاعِيَ لِأَنْ تَقْلُقَ. هُمْ سَيَهْتَمُونَ بِكُلِّ شَيْءٍ.

شُكْرًا لَكُمْ...

ثُمَّ مَضُوا، آخِذِينَ مَعَهُمْ عَزِيْرَهَا كَلِيمَ، مَلْفُوفًا بِوَاحِدَةٍ مِنْ بَطَانِيَّاتِهَا
الْقَلِيلَةِ، وَمَرْبُوطًا عَلَى ظَهْرِ حِصَانِ. كَانَ يَنْبَغِي لِلْجَارِ اللَّطِيفِ أَنْ يَكُونَ
رَاكِبًا عَلَى الْحِصَانِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ الْآنَ يَقُودُهُ عَلَى مَهْلٍ، مُنْتَبِهًا إِلَى

جملة.

ها هو الغدُ قد حلَّ الآن، والشَّمْسُ مُشْرِقة. فلماذا كانت مُشْرِقة؟
ألم تعلمِ الطَّيِّبَةُ أَنَّ هذا اليومَ ينبغي أن يكون معدومَ الحيويَّةِ على غرارِ شعورها هي، تهبُّ فيه ريحٌ باردةٌ كالثَّقْشَعْرِيرة التي استولت على قلبها؟
كان ينبغي أن تملأها بالهَلَعِ حقيقةً كونها بعيداً في الغربِ إِبَّانَ خريفِ السَّنة، ولا سبيلَ للرُّجوعِ إلى الدِّيارِ، وليس بقربها أحدٌ تعرفُهُ، فضلاً عن كونها تنتظرُ طِفْلَ كليم. ولكن في هذا الحين كان الأمرُ الوحيدُ الذي استطاعَ عقلُها أن يستقرَّ عليه وقلْبُها أن يدركه هو الألمُ الطَّاعِي من جرَّاءِ خسارتها الفادحة.

بكت بصوتٍ عالٍ قائلةً: ”آه كليم! وآه كليم. ماذا سأفعلُ دونك؟“ ودفنتُ وجهها مُجدِّداً في اللِّحافِ.

كان كليم قد جاء إلى الغربِ النَّائي بحماسةٍ مُتَّفِدة جداً.
لقد قال مُتهلِّلاً: ”سنجدُ كلَّ ما نحتاجُ إليه هُناك في البَلَدِ الجديدِ.
الأرضُ بانتظارٍ مَنْ يَضَعُ يده عليها“.

فقال مُتلعثمةً: ”ماذا عن الحيوانات البرِّيَّةِ والهَنودِ الحُمْرِ؟“
فضحك على سذاجتها، وشالها بذراعيه القويَّتين، وأدارها في الهواءِ.
قالت بقلقٍ: ”وماذا عن البيت؟ سيكون الشتاءُ قد بدأ تقريباً لدى
وُصولنا إلى هُناك“.

”سُيساعدنا الجيران على بناء بيت. سمعتُ كلَّ شيءٍ عن عونِهِم“.

إِنَّهُمْ يُسَاعِدُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ الْقِيَامُ بِهِ بَعِيدًا هُنَاكَ“.

وكان ذلك صحيحًا. فمن شأن أولئك قاطني المناطق الحدودية الصّلاب المنتشرين في أنحاء البراري أن يتركوا غلالهم الغالية جدًا واقفةً في الحقول، إذا دعتِ الضّرورة، فيما يبذلون من وقتهم ليقيموا سقفًا فوق وافدٍ جديدٍ مُحتاج، ولو كان مغرورًا ومُتهوّرًا بعض الشيء؛ لأنّهم أخبرُ منه كثيرًا بضراوة رياح الشتاء.

لقد طمانها كلیم: ”سندبرُ حالنا جيّدًا هنا. لا تُرهقي نفسكِ بالقلق، يا مارتی“. وبشيءٍ من التردّد، باشرتِ مارتی التّحضيراتِ للرحلة الطويلة في قافلة العربات كي تسعى في إثرِ حلمِ زوجها المحبوب.

بعدَ عدّة أسابيع من السّفرة، عثرا على بيتِ مزرعة في منطقةٍ ومراعٍ وتلالٍ مموجة، فأجرى كلیم بعضَ الاستفسارات. وعلى فُجانِ قهوةٍ وُدّيّ، أخبرهما المزارعُ بأنّه امتلكَ الأرضَ وصولًا إلى جدولِ الماء، ولكنّ الأرضَ الواقعةَ وراءَ ذلك، صُعودًا إلى التّلال، لم تُستملك بعد. وبجهدٍ، ضبطَ كلیم نفسه عنِ الهُتافِ في الحال. فكان في وسعِ مارتی أن تلاحظَ أنّ مُجرّدَ كونِ كلیم قريبًا جدًا من تحقيقِ حلمه ملاءةً بالأملِ الجامح. وإذ شكرا جارهما العتيد، استأنفا التّقدم، مُسافرينَ أسرعَ قليلًا من أن تحتملَ العربةُ التي كثيرًا ما أصلحت. فلمّا لاحَ

مَقْصِدُهُمَا لِلْعِيَانِ، انْخَلَعَتْ عَجَلَةً أُخْرَى، وَكَانَ إِصْلَاحُهَا مُتَعَدِّرًا هَذِهِ
الْمَرَّةَ.

خَيْمًا تَلِكَ اللَّيْلَةَ وَهُمَا عَلَى أَرْضِ الْجَارِ بَعْدَ، وَكَوَّمَ كَلِيمَ حِجَارَةً
وَخَشَبًا تَحْتَ الْعَرَبَةِ الْخَرِبَةِ، فِي مُحَاوَلَةٍ مِنْهُ لَجَعْلِهَا تَسْتَوِي قَلِيلًا. ثُمَّ
فِي الصَّبَاحِ تَكشَّفَ لِهَما مَزِيدٌ مِنَ النَّكَدِ. فَأَحَدُ الْحِصَانَيْنِ فَرَّ فِي أَثْنَاءِ
اللَّيْلِ، وَحَبْلُهُ الْمَقْطُوعَ مَا زَالَ يَتَدَلَّى مِنَ الشَّجَرَةِ. وَرَكِبَ كَلِيمَ عَلَى
الْحِصَانِ الْآخَرَ لِيُفْتَشَّ عَلَيْهِ. إِذْ ذَاكَ وَقَعَتِ الْحَادِثَةُ، وَالْآنَ لَنْ يَرْجِعَ.
فَلَنْ تَكُونَ أَرْضٌ مُسْتَمْلَكَةٌ بِاسْمِهِ، وَلَا بَيْتٌ يَقُومُ شَامِخًا وَرَاسِخًا
لِيَحْمِيَ زَوْجَتَهُ وَطِفْلَهُ.

انْتَحَبَتِ مَارْتِي مِنْ جَدِيدٍ، وَلَكِنَّهَا سَرَعَانَ مَا سَمِعَتْ جَلْبَةً خَارِجَ
الْعَرَبَةِ، فَاخْتَلَسَتِ النَّظَرَ بِفَوَادٍ مَخْلُوعٍ مِنْ خِلَالِ الشَّادِرِ. وَإِذَا بِيَعُضِ
الْجِيرَانِ هُنَاكَ... أَرْبَعَةُ رِجَالٍ مُتَجَهِّمِي الْأَوْجُهَ يَنْقُبُونَ بِصَمْتٍ وَوَقَارٍ
تَحْتَ شَجَرَةِ الرَّاتِينِجِ الْكُبْرَى. وَإِذْ أُدْرِكْتَ مَا يَعْنِيهِ حَفْرُهُمْ، نَهَشَ
نَفْسَهَا عَذَابٌ جَدِيدٌ. إِنَّهُ قَبْرُ كَلِيمٍ. لَقَدْ كَانَ الْأَمْرُ صَحِيحًا حَقًّا؛ فَهَذَا
الْكَابُوسُ الرَّهِيْبُ كَانَ جَارِيًا بِالْفِعْلِ. لَقَدْ رَحَلَ كَلِيمٌ، وَهِيَ مِنْ
دُونِهِ. وَسَيُدفَنُ فِي أَرْضٍ مُسْتَعَارَةٍ.

”آه كَلِيمُ! مَاذَا سَأَفْعَلُ؟“

بَكَتْ حَتَّى جَفَّتْ دُمُوعُهَا، وَاسْتَمَرَ النَّقْبُ. كَانَ فِي وَسْعِهَا أَنْ
تَسْمَعَ كَشْطَ الرُّفُوشِ، وَبَدَتْ كُلُّ شَكَّةٍ طَاعِنَةً أَعْمَقَ فِي قَلْبِهَا.

بَلَّغَتْهَا أَصْوَاتُ أُخْرَى، فَادْرَكَتْ أَنَّ جِيرَانًا آخِرِينَ كَانُوا مُقْبِلِينَ. عَلَيْهَا
أَنْ تَتَمَالَكَ نَفْسَهَا وَتَتَمَاسَكَ. فَمَا كَانَ كَلِيمٌ لِيُرِيدَ لَهَا أَنْ تَخْتَبِي مُنْزَوِيَةً
دَاخِلَ الْعَرَبَةِ.

نَهَضَتْ عَنِ اللَّحَافِ وَحَاوَلَتْ أَنْ تُرْتَّبَ شَعْرُهَا الْأَشْعَثَ. وَارْتَدَّتْ
بِسُرْعَةٍ فُسْتَانَهَا الْقُطْنِيَّ الْأَزْرَقَ الدَاكِنَ، إِذْ بَدَأَ الْأَلَيْقَ بِالْمُنَاسِبَةِ، ثُمَّ
انْتَرَعَتْ مِنْشَفَةً وَمُشْطَهَا وَانْسَلَّتْ إِلَى خَارِجِ الْعَرَبَةِ، نَازِلَةً إِلَى النَّبْعِ كَيْ
تَغْسِلَ دُمُوعَهَا وَتُسَوِّيَ شَعْرَهَا الْمُتَشَابِكَ. وَلَمَّا فَعَلَتْ ذَلِكَ، قَوَّمَتْ
كَتْفَيْهَا وَرَفَعَتْ ذَقْنَهَا، ثُمَّ رَجَعَتْ لِتُلَاقِيَ الْمَجْمُوعَةَ الصَّغِيرَةَ الْكَثِيْبَةَ
الْمُجْتَمِعَةَ تَحْتَ شَجَرَةِ الرَّاتِنَجِ.



كَانَ فِي جَمِيعِهِمْ لُطْفٌ وَعَطْفٌ. وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تُحَسَّ ذَلِكَ. لَمْ يَكُنْ
ذَلِكَ شَفَقَةً، بَلْ كَانَ تَفَهُّمًا. فَهَذَا كَانَ الْعَرَبُ، وَالْأُمُورُ قَاسِيَةٌ هُنَا فِي
تِلْكَ الْأَرَاضِي الْبَعِيدَةِ. وَالْأَرْجَحُ أَنَّ كُلَّ شَخْصٍ هُنَاكَ تَقْرِيْبًا وَاجَهَ وَقْتًا
مُمَآثِلًا، وَلَكِنْ أَحَدًا لَمْ يَرِزْخْ تَحْتَهُ. فَمَا كَانَ مِنْ وَقْتٍ أَوْ طَاقَةٍ لِلرِّثَاءِ
هُنَا، لَا لِلذَّاتِ وَلَا مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ. كَانَ الْأَمْرُ يَقْتَضِي كِيَانَكَ كُلَّهُ
كَيْ تَقْبَلَ حَقِيْقَةً أَنَّ الْمَوْتَ جُزْءٌ مِنَ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْحُزْنَ أَمْرٌ يَتَعَدَّرُ
اجْتِنَابَهُ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَكَ مِنَ التَّهْوُضِ وَالْمُضِيِّ قُدْمًا.

تَفَوَّهَ الْقِسْيَسُ الرَّائِرُ بِكَلِمَاتِ الدَّفْنِ، مُودِعًا جُثْمَانَ كَلِيمٍ فِي تُرَابِ
الْأَرْضِ، وَنَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ. وَتَكَلَّمَ أَيْضًا إِلَى الْمَفْجُوعِينَ، وَقَدْ كَانُوا
فِي هَذِهِ الْحَالَةِ شَخْصًا صَغِيرًا مَوْحَشًا وَاحِدًا، أَيِ أَرْمَلَةٍ الْمُتَوَفَّى؛ إِذْ لَا

يَكَادُ يَسَعُ الْمَرْءَ أَنْ يَحْسُبَ الطِّفْلَ الَّذِي كَانَتْ حَامِلًا بِهِ وَاحِدًا مِنَ الْمَفْجُوعِينَ، حَتَّىٰ لَوْ كَانَ طِفْلًا كَلِيمًا.

تَكَلَّمَ الْقِسِّيْسُ مَاغْنُوسَنَ كَلَامًا يَلِيْقُ بِالْمُنَاسِبَةِ، كَلَامَ تَعْزِيَةٍ وَتَشْجِيْعٍ. وَأَصْغَى الْجِيْرَانُ بِتَعَاظِفٍ صَامَتٍ إِلَى الْآيَاتِ الْمَأْلُوفَةِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ سَمِعُوهَا فِي مُنَاسِبَاتٍ مُّمَاثِلَةٍ. وَلَمَّا انْتَهَتْ الْمَرَاسِمُ الْوَجِيْزَةُ، عَادَتْ مَارْتِي مُطْرِقَةً الرَّأْسِ مِنَ الْقَبْرِ نَحْوَ الْعَرَبَةِ، فِيمَا رَجَعَ الرَّجَالُ الْأَرْبَعَةُ بِرِفْوشِهِمْ إِلَى مَهْمَةٍ هَيْلِ الثُّرَابِ عَلَى التَّابُوتِ الْخَشْبِيِّ الْمَتِينِ الَّذِي كَانُوا قَدْ أَتَوْا بِهِ. وَبَيْنَمَا مَارْتِي تَمْشِي مُبْتَعِدَةً، تَقَدَّمَتْ امْرَأَةٌ وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى كَتِفِهَا النَّحِيْلَةِ.

قَالَتْ الْجَارَةُ بِصَوْتٍ خَفِيْضٍ: "أَنَا وَإِنْدَا مَارْشَالٍ. آسِيفَةُ لَعْدَمِ امْتِلَاكِنَا أَكْثَرَ مِنَ الْغُرْفَةِ الْوَاحِدَةِ، وَلَكِنْ أَهْلًا بِكَ لِمُشَارَكَتِنَا فِيهَا بَضْعَةَ أَيَّامٍ إِلَى أَنْ تُرْتَبِي أُمُورِكَ".

فَتَكَلَّمَتْ مَارْتِي بِمَا يُشْبِهُ الْهَمْسَ: "شُكْرًا جَزِيْلًا عَلَى تَفْضُلِكَ. وَلَكِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَثْقَلَ عَلَيْكُمْ. ثُمَّ إِنِّي أَظُنُّ أَنَّي سَأُكْتَفِي بِالْبَقَاءِ هُنَا إِلَى حِينٍ. يُعَوِّزُنِي وَقْتُ حَتَّى أَفْكَرَ".

أَجَابَتِ الْمَرْأَةُ: "أَنَا أَتَفْهَمُ الْأَمْرَ"، مُرَبِّتَةً تَرْبِيْتَةً خَفِيْفَةً، ثُمَّ مَضَتْ فِي سَبِيْلِهَا.

وَاصَلَتْ مَارْتِي سَبِيْرَهَا نَحْوَ الْعَرَبَةِ، ثُمَّ اسْتَوْقَفَتْ ثَانِيَةً، هَذِهِ الْمَرْءَةَ بِيَدِ رَقِيْقَةٍ لِامْرَأَةٍ أَكْبَرَ سِنًا.

”ليس هذا وقتًا هينًا عليكِ، كما أعلم. لقد دفنتُ زوجي الأوَّلَ منذُ سنينَ كثيرة، وأعرِفُ كيفَ تشعُرِينَ“. وبعدَما توقَّفتَ دقيقةً أضافتَ: ”لا أعتقدُ أَنَّهُ أُتِيحَ لكَ وقتٌ للتَّخطيطِ“. وإذ هزَّتْ مارتِي رأسَها قليلاً، تابعتِ المرأةُ: ”لا أستطيعُ أن أقدمَ إليكِ مكانًا تبقيين فيه؛ فبيتنا ملآن. ولكنِّي أستطيعُ أن أقدمَ إليكِ شيئًا تأكلينه. وإذا أردتِ نقلَ عرَبَتِكَ إلي فإئاننا، يُسعدُنَا أن نساعدك على حزمِ أمتعتِكَ، وزوجي بَن، بَن غراهام، سيُسعدُهُ جدًّا أن يُقلِّكَ إلى المدينة متى بتَّ مُستعدةً للذهابِ“.

فتمتمَّتْ مارتِي: ”شكرًا لكِ، لكنِّي أظنُّ أَنِّي سأملكُ هُنا إلى حين“.

كيف يُمكنها أن تشرحَ أَنَّها لا تملكُ أيَّ مالٍ كي تبقى، ولا حتَّى ليلةً واحدة، وليس لها أيُّ رجاءٍ في الحصولِ على شيءٍ منه؟ أيُّ نوعٍ من العملِ تستطيعُ امرأةٌ شابَّةٌ، عديمةُ الخبرة، في وضعها، أن تحضَلَ عليه؟ وأيُّ نوعٍ من المُستقبلِ كان هُناك لها، على كلِّ حال؟

نقلتها قدماها بطريقةٍ ما إلى العرَبَةِ، ورفعتَ يداً ثقيلةً إلى سِتارةِ الشَّادِرِ. لم تُردِ إلَّا أن تنسلَّ وتتوارى عن الأنظار، وتدعَ الدُّنيا تنهارُ عليها.

كان الدَّاخِلُ حارًّا عندَ الظَّهيرة، وجعلَ تدفُّقُ الهواءِ السَّاخنِ رأسَها المُصابَ بالدُّوارِ أصلاً يُدوِّمُ تدويمًا. فزحفتَ إلى الخارجِ مُجدِّدًا وقعدتَ على العُشبِ إلى جانبِ العرَبَةِ الظَّلِيلِ، ساندَةً ظهرَها إلى

العجلة المخلوعة. وبدا أنّ حواسّها تتحايّل عليها. إذ عصفت زوبعة الحزن في رأسها دوّارةً، جاعلةً إيّاها تتساءل عمّا كان بالحقيقة واقعاً وما تخيلته. وباتت تتلمّس ذهنياً عسى أن تُدرِك معنى ما لذلك كلّهُ، فإذا بصوت رجل يجعلها تُجفلُ بقربه إليها.

”سيّدي“.

رفعت رأسها ونظرت إلى فوق. وإذا برجلٍ يقفُ أمامها وقُبعتُهُ في يده يمسّها بأصابعه عمدًا وهو يتنحّج. فعرفته بغموضٍ؛ إذ كان واحدًا من حاملي الرفوش. وقد نمّ طولُ قامته وبنيتُهُ عن قوّة، وكان حولَ عينيه تجاعيدٌ ناقضت ملامح شبابه. ونظرت عيناها في وجهه، إلّا أنّ شفّتها أبتا أن تتجاوبا.

بدا أنّه يستمدُّ شجاعةً من مكانٍ ما في أعماقِ نفسه، وتكلّم ثانيةً.

”سيّدي، أعلم أنّ هذا الأمر في غيرِ أوانه، إذ قد دفنتِ زوجك تواءً بعد كلّ ما كان. ولكنّي أخشى ألاّ تنتظري المسألة وقتًا ومكانًا أنسب“.

ثمّ نظفت حنجرتَه مُتنحّجًا من جديد. ورفعَ نظره عن القُبعة التي في يديه.

قال مُسرِعًا: ”اسمي كلارك ديفيس، ويبدو لي أنّنا كِلانا نحتاجُ أحدنا إلى الآخر“.

وجعلته شهقةً نفسٍ حادّةً من مارتى يتوقّف، ثمّ يرفعُ يداً.

وما لبثَ أن قال لها بما يُشبههُ الأمر: ”الآن، مهلاً دقيقة. ما هي إلّا

مسألة أمرٍ منطقيٍّ بسيط. لقد فقدتِ رجلِك، وأنا هنا وحدي“. وألقى نظرةً على عجلة العربة المخلوعة، ثمَّ قعدَ القرفصاءَ ليتكلَّم مباشرةً إليها.

”أظنُّ أن ليس لديكِ مالٌ لتعودي إلى أهلك، إذا كان لكِ أهلٌ لتعودي إليهم. حتَّى لو صحَّ ذلك، فليسَ من قافلةٍ مُتوجِّهةٍ إلى الشرقِ تمرُّ من هنا قبلَ الربيعِ التَّالي. والآن، أنا أيضًا لي حاجة“.

توقَّفَ هناك ونظرَ إلى تحت. ومرَّت دقيقةٌ قبلما رفعَ نظره وحدَّقَ إلى وجهها. ”عندي طفلةٌ لا تعدو كثيرًا كونها مخلوقةٌ ضئيلة... وهي تحتاجُ إلى ماما. والآن، كما أرى، إذا تزوجنا، أنتِ وأنا...“. وأشاحَ بنظره بعيدًا لحظةً، ثمَّ أدارَ وجهه نحوها من جديد، مُتابعًا: ”يُمكننا أن نحلَّ كلتا هاتين المُشكلتين. كان مُمكنًا أن أنتظر، ولكنَّ الواعظَ باقٍ هنا اليومَ فقط، ولن يرجعَ قبلَ نيسان/أبريل أو أيار/مايو المُقبلين، لذا ينبغي أن يتمَّ الأمرُ اليوم“.

ولا بُدَّ أن يكونَ قد لاحظَ في وجهها الرُعبَ الخالصَ الذي كانت تشعرُ به.

ثمَّ قال مُتلعثمًا: ”أعرِف، أعرِف. لستُ أبدو لائقًا، ولكنَّ أيُّ شيءٍ آخَرَ هناك؟“

أيُّ شيءٍ آخَرَ حقًا؟ عبارةٌ هاجتَ وماجتَ في عقلِ مارتِي: أفضلُ أن أموتَ أولًا... ذلك كلُّ ما في الأمر. أفضلُ أن أموتَ على أن تتزوَّجني أنت... أو أيُّ رجلٍ. اذهبْ من هنا. اغربْ عن وجهي.

ولكنه لم يقرأ أيّ مزيدٍ من أفكارها المُصطَخِبة، وتابَعَ كلامه: ”ما زلتُ أكافحُ كلَّ حين، مُحاولًا أن أكونَ بابا وماما معًا لِمِسي، ولستُ بناجحُ كثيرًا في ذلك أيضًا، فيما أحاولُ الاعتناءَ بالأرضِ وكلِّ شيءٍ. عندي قطعةُ أرضٍ وكوخٌ مُريحٌ نوعًا ما، رُغمَ كونهِ صغيرًا. وفي وُسعي أن أُوفِّرَ لكِ كلَّ ما تحتاجُ إليه امرأةٌ مقابلَ رعايتِكِ لِمِسي. أنا على يقينٍ بأنكِ تستطيعين أن تتعلّمي أن تُحبيها. إنَّها كيانٌ صغيرٌ من الحيويَّةِ فعلاً“. ثمَّ توقَّفَ قليلًا ليُضيف: ”ولكنَّها ستكون بحاجةٍ إلى يدِ امرأةٍ، عزيزتي مِسي، ليس غير. في وسعِكُما أنتِ ومِسي أن تتشاركا في غُرْفَةِ النِّومِ. وأنا سأخذُ السَّقيفةَ المُلاصِقةَ المائلةَ السَّطح، و...“. ثمَّ تردَّدَ قليلًا، وأضاف: ”سأعدُّكِ بهذا أيضًا. عندما تمرُّ قافلةُ العرباتِ المُتَّجِهَةِ شرقًا إلى حيثُ يُمكنكِ أن تستقلِّي مركبةً عموميَّةً، إذا لم تكوني سعيدةً هنا، فسأتولَّى دفعَ أُجرةِ السَّفَرِ رجوعًا إلى دياركِ، بشرطِ واحد: أن تأخذي صغيرتي مِسي معكِ“. وتمهَّلَ ليلعَ ريقه، ثمَّ قال: ”ليسَ من الإنصافِ للمخلوقةِ الصَّغيرةِ ألا تكونَ لها ماما“.

وما لبثَ أن نهضَ فجأةً: ”سأترُكُكِ حتَّى تُفكِّري في الأمرِ، سيِّدتي. ليسَ لدينا كثيرٌ من الوقتِ“.

ثمَّ دارَ ومضى بخطىٍ واسعة. وقد بيَّنَ لها ارتخاءُ كتفيه كم كلفته تلكَ الكلمات. ومع ذلكَ فكَّرتِ غاضبةً أيُّ نوعٍ من الرِّجالِ يُمكنُه أن يعرضَ الزَّواجَ- بل هذا الصَّنَفَ من الزَّواجِ أيضًا- على امرأةٍ عادت تواءمًا

من قَبْرِ زوجها؟ فأحسَّتِ اليأسَ يَنبَعُثُ في داخلها. وقالت لنفسها: أفضلُّ أن أموت؛ أفضلُّ أن أموت. ولكنْ ماذا عن طِفْلِ كليم؟ لم تُردِ الموتَ لصغيرهما، لا من أجلها ولا من أجل كليم. ودوَمَ الإحباطُ والغضبُ والحُزنُ في أوصالها. يا له من وضعٍ وُضِعَتْ فيه! لا أحد، ولا شيء، بعيداً في هذا الرِّيفِ الذي تخلَّى اللهُ عنه. الأقباءُ والأصدقاءُ بعيدو المنال، وهي وحيدةٌ تماماً. لقد عَلِمَتْ أَنَّهُ كان على حقٍّ. وقد احتاجت إليه، وكرهته من أجل ذلك.

”أكرهه هذا الرِّيف! أكرهه! وأكرهه هذا الرَّجُلَ الباردَ البائس! أكرهه! أكرهه!“ ولكنْ حتَّى في أثناء انقِضاضِها عليه، عَلِمَتْ أَنَّها لا تملكُ سبيلاً للانعطافِ والتَّمَلُّصِ.

مسحت دموعها، وقامت عن العُشْبِ الظَّلِيلِ. لن تنتظِرَه حتَّى يعودَ بأسلوبه المُستعلي لمعرفة قرارها. هكذا فكَّرت بعناد، ثمَّ دخلت العرْبَةَ وبدأت تحزِمُ الأشياءَ القليلة التي تدعوها خاصَّتها.

ماما لِمِسي

رَكِبَا صَامَتَيْنِ فِي عَرَبْتِهِ. كَانَ الْوَاعِظُ فِي بَيْتِ آلِ غَرَاهَامِ، حَيْثُ كَانَ مَدْعُوًّا إِلَى الْغَدَاءِ. كَانَتْ مِسي هُنَاكَ أَيْضًا، إِذْ تُرِكَتْ عِنْدَ عَائِلَةِ غَرَاهَامِ كَيْ تَعْتَنِيَ بِهَا الْبَنَاتُ الْأَكْبَرُ سَنًّا فِي أَثْنَاءِ حُضُورِ أَبِيهَا الْجَنَازَةَ. سَيَدَعَانِ الْوَاعِظَ يُجْرِي الْمَرَاسِمَ، وَيُحْضِرَانِ مِسي، ثُمَّ يَمْضِيَانِ إِلَى الْمَنْزِلِ. وَقَدْ جَلَسَتْ مَارْتِي جَامِدَةً وَسَاكِتَةً بِجَانِبِهِ، فِيمَا الْعَرَبَةُ تَسِيرُ مُتَرْجِرَةً. وَجَاهَدَتْ لِتَرْفَعَ يَدًا وَتُرْجِعَ شَعْرَهَا الَّذِي عَبَثَتْ بِهِ الرِّيحُ عَنْ وَجْهِهَا الْحَارِّ. فَنَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْنِ أَبَدَاتَا اهْتِمَامًا.

”لَنْ نَتَأَخَّرَ كَثِيرًا الْآنَ. الْحَرَارَةُ شَدِيدَةٌ تَحْتَ الشَّمْسِ. سَتَحْتَاجِينَ إِلَى قُبْعَةٍ تُظَلِّلُ رَأْسَكِ“.

جَلَسَتْ صَامِتَةً، تَنْظُرُ إِلَى الْأَمَامِ مُبَاشِرَةً. مَا هَمَّهُ بِشَأْنِ الشَّمْسِ الْحَارَّةِ عَلَى رَأْسِهَا؟ وَمَا هَمُّهَا هِيَ؟ مَا كَانَ مُمَكِّنًا أَنْ يَحْدُثَ لَهَا شَيْءٌ أَسْوَأَ. وَأَشَاحَتْ وَجْهَهَا حَتَّى لَا يَرَى الدُّمُوعَ تَتَشَكَّلُ رُغْمَ إِرَادَتِهَا. إِنَّهَا لَمْ تُرِدْ أَيَّ عَطْفٍ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الْعَنِيدِ بِجَانِبِهَا.

سار الحصانان مُتثاقِلين. وآلمها جِسْمُها من وثب العربة فوق مجرى
الأخاديد الذي يُفترض أن يؤدي دور الطريق.

ثمَّ شعرت بالفرج لدى رؤية منزل آلِ غراهام إذ بدت عند سفح
مجموعة من التلال الصَّغيرة. وإذ دخلا بالعربة في الفناء، قفزَ مُترجلاً
بخفة ودارَ كي يُساعدَها. فكانت أكثرَ خدرًا من أن ترفض، خاشيةً أن
تقعَ على التراب إذا حاولت النزولَ وحدها. فحملها وأنزلها بسهولة
وثبتها على قدميها قبل أن يُفلتها. ثمَّ لفَّ زمامًا على عمودِ ربطٍ وأوماً
لها أن تسبقه إلى داخل البيت.

لم تُلاحظ أيَّ شيءٍ ممَّا حولها. ففي حالة ارتباكها، أبقى عقلها أن
يُسجِّل أيَّ شيء. إنّما تذكَّرت فقط أنَّ البابَ انفتحَ بيدِ السيِّدة غراهام
التي دُهشتُ وأجالت نظرَها من أحدهما إلى الآخر. وتنبَّهت مارتي
بُغموضٍ إلى وجودِ آخَرينَ هناك، ينتظرونَ على ما يبدو الدَّعوةَ إلى
تناولِ الغداء. وفي الزاويةِ رأيتِ الواعِظَ يُحادثُ رجلًا افترضتُ أنه بن.
بدا الأولادُ في كلِّ ناحية. ولم تُحاولِ حتَّى التَّيقُّنَ من عددهم. أمَّا
الرَّجلُ - كلارك ديفيس كما سمَّي نفسه - فتقدَّم نحو الرَّجُلينَ في الزاوية
فيما تحدَّثَ إلى السيِّدة غراهام.

وإذ شَمَلَ الواعِظُ وبَنَ في تفسيره، كان يقول: "نحنُ قرَّنا...".

نحنُ! هاجت وماجت داخلَ نفسها. أنت تعني أنت!

"... أن نتزوَّجَ فيما الواعِظُ ما يزالُ هنا لإجراء المَراسِم. سيَعني الأمرُ

يَتَا لِلسَيِّدَةِ كَلَارِدْج هُنَا وَمَا لِمِسي“.

وَسَمِعَتْ قَوْلَ السَيِّدَةِ غَرَاهَام: ”إِنَّهُ الأَمْرُ الوَحِيدُ الَّذِي يَقْضِي بِهِ العَقْلُ وَالحِسُّ“، وَقَوْلَ الوَاعِظِ: ”نَعَمْ، نَعَمْ، بِالتَّأَكِيدِ“.

حَصَلَتْ حَرَكَةٌ عَامَّةٌ حَوْلَهَا إِذْ أُفْسِحَ لَهَا فِي المَجَالِ، وَفِي مَا بَدَأَ تَقْرِيْبًا وَقَتًا قَصِيْرًا عَلَيَّ نَحْوِ الأَخْلَاقِيِّ كَانَتْ تَسْمَعُ الكَلِمَاتِ المَأْلُوفَةِ. وَلَا بُدَّ أَنَّهَا تَفَوَّهَتْ بِأَجْوِبَتِهَا فِي الأَوْقَاتِ الصَّحِيْحَةِ، إِذْ شَقَّتِ الضَّبَابُ كَلِمَاتُ الوَاعِظِ: ”...وَالآنَ أُعْلِنُكُمْ زَوْجًا وَزَوْجَةً“.

وَحَصَلَتْ حَوْلَهَا حَرَكَةٌ مِنْ جَدِيدٍ. إِذْ كَانَتْ السَيِّدَةُ غَرَاهَام تُرْتَّبُ أَمْكِنَةً إِضَافِيَّةً حَوْلَ المَائِدَةِ وَتُشَجِّعُهُمَا بِالقَوْلِ: ”اقْعُدَا وَكُلَا مَعَنَا قَبْلَ أَنْ تَذْهَبَا“. وَمَا لَبِثَا أَنْ جَلَسَا إِلَى المَائِدَةِ. وَلَا بُدَّ أَنَّ الأَوْلَادَ أَطْعَمَتْهُمُ البَنَاتُ الأَكْبَرُ سَنًّا قَبْلَمَا وَصَلَ الكِبَارُ رَاجِعِيْنَ مِنَ الجَنَازَةِ. فَبَارَكَ الوَاعِظُ الطَّعَامَ، وَاسْتَمَرَ الحَدِيثُ العَامُّ حَوْلَ مَارْتِي. وَرُبَّمَا أَكَلَتْ شَيْئًا مَا، مَعَ أَنَّهَا لَاحِقًا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَاذَا كَانَ ذَلِكَ أَوْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ عَنِ الوَلِيْمَةِ. فَأَحْسَسَتْ كَأَنَّهَا دُمِيَّةٌ تَتَحَرَّكُ- بَلْ تَتَكَلَّمُ أَيضًا- أَوْتوماتِيًّا، إِذْ يَتَحَكَّمُ فِيهَا شَيْءٌ مَا خَارِجٌ ذَاتِهَا تَمَامًا.

ثُمَّ دَبَّتِ الحَرَكَةُ مِنْ جَدِيدٍ. إِذْ قَامَ الضُّيُوفُ عَنِ المَائِدَةِ، وَبَاشَرُوا الأَسْتَعْدَادَ لِيَمْضِيَ كُلُّ فِي سَبِيلِهِ. فَصَرَ الوَاعِظُ زَادًا أُعِدُّ لَهُ، وَوَدَّعَ الجَمِيْعَ. وَسَاقَ وَاحِدٌ مِنَ الأَوْلَادِ غَرَاهَامَ الأَكْبَرِ سَنًّا حِصَانِ الرَّجُلِ مِنَ الحَظِيْرَةِ. وَقَبْلَمَا غَادَرَ الوَاعِظُ البَيْتَ، التَفَّتْ إِلَى مَارْتِي، وَبَطْرِيْقَةً

صريحة وبسيطة أمسك يديها بيديه وتمنى لها أن يكون الله قريباً جداً منها في الأشهر الآتية. فلم تستطع مارتى إلا أن تُحدّق صامتةً إلى وجهه. لحق به بن وكلارك إلى حصانه المنتظر، وقالت له السيّدة غراهام "مع السلامة" من الباب المفتوح. ثم مضى في سبيله. وإذا دارت السيّدة غراهام عائدةً إلى داخل الغرفة، توجّه الرجال نحو عارضة الرّبط وحصاني كلارك.

"سالي آن، اذهبي وأيقظي ميسي من نومتها وحضريها للذهاب. لورا، أنتِ ونلي نظّفا الطاولة واغسلا هذه الصّحون!"
تحرّكت السيّدة غراهام بنشاطٍ صاحب، ولكن مارتى كانت منتبهةً فقط إلى الحركة حولها إذ جلست مُرتخيةً ولا مُباليةً.

رجعت سالي حاملةً مخلوقةً صغيرة، مُشعثةً قليلاً، أظهرت رُغم نُعاسها ابتسامةً سعيدة. ولم تُلاحظ مارتى إلا الابتسامة والعينين الزرقاوين الغامقتين اللتين نظرتا إليها، لكونها غريبةً على تلك الصّغيرة. ففكرت بتخشب: لا بُدَّ أن هذه ميسي. وتأكد هذا لما دخل كلارك عبر الباب، فرحبت به الطفلة بصرخةٍ فرح وذراعين ممدودتين. فحملها إلى صدره، ووضع لحظةً خدّاً على خدّها. ثم شكّر مُضيفه ومُضيفته، والتفت ليُعلم مارتى بأنهما سيَمضيان في سبيلهما.

مشّت السيّدة غراهام معها إلى الخارج. لم تحصل أيّة تهنئات أو تمنيات بشأن الزّيجة الجديدة. وما حاول أحدٌ قطُّ أن يجعلها مُناسبةً

خاصّة. فزفرت مارتى تنهدة فرج حيال ذلك؛ إذ كان من شأن كلمة واحدة في غير محلها، مهما قيلت بإخلاص، أن تكسر إناؤها وتجعل دموعها تسيل، وقد كانت على يقين بذلك. ولكن لم تقل أية كلمة، حتى إن الزواج لم يذكر قط؛ فهؤلاء القوم الرواد كانوا حساسين حيال مشاعر الآخرين.

قالت إحداهما للأخرى "وداعاً" فقط كجارية تُودّع جارة، وإن كانت عينا السيّدة غراهام قد حوتاً رقة خاصّة إذ رفعت نظرها إلى مارتى في مقعد العربة وقالت ببساطة: "سأسمح لك ببضعة أيام حتى تستقرّي، ثم سأوافيك. سيكون حسناً حقاً أن تكون امرأة أخرى قريبة إليّ جداً لأزورها بين حين وآخر".

فشكرتها مارتى، وتحرك الحصانان إلى الأمام. وإذا بهما من جديد تحت رحمة الطريق المغبر والشمس الحارة.



"ها هو هناك، فوق ذلك المكان تماماً". كادت مارتى تُجفل من كلمات كلارك ديقس، ولكنها رفعت عينيها لتتبع إصبعه إلى حيث تُشير.

في ظلال الأشجار شمالاً وتلّ صغير غرباً، كان المنزل الخاص بهذا الرّجل الذي بجانبها.

كان كوخ صغير، لكن مرتّب، قائماً وحده، وأمامه بئر، وعند جانب

منه بُستان. وقد نَمَتِ بِضَعُ شُجَيْرَاتٍ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ الْخَاصِّ وَوُصُولًا إِلَى الْبَابِ، حَتَّى إِنَّ مَارْتِي اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَرَى مِنْ بَعِيدِ الْوَانِ زُهُورَ خَرِيفِيَّةٍ بَيْنَ جُذُوعِهَا.

إِلَى جَانِبِ آخِرِ كَانَتْ حَظِيرَةٌ خَشَبِيَّةٌ لِلْأَحْصِنَةِ وَالْمَاشِيَةِ، وَوَرَاءَهَا بَعِيدًا مَوْضِعٌ لِلْخَنَازِيرِ وَسَطَ تِلْكَ الشُّجَيْرَاتِ الْقَلِيلَةِ. وَكَانَ بَيْنَ الْحَظِيرَةِ وَالْبَيْتِ قُنٌّ دَجَاجٍ وَأَبْنِيَّةٌ صَغِيرَةٌ شَتَّى مُبَعَثَةٌ هُنَا وَهُنَا. وَافْتَرَضْتُ مَارْتِي أَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تَتَعَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الْبِنَاءِ، وَلَكِنَّهَا الْآنَ كَانَتْ أَكْثَرَ إِرْهَاقًا مِنْ أَنْ تَهْتَمَّ بِذَلِكَ.

تَمَتَّتْ: ”إِنَّهُ جَمِيلٌ!“ مُفَاجِئَةً نَفْسَهَا، إِذْ لَمْ تَكُنْ قَدْ قَصَدَتْ أَنْ تَقُولَ أَيَّ شَيْءٍ كَهَذَا. فَبَطْرِيقَةٍ مَا، فِي فِكْرِهَا، بَدَأَ أَشْبَهَ بِالْأَحْلَامِ الَّتِي تَشَارَكَتْ فِيهَا هِيَ وَكَلِيمٌ، وَقَدْ آذَتْهَا مَعْرِفَةُ ذَلِكَ وَجَعَلَتْهَا تَحْبِسُ نَفْسَهَا فِي بُكَاءٍ قَلِيلٍ مَكْبُوتٍ. فَلَمْ تَقُلْ أَيَّ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ شَعَرْتُ بِالْفَرَجِ لَمَّا اسْتَرَعَتْ مِسي كَامِلَ انْتِبَاهِ أَبِيهَا بِتَأْتُرِهَا الْحِمَاسِيِّ إِذْ رَأَتْ أَنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَى الْبَيْتِ.

وَلَمَّا تَوَقَّفُوا قُدَّامَ الْكُوخِ، خَرَجَ كَلْبٌ يَعْذُو لِمُلَاقَاتِهِمْ، فَلَقِي تَرْحِيبًا وَدِيًّا مِنْ كَلَارِكٍ وَمِسي كِلَيْهِمَا.

سَاعَدَ كَلَارِكُ مَارْتِي عَلَى النُّزُولِ وَتَكَلَّمَ بِرِقَّةٍ. ”أَحْسَنُ أَنْ تَدْخُلِي مِنْ تَحْتِ الشَّمْسِ وَتَسْتَلْقِي قَلِيلًا. سَتَجِدِينَ غُرْفَةَ النَّوْمِ وَرَاءَ غُرْفَةِ الْجُلُوسِ. سَأَتَوَلَّى الْإِهْتِمَامَ بِمِسي وَبِأَيِّ شَيْءٍ آخَرَ يَحْتَاجُ إِلَى إِهْتِمَامٍ. لَقَدْ فَاتَ

أوانُ العملِ في الحقلِ اليومَ على كلِّ حالٍ“.

فتح الباب وأمسكه فيما دخلت هذا البيت الصَّغير الغريب الذي سيصيرُ بيتها، ثُمَّ مضى مُصطَحِبًا مِسي.

لم تترَيَّثَ لِتَنْظَرِ حَوَالِيهَا. فما إنَّ أَحَسَّتْ أَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تَسْتَلْقِي، وَإِلَّا نَهَارَتْ، حَتَّى شَقَّتْ طَرِيقَهَا عَبْرَ الْمَطْبَخِ وَوَجَدَتْ الْبَابَ الْمُوَدِّيَّ إِلَى غُرْفَةِ النَّوْمِ وَرَاءَ غُرْفَةِ الْجُلُوسِ. بدا السَّرِيرُ مُرَحَّبًا، وَتَوَقَّفَتْ قَلِيلًا فَقَطْ لِتُرَكِّقَ قَدَمَيْهَا مِنْ حِذَائِهَا قَبْلَ أَنْ تُلْقِيَّ بِنَفْسِهَا عَلَى السَّرِيرِ. كانَ دَاخِلُ الْبَيْتِ أِبْرَدًا، وَبَدَأَ جِسْمُهَا الْمُتَعَبُ يَطْلُبُ الْإِعْتِبَارَ الْأَوَّلَ قَبْلَ ذَهْنِهَا الْمُشَوَّشِ. وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْبُكَاءُ الْمُتَقَطِّعُ، إِلَّا أَنَّ عَوَاطِفَهَا الْجَيَّاشَةَ هَمَدَتْ بِالتَّدرِيجِ كَفَايَةً بِحَيْثُ أَتَاحَتْ لَهَا أَنْ تَغِطَّ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، لَكِنْ مُضْطَّرِبٍ.

زواجٌ مصلحةٌ

استيقظت مارتي وحدّقت نحو النّافذة، فأدهشها أن ترى أنّ الغسق حلّ فعلاً. وإذ تنبّهت بغموض إلى أنّ شخصاً ما يتحرّك في المطبخ، جعلتها رائحة القهوة واللّحم المقدّد تُقرُّ بأنّها كانت جائعة. وسمعت نثرّة ميسي، فاجتاح كيانها من جديد إدراك سبب وجودها هنا. ودون المُبالاة بأيّ شيء، نهضت وزلّقت حذاءها في قدميها، وردّت شعرها إلى الوراء عن وجهها. افترضت أنّها تبدو بلا ترتيب، ولكنّ ماذا يهمّ ذلك؟ وأدهشها في الصّوء الباهت أن ترى صندوقها موضوعاً بِلِزِق الحائط إلى جانب خزانة جوارير. كان كلّ ما تملكه هناك داخل الصندوق، ولكنّ تلك الفكرة أخفقت في التأثير فيها.

فتحت الصندوق وأخرجت فُرشاتها، وسرّحت بها شعرها. ثمّ نبّشت عن شريط وربطت شعرها إلى الوراء عن وجهها، راجية أن تكون قد أجزت شيئاً من التّحسين. وملّست فُستانها المجدّد ثمّ تحرّكت صوب باب غرفة النّوم ورائحة القهوة. وإذ دخلت الغرفة نظرت كلارك إليها مُتفحّصاً، ثمّ أوما لها إلى كرسيّ عند الطّاولة.

قال: "لست طبَّاحًا ماهرًا، ولكنَّ هذا سيُشبع".

قعدتْ مارتِي، وأتى كلارك عن الموقدِ بصحنِ فطائرِ البانكيكِ وآخَرَ عليه قطعةُ لحمٍ مُقدَّد. فحطَّ ذلكَ ورَجَعَ لإحضارِ القهوةِ المُبخَّرة. وانتابها شعورٌ بالإحراجِ إذ أدركتْ أنَّه يتولَّى ما كان ينبغي أن تقومَ هيَ به. حسنًا، ستكونُ هذه آخِرَ مرَّة. فمن الآن فصاعدًا، ستحمِلُ هيَ عبأها. ثمَّ قعدَ كلارك، وإذ همَّتْ مارتِي بتناولِ شطيرةِ بانكيك، أوقفها صوتُه.

"أبانا السَّماويِّ، شكرًا لك على هذا الطَّعامِ الذي تُدبِّره بجودك. كُنْ مع ابنتِكَ هذه مُعزِّيًّا في هذه السَّاعة، وبارِكْ هذا المنزلَ واجعله بيتًا لكلِّ مَنْ يسكنُ هنا. آمين!"

جلستْ مارتِي تنظرُ بعَيْنَيْنِ واسِعَتَيْنِ إلى هذا الرَّجُلِ أمامها إذ يتكلَّم، وعيناها مُغمَضتان، إلى إلهٍ لم تره أو تعرفه، وهو ليس بِواعِظٍ أيضًا. لا شكَّ أنَّها كانت قد سمعت عن أشخاصٍ من هذا النوع، لهم إلهٌ خارجُ نطاقِ الكنيسة، ولهم ديانةٌ لا تقتصرُ على "الجنَّازِ والزَّواجِ"، ولكنَّها لم تكن قطُّ قد عاشرتْ واحدًا منهم قبلَ الآن. كما أنَّها لم ترغبِ الآنَ في ذلك، لو توقَّفت لِتُفكِّرَ في الأمر. لديه إلهٌ إذا! فأبني نفعَ كان له من ذلك؟ ما زال يحتاجُ إلى شخصٍ ما كي يُساعدَه في الاهتمامِ بمِسي، أليس كذلك؟ لم يبدُ أنَّ إلهه يقومُ بالكثيرِ بخصوصِ هذا الأمر. لا بأس، ماذا يهْمُها ذلك؟ إذا تذكَّرتْ جيِّدًا، فالرَّجالُ

الذين لَهُمْ إلهٌ يَدُو أَنَّهُمْ يَمْتَنَعُونَ عَن مَعَارَفةِ الكحولِ وَعَن ضَرْبِ نِسَائِهِمْ. فَبَقِيلِ مِنَ السَّعْدِ، رُبَّمَا لَن تُضْطَرَّ إِلَى اِحْتِمَالِ أَيِّ شَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ القَبِيلِ. وَفجَاءَةً غَمَرَتْهَا مَوْجَةٌ يَأْسٍ جَدِيدَةٍ. إِنَّهَا لَمْ تَعْرِفْ شَيْئًا عَن هَذَا الرَّجُلِ. لَعَلَّهَا يَنْبَغِي أَنْ تُسَرَّ بِكَوْنِهِ مُتَدِينًا، عَلَى الأَقْلِّ؛ فَرُبَّمَا جَنَّبَهَا ذَلِكَ مَقْدَارًا هَائِلًا مِنَ البَلَاءِ.

”أَلَسْتَ جَائِعَةٌ؟“

جَعَلَهَا كَلَامُهُ تُجْفِلُ، وَأَدْرَكَتْ أَنَّهَا لَا تَزَالُ جَالِسَةً هُنَاكَ تَارِكَةً أَفْكَارَهَا تَسْرَحُ.

قَالَتْ مُتَلَعِثِمَةٌ: ”بَلَى، بَلَى!“ وَتَنَاوَلَتْ شَطِيرَةَ البَانِكِيكِ الَّتِي كَانَ يُنَاوِلُهَا إِيَّاهَا.

أَكَلَتْ مِسي الصَّغِيرَةَ بِشَهِيَّةٍ حَمَاسِيَّةٍ مُفَاجِئَةٍ مِّنْ صَغِيرَةٍ ضئِيلَةٍ نَظِيرِهَا، وَتَرْتَرَتْ مُخَاطِبَةً أَبَاهَا فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ. وَخُيِّلَ إِلَى مَارْتِي أَنَّهَا فَهِمَتْ كَلِمَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ هُنَا وَهُنَاكَ، إِلَّا أَنَّهَا بِالحَقِيقَةِ لَمْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تُوجِّهَ تَفْكِيرَهَا لِفَهْمِ مَا كَانَتِ الطِّفْلَةُ تَقُولُهُ.

بَعْدَ الطَّعَامِ، سَمِعَتْ نَفْسَهَا تَتَطَوَّعُ لَغَسْلِ الصُّحُونِ، فَرَحَّبَ كَلَارِكُ بِذَلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ هَكَذَا سِيهَتُهُمْ بِتَنْوِيمِ مِسي. وَبَعْدَمَا دَلَّ مَارْتِي عَلَى مَوَاضِعِ الأَشْيَاءِ، حَمَلَ مِسي وَبَاشَرَ غَسْلَهَا وَإِعْدَادَهَا لِلنَّوْمِ.

شَرَعَتْ مَارْتِي فِي غَسْلِ الصُّحُونِ. وَإِذْ فَتَحَتْ خَزَائِنَ امْرَأَةٍ أُخْرَى وَجَوَارِيرِهَا، سَاوَرَهَا شَعُورٌ إِضَافِيٌّ بِالقَلْقِ. وَعَلِمَتْ أَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تُرْغِمَ

نفسها على تخطي ذلك؛ لأنه كان عليها أن تتصرف في هذا كله كما لو كان ملكها. غير أنها لم تستطع أن تكبح القشعريرة الخفيفة التي دبَّت في أوصالها.

لما رجعت من إفراغ ماء غسل الصُّحون على شجيرة الورد خارج الباب، كان كلارك يجرُّ كرسيًا إلى طاولة المطبخ.

قال بهدوء: "لقد نامت فعلاً".

وضعت مارتى طست غسل الصُّحون على وتده، وعلقت المنشفة على الرف لتجف. ثم تساءلت مدعورة: ماذا الآن؟ ولكنه تولى هو الاهتمام بذلك عوضاً عنها.

"الجوارير في الخزانة كلها فارغة. لقد نقلت أشياءي إلى السقيفة المائلة السطح. في وسعك أن تُفرغي أمتعتك وتجعلي نفسك أكثر راحة. اشعري بالراحة في استعمال أي شيء في المنزل. وإن كان هناك أي شيء تحتاجين إليه، فاكتبي لائحة. أنا أذهب إلى المدينة كل سبت تقريباً لإحضار المؤن، ويمكنني أن أجلب ذلك حينئذ. وعندما تشعرين بأنك مطمئنة أكثر، فقد تُريدين أن تُرافقيني وتختاري ما تشائين بنفسك". وتوقفت لحظات ثم حدقت إلى وجهها.

وقال بصوت منخفض: "أعتقد أنه أحسن لك أن تنامي قليلاً. لقد كان يوماً شاقاً. أعلم أن الأمر سيستغرق بعض الوقت قبل أن يكف عن الإيلام كثيراً، حتى تشعرين بأنك في بيتك هنا. سنحاول ألا

نستعجلكِ“.

ثُمَّ اقْتَضَتْ حَمَلَتُهُ أَنْ تُصْغِيَ وَتَفْهَم. ”لقد تزوّجتك فقط لِآتِي لِمِسي بِماما. وسأكونُ شاكراً جداً إذا سَمَحْتَ لها بأنْ تَدْعوكِ هكذا“.

كان ذلك توجيهاً لها، وقد استطاعت أن تُحسِّه هكذا. ولكنَّ عينيها رمقتا عينيهِ بثبات. ومع أنّها لم تقلْ أيَّ شيء، فقد تحدّثتُه كبرياًؤها. حسناً، لقد عرّفت مكانتها. إنّهُ قدّم إليها مأوى ومأكلاً، وعليها بالمُقابل أن تعتني بطفلته. لن تطلبْ صدقة. ستكسبُ رزقها بنفسها، حيث ستكونُ ماما لِمِسي. ثُمَّ دارت بلا كلمة وشقت طريقها إلى غرفة النوم، حيث أغلقت الباب وراءها ووقفت لِحِيظَاتِ مُسِنِدَةٍ ظهرها إليه. ولَمَّا شعرت بأنها أكثرُ تَماسُكاً، عبرت بهدوء لتلقّي نظرةً على الطّفلة النائمة. وقد أصدرَ المِصباحُ بريقاً رقيقاً، جاعلاً الشّكلَ الضّئيلَ في المهد يبدو أصغرَ بعد.

همست مارتِي: ”حسناً، مِسي. لنعقدِ اتّفاقاً بيننا. كوني صغيرةً صالحّة، وسأبدلُ قُصاري جَهدي لأكونَ حاضنةً لك“.

بدتِ الطّفلةُ ضئيلةً وعاجزةً جداً هناك، وأدركت مارتِي أنّه كان هُنالك شخصٌ لا يكادُ يعدو كونه طِفلةً قد آذتها الحياةُ أصلاً. أيّ شيءٍ فعلت هذه الصّغيرةُ يستحقُّ أن تؤخّذَ منها الأمُّ التي أحبّتها؟ وتحركَ طفلُ مارتِي قليلاً في أحشائها، فوضعت يداً على البُقعة التي

كانت آخذةً في الانتفاخ بِبطءٍ بحيثُ يَعْلَمُ العالَمُ أَنَّها ستكونُ أمًّا. ماذا لو كان صغيري متروكًا دون عنايةٍ؟ هذه الفكرة جعلت ما يُشبهه الرُعبَ يستولي عليها. ونظرتُ ثانيةً إلى الطِّفلةِ النَّائمةِ، والعقائصُ البنيةُ تَوَطَّرُ وجهَها الشَّقِيَّ، فتحرَّكَ شيءٌ ما داخلَ قلبِها. لم يكن ما شعرت به هو المحبَّةُ، ولكنْ كانت تلك خطوةً صغيرةً في ذلك الاتجاه.



استيقظتُ مارتي في الصِّباحِ التَّاليِ حالِما سَمِعَت سَقَّاطَةَ البَابِ الخارجيِّ تُرْدُ بَرَقَةً. لا بُدَّ أَنْ كلارك دخلَ المطبخَ قبلَ ذهابِهِ إلى الحَظيرةِ. فارتدت ثيابها بهدوءٍ حتَّى لا تُزَعَجَ مِسي وغادرتِ العُرفةَ، عاقِدةً العزمَ على الوفاءِ بدَوْرِها في زواجِ ”المصلحة“ الذي باتَ نصيبِها الآن. فهكذا صارَ لها سَقْفٌ فوق رأسِها، وستكسبُه فعلاً. لن تكونَ مديونةً لأَيِّ رَجُلٍ، لا سيِّما لهذا الفَرْدِ النَّائي المُتَحَفِّظِ الذي باتتِ الآن تُشاركُهُ في اسمه. لقد رفضتُ، حتَّى في أفكارها، أن تعترفَ به بوصفها زَوْجِها. وبالحدِيثِ بشأنِ الأسماءِ، نَبَّهتُ نَفْسَها إلى أَنَّهُ لن يكونَ سهلاً أن تتذكَّرَ أَنَّها لم تُعدْ مارثا كلارِدْج بل صارت مارثا ديفيس أيضاً.

”آه، لا!“ ثمَّ توقَّفتُ ووضعتُ يديها على وجهها، وهمستُ مُعْبِرةً عنِ اشمئزازِها الشَّدِيدِ: ”آه، لا، رجاءً! أريدُ أن يحمِلَ طِفلي اسمَ كليم!“

ولكنْ حتَّى وهي تُقاومُ ذلك، والدُّموعُ الحارَّةُ تنسابُ من بينِ

أصابعها، عَلِمَتْ أَيضًا أَنَّهَا سَتَكُونُ الطَّرْفَ الخَاسِرَ هُنَا؛ فَفَقَدَ كَانَتْ بِالْحَقِيقَةِ مُتَزَوِّجَةً بِهَذَا الرَّجُلِ، مَهْمَا كَانَتِ الفِكرَةُ غَيْرَ مُرَحَّبٍ بِهَا. ثُمَّ إِنَّ الطِّفْلَ الَّذِي سَيُولَدُ بَعْدَ الزَّوْجِ سَيَكُونُ لِهَذَا الرَّجُلِ مِنْ حَيْثُ الأَسْمُ، مَعَ أَنَّ كَلِيمَ كَانَ الوَالِدَ الفِعْلِيِّ. فَأَحْسَتُ سَببًا جَدِيدًا لِتَشْمُرِّزٍ مِنْ كَلَارِكِ.

وَصَرَخَتْ بِجِدَّةٍ: ”حَسَنًا، عَلَى كُلِّ حَالٍ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُسَمِّيَ طِفْلِي كَلَارِدْجِ، إِذَا أَرَدْتُ ذَلِكَ. إِنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَأْخُذَ ذَلِكَ مِنِّي.“
ثُمَّ مَسَحَتْ دُمُوعَهَا بِكُمِّهَا، وَرَفَعَتْ ذَقْنَهَا بِعِنَادٍ، وَتَحَرَّكَتْ إِلَى دَاخِلِ المَطْبِخِ.

كَانَتِ النَّارُ مُشْتَعِلَةً فِعْلًا فِي مَوْقِدِ الطَّبْخِ الكَبِيرِ الأَسْوَدِ. لَا بُدَّ أَنْ ذَلِكَ هُوَ مَا دَخَلَ لِأَجَلِهِ، وَقَدْ سُرَّتْ مَارْتِي لِأَنَّهَا لَنْ تُضْطَرَّ إِلَى مُصَارَعَةِ هَذَا الأَمْرِ فَوْقَ مُهَمَّتِهَا الَّتِي لَا تُدَلَّلُ فِي مُجَرَّدِ الأَسْتِمْرَارِ. فَفَتَحَتْ أَبْوَابَ الخِزَانَةِ وَفَتَّشَتْ بَيْنَ العُلبِ المَسدُودَةِ بِأَحْكَامٍ حَتَّى وَجَدَتِ القَهْوَةَ. وَتَذَكَّرَتْ بِعِرْفَانِ أَنَّهَا تَعْرِفُ أَيْنَ كَانَتِ رَكْوَةُ القَهْوَةِ. أَمَا غَسَلَتْهَا بِنَفْسِهَا وَوَضَعَتْهَا فِي مَكَانِهَا؟ وَكَانَ هُنَاكَ مَاءٌ عَذْبٌ فِي دَلْوٍ عَلَى طَاوِلَةٍ مُنخَفِضَةٍ بِقُرْبِ البَابِ، فَوَضَعَتِ القَهْوَةَ عَلَى النَّارِ فِي الحَالِ.

وَتَمَتَّتْ لِنَفْسِهَا: ”حَسَنًا، هَذِهِ هِيَ الخِطْوَةُ الأُولَى. فَمَاذَا الآنَ؟“
نَبَّشَتْ قَلِيلًا بَعْدَ وَعَادَتِ بِمُكُونَاتٍ كَافِيَةٍ لِصُنْعِ عَجْنَةٍ مِنْ فِطَائِرِ الپَانِكِيكِ. عَلَى الأَقْلِ، فِي وَسْعِهَا أَنْ تَعْمَلَ ذَلِكَ. إِذْ كَانَتْ هِيَ وَكَلِيمِ

قد اقتاتا بفطائر الپانكيك تقريبًا، وسبب ذلك أنه ما كان هناك أطباقٍ أُخرى تُعدّها سوى تلك الفطائر. لقد أدركت أنّها لن تجدَ تحضيرَ وجباتٍ مُميّزةٍ مُهمّةٍ هيّنة؛ فخبزتها في الطهي كانت محدودة جدًا، لكنّها ستتعلم. لقد كانت قادرةً على التعلّم، أليس كذلك؟ سيكونُ عليها أوّلاً أن تكتشفَ أين خُزنتِ الموادُّ في هذا المطبخ الملعون. نادرًا ما استعملتِ مارتي كلماتٍ يُمكن أن تُصنّفَ تدنيسيّةً، رُغمَ أنّها سمعتَ كثيرًا من ذلك في صباها. وبقينا أنّها شعرتَ بميلٍ إلى إطلاقِ وابلٍ من تلك الكلمات الآن. إلّا أنّها اختارتَ بالأحرى واحدًا من تعابيرِ أيّها الأقلُّ إهانةً... تقريبًا التعبيرَ الوحيدَ الذي سُمِحَ لها يومًا باستعماله.

فانفجرتِ قائلةً أيضًا: ”وَضِعْ ملعون! ماذا يفعلُ الإنسانُ يا تُرى؟“
كانت على يقين بأنّ من شأنِ كلارك أن يتوقّع أكثرَ من مُجرّدِ فطائر الپانكيك والقهوة، ولكنّ ماذا؟ ومن أين تأتي بذلك؟
بدا أنّ لا نهايةَ للعلبِ والصناديقِ في الخزائن، ولكنّها كانت كلّها مملوءةً بموادِّ أساسيّةٍ أُخرى، ليس بينها أيُّ شيءٍ ينفَعُ لإعدادِ فطور.
دجاج! لقد رأَت دجاجًا. وحيثُ يوجدُ دجاج، ينبغي أن يوجدَ بيض. فانطلقتِ خارجًا لتُفتّشَ على بعضِ البيض، عبْرَ بابِ المطبخ، فعبرَ السَّقيفةَ التي كانتِ المدخلَ الموصولَ بالمطبخ، ثمّ لمحتَ عيناها أداةً غريبةَ الشكلِ عندَ طرفِ السَّقيفة، وقد بدتَ كتشكيكة

بَكَرَاتٍ مِنْ نَوْعٍ مَا. وَإِذْ تَتَّبَعْتَ الْحَبْلَ نَزُولًا إِلَى الْأَرْضِ، لَاحِظْتَ شَقًّا مُرَبَّعًا فِي الْأَوْحِ الْأَرْضِيَّةِ، وَقَدْ كَانَتْ مَسْكَةٌ مُوصُولَةً بِأَحَدِ أَطْرَافِ الشَّقِّ. فَتَقَدَّمَتْ بِحَذَرٍ، مُتَسَائِلَةً لَعَلَّهَا تَتَعَدَّى إِلَى حَيْثُ لَا دَخَلَ لَهَا. وَبِطُءٍ رَفَعْتَ الْبَابَ الْمَسْحُورَ بِالْمَسْكَةِ. أَوَّلَ الْأَمْرِ، لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَرَى شَيْئًا؛ ثُمَّ لَمَّا رَاحَتْ عَيْنَاهَا تَعْتَادَانِ الظَّلَامَ أَكْثَرَ، تَبَيَّنَتْ مَا بَدَأَ أَنَّهُ غِطَاءُ صُنْدُوقٍ خَشْبِيٍّ كَبِيرٍ. يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ هُوَ مَا وُضِعَ الْحَبْلُ وَالْبَكْرَةُ لِأَجْلِهِ. فَمَدَّتْ يَدَهَا وَبَدَأَتْ تَشُدُّ الْحَبْلَ، مُلَاحِظَةً أَنَّ الصُّنْدُوقَ بَدَأَ مُتَحَرِّكًا صُعُودًا. وَاسْتَلْزَمَ ذَلِكَ قُوَّةً أَكْثَرَ مِمَّا خَمَّنتَ، إِلَّا أَنَّهَا وَجَدَتْ أَنَّهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَوَلَّى الْأَمْرَ جَيِّدًا إِلَى حَدِّ كَافٍ.

عَلَى مَهَلٍ بَرَزَ الصُّنْدُوقُ لِلْعِيَانِ. وَكَانَ فِي وَسْعِهَا أَنْ تُحَسَّ الْبُرُودَةُ الْمُرَافِقَةُ لَهُ. أَخِيرًا انْكَشَفَ الصُّنْدُوقُ تَمَامًا، فَزَلَّقتْ أُنشُوطَةَ الْحَبْلِ عَلَى عَقِيفَةٍ بَدَتْ هُنَاكَ لِهَذَا الْغَرَضِ. كَانَ مُقَدَّمُ الصُّنْدُوقِ مُزَوَّدًا بِبَابٍ، مُكَوَّنٍ فِي مُعْظَمِهِ مِنْ شَبَكٍ، وَتَيَسَّرَ لَهَا أَنْ تَرَى فِي الدَّخْلِ مَوَادَّ غِذَائِيَّةً شَتَّى. فَفَتَحَتْ الْبَابَ، وَشَهَقَتْ حِيَالَ وَفَرَةِ الْأَشْيَاءِ الْجَيِّدَةِ. إِذْ كَانَ بَيْضٌ فِي سَلَّةٍ؛ وَقُدُورٌ مِنَ الْقَشْدَةِ وَالْحَلِيبِ وَالزُّبْدَةِ، وَجَمِيعُهَا طَازِجَةٌ؛ وَقَدِيدٌ مِنْ لَحْمِ الْفَخْدِ وَالرَّقَبَةِ. وَعَلَى الرَّفِّ التَّالِيِ كَانَتْ بَعْضُ الْخُضْرِ الطَّازِجَةِ، وَجِرَارٌ صِغَارٌ تَحْوِي مَحْفُوظَاتٍ وَمُخَلَّلَاتٍ وَعَسَلًا طَازِجًا دُونَ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ، كَمَا قَرَّرْتَ بَعْدَ شَمَّةٍ سَرِيعَةٍ، عَسَلًا بَرِيًّا عَلَى الْأَرْجَحِ. يَا لَهُ مِنْ رَائِعٍ مَا وَجَدْتَهُ! لَنْ تُوَاجِهَ آيَةً مُشْكِلةً مِنْ جِهَةِ الْفَطُورِ الْآنَ. فَأَخْرَجْتَ قَدِيدَ الرَّقَبَةِ وَبَعْضَ الْبَيْضِ، ثُمَّ اخْتَارْتَ بَعْضَ الْمُرَبِيِّ. وَإِذْ

هَمَّتْ بِإِنزَالِ الصُّنْدُوقِ إِلَى مَوْضِعِهِ، تَذَكَّرَتْ مِسي. يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
لِلطِّفْلِ حَلِيبٌ تَشْرِبُهُ مَا دَامَ وَفِيْرًا، وَلَعَلَّ كِلَارِكُ يَحِبُّ الْقِشْدَةَ مَعَ
قَهْوَتِهِ. لَمْ تَعْلَمْ. فِي الْوَاقِعِ، هِيَ لَمْ تَعْلَمْ الْكَثِيرَ بَعْدُ عَنِ الرَّجُلِ.

أَنْزَلَتْ الصُّنْدُوقَ بِحَذَرٍ إِلَى حَيْثُ كَانَ، وَرَدَّتِ الْبَابَ الْمَسْحُورَ إِلَى
مَوْضِعِهِ. وَإِذْ جَمَعَتْ لُقَاهَا، رَجَعَتْ إِلَى الْمَطْبِخِ شَاعِرَةً شَعُورًا أَحْسَنَ
بِكَثِيرٍ بِشَأْنِ فُرْصَةٍ وَضَعِيهَا فَطُورًا عَلَى الطَّائِلَةِ.

كَانَتْ الْقَهْوَةُ قَدْ أَخَذَتْ فِي الْغَلْيَانِ، فَذَكَّرَتْهَا رَائِحَتُهَا الطَّيِّبَةَ كَمْ
كَانَتْ جَائِعَةً. ثُمَّ أَخْرَجَتْ الصُّحُونِ مِنَ الْخِزَانَةِ وَرَتَّبَتِ الْمَائِدَةَ. لَقَدْ
أَرَادَتْ أَنْ يَكُونَ الطَّعَامُ سَاخِنًا عِنْدَمَا يَرْجِعُ كِلَارِكُ مِنْ مَهَامِّهِ، وَلَمْ تَعْلَمْ
كَمْ مِنَ الْوَقْتِ تَسْتَعْرِقُ أَعْمَالُهُ الصَّبَاحِيَّةَ الْمُعْتَادَةَ.

لِقَاءُ صِبَايِ

كانت مارتى قد عادت تَوًّا لِخَلِطِ فطائرِ الپانكك لَمَّا سَمِعَتْ مِسي تتحرَّكُ بِنشاط. الأفضَلُ أن تُنهَضَها وتلبسَها أوَّلًا، كما قرَّرت. فتركتُ مكوَّناتها ومِعجَنها على الطَّاولَة. وما إن ظهَّرت عندَ بابِ غُرفةِ النَّومِ، حتَّى تلاشتِ ابتسامَةُ مِسي المُشرقةُ فوقَ درابزينِ سريِّها، ثُمَّ نظَّرتُ إلى مارتى باندهاش، إن لم يَكُنْ بخوف.

قالَت مارتى: ”صباح الخير، يا مِسي“، ثُمَّ شالَتِ الطِّفلةَ من المهد لتضعَها على السَّريرِ الكبير.

وسألَتِ الطِّفلةَ: ”الآن، أين ثيابُكِ يا تُرى؟“ دونَ أن تتوقَّع جوابًا بالفعل.

لم تكُنِ الثَّيابُ في خزانةِ الجَواريرِ الكبيرة؛ لأنَّ مارتى كانت قد فتحت جميعَ الجَواريرِ فعلاً لَمَّا أفرغتُ أشياءها الخاصَّةَ البارحة. فنظَّرتُ في أنحاءِ الغُرفةِ ورأتُ صُندوقًا صغيرًا تحت نافذةِ الغُرفةِ الوحيدة. وأصابَتُ إذ كانَ يَخصُّ مِسي، فانتقتُ مارتى ثيابًا رأتُ أنَّها

مُناسبةً لذلك اليوم. وقد كان عند مِسي فعلاً بعضُ الفساتينِ الصَّغيرةِ الجميلةِ. فلا بُدَّ أنَّ أمَّها كانت خيَّاطَةً ماهرةً.

عادت مارتي إلى الصَّغيرةِ الضَّئيلةِ التي كانت تُراقبُ كلَّ حركةٍ بعينين واسعتين. فوضعتِ الثَّيابَ على السَّريرِ ومدَّت يديها نحو مِسي. ولكن لما أدركتِ الطِّفلةَ أنَّ هذه الغَريبةَ تُوشِكُ أن تُلبِسَها، تشبَّثت بحِذائها بِضراوةٍ وبدأت تَرعقُ.

كانت مارتي على يقين بأنَّ زعقاتِ الصَّغيرةِ ما كانت لتُخيفَ شَبَحًا!

وقالت مارتي مُوبِّخةً: ”الآن، مِسي، كُفي عن هذا!“ لكنَّ البنتِ الصَّغيرةَ كانتِ الآن تُولولُ إمَّا غيظًا وإمَّا خوفًا، ومارتي لم تدرِ أيُّهما. بَكَت بُكاءً سريعًا مُتقطِّعًا، قائلةً: ”أريدُ بابا“.

وسلَّمت مارتي بالهزيمة.

ثمَّ شالتِ الطِّفلةَ قائلةً: ”اسكُتي الآن، اسكُتي“. وإذ ضمَّتِ الثَّيابَ إلى الجِسمِ الصَّغيرِ المُتلوِّي، حملتِ الطِّفلةَ إلى المطبخِ، حيثُ وضعتها مع الثَّيابِ في زاوية. فشَدَّت مِسي ثيابَها إليها بتملُّكٍ، وهي ما تزال تَشبِّحُ بِصوتٍ عالٍ. ثمَّ دارت مارتي راجعةً إلى فطائرِ البانكيك، تمامًا لما بَقِبتِ القهوةُ وفارت. فأمسكتِ الرِّكوةَ بِدُعرٍ، ودفعَتها بعيدًا إلى مؤخَّرِ الموقِدِ. لقد أدركتِ الآن أنَّها وضعتُ كثيرًا من الحَطَبِ، إذ كان الموقِدُ يتوهَّجُ فعلاً من الحرارة. وفتَّشت حوالَيْها

على شيءٍ تُنظَّفُ به ما فَسَدَ، ولمَّا لم تجدِ أيَّ شيءٍ مُناسِبٍ، ذهبتَ إلى غُرفةِ النَّومِ، حيثُ سحبتَ ثوبًا باليًا من جارورها. لم يكن ذلك الشيءُ أكثرَ من خُرقةٍ على كلِّ حالٍ، كما قرَّرتِ، وعادتُ مباشرةً إلى المطبخِ لإتمامِ العملِ. واصلتِ مِسي ولولتها، وعادَ كلارك ليُرى هذا المشهدَ. أجالَ نظرهُ بينَ مارتِي الشَّديدةِ الاضطرابِ من جهةٍ، وقد أضافتِ الآنَ إصبعًا محروقةً إلى باقي خيَّاتها، ومِسي في الزَّاويةِ من جهةٍ أُخرى، وهي ما تزالُ مُتَشَبِّهَةً بثيابها بِغَيْظٍ هائجٍ.

دارتِ مارتِي عن الموقدِ. لقد فعلتِ أفضلَ ما تستطيعه حتى الآنَ. فطرحتِ الثَّوبَ المُبلَّلَ المُلطَّخَ في الزَّاويةِ وأومات نحو مِسي. وإذ حاولتِ إبقاءَ صَوْتِها هادئًا، قالتِ له: ”لم تقبلُ أن ألبسها. لقد اكتفتِ بالؤلولةِ طالبةً إِيَّاكَ“.

لم تكنِ مارتِي مُتيقِّنةً كيف سيرُدُّ كلارك، إنَّما بالتأكيدِ ليس كما رَدَّ.

إذ قال بهدوءٍ جعلَ عيني مارتِي تطرفان: ”أخشى أن تكونِ ذاكرةُ الطفلِ قصيرةَ المدى جدًّا. لقد نسيَتِ فعلاً ما يعنيه أن تملكِ ماما“.

ثمَّ تحركَ نحو الخزانةِ، ولاحظتِ مارتِي أنَّه لم يلتفتِ قطُّ صوبَ مِسي، لئلا يُشجِّعها ذلك على انفجارِ دُموعٍ جديدٍ.

”سيكونُ عليها حقًّا أن تتعلَّمِ أنَّكِ الآنَ أمُّها وأنَّكِ القيِّمةُ عليها. يُمكنكِ أن تُرجعيها إلى غُرفةِ النَّومِ وتلبِسيها، وأنا سأتولَّى الأمورَ هنا“.

ثُمَّ مَشَى فِي الْمَطْبَخِ، غَيْرِ الْمُرْتَبِ قَلِيلًا، وَدَارَ حَوْلَ الْفَطُورِ الْمُحَضَّرِ جُزْئِيًّا. وَبَعْدَئِذٍ فَتَحَ نَافِذَةً لِيَدَعَ الْحَرَارَةَ الْمُنْبَعِثَةَ مِنَ الْمَوْقِدِ الْهَادِرِ تَخْرُجَ، وَلَمْ يَنْظُرْ ثَانِيَةً لَا إِلَى مَارْتِي وَلَا إِلَى مِيسِي.

شَهَقَتْ مَارْتِي نَفْسًا عَمِيقًا، وَانْحَنَتْ لِتَشْيِيلِ مِيسِي، فَزَدَتْ هَذِهِ فِي الْحَالِ بَزَعَاتٍ حَادَّةً عَلَى غِرَارِ حَيَوَانٍ جَرِيحٍ، رَافِئَةً وَمُتَحَرِّكَةً بِشِدَّةٍ إِذْ حُمِلَتْ بَعِيدًا.

قَالَتْ مَارْتِي مِنْ بَيْنِ أَسْنَانٍ مُطْبَقَةٍ بِأَحْكَامٍ: ”انْتَبِهِي الْآنَ! هَلْ تَتَذَكَّرِينَ اتَّفَاقَنَا؟ قُلْتُ لَكَ: إِذَا أَحْسَنْتِ التَّصَرُّفَ أَكُونُ أَمَّاكَ، وَلَيْسَ هَذَا تَصَرُّفًا حَسَنًا“. إِلَّا أَنَّ مِيسِي لَمْ تَكُنْ مُصْغِيَةً.

وَضَعَتْ مَارْتِي مِيسِي عَلَى السَّرِيرِ، وَصُدِمَتْ إِذْ سَمِعَتْهَا تَقُولُ بِوُضُوحٍ وَحَزْمٍ بَيْنَ نَشْجَاتِهَا الْمَصْحُوبَةِ بِالْحَازِرَةِ: ”أَنَا... أُرِيدُ... مَامَا“.

إِذَا، هِيَ تَتَذَكَّرُ فَعَلًا! وَبَدَأَ غَضَبُ مَارْتِي الْبَارِدُ يَتَلَاشَى عَلَى مَهْلِ. لَعَلَّ مِيسِي تَشْعُرُ مِثْلَ شُعُورِ مَارْتِي حِيَالَ كَلَارِكِ، بِالْغَضَبِ وَالْإِحْبَاطِ؛ فَهِيَ فِي الْوَاقِعِ لَمْ تَلَمْ الصَّغِيرَةَ عَلَى الْبُكَاءِ وَالرَّفْئِيسِ. وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ قَدْ عَلَّمَتْهَا فَعَلًا كَمَا سَيَكُونَانِ عَدِيمِي الْمَعْنَى وَالْجَدُوى، لِأَغْرِيَتِ بَأْنَ تُجَرَّبُهُمَا هِيَ نَفْسُهَا.

وَفَكَّرَتْ: آه مِيسِي! أَنَا أَعْرِفُ كَيْفَ تَشْعُرِينَ. سَيَكُونُ عَلَيْنَا أَنْ نَصِيرَ صَدِيقَتَيْنِ، عَلَى مَهْلِ، لَكِنْ أَوَّلًا... ثُمَّ أَجْفَلَتْ: أَوَّلًا، عَلَيَّ بِطَرِيقَةٍ مَا أَنْ أَلْبَسَكَ ثِيَابَكَ.

رَبَّتِ الثِّيَابَ حَسَبَ التَّرْتِيبِ الَّذِي سَتَحْتَاجُ إِلَيْهَا بِهِ؛ فَلَنْ تَتَوَافَرَ أَيُّ

يَدِين لِفِرْزِهَا فِي أَثْنَاءِ صِرَاعِهَا مَعَ مِيسِي، كَمَا عَلِمَتْ. ثُمَّ قَعَدَتْ
وَوَضَعَتْ الطِّفْلَةَ الْمُقَاوِمَةَ عَلَى رُكْبَتَيْهَا. وَكَانَتْ مِيسِي مَا تَزَالُ فِي نَوْبَتِهِ،
وَلَمْ تَكُنْ نَوْبَةً هَلَعِ الْآنَ؛ إِذْ كَانَ فِي وَسْعِ مَارْتِي أَنْ تُحَسَّ أَنَّ ذَلِكَ
كَانَ اسْتِشَاطَةً غَضَبٍ فَقَطٍ مِنْ قِبَلِ الطِّفْلَةِ.
”وَالْآنَ، مِيسِي، كُفِّي عَنْ هَذَا“.

طَعَى صَوْتُ الطِّفْلَةِ عَلَى صَوْتِ مَارْتِي. ثُمَّ صَفَعَتْ يَدُ مَارْتِي بِقُوَّةٍ،
مَرَّتَيْنِ، الْمَقْعَدَةَ الْمُتَلَوِّيَّةَ. لَعَلَّهَا كَانَتْ مُجَرَّدَ الصَّدْمَةِ حِيَالَ ذَلِكَ، أَوْ
لَعَلَّ الطِّفْلَةَ تَنَبَّهَتْ كِفَايَةً لِتُدْرِكَ أَنَّ السَّيْطِرَةَ عَلَيْهَا قَدْ تَمَّتْ. فَعَلَى آيَةٍ
حَالٍ، بَدَتْ عَيْنَاهَا وَاسْعَتَيْنِ مِنَ الدَّهْشَةِ، وَتَوَقَّفَ الصُّرَاخُ وَالتَّلَوِّي.
ظَلَّتْ مِيسِي تَنْشِجُ بِأَنْفَاسٍ لَا تَخْلُو مِنَ الصُّجِيجِ وَالْغَصَّةِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ
تُقَاوِمِ ثَانِيَةً فِيمَا أَلْبَسَتْهَا مَارْتِي.

لَمَّا انْتَهَتْ الْمَعْرَكَةُ، كَانَتْ الطِّفْلَةُ لَابِسَةً، وَشَعَرَتْ مَارْتِي بِأَنَّهَا مُرْهَقَةٌ
وَمُشَعَّثَةٌ. وَنَظَرَتْ كِلْتَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى بِحَذَرٍ.

هَمَسَتْ مَارْتِي: ”يَا لِكِ مِنْ مَخْلُوقَةٍ ضَائِلَةٍ مَسْكِينَةٍ!“ ثُمَّ جَذَبَتْ
الطِّفْلَةَ إِلَى حِضْنِهَا. وَفَاجَأَ مَارْتِي أَنَّ مِيسِي لَمْ يُقَاوِمِ بَلْ كَنَكَنْتَ بَيْنَ
ذِرَاعَيْهَا، سَامِحَةً لِنَفْسِهَا بِأَنْ تُحْمَلَ وَتُحَبَّبَ فِيمَا تَرَجَّحَتْ بِرَفْقٍ إِلَى الْوَرَاءِ
وَالْأَمَامِ. لَمْ تَدْرِ مَارْتِي كَمْ جَلَسَتْ هَكَذَا، وَلَكِنَّهَا أُدْرِكَتْ بِالتَّدرِجِ أَنَّ
الطِّفْلَةَ لَمْ تَعُدْ تَنْشِجُ. وَإِذْ تَبَيَّنَتْ رَائِحَةَ الْقَدِيدِ الْمَقْلِيِّ مُنْبَعَثَةً مِنْ
الْمَطْبَخِ، تَنَاوَلَتْ مُشْطَهَا، وَسَرَّحَتْ أَوَّلًا شَعْرَهَا الْأَشْعَثَ، ثُمَّ الْجَدَائِلَ

البنيّة للطفلة. بعد ذلك حملتُ مِسي ورجعتُ إلى المطبخ، حيثُ غَمَسْتُ خِرْقَةً في الماء البارد لتغسِلَ دموعَ الصَّغيرة، وأيضًا لتُبَرِّدَ وجهها هي. لم يرفع كلارك نظره. وفيما أجلسُ مارتِي مِسي إلى الطاولة، فُكِّرْتُ مُكتئبةً: ها هو هناك، يقومُ مُجددًا بما ينبغي أن أقومَ أنا به! باتتُ فطائرُ البانكيك جاهزةً، والبيضُ مقلّياً، والقديدُ يَطِشُّ عندما يرفعه من المقلاة. وبخَرَتِ القهوهُ في فنجانَيْهما، فيما وُضِعَ كُوزُ حليبٍ صغيرٌ قُدَّامَ مِسي. فلم يبقَ أيُّ شيءٍ تَعْمَلُهُ سِوى أن تقعد. ثُمَّ أَحْضَرَ القديدَ وجلسَ مُقابلها.

لن تؤخِّدَ على حينِ غِرَّةِ هذه المرَّة؛ فقد تذكَّرتُ أنه صلَّى قبلما أكل، وهكذا حنَّتْ رأسها وجلستُ بهدوءٍ مُنتظرةً. إنَّما لم يحدثَ أيُّ شيءٍ. ثُمَّ سَمِعْتُ حَفيفًا خفيفًا، كصوتِ صفحاتٍ تُقَلَّب. فاختلستُ نظرةً خاطفةً ورأتُ كلارك، حاملاً الكتابَ المقدَّسَ بيده، يُقَلِّبُ الأوراقَ ليجِدَ الموضعَ الذي أرادَه. واستطاعتُ أن تُحسَّ التورْدُ حاصلًا ببطءٍ في خديها، إلا أنَّ كلارك لم يرفع نظره.

قال: ”سنقرأ اليومَ المزمورَ المئةَ والحادي والعشرين“، وراح يقرأ.

”أرفعُ عينيَّ إلى الجبال، من حيثُ يأتي عوني“.

تمنَّتُ مارتِي جدًّا أن يأتي عونها من الجبال. وبالْحَقِيقَةُ أَنَّها ستلقاهُ من أيَّةِ جهةٍ أتى. ثُمَّ استرجعتُ ذهنها لتتابعَ قراءةَ كلارك.

”الرَّبُّ حافظُك: الرَّبُّ ظلُّك لك عن يدِكَ اليمنى... الرَّبُّ يحفظُك

من كُلِّ شَرٍّ: يحفظ نفسك. الرَّبُّ يحفظ خروجك ودخولك من الآن وإلى الدهر“.

وبرفق وَضَعَ الْكِتَابَ جَانِبًا عَلَى رَفٍّ صَغِيرٍ بِقُرْبِ الطَّاوِلَةِ، ثُمَّ لَمَّا حَنِى رَأْسَهُ وَصَلَّى أُخِذَتْ مَارْتِي عَلَى حِينِ غِرَّةٍ مَرَّةً ثَانِيَةً. فَقَالَتْ فِي سِرِّهَا غَاظِبَةً وَمُشْمِزَّةً: اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ! وَلَكِنْ مَا لَبِثَتْ كَلِمَاتُهُ أَنْ اسْتَرَعَتْ انْتِبَاهَهَا.

”يا إِلَهِنَا، مِنْ أَجْلِ هَذَا الْيَوْمِ الْحَسَنِ وَبَرَكَاتِكَ نَحْنُ نَشْكُرُكَ“.

فَفَكَّرَتْ مَارْتِي: بَرَكَاتٍ! مِثْلَ طِفْلَةٍ زَاعِقَةٍ، وَقَهْوَةٍ مُرَاقَةٍ، وَإِصْبَعٍ مُحْرَقَةٍ؟ بَرَكَاتٍ مِثْلُ هَذِهِ اسْتِغْنَاءَ عَنْهَا.

وَلَكِنَّ كَلَارِكَ أَضَافَ قَائِلًا: ”شُكْرًا لَكَ، يَا رَبِّ، لِأَنَّ الْمِيلَ الْأَوَّلَ الصَّعْبَ مَعَ مِسي قَدْ قُطِعَ، فَسَاعِدْ هَذِهِ الَّتِي جَاءَتْ لِتَكُونَ أُمَّهَا الْجَدِيدَةَ“.

هُنَا فَكَّرَتْ: إِنَّهُ لَا يَدْعُونِي بِاسْمِي بِنَاتًا عِنْدَمَا يَتَحَدَّثُ إِلَى إِلَهِهِ، بَلِ ”هَذِهِ“ دَائِمًا. إِذَا كَانَ إِلَهُهُ قَادِرًا أَنْ يَسْتَجِيبَ صَلَوَاتِهِ، فَارْجُو بِالتَّأَكِيدِ أَنَّهُ يَعْلَمُ عَمَّنْ يَتَكَلَّمُ. أَنِّي أُحْتَاجُ إِلَى كُلِّ الْمَعُونَةِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ أَنَالَهَا.

سَمِعَتْ مَارْتِي خَشْخِشَةَ مِلْعَقَةٍ عَلَى إِنَاءٍ، فَادْرَكَتْ أَنَّ ذَهْنَهَا كَانَ شَارِدًا وَأَنَّهَا فَوَّتَتْ بَاقِيَ الصَّلَاةِ، بِمَا فِي ذَلِكَ الْخِتَامِ: ”آمِينَ“، وَمَعَ ذَلِكَ مَا زَالَتْ جَالِسَةً حَانِيَةَ الرَّأْسِ. فَتَوَرَّدَتْ خَجَلًا مِنْ جَدِيدٍ، وَلَكِنَّ كَلَارِكَ كَانَ يُعِدُّ فَطِيرَةَ پَانِكِيكِ مِسي، وَهَكَذَا مَرَّ ارْتِبَاكُهَا دُونَ أَنْ يُلَاحِظَ.

كان الفطورُ أوَّلَ الأمرِ وجبةً هادئةً. فربَّما كانت مِسي الصَّغيرةُ مُنهكةَ القوى كثيرًا من صِراعاتها الصَّباحيَّة حتَّى كَفَّت عن الثَّرة، وكلارك بدا مشغولَ البال. كذلك مارتي أيضًا جلست مع أفكارها، وكانت أكثرَها أفكارًا غيرَ سارَّةٍ كثيرًا.

تساءلتُ بِغَيْظٍ: ماذا بعدَ الفطورِ؟

سيكونُ عليها أوَّلًا أن تغسِلَ الصُّحونَ، ثُمَّ تُنظِّفَ الموقِدَ المُوسَّخَ. وماذا بعد؟ ستنتهزُ فرصةً لتغسِلَ الأشياءَ الضَّئيلةَ التي تُشكِّلُ خِزانةَ ملابسها. وستودُّ أيضًا أن تغسِلَ الملاحِفَ التي لديها وتضعها في صُنْدوقها. فسوفَ تحتاجُ إليها ثانيةً عندما تنضمُّ إلى قافلة العرباتِ المتَّجهة شرقًا.

سرحَ فِكْرُها هنا وهناك، واضِعةً حُطْطًا تَخُصُّ الكيفيَّةَ التي يُمكنُها أن تُصلحَ الفساتينَ القليلةَ التي تملكُها إذا عثرتَ فقط على قليلٍ من القُماشِ في مكانٍ ما. لقد قال كلارك إنَّه يذهب إلى المدينة أيامَ السَّبْتِ. وهذا اليومُ هو الأربِعاء، فعليها أن تُجريَ جَرْدًا للخزائنِ، وتُنشئَ له لائحةً. واختلستَ نظرةً إليه ثُمَّ نظرتَ بسُرعةٍ إلى صَحْنِها من جديد. وقالت لنفسها إنَّه يقينًا لم يَيدُ مثلَ رَجُلٍ سَعِيدٍ؛ ففي وُسعِ المرءِ أن يقولَ إنَّه يكاد يُطيلُ التَّفكيرِ، أو يُفكِّرُ بعمقٍ، كما لو كان يُحاولُ أن ينظُرَ في أمرٍ ما.

ثُمَّ قاطعته مِسي بتنهُّدٍ رِضِيٍّ وقولٍ من القلب: "انتهيتُ، يا بابا!"

ودفعت صحنها إلى الأمام. وكان وجهها قد تغير.

”هذه بنتُ بابا الكبيرة!“ وابتسمَ بمحبَّة، ثمَّ تشاركَ الاثنانِ في بعضِ الشَّرْثَةِ التي لم تبذلِ مارتي أيَّ جَهْدٍ لِمُتابعتها. ونهَضَ كلاركُ تَوًّا فملاً فِنجانَ قهوتهِ ثانيةً، مُقدِّماً إليها المزيدَ أيضاً. فلامتِ مارتي نفسها على عدمِ ملاحظتها الفِنجانَ الفارغَ أوَّلاً.

دفعَ كلاركُ صحنهَ بعيداً، وأخذَ رشفةً من القهوةِ الساخنة. ثمَّ نظرَ إليها فوقَ الطاولةِ. فتلقَّت حَمَلقته، مع أنَّها استصعبتِ القيامَ بذلك.

”فرضاً أنكَ تحيَّرتِ إذ لم تعرفي أين تجدِين الموادَّ وكلَّ شيءٍ. أرى أنَّكَ وجدتِ حُفرةَ التَّبريدِ. جيِّد! هناكُ أيضاً قَبوٌّ للمحاصيلِ الجذريَّةِ في الخارجِ وراءَ البيتِ. ومُعظَمُ خُضِرِ الحديقةِ باتت موجودةً هناكُ. فلم يبقَ خارجاً في أرضِ الحديقةِ إلاَّ أشياءٌ قليلة. وهناكُ أيضاً رفٌّ للمُعَلَّباتِ، إلاَّ أنَّكَ تحتاجينَ إلى ضوءٍ لتختاري ما تشائينَ؛ لأنَّ الدَّاخِلَ مُظْلِمٌ هناكُ. وتوجدُ أيضاً حُجرةٌ لتدخينِ المأكولاتِ بقربِ قَبوِ الجذورِ. ليس فيها أشياءٌ كثيرةٌ الآنَ، إنَّما ننوي أن نقومَ بما علينا من ذَبْحِ ومُعالِجةِ في الخريفِ الأسبوعِ المُقبِلِ. اثنانِ من الجيرانِ وأنا نقومُ بذلكَ معاً. وهناكُ الدَّجاجُ، لأجلِ البيضِ ولأجلِ الأكلِ. نُحاولُ ألاَّ نجعلَ السَّرْبَ أقلَّ عددًا ممَّا ينبغي، ولكنَّ لدينا الآنَ كثيرٌ نحتفظُ به. لن نحصلَ على لحمٍ طازجٍ قبلَ أن يصيرَ الجَوُّ أبردَ، ما عدا قليلاً من لحمِ الخنزيرِ. وعندما يأتي الجَوُّ الباردُ، نُحاولُ الحُصولَ على شيءٍ من

الطَّرائد البرِّيَّة، فعندئذٍ تُحَفَظُ سَلِيمةً. أحياناً، نذَبِحُ لَنَا عِجْلاً إِذَا رَأَيْنَا أَنَّنَا سَنَكُونُ فِي حَاجَةٍ إِلَى لَحْمِهِ. وَفِي الْجَدُولِ سَمَكٌ أَيْضاً. فَعِنْدَمَا أُنْجِزُ الْعَمَلَ، أُجْرَبُ أحياناً صَيْدِ السَّمَكِ وَشَيِّهِ. لَسْنَا فِي حَالٍ سَيِّئَةٍ حَقًّا.

ما كان ذلك تَبْجُحًا، بل مُجَرَّدَ خَبَرٍ.

”عِنْدَنَا أَرْضٌ جَيِّدَةٌ حَقًّا، وَالرَّبُّ مُبَارِكُهَا. رُزِقْنَا مَحَاصِيلَ جَيِّدَةً فِي الْمَوَاسِمِ الْأَرْبَعَةِ الْأَخِيرَةِ. وَازْدَادَتِ الْمَاشِيَةُ أَيْضاً، وَالخَنَازِيرُ وَالذَّجَاجُ كَافِيَةً بِوَفْرَةٍ. وَجَمِيعُ غِلَالِ الْبَسَاتِينِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ نَسْتَعْمَلَهَا يُمَكِّنُ زَرْعَهَا خَارِجَ الْبَيْتِ تَمَامًا، وَفِي الْبَرَامِيلِ أَيْضاً كَثِيرٌ مِنَ الْحُبُوبِ لِلْبَذْرِ. وَعِنْدَنَا شَيْءٌ مِنَ الْمَالِ النَّقْدِيِّ- لَيْسَ كَثِيرًا بَلْ كَافٍ- وَإِذَا احْتَجْنَا إِلَى الْمَزِيدِ، نَسْتَطِيعُ دَائِمًا أَنْ نَبِيعَ خَنزِيرًا.

نَحْنُ أَحْسَنُ حَالًا بِكَثِيرٍ مِنْ نَاسٍ كَثِيرِينَ، وَلَكِنَّ الْجِيرَانَ حَوَالَيْنَا هُنَا يُبْلُونَ حَسَنًا أَيْضاً. وَيَبْدُو أَنَّ انْتِقَالَنا إِلَى الْغَرْبِ كَانَ خُطْوَةً حَسَنَةً. حَصَلْتُ عَلَى بَعْضِ الْأَشْتَالِ قَبْلَ سَنِينَ عَدَّةٍ مِنْ عِنْدِ رَجُلٍ فَوْقَ عَبْرِ الْجَدُولِ. وَفِي غَضُونِ سَنَتَيْنِ تَقْرِيبًا، إِذَا سَارَ كُلُّ شَيْءٍ حَسَنًا، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَنَا بَعْضُ الثَّمَرِ عَلَيْهَا. حَتَّى إِنَّ أَشْجَارَ التُّفَّاحِ قَدْ تَبَدَّأَ بِالْإِثْمَارِ السَّنَةَ الْآتِيَةَ، كَمَا قَالَ لِي الرَّجُلُ. أَنَا أُخْبِرُكَ بِهَذَا حَتَّى تَعْرِفِي وَضَعَ الْأَرْضِ، إِذَا جَازَ التَّعْبِيرُ. فَلَسْتُ مُضْطَّرَّةً إِلَى الْإِعْتِذَارِ عَنْ طَلْبِ مَا سَتَحْتَاجِينَ إِلَيْهِ، سِوَاءً لِأَجْلِكَ أَمْ لِأَجْلِ مِسي. مَا كُنَّا يَوْمًا أَغْنِيَاءَ،

ولكننا نحاول أن نكون مُكتفين ذاتيًا إلى أبعد حدّ.

وبعدَ حديثه الطويل، دفعَ كرسيه إلى الراء عن الطاولة، ووقفَ ساكتًا للحظاتٍ، كما لو كان يُحللُ في فكره إن كان هناك بعدُ شيءٌ ينبغي له أن يُخبرها به.

”عندنا بقرتانِ حلوبانِ جيّدتانِ حاليًا، وأخرى حُبلى، وهكذا عندنا كلُّ ما سنحتاج إليه من حليب وزُبدة. وهناك حصانانِ جيّدانِ للعربة، وحصانٌ للرُّكوب أيضًا، في حالٍ أردتِ يومًا أن تزوري إحدى الجارات. ما غراهام هي أقربُهنَّ، وهي أنيسةُ المعشر، وفيها تقريبًا ما تبتغيه أيُّ صديقةٍ. وأعتقدُ أنّك ستجدينها كما تُحبّين، حتّى لو كانت أكبرَ منك سنًا بعضَ الشيء.

مُعظمُ عملي في الحقول لفصل الخريف قد تمّ، ولكن لديّ قليلٌ من الحراثة أنوي إنجازَه بعد، إذا تأخَّر فصلُ الشتاء قليلًا. إنّما أنوي أولًا أن أمضيَ أيامًا قليلة في مُساعدة واحدٍ من الجيران لم يُنجزِ عمله بعد، إذ تمهّل في مُباشرته. وفي بيتي أن أذهب إلى هناك اليوم، إلى جد لارسون، فأعاونهُ قليلًا. سأدعى إلى البقاء لتناولِ الغداء معهم، وهكذا فلن أرجعَ حتّى وقتِ تأديةِ المهام. لك أن تألّفي هذا المكان حاسبةً إيّاه بيتك، ويُمكنك أنتِ ومسي أن تتعرّفا إحدكما إلى الأخرى. وعسى ألا يكونَ عندنا مزيدٌ من تلك المشاكسات الصّباحيّة الباكرة.

ثُمَّ التفتَ إلى مِسي ونترَهَا يُّسِرٍ وحملَهَا على ذِرَاعِيهِ. ”أُترِيدِينَ أَنْ تَأْتِيَ مع بابا لإِحْضَارِ دان وتشارلي العجوزِينَ؟“

فأبدتْ مُوافقتها بصوتٍ عالٍ، وانطلقَ الاثنانِ إلى الحظيرة.

نهَضتْ مارتي على مهل. ”لا مزيدَ من المشاكساتِ الصَّبَاحِيَّةِ الباكِرة.“. بدا كأنَّ هذه العبارة القصيرة ستكونُ إشارته الوحيدة إلى الواقعة. لم يبدُ مُبالِياً كثيراً بالأمر في حينه، ولكنْ- كما فكرتْ- ربَّما أزعجَهُ الأمرُ أكثرَ ممَّا أظهرَ.

بدأتْ تُنظفُ الطَّاولَةَ. لقد أخبرها كلارك بأُمورٍ كثيرةٍ جدًّا حتَّى بدا صعبًا عليها أن تتدبَّرها كُلِّها في وقتٍ واحد. ستضعُها الآن على الرَّفِّ، وتسحبُ منها لاحقًا حسبَما تدعو الحاجة. وبدأتْ تضعُ خُططًا لأجلِ نهارها.

ستفتشُ حَوَالِيها وتجدُ حوضًا لِتُسَخِّنَ ماءً، ثُمَّ تغسلُ الثَّيابَ والملاحِفَ كما رَجَت أن يُتاحَ لها. ولعلَّها تتمكنُ من العُثورِ على إبرَةٍ وخيَطٍ فتقومُ أيضًا بالتَّصليحات التي هي في أمسِّ الحاجةِ إليها.

وعندما كانت قد باشرتْ غَسَلَ الصُّحونِ، رجَعَ كلارك ليضعَ مِسي في عُهدتها. واضطُرَّ إلى بذلِ جَهدٍ لنزعِ ذِرَاعِيها المُتَشَبِّثِينَ. فإنَّ مِسي كانت قبلَ الآن قد تَعوَّدت أن تذهبَ إلى كلِّ مكانٍ مع أبيها، ولن يكونَ سهلًا أوَّلَ مُدَّةٍ جَعَلها تفهَمُ أنَّ الأُمورَ ستكونُ مُختلفةً الآن.

تكلَّم كلارك إلى مِسي شارحًا لها باهتمامٍ فوقَ نَشيجِها المُتكرِّرِ:

”يجب أن يذهبَ بابا الآن، وأنتِ ستبقينَ معَ ماما. سأرجعُ في ما بعد“. وبعدما مضى كلارك وكفَّت مِسي عن بُكائها أخيراً، وضعتَ مارتى آخَرَ الصُّحونِ في الخِزانةَ وباشرتِ العملَ في تنظيفِ الموقد. ولمَّا أنجزتَ ذلك، كنستِ الأرضَ وأحسَّت أنها جاهزةٌ للالتفاتِ إلى حُطِّطها الأخرى بشأنِ ذلك النَّهار.

لم يكنْ لها قطُّ كثيرٌ من التَّمرُّسِ بتدبيرِ منزلٍ حقيقيٍّ، ولكنها كانت عاقدةً العزمَ على أن تُحسِنَ القيامَ بذلك. وما كان كلارك قطُّ ليُرْتبِكَ بشؤونِ البيتِ الذي يسكنُ فيه ما دامتْ تكسِبُ بقاءها هنا بصفقتها ماما مِسي. فحالماً تكونُ أشياءها قد باتت مُرتَّبةً، ستَصْرِفُ اهتمامها نحوَ المنزلِ الذي كان مدَّةً طويلةً مَسْكِنَ عازب. حتَّى لو كان كلارك أفضلَ من مُعظمِ الرِّجالِ في ترتيبِ الأمور، فإنَّها ليست في الحالةِ التي من شأنِ المرأةِ أن تُوجدها. وما إنْ تمهَّلُ أيَّامًا قليلةً فقط، حتَّى تجعلَ الأمورَ تبدو عائليَّةً حقًّا.

ليتنى أستطيعُ الاحتمال

في وقتٍ مُتأخّرٍ من عصر النَّهار، كانت مارتِي قد فرغت من غَسْلِ كلِّ شيءٍ يَخْصُها، وبعضٍ من ثيابِ كلارك ومِسي أيضًا. كان النَّهارُ أبردَ بكثيرٍ من سابقه، الأمرُ الذي لاحظتهُ بشعورٍ من الرَّاحة؛ إذ لم تظنَّ أنَّ في وُسعها أن تحتملَ يومًا آخرَ مثلَ ذلك. وقد بدا اليومُ الحاليُّ أشبهَ بيومٍ مَجيدٍ من أيَّامِ الصَّيفِ الهِنديِّ في مُنتصفِ تَشْرينِ الأوَّلِ/أكتوبرِ.

بينما مارتِي واقِفَةٌ عند حَبْلِ الغَسيلِ، حدَّقتُ بعيدًا نحوَ الغربِ. وبعيدًا وراءَ التُّلالِ المَتموِّجةِ، قامتُ جِبالُ زُرُقٍ في جلال. أَمِنَ تِلْكَ القِمَمِ كانِ كلارك يَلْتَمِسُ معوَنَةَ إلهِه؟

كانت الأشجارُ على طُولِ مُنحَدَرِ الجِبَلِ مَكْسُوَّةً بِالوَانِ الأصْفَرِ والأَحْمَرِ. وفي الواقعِ أنَّ كثيرًا من الأوراقِ كان قد سقطَ على الأرضِ أو يَحْمِلُهُ نحوَ الجَنوبِ نَسِيمٌ ناشِطٌ.

كان مشهدًا جميلًا، وكم كان لِيُسعِدَها لو تشاركتُ فيه معِ كليمِ. ليتنا استطعنا، كليمِ وأنا، أن نستمتعَ بهذا معًا! حتَّى إنَّ قلبها آلمها أكثرَ بعدُ

من ظهرها المُتعب وهي تُفْرِغُ الماءَ من أحواضِ الغَسيلِ.

نالَتْ مِسي قسْطاً من النّومِ. فسُرَّتْ مارتِي بأنْ تتحرَّرَ من الطُّفلةِ إلى حينٍ، تقريباً كسُرورها بغيابِ كلارك ذلك النّهارِ. وكم شعرتْ بالرّاحةِ لَمّا أعلَمَها بالأمرِ ذلك الصّباح! لعلَّ الحظَّ يُوافي فيبقيهِ شُغلُ الجارِ بعيداً بضعةَ أيّامٍ؛ فهي لم تكّد تجرُّو على أنْ ترجوَ ذلك القَدْرِ. كانت قد نَوّتْ أنْ تجولَ اليومَ في أنحاءِ المزرعةِ لتعرفَ مواضعَ الأشياءِ، ولكنّها شعرتْ بأنّها مُتعبَةٌ جدّاً فوقَ الحدِّ الآنِ. ستكفي إذا باستراقِ بضعِ دقائقَ من الرّاحةِ ما دامت مِسي نائمةً، ثمَّ تقومُ بجولتها الاستِكشافيةَ بعدَ ذلك بقليلِ.

رَمَتْ خارجاً آخَرَ ماءَ الشُّطفِ، وأعادَتِ الطُّسوتَ إلى مواضعِها على الأوتادِ في جانبِ البيتِ. وإذ كانت مُتعبَةً فوقَ الحدِّ، دخلتْ لتستلقيَ على سريرِها. لقد بكت قليلاً قبل أنْ يستوليَ النُّعاسُ عليها، ولكنَّ النّومَ الذي تلا كان الأكثرَ إراحةً ضِمنَ ما نالتهُ منذُ تُوفِّيَ كلِيمِ.

استيقظتْ مارتِي مُجفلةً، غيرَ عالِمةٍ يقيناً ماذا أيقظَها، غيرَ أنّها شعرتْ بأنَّ شيئاً ما كان ناقصاً. لعلَّ مِسي بكت. فاتَّكأتْ على أحدِ مرفقيها. ونظرتْ إلى سريرِ الصّغيرِ. لا، لم يكنْ ذلك كذلك. حتّى إنَّ مِسي لم تكنْ هناك. مِسي ليست هناك؟ ولكنْ يجبُ أنْ تكون!

هبتْ مارتِي مذعورةً، وقلْبُها يخفقُ بقوّة. أين كانت مِسي؟ لعلَّ كلارك رجَعَ إلى البيتِ وأخرجَ الطُّفلةَ معه.

وهمست بِشِراسَة: ”لا تهلعي! لا بُدَّ أنْها في مكانٍ ما بالجِوار“.

فتشَّت الكوخَ الصَّغيرَ بِسرعة، ثمَّ الزَّيْبَة، ولكنَّ الحِصانين لم يكونا قد أُعيدا. وبحثت حولَ جميع الأبنية، مُناديةً في أثناء سيرها، فلم تجد مِسي. وبينَ صرَّحاتِ مُناداةِ البنتِ الصَّغيرة، قالت لنفسها: لا بُدَّ أن تكونَ قد تسلَّقتُ من فوقِ درابزينِ السَّيرير؛ لا بُدَّ أنِّي كنتُ نائمةً نومًا عميقًا رهيبًا. ثمَّ طافت أبعَدَ فأبعَدَ عن الأبنية، ولكنَّها أيضًا لم تجد مِسي. وكانتِ الآنَ قد بدأت تُذعرُ وتضطربُ جدًّا، رُغمَ جُهودها لإبقاءِ نفسها تحتِ السَّيطرة. أين يُمكن أن تكونَ مِسي؟ ماذا ينبغي لها أن تفعل؟

باتتِ الدُّموعُ الآنَ تجري على خدِّي مارتِي. وقد أصابَ فُسطانها مَرَقٌ آخرُ قُربَ الحاشية، وانغرزت أشواكُ في يديها من شُجيراتِ الوَرْدِ البَريِّ التي عبَّرها شقَّت طريقها. وفتَّشتِ الجدولَ، صعودًا ونزولًا على ضفافه، فاحِصةً الماءَ الضَّحَلِ الصَّافي، ولكنَّها لم تجد أيَّ أثرٍ لمِسي أو لأيِّ شيءٍ يخصُّها.

لعلَّها سلكتِ الطَّريقَ، هكذا فكَّرتِ مارتِي مذعورةً، وانطلقتِ راکضةً تقريبًا نزولًا على الطَّريقِ المُعبَّرةِ المُحدَّدة. وقد تعثَّرتِ مرارًا وتكرارًا. وحاولت أن تُعلِّلَ: يقيِنًا، لا يمكن أن تكونَ مِسي قد قطعتَ هذه المسافةَ الطويلة! إلاَّ أنَّها حثَّت خُطاهَا؛ لأنَّها علِمَت أن ليس من شيءٍ آخر تفعله. ثمَّ فوقَ التَّلِّ، على الطَّريقِ أمامها، رأت حِصانِي كلارك مُقبِلين نحوها. لم تُفكِّرَ حتَّى في الوقوف بجانب الطَّريقِ وانتظارِ اقترابه إليها، بل

انطلقت بعنادٍ نحو العربة.

ما عسى أن تقول لكلارك؟ كيف يُمكنها أن تُخبره؟ ما أمكن أن تُستأمن حتى على الاهتمام بطفلةٍ صغيرة. أتكون لدى كلارك فكرةً ما عن مكانٍ تُفتشُ فيه وهي لم تُجرِّبه أصلاً؟

وسُرعانَ ما كان عليها أن تحيدَ جانباً كي تُتيحَ للحصانين أن يتوقفاً بقربها. وفيما قلبها ينعصرُ ندمًا وخوفًا، رفعت وجهها المُخطَّطَ بالتراب والدمع نحو كلارك، فإذا مِسي شخصيًا قاعدةً على رُكبةِ أبيها، وهي تبدو فخورًا بنفسِها كثيرًا!

صاح كلارك بالحصانين فتوقفا، ومدَّ يدهُ نزولًا لِيُساعدَ مارتي على الصُّعود إلى العربة. فتسلَّقت على مَضَض، ورأسها يُدوم. آه، ماذا سيظنُّ؟ ثمَّ انطلقا نحو البيت صامتَيْن. لماذا لم يقل شيئًا ما؟ فهو لم يتفوه إلا بصيحةٍ حثَّ للحصانين. وكانت مِسي ساكنةً أيضًا. حسنًا، خيرٌ لها أن تسكُت، هذه الوعدةُ الصَّغيرة. فإنَّ فرجها العظيم لدى رؤيةِ الطفلةِ سالمةً مُعافاةً حلَّ محلُّه الآن مشاعرُ غضب. وقد أحسَّت مارتي وجهها حارًا، من جهودِ بحثِها المسعور ومن خزيها أيضًا. وما لبثت دَفْنُها أن ارتفع. إذًا، لم يكن يتكلَّم. حسنًا، لن تتكلَّم هي أيضًا. في وُسعه أن يظنَّ ما شاء، فهي لن تُقدِّمَ أيَّ تفسير. لقد كرهته على كلِّ حال، ولن تُفكِّرَ أكثرَ في طفلته غير المؤدَّبة.

ليتني أستطيعُ الاحتمال فقط حتى قافلةِ العربات تلك، وعندئذٍ سأغادرُ هذا المكانَ البائسَ بسرعةٍ فائقة، حتى إنَّك لن تجدَ لي أثرًا! هكذا فكَّرت

أرادتِ المرأةَ فيها مُستَمِيتَةً أن تلوذَ بالبُكاءِ، ولكنَّ المرأةَ فيها أيضًا رفضت أن تستسلم حتى لذلك العزاء اليسير.

وحذرت نفسها قائلةً: إِيَّاكَ... إِيَّاكَ أن تسمحي له بتلك المَسْرَةِ!

فرفعت رأسها عاليًا، وثبتت عينيها إلى الأمام مباشرةً، وظلّت على هذه الحال حتى وصلا إلى المنزل. رفضت بازديادٍ أَيْةَ مُسَاعَدَةِ قَد يُقَدِّمها إليها كلارك، فترجّلت بسرعة من فوق العجلة، مُيسِّرةً توسيعَ حَرَقِ فُستانِها بَعْدُ أيضًا.

وجبةٌ أخرى يجبُ إعدادُها، لكن ماذا؟ سبب لها ذلك مزيدًا من الارتباك، ولكنها علمت أنها لا بُدَّ أن تكون فطائر الپانكيك ثانيةً. فهذه كانت تقريبًا الشّيء الوحيد الذي تُحسِنُ صنعه. فليختنق بها. ما همّها الأمر. ولماذا يهملها؟ إنها لم تكن مديونةً له بأيّ شيء! وتمنّت لو بقيت في عربتها وماتت جوعًا. ذلك هو ما تمنّته.

على نحو مُدهشٍ كفايةً، اشتعلت نارُ مارتني، وسرعان ما بات موقدُ الطبخ الجيّد يئث الحرارة. حتى أنها لم تُفكر أن تكون شاكِرةً لمّا اندفعت في أنحاء المطبخ لتعمل قهوةً وتُحضّر العجينة الثانية من مزيج فطائر الپانكيك لذلك اليوم. وستقلي بضع شرائح من لحم الفخذ بدلًا من قديد الجنب، كما قرّرت على عَجَل.

لم تستطع حقًا أن تفهم لماذا أفلقها كثيرًا أن جميع جهودها منذ

جاءت إلى هذا البيت قد باءت بفشلٍ ذريع. لا ينبغي أن تهتمّ بتاتاً، ومع ذلك اهتممت، إلى حدٍّ بعيدٍ لم تُرد أن تعترف به. لقد أحسست في أعماقها أن الفشل كان عدواً يجب أن يُقاتل ويُهزم. فتلك كانت الطريقة التي شبت عليها، ولم يكن من السهل التخلي عنها الآن.

بينما كانت صينيةُ الخبزِ تحمى، رمقت مِسي بنظرة غضب، ونبّهتها: "الآن اقعدي عاقلة!" ثم اندفعت إلى الخارج لإدخال غسيلها كُله قبل حلولِ رطوبة الليل.

لما دخلَ كلارك راجعاً من الحظيرة، كان العشاء جاهزاً، كما تيسر. ومع أن كلارك كان قد دهشَ لدى رؤيةِ فطائرِ البانكيك ثانيةً، فهو لم يُبدِ دهشته. واتقدَّ خدّاً مارتي ثانيةً إذ أدركت أن فطائره كانت جيّدةً كفطائرها.

فقالَت لنفسها مُغتاظةً: ماذا إذا؟ إنَّ قهوتي لها منظرٌ أحسن!

ولا بُدَّ أنّها كانت كذلك، لأنّه لما فاتها أيضاً أن تُلاحظَ فنجانَ كلارك الفارغ ونهضَ لكي يملأه ثانيةً، علّقَ قائلاً: "قهوة جيّدة"، وصبَّ لها فنجاناً ثانياً. فأشاحت مارتي بوجهها وهزّت كتفيها لامباليةً.

بعدَ العشاء، نظّفت الطّاولة وغسلت مِسي إعداداً للنوم. وقد شعرت بميلٍ إلى رجِّ الطفلة الصّغيرة المُشاغبة كلِّما لمستها، غير أنّها أحجمت عن القيام بذلك.

بعدما دسّت مارتي مِسي في السرير، خرجت وغسلت قدميها

السَّاحِنَتَيْنِ الْمُعْبَّرَتَيْنِ. وَإِذْ جَمَعْتَ ثِيَابَهَا الَّتِي أَحْضَرْتَهَا عَنْ حَبْلِ
الْغَسِيلِ، أَخَذْتَ الْقِطْعَ إِلَى غُرْفَةِ نَوْمِهَا وَأَغْلَقْتَ الْبَابَ. ثُمَّ طَوَّتْ
بَاعْتِنَاءٍ فَسَاتِنَهَا وَثِيَابَهَا الدَّاخِلِيَّةَ الْبَالِيَةَ، لَكِنْ النَّظِيفَةَ، وَاضِعَةً إِيَّاهُنَّ
عَلَى سَرِيرِهَا. يَا لَيْتَ لَدَيْهَا إِبْرَةٌ وَبَعْضَ الْخِيْطَانِ. وَلَكِنَّهَا عَقَدَتْ الْعِزْمَ
أَلَّا تَطْلُبَ إِلَيْهِ شَيْئًا... أَبَدًا!

جَلَسْتُ عَلَى السَّرِيرِ لِتُتِيحَ لِنَفْسِهَا وَقْتًا لَشَيْءٍ مِنْ رِثَاءِ الذَّاتِ الَّذِي
اسْتَحَقَّتْهُ بِجِدَارَةٍ. وَعِنْدئِذٍ لَاحِظْتُ سَلَّةَ خِيَاطَةٍ صَغِيرَةً فِي الزَّوَايَةِ وَرَاءَ
الْبَابِ. وَإِلَى لِحْظَةٍ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُصَدِّقَ لُقَيْتَهَا الْمُدْهِلَةَ، إِلَّا أَنَّهَا لَمَّا
عَبَّرَتْ إِلَى السُّلَيْلَةِ اِكْتَشَفَتْ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا تَجَاسَرَتْ أَنْ تَرْجُوهُ.

كَانَ هُنَاكَ خِيْطَانٌ بِالْوَانِ شَتَّى، وَإِبْرٌ بِأَحْجَامٍ عَدَّةً، وَمِقْصٌ مُمْتَازٌ،
بَلْ أَيْضًا قِطْعٌ صَغِيرَةٌ مِنَ الْقُمَاشِ.

وَبِتصْمِيمٍ وَاثِقٍ، قَعَدْتُ مَارْتِي لِتَعْمَلَ. كَانَتْ الْخِيَاطَةُ وَاحِدًا مِنْ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُتَقَنُّهَا. وَمَعَ أَنَّ التَّرْقِيعَ وَالتَّرْمِيمَ لَا يَكَادَانِ يُصَنَّفَانِ ضَمْنَ
الْخِيَاطَةِ، فَقَدْ أَحْسَسْتُ دَفْقَةً مِنَ التَّوَقُّعِ.

غَيْرَ أَنَّهَا سُرِعَانَ مَا اِكْتَأَبْتُ، إِذْ حَاوَلْتُ أَنْ تُنْتِجَ شَيْئًا لَائِقًا مِنْ
الْأَشْيَاءِ الْبَالِيَةِ الَّتِي أَمَامَهَا. فَكُلَّمَا اشْتَغَلْتُ وَقْتًا أَطْوَلَ، بَاتَتْ أَكْثَرَ
إِحْبَاطًا. كَانَتْ قَدْ اِنْكَبَّتْ عَلَى الْقِطْعِ الْأَقْلِّ ضَرًّا أَوْلًا، وَلَكِنْ لَمَّا
وَصَلَتْ إِلَى الْأَشْيَاءِ الْقَلِيلَةِ الْأَخِيرَةِ اغْتَمَّتْ تَمَامًا. فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ لَنْ
تَدُومَ طَوَالَ الشِّتَاءِ، وَكَانَ أَمْرًا أَكِيدًا أَنَّهَا لَنْ تَطْلُبَ إِلَيَّ كَلَارِكُ أَيِّ شَيْءٍ

بتأثا، حتّى لو اضطرّرت إلى ارتداء الأسمال البالية.

لقد تذكّرتَه لَمّا قالَ: ”ما كُنّا يوماً أغنياء، ولكنّا نُحاولُ أن نكونَ مُكتَفينَ“.

”حسنًا، يا سيّدُ مُكتَفٍ، ماذا ستفعل إذا لم يكن عندك أيُّ شيءٍ تجعلُ به نفسك مُكتَفياً؟“ هكذا سألت من خلال أسنانٍ مُطبّقةٍ بإحكام إذ سحبتِ الفُستانَ المُهلَهَل من فوقِ رأسها واستبدلت به منامةً مُرَمَّمةً بحرص.

ارتَمَتِ مارتِي على السّرير، وازدحمت في رأسها أحداثُ اليوم: الموقد الحامي فوق الحدِّ والقهوةُ المُراقاة، مِسي الغاضِبة المُشاكِسة، التفتيش المسعور على الطّفلة، مزيدٌ من فطائر الپانكيك. واعترضت غُصّةٌ في حنجرتها. يا ليت كليم كان هنا...ومن جديدٍ بَكَت حتّى نامت.

تنظيف البيت^٩

أبدى الصّباح التّالي وجهًا مكفهرًا لمّا نظرتْ مارتِي نحو النّافذة. كان الجوّ آخذًا في التّغيّر. فلن يطولَ الزّمن حتّى يُفسِحَ الصّيفُ الهنديّ الجميل لغضبِ الشّتاء الشّدِيد. وقالت لنفسها: لكنّ ليس الآن، عاقدة العزمَ على أن تكون مُبتهجةً رُغمَ أوضاعِها البائسة. فما زالَ النّهارُ دافئًا والجوّ غيرَ مُلبّدٍ بالغيومِ كثيرًا. لعلّ الغيومَ تنقشِعُ عاجلاً وتسمحَ للشّمسِ بأن تسطعَ من جديد.

نزلت مارتِي عن السّريرِ على مهل. يقينًا أنّ اليومَ يجب أن يكونَ أفضلَ من أمس، كما أمّلت. فقد بدا أمسٍ فعلاً من الماضي إلى حدٍّ بعيد، وكذلك اليومُ الذي قبلَ أمس، يومَ دفنتِ كلِيم. ولم تكد تُصدّقُ أنّ ذلك حدثَ قبلَ يومين فقط. إلاّ أنّهما يومانِ بدوا دهرًا.

انزلتْ مارتِي داخلَ ثوبِها المُخطّط الذي رَمّمته البارحة، وألقت نظرةً باتّجاهِ مِسي، ثمّ تحرّكت على مهل نحو الباب. وقد أمّلتُ ألاّ يتكرّرَ المشهدُ الصّباحيُّ أمس. فهي لم تعلمَ إن كانت قادرةً على مواجهته ثانيةً.

وضعتِ القهوةَ على النَّارِ وحطَّتِ الصُّحونَ على الطَّاولَةِ، ثُمَّ باشرتِ التحضيراتِ لفطائرِ البانكيك الصَّبَاحِيَّةِ.

لَعَنَهَا اللهُ! وَعَضَّتْ شَفَتَهَا... أَنَا نَفْسِي سَعَمْتُ هَذِهِ الْفَطَائِرَ.

لَمْ يَبْدُ رَدِيئًا جَدًّا تَنَاوُلُ فَطَائِرِ الْبَانِكِيكِ مِرَارًا وَتَكَرَّرًا لَمَّا كَانَتْ كُلُّ مَا كَانَ مُتَاحًا. وَلَكِنْ بِوَجُودِ كَثِيرٍ جَدًّا مِنَ الْمَوَادِّ الطَّازِجَةِ الْجَيِّدَةِ تَحْتَ تَصَرُّفِهَا، بَدَأَ أَكْلُ فَطَائِرِ الْبَانِكِيكِ عَيْبًا. سَيَكُونُ عَلَيْهَا أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى شَيْءٍ مَا، وَلَكِنَّهُمْ فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ بِحَاجَةٍ إِلَى وَجِبَةٍ لِيَبْدَأُوا النَّهَارَ. فَخَرَجَتْ لِإِحْضَارِ قِطْعَةٍ أُخْرَى مِنْ قَدِيدِ الرِّقْبَةِ.

اسْتَيْقَظَتْ مِسي، وَدُونَ حَادِثٍ سَمَحَتْ لِمَارْتِي بِأَنْ تُلْبِسَهَا. وَهَكَذَا بَدَأَ أَنَّ تِلْكَ الْمَعْرَكَةَ قَدْ كُسِبَتْ! فَوَضَعَتْ الطِّفْلَةَ عَلَى الْكُرْسِيِّ الْبَيْتِيِّ الصُّنْعِ وَسَحَبَتْهُ بَعِيدًا عَنِ الطَّاولَةِ لِتَمْنَعَ الْأَصَابِعَ الصَّغِيرَةَ أَنْ تَتَنَاوَلَ الْأَشْيَاءَ.

لَمَّا دَخَلَ كَلَارِكُ رَاجِعًا مِنَ الْحَظِيرَةِ، كَانَ الْفَطُورُ جَاهِزًا، وَمِسي جَالِسَةً بِحُسْنِ سُلُوكٍ عَلَى كُرْسِيِّهَا. وَبَدَتْ سِيمَاءُ كَلَارِكِ قَائِلَةً ”وَلَابِسَةَ وَعَاقِلَةَ“، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُدَلِّ بِأَيِّ تَعْلِيْقٍ، الْأَمْرُ الَّذِي أَرَاخَ مَارْتِي.

جَلَسُوا مَعًا إِلَى الْمَائِدَةِ، وَبَعْدَ الْقِرَاءَةِ وَالصَّلَاةِ الصَّبَاحِيَّتَيْنِ، جَرَى تَنَاوُلُ الْفَطُورِ دُونَ حُدُوثِ أَيِّ شَيْءٍ خَارِجٍ عَنِ الْمَأْلُوفِ.

رَاقَبَتْ مَارْتِي بِنِظَرَاتٍ مُخْتَلَسَةً فَنَجَانَ قَهْوَةَ كَلَارِكِ حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى مَلءٍ مِنْ جَدِيدٍ. وَلَكِنْ لَمَّا هَبَّتْ إِلَى الرَّكْوَةِ، أَزَاحَهَا جَانِبًا.

”كان بودي، ولكن خيري لي ألا أتمهل لأجل فنجانٍ ثانٍ هذا الصباح. يبدو الجوُّ أشبه بالشتاء كلَّ يوم، وما زالت بعضُ حِنطَةِ جَدٍ خارجًا. عليَّ أن أصلَ إلى هُناك بأسرع ما يُمكنني“. وبعدَ تردُّدٍ أضاف: ”لكنَّ هذه قهوةٌ جيِّدةٌ حقًّا“.

فصبتَ مارتي فنجانها الثاني، وردَّتِ الرَّكوةُ إلى مكانها. الأمرُ الوحيدُ الذي استطاع أن يقوله عنها كان إنَّها عملتَ قهوةً جيِّدة. لعلَّها كانت محظوظة- وهو كان محظوظًا- لأنَّها تستطيعُ أن تفعل ذلك! وقفَ كلارك عندَ الباب وقال من فوقِ كتِفِه: ”سأتناول وجبةَ الظُّهر مع آلِ لارسون ثانيةً“. ثمَّ مضى.

هذه المرَّة استمرَّ أئينُ مِسي دقائقَ قليلةً فقط. فتحوَّلَت أفكارُ مارتي نحو إعلانِ كلارك الوداعيِّ: ”يقينًا إنَّه مسرورٌ جدًّا بأن يتمكَّنَ من تأمينِ وجبة في اليوم لآلِ لارسون. ألن يكونَ الأمرُ مُضحكًا إذا قدَّمتِ السيِّدةُ لارسون إليهم فطائرَ البانكيك؟“

لم تستطعَ مارتي، على رُغمها، أن تحوِّلَ دون ارتسامِ ابتسامةٍ سريعةٍ على وجهها. ثمَّ جلستِ لِتستمتعَ على مهلٍ بفنجانِ قهوتها الثاني وتُخطِّطَ أمورَ يومها.

أولًا ستُفرِّغُ تمامًا خزائنَ المطبخ وتُنظِّفُها، ثمَّ تنتقلُ إلى باقي المطبخ، بما في ذلك الجدرانُ والنَّافذة والسِّتائر. وتعهَّدت بأن يكون كلُّ شيءٍ برَّاقًا قبلَ حلولِ اللَّيل.

لم تُمضِ في ارتِشافِ قَهْوَتِهَا وَقَتًا طَوِيلًا كَمَا نَوَتَ؛ لِأَنَّهَا صَارَتْ تَوَاقَةً إِلَى مُبَاشَرَةِ أَنْشِطَتِهَا وَرُؤْيَةِ كُلِّ شَيْءٍ أُنَيْقًا وَنَظِيفًا.

غَسَلَتِ الصُّحُونِ عَلَى عَجَلٍ وَوَجَدَتِ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي أَمَلَتْ أَنْ تُبْقِيَ مِسي مُلْهَاءَةً بَعْضَ الْوَقْتِ. ثُمَّ شَرَعَتْ فِي الْعَمَلِ جَدِّيًا. قَدْ يَكُونُ لَدَيْهَا نَقْصٌ مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ، كَمَا فَكَّرَتْ، وَلَكِنْ كَانَ فِي وَسْعِهَا أَنْ تُكَبِّ عَلَى الْعَمَلِ، وَقَدْ أَكَبَّتْ فِعْلًا.

لَمَّا نَبَهَتْهَا السَّاعَةُ الْمُتَكْتِكَةُ عَلَى الرَّفِّ فَوْقَ الْمَوْقِدِ أَنَّ السَّاعَةَ صَارَتِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ وَنِصْفًا، كَانَتْ الْخَزَائِنُ كُلُّهَا نَظِيفَةً وَمُرْتَبَةً مِنْ جَدِيدٍ عَلَى نَحْوِ يُرْضِي ذَوْقَهَا. وَقَدْ اكْتَشَفَتْ أَيْضًا بَعْضَ الْمَوَادِّ، كَالذُّرَّةِ الْمَطْحُونَةِ لِصُنْعِ فِطَائِرِ الْمَفِينِ، وَالْحُبُوبِ الْمَخْتَلِفَةِ لِصُنْعِ خَلِيطِ الْحَبِّ الْمَطْبُوحِ. فَرُبَّمَا لَا تَدْعُو الضَّرُورَةُ دَائِمًا لِأَنْ يَكُونَ الْفَطُورُ فِطَائِرَ الْيَانِكِيكِ رُغْمَ كُلِّ شَيْءٍ.

أَوْقَفَتْ تَنْظِيفَهَا لِتُعَدَّ وَجِبَةً لَهَا وَلِمِسي. فَأَشْبَعَهُمَا كِلْتَيْهِمَا قَدِيدُ الْفَخْدِ الْمَقْلِيِّ وَقِطْعَةٌ مِنَ الْخُبْزِ مَعَ حَلِيبٍ شَرِبْتَاهُ. وَقَدْ سَرَّهَا أَنْ يَكُونَ الْحَلِيبُ مُتَوَافِرًا. كَانَ كَلِيمٌ، طَوَالَ طَرِيقِهِمَا نَحْوَ الْعَرَبِ، مَشْغُولَ الْبَالِ لِوُجُوبِ شُرْبِهَا كَثِيرًا مِنَ الْحَلِيبِ لِأَجْلِ الْجَنِينِ. فَالآنَ كَانَ الْحَلِيبُ مَوْفُورًا، وَسَيَكُونُ ابْنُ كَلِيمٍ قَوِيًّا عِنْدَمَا يُولَدُ.

وَبَعْدَمَا دَسَّتْ مَارْتِي مِسي فِي السَّرِيرِ لِأَجْلِ نَوْمَتِهَا الْقَصِيرَةِ، اسْتَأْنَفَتْ الْعَمَلَ. أَحْسَتْ أَنَّهَا مُتَعَبَةٌ، وَلَكِنَّهَا مَا كَانَتْ لِتَسْتَلْقِيَ فَتُشِحَ

لمِسي فُرصةً كي تُكرِّر أداءَ أمس. فتلكَ المخلوقةُ الضَّئيلةُ كانت قد مشت أكثرَ من كيلومتر ونصف قبلما لاقت بابا. ولدى التَّفكيرِ في ذلك، أَحسَّتْ مارتِي من جديدِ خوفَ الخِزيِ ووخزِهِ. كلاً! ما كان من سبيلٍ قطُّ لأنْ تدَعَ ذلكَ يحدثُ ثانيةً، حتَّى لو خرَّتْ مَيتهُ على قدَميها.

واصلتِ العملَ، فغسلتِ السِّتائرَ ونشرتها خارجاً في مهبِّ النِّسيمِ حتَّى تنشف. ثمَّ فرَكَّتِ النَّافذةَ حتَّى برقت، ومضتْ إلى جُدرانِ المطبخِ بِطاقةٍ أوفرَ ممَّا علمتْ أنَّها تملك. كان ذلكَ عملاً صعباً وبطيئاً، ولكنَّها سرَّتْ بإنجازها. وفيما فرَكَّتِ ألواحَ الجُدرانِ الخشبيَّةِ، أذهلتها كمِّيَّةُ الماءِ التي استلزمتهَا. فكان عليها عدَّةُ مرَّاتٍ أن تتوقَّفَ وتملاً طسَّتها من جديد. وإذ تذكَّرتِ السِّتائرَ، توقَّفتْ عن فرَكِّها ومضتْ تبحث عن أيِّ شيءٍ يُشبه المِكاوَةَ لتستطيعَ أن تكوي السِّتائرَ قبل أن تُعلِّقها مُجدِّداً. ووجدت تشكيلةً من المكاوي الرديئةِ في الخزانةِ بزواييةِ الحظيرةِ، فوضعتِ المكاويَ على الموقدِ لِتحمي. ثمَّ تبَيَّنَ لها أنَّها في انشغالها بالفركِ تركتِ النَّارَ تخبو، وهكذا وقعتْ مُهمَّةُ إشعالها من جديد على عاتقها مرَّةً أُخرى. وأنَّبتْ نفسها إذ اهتَمَّتْ واضطربتْ بشأنِ الشُّعلةِ الضَّئيلةِ لتصيرَ ناراً مُتأجَّجةً. حتَّى إذا بدأتِ النَّارُ تكفي نفسها بنفسها أخيراً، عادتْ إلى فرَكِّها. وقد ملأتْ طسَّتها مرَّاتٍ كثيرةً أُخرى، وكان عليها أن تأخذَ الدِّلاءَ إلى البئرِ لإحضارِ مزيدٍ من الماء. أخيراً أنجزتْ المُهمَّةُ. فإذا بالألواحِ تَبْرِقُ، وإن كانت قد

امتصتِ الماءَ كُلَّهُ.

رَيْثَمَا أَحْضَرْتِ السَّتَائِرَ، كَانَتِ الْمَكَوِي حَامِيَةً كِفَايَةً لِتَكْوِيْهِنَّ. وَقَدْ
بَدَتِ السَّتَائِرُ الْمَجْدَّدَةَ أُنَيْقَةً وَمُتَمَوِّجَةً لَمَّا عَلَّقْتَهَا عَلَي النَّافِذَةِ.

ثُمَّ اسْتَيْقِظْتُ مِسي فَأَحْضَرْتَهَا مَارْتِي مِنْ سَرِيْرهَا، وَصَبَّتْ كُوزَ حَلِيْبٍ
لِكُلِّ مِنْهُمَا. وَقَدْ بَدَتِ مِسي مُبْتَهَجَةً وَمُثْرَثَةً بَعْدَ نَوْمِهَا، فَوَجَدْتِ مَارْتِي
رَفِيْقَتَهَا الصَّغِيْرَةَ الشَّرَّارَةَ مُمْتِعَةً تَقْرِيْبًا. إِذْ صَرَفَ ذَلِكَ ذِهْنَ مَارْتِي عَنْ
أَشْيَاءٍ أُخْرَى، تَمَامًا كَمَا كَانَ عَمَلُهَا الشَّاقُّ فَاعِلًا.

وَضَعْتُ مِسي عَلَي كُرْسِيِّهَا، وَمَعَهَا قِطْعَةٌ خُبْزٍ لِتَقْضِمَهَا عَلَي مَهْلٍ،
وَمَضَتْ تَشْتَغِلُ بِتَنْظِيْفِ الْأَرْضِيَّةِ الْخَشْبِيَّةِ بِمَاءٍ سَاخِنٍ وَصَابُونٍ وَفُرْشَاةٍ
فَرَكٍ. وَحِيْنَمَا فَرَعَتْ مِنْ ذَلِكَ، شَعَرْتُ بِأَلْمٍ فِي ظَهْرِيْهَا وَذِرَاعِيْهَا، إِلَّا أَنَّ
الْأَرْضِيَّةَ بَاتَتْ نَظِيْفَةً عَلَي نَحْوِ عَجِيْبٍ. وَنَفَّضْتُ مِمْسَحَةَ الْأَرْجُلِ
خَارِجَ الْبَابِ جَيِّدًا، ثُمَّ أَعَادْتَهَا إِلَى مَكَانِهَا وَوَقَفْتُ تُرَاقِبُ الْمَطْبَخَ
الصَّغِيْرَ. فَإِذَا كُلُّ شَيْءٍ نَظِيْفٌ، مَنْظَرًا وَرَائِحَةً. لَقَدْ كَانَتْ فُخُورًا
بِنَفْسِهَا. فَنَافِذَةُ الْمَطْبَخِ تَتَلَأَلُ، وَالسَّتَائِرُ مُتَمَوِّجَةٌ بِطَيَّاتِهَا الْعَمُودِيَّةِ
الْأُنَيْقَةِ، وَالجُدْرَانُ... الْجُدْرَانُ بَدَتِ الْآنَ غَرِيْبَةً عَجِيْبَةً بَعْضَ الشَّيْءِ.
صَحِيْحٌ أَنَّ الْأَلْوَحَ بَدَتِ نَظِيْفَةً وَبَرَّاقَةً، وَلَكِنَّ الشُّقُوقَ... بِطَرِيْقَةٍ مَا
بَدَتِ الشُّقُوقُ غَرِيْبَةً، إِذْ كَانَتْ رَمَادِيَّةً وَدَاكِنَةً بَدَلَ الْبِيَاضِ الَّذِي كَانَتْ
عَلَيْهِ سَابِقًا.

عَبَرْتُ مَارْتِي إِلَى أَقْرَبِ جِدَارٍ وَدَسْتُ إِصْبَعًا فِي الشَّقِّ. إِنَّهُ لَمْ يَبْدُ

مُوحِلاً فقط، بل كان مُوحِلاً فِعْلاً، مُوحِلاً ومُضِحِكاً! فغَضَّنتِ مارتِي
أَنفَهَا. ماذا فعلتِ؟ إِنَّهُ المَاءُ بالتَّأَكِيدِ! فلم تَكُنِ الأَلْوَحُ هي ما اِمتَصَّ
المَاءُ، بلِ الشُّقُوقِ! لَقَدْ اِمتَصَّتْ مَاءَ التَّنْظِيفِ بَعَطَشَ فَبَاتَتِ الآنَ دَبِيقَةً
ورخوةً. أَمَلتِ من كلِّ قَلْبِهَا أن تَجفَّ الشُّقُوقُ سَريعاً قَبْلَ أن يَرجِعَ
كلاركُ إلى البَيتِ. ونظَرَتِ إلى السَّاعَةِ. لَن يَتَأخَّرَ طَوِيلاً أَيضاً. أَحسَنُ
لِهَا أن تَتحرَّكَ عَاجِلاً إذا أَرادَتِ أن يَكُونَ العِشاءُ أَكثَرَ من مَجَرَّدِ فِطائِرِ
الِپانِكِيكِ.

كانت قد لاحظت أيضاً أَنَّ الخُبْزَ كاد ينفد. فماذا ينبغي أن تفعل
إِذا؟ ما خَبِزَتِ قَطُّ من قَبْلِ، ولا رَأَتِ أُمَّهَا تَخْبِزُ حَتَّى تَتِمَّكَنَ من أن
تتذَكَّرَ. ولم يَكُنْ لَدَيْهَا أَدنى فِكْرَةٌ كيف تَبدأ. فَكَّرَتِ: سَتصنَعُ
بَسكويتاً. لَم تَكُنْ تَعْرِفُ كيف تَخْبِزُهُ أَيضاً، وَلَكِنَّ ذلكَ لا يُمكنُ أن
يَكُونَ صَعَباً كَثِيراً. فغَسَلَتِ يَدَيْهَا وَذهبتِ إلى الخِزانَةِ. لَقَدْ أَحسَّتْ
أَنَّهَا خِزانَتُهَا الآنَ بَعْدَما وَضَعَتِ كلَّ شَيْءٍ حَيْثُ أَرادَتِهِ.

وَجَدَتِ الدَّقِيقَ والمِلحَ. هل يَضَعونَ بِيضاً في البَسكويتِ؟ لَم تَكُنْ
عَلى يَقينِ، وَلَكِنَّها سَتُضِيفُ بِيضَتَيْنِ عَلى آيَةٍ حَالِ. ثُمَّ أَضَافَتِ حَلِيباً
وَحَرَّكَتِ الخَلِيطَ. هل يَنجَحُ ذلكُ؟ حَسَناً، سَتُجَرِّبُ.

قَطَّعَتِ بَضْعَةً رُؤُوسِ بَطَاطَا لِلقَلِيبِ، وَأَخْرَجَتِ بَعْضَ قَدِيدِ الفِخْذِ.
وافتَرَضَتِ أَنَّها يَنبغي أن تُعَدَّ بَعْضَ الخُضَرِ أَيضاً، فَمَضَتِ تَشْتَغِلُ بِبِضْعِ
جَزَرَاتِ. وَبَينَما هي تُقَشِّرُهُنَّ، سَمِعَتِ بَوبَ العَجُوزِ يُرْحَبُ بِالحِصانَيْنِ

المُقبِلين. سيعتني كلارك بالحصانين، ثمَّ يقومُ بمهامّه. وخبَّمتُ أَنَّهُ سيُدخلُ لأجل العشاء في غضونِ ثلثي ساعة، فتركتُ الجزرات ومضت لتضعَ البسكويت في الفرن. ونضجَ البسكويت بسهولةٍ كافيةٍ، فتصوَّرتُ نظرةَ تقديرٍ في عيني كلارك وهو يمدُّ يده لتناولِ بسكويتةٍ أُخرى.

ورجعتُ إلى بطاطاتها في المقلاة، فحرَّكتُهنَّ بانتباهٍ لئلا يحترقن.

”آه، القهوة!“ صاحت فجأةً، وأسرعت لتضع رَكوةَ القهوة على النار كي تغلي. فرغمتُ كلَّ شيءٍ، فإنَّ في وسعها أن تصنعَ قهوةً جيِّدة!

شرَّحت شيئاً من قديدِ الفخذ، ووضعتَه في المقلاة الأخرى، مُستمتعةً بالرَّائحة اللذيذة إذ بدأ يُطهى. واشتَمَّت رائحةَ البسكويت فلم تكذبُ تُحجِّمُ عن فتحِ باب الفرن لتلقِّي نظرةً عليه. إذ كانت على يقينٍ بأنَّه سيحتاجُ إلى دقائقٍ قليلةٍ بعد. فحرَّكتُ البطاطا ثانيةً، ونظرتُ بقلقٍ إلى الشقوق الموحلة بين الألواح. لم تكن تنشفُ بسرعةٍ زائدة. لن تذكرَ ذلك، ورُبَّما لا يُلاحظُه كلارك. وعند الصِّباح، ستكون الشقوقُ قد عادت ثانيةً إلى ذاتها القديمة.

احتاجَ قديدُ الفخذ أن يُقلَّب، ونضجتُ قطعَ البطاطا، فسحبتهَا إلى مؤخَّر الموقد ووضعتُ مزيداً من الحطب في بيت النَّار. ثمَّ تذكَّرتُ الجزرات. عجباً، إنَّها ما زالت في وعاءِ التفشير، نصفَ مُنجزةٍ فقط! وبسرعةٍ عادت تشتغلُ فيها، فشقتُ إحدى أصابعها في استعجالها. أخيراً وضعتُ قِدْرَ الجزر على الموقع، فوقَ الموضع الذي رجَّتُ أن

يكون المكان الأكثر حرارةً لإنضاجه سريعًا.

نضجت البطاطات فعلاً، وقد بدت طرية المنظر تقريباً من فرط طهوها وتحريكها، والآن استقرت قرب مؤخر الموقد وهي تبدو أسوأ كل دقيقة. آه، البسكويت! أمسكت مارتي باب الفرن بشراسة، خاشية أن تكون الدقائق الإضافية قد بددت جهودها، ولكن الدقائق لم تُبددها قط. فما من شيء كان يمكن أن يُفسد بعد تلك الكتلة الصلبة المنظر والمستقرة على الصينية بعناد، بادية مثل حجارة مكوّمة.

سحبت مارتي البسكويتات وكبت واحدة على الصوان لتبرد قليلاً قبل أن تُجري الاختبار القابض للصدر. ثم أطبقت أسنانها بيضاء على البسكويتة، دون جدوى، إذ أبت أن تترحزح. وشدت أسنانها بقوة زائدة، ومع ذلك لم تستسلم البسكويتة!

تمتت مارتي: "سحقاً!" وإذ فتحت الموقد، طرحت الشيء البغيض في النار. فهست السنّة اللهب حوالبه قليلاً، كهرة قف شعراً ظهرها المقوس، ولكن الكتلة الصلبة أبت أن تتلاشى، بل لبدت واسودت فحسب فيما تراقص اللهب حولها.

قالت غاضبةً: "يا له من شيء ملعون، يأبى حتى أن يحترق!" وأدخلت حطبة بسرعة فوق الكتلة الواشية لكي تسترها.

"والآن، ماذا أفعل بهذه؟"

نظرت مارتي حوالبها. كيف تتخلص من هذه الأشياء المكتلة؟ لم

تستطع أن تُحرقها. ولا يمكن أن ترميها خارجًا إلى الكلب لئلا تُفصح
أمام جميع العيون. ستدفنُها إذًا... تلك الأشياء الفاسدة! وجرفتها على
عجلٍ إلى طرفٍ مئزرها ثم انطلقت نحو الباب.

نادت: ”مسي، ابقِ مكانك!“ ثم إذ تذكّرت اختبارها السابق،
استدارت وسحبت ركوّة القهوة إلى مؤخر الموقد.

إلى خارج الباب مضت، ناظرةً أوّلاً صوب الحظيرة لتتقن بأنَّ
سبيلها سالك. ثم ركضت بسرعة إلى طرف الحديقة الأقصى. كانت
التربة ما تزال ليّنة، فجثت على رُكبتها وحفرت بيديها حفرةً ثم كبت
الكتل المغشية. وبعدما غطتها بسرعة، هُرعت راجعةً إلى البيت. فلما
وصلت إلى الفناء، استطاعت أن تشمّ قديد الفخذ المحترق.

صاحت: ”آه، لا! يا لها من ورطة!“

غسلت يديها بسرعة في الحوض الخارجي، وغسلت الدُموع خديها
فيما ركضت إلى المطبخ الصغير، حيثُ بدا كلُّ شيءٍ جاريًا بطريقةٍ
خاطئة.

ولما دخلَ كلارك لتناول العشاء، قدّمت له بطاطا فاترةً ليّنة، وشرائح
قديدٍ محروقةً قليلًا، فضلًا عن قطع الخبز القليلة الباقية. لم يؤت على
ذكر الجزر الذي كان قد بدأ يغلي تواء، ولا ذكّرت بالتأكيد الكتل
الفاسدة المُسمّاة بسكويتًا. ولم يقل كلارك أيّ شيءٍ وهو يأكل. أعني
أيّ شيءٍ ما عدا: ”هذه قهوةٌ جيّدةٌ حقًّا“.

زائرةٌ مُرَّحِبٌ بها

بزغ فجرُ يوم الجمعة صافياً وساطعاً، وإن كان الهواءُ لم يستعدِ دفءَ الجزءِ الأوَّل من الأسبوع. واستلقتُ في السريرِ مُتذكرةً عشاءهُما البارحة. وكانت قد تجنَّبت بحرصٍ أيَّ تعليقٍ على الشُّقوقِ المُوحلة، ولكنَّ قطعةً واحدةً صغيرةً في الزاويةِ كانت قد انخلت فجأةً. فإنَّها فقدت أساسها بين الألواح، وسقطت أرضاً تاركةً لطحنةً صغيرةً في أثناء سقوطها. وكان كلارك قد رفعَ بصره جافلاً، إلاَّ أنَّه استأنف الأكل. فصلتْ مارتِي، أو كانت ستُصلِّي لو عرَّفت كيف، طالبةً أن يبقى باقي اللُّوح في مكانه المشؤوم الذي ينتمي إليه. وقد بقي، فنظَّفت الطاولة وغسلت الصُّحون وهي شاكرة.

دعت الحاجة إلى ضوءِ مصباح في الأمسية، إذ باتت النَّهاراتُ أقصر. كان الرِّجال يشتغلون في الحقول إلى وقتٍ متأخِّرٍ بقدرِ ما استطاعوا قبل الانصراف إلى المهامِّ اليوميَّة، وهكذا كان الظلامُ قد حلَّ تماماً قبل انتهاء العشاء. فسرتْ مارتِي لما هبطَ الظلامُ تلك الليلة. إذ بثَّ المصباحُ ظلالاً، مُقتماً الشُّقوقَ الصَّاربة إلى الرَّماديِّ. وفيما مارتِي

تَغْسِلُ مِسي قَبْلَ النَّوْمِ، حُيِّلَ إِلَيْهَا أَنَّهَا سَمِعَتْ قِطْعَةً أُخْرَى تَنْخَلَعُ، وَلَكِنَّهَا أَبَتْ أَنْ تَعْتَرِفَ بِذَلِكَ، رَافِعَةً صَوْتَهَا لِتَتَحَدَّثَ إِلَى مِسي وَتُحَاوِلَ أَنْ تَسْتُرَ صَوْتَ السُّقُوطِ الْمُفْرِعِ.

ذَلِكَ كَانَ الْبَارِحَةَ، وَالْيَوْمَ فِيمَا مَارَتِي تُحَاوِلُ أَنْ تُهَيِّئَ نَفْسَهَا لِمُوجِهُةِ يَوْمٍ آخَرَ، تَسَاءَلْتُ أَيُّ أُمُورٍ جَدِيدَةٍ وَرَهِيبةٍ يَحْمِلُهَا لَهَا. وَكَانَتْ قَدْ وَاجَهَتْ أَصْلًا أَمْرًا وَاحِدًا: بَاتَ مِعْجَنُ الْخُبْزِ فَارِغًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا أَدْنَى فِكْرَةٍ عَنِ كَيْفِيَّةِ التَّصَرُّفِ لِمَلْئِهِ مِنْ جَدِيدٍ. افْتَرَضْتُ أَنَّ كَلَارِكَ يَعْرِفُ كَيْفَ يُصْنَعُ الْخُبْزُ، وَلَكِنَّهَا تَوَثَّرُ أَنْ تَمُوتَ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَ. وَمَاذَا عَنِ الشُّقُوقِ؟ هَلْ جَفَّتْ تِلْكَ الْمَادَّةُ الْبَائِسَةُ أَخِيرًا فَايْبَضَّتْ وَصَارَتْ مَا يُفْتَرَضُ أَنْ تَكُونَهُ؟ رَعَبَتْهَا فِكْرَةُ الذَّهَابِ لِإِلْقَاءِ نَظْرَةٍ فَاحِصَةٍ، وَلَكِنَّ الْاسْتِيقَاءَ هُنَاكَ مَا كَانَ لِيَحُلَّ أَيْةَ مَشْكَالَاتٍ.

جَاهَدَتْ حَتَّى نَهَضَتْ عَنِ سَرِيرِهَا. كَانَتْ عَضَلَاتُهَا مَا تَرَالُ تَوْلِمُهَا مِنْ جَرَاءِ جُهْدِهَا الشَّاقَّةِ نَهَارَ أَمْسٍ. وَكَانَتْ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهَا سَتَشْعُرُ بِذَلِكَ بَضْعَةَ أَيَّامٍ. ثُمَّ إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ قَدْ نَامَتْ جَيِّدًا. فَقَدْ دَارَتْ أَفْكَارُهَا مِنْ جَدِيدٍ عَلَى كَلِيمٍ وَكَمْ تَفْتَقِدُهُ. وَالْآنَ ارْتَدَّتْ ثِيَابُهَا دُونَ اكْتِرَاثٍ، وَسَرَّحَتْ شَعْرَهَا بِالْمُشْطِ، وَذَهَبَتْ إِلَى الْمَطْبَخِ.

كَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَاحِظَتْهُ هُوَ التَّشَقُّقُ. فَهُنَا وَهُنَاكَ حَوْلَ الْجُدْرَانِ كُلِّهَا، تَنَاثَرَتْ قِطْعٌ صَغِيرَةٌ مُتَغَضِّبَةٌ عَلَى أَرْضِ الْمَطْبَخِ. أَحَسَّتْ مَارَتِي مَيْلًا إِلَى الْبِكَاةِ، وَلَكِنْ قَلَّمَا كَانَ ذَلِكَ مُجْدِيًا. سَتُضْطَرُّ لِأَنَّ تُوَاجِهُةَ

كلارك بالأمر، فتعترف بما فعلت وتتلقي ما تستحقه تمامًا من لومٍ على ذلك.

دست في النار حطبتين، وحطت القهوة. وفجأة تساءلت تمامًا كم ركوّة من القهوة سوف تُضطرُّ لأن تعمل في حياتها. وفي تلك اللحظة بدت تلك الركوّات مُمتدّة إلى ما لانهاية.

وجدت إبريقًا، ووضعت على النار قليلًا من الماء ليغلي. هذا الصّباح سيتناولون حساء الحبوب الكثيف على الفطور. لكنّ حساءً وماذا؟ تساءلت بغیظٍ. ماذا يأكلون مع الحساء وليس لديهم أيّ بسكويت، أو فطائر مقيّن، أو خبز. فقالت مُغتاظة بصوت عالٍ: ”لا شيء!“. وإذ سحبت القدر عن الموقد باشمئزاز، انصرفت إلى العمل مُجددًا لصنع فطائر البانكيك.

استيقظت مسي ودخلت مارتي للإتيان بها. فابتسمت الطفلة ووجدت مارتي نفسها تردّ الابتسامة.

قالت: ”صباح الخير، مسي. تعالي إلى ماما!“ مُجرّبة الكلمات بجهد لترى كيف سيكون وقعهنّ. فقررت أنّها لم تستسغهنّ حقًا، وتمنت لو لم تستعملهنّ أصلًا.

أقبلت مسي مسرورةً، وثرثرت في أثناء إلباسها. وقد بات في وسع مارتي أن تفهم المزيد من كلمات الطفلة الآن. فهي كانت تقول شيئًا ما عن بابا، والبقرات القائلات مؤو والفرايح المُردّدة كلّك،

والخنازير... لم تستطع مارتي أن تلتقط الصَّوتَ المُضحِكَ الذي مثلَ الخنازير، ولكنها تبسَّمت للطفلة إذ حملتها إلى كرسيِّها. دخلَ كلارك إلى فطورٍ مألوفٍ الآن، وسلِّمَ على ابنته فردَّت زاعقةً بتسليمةٍ سعيدة.

بعدَ قراءةِ المقطع من الكتاب المقدَّس، حنوا رؤوسَهُم كي يُصَلِّي كلارك. فشكر أباه على راحة اللِّيل، والوعدِ ”بِنهارٍ صافٍ لإدخال باقي محصولِ جَدٍ وخَزَنِهِ“.

وقد دُهِشَتْ مارتي بالقِسم التَّالي من صلاته:
”أبانا، كُنْ مع هذه التي تبذلُ أقصى جَهدِها لتكونَ ماما صالحةً لمِسي ومُدبِّرةً جيِّدةً لهذا البيت“.

استمرَّت الصَّلَاة، ولكنَّ مارتي فوَّتتها. كلُّ ما قد فعلته حتَّى الآن مُني بالفشل. فلا عَجَبَ إنَّ كان كلارك قد شعر بأنَّ الأمر سيقتضي عَوناً من عند القدير بنفسه لوضع الأمور في نصابها من جديد. لم تعلم إن كان ينبغي لها أن تشعُر بالرِّضى أم بالغضب حيالَ صلاةِ كهذه، وهكذا دفعت جانباً بقوَّة المسألة كلَّها في الوقتِ المناسبِ تماماً لقولِ ”آمين“.

فكرَّت مِسي ”آمين!“ وابتدأ الفطور. أوَّلَ الأمر أكلوا بصمتٍ تقريياً، إذ تبادل كلارك ومِسي فقط بضغِ التعلِّقات ووبَّخ كلارك مِسي.

”لا ترمي الفطيرة على الأرض. هذا تصرفُ بنتٍ سيئةِ السُّلوك، وهو يُكثِّرُ شُغْلَ ماما“.

التقطتُ مارتى بضعَ إشاراتٍ أخرى إلى ”ماما“، وأدركتُ أنّ كلارك ما زالَ يستعملُ هذا التَّعبيرَ غالبًا في اليومين الماضيين. فعلمتُ أنه كان يبذلُ جَهْدًا واعيًّا في تربيةِ البنتِ الصَّغيرةِ لتحسبَ مارتى أمَّها. وافترضتُ أنه سيكون عليها أن تتعوَّدَ ذلك. فرُغمَ كلِّ شيءٍ، فقد كان ذلك هو ما كانت مَوجودَةً هنا لأجله...يقينًا لا لكي تُسَلِّيَ الشَّابَّ ذا المنظرِ الجادِّ، الجالسَ قبالتها إلى الطَّولة.

انخلعتُ قطعةً أخرى من الألواحِ مُطَّقطعةً، فسحبتُ مارتى نفسًا عميقًا وانفجرتِ قائلة: ”أخشى أنّي ارتكبتُ غلطةً رهيبَةً أمس. لقد انصرفتُ إلى تنظيفِ المطبخ...“.

وهنا قال كلارك بسرعة: ”لقد رأيتُ أنه كان كلُّه أنيقًا ونظيفًا، منظرًا ورائحةً“.

فقالَتْ في نفسها ثائرةً: والآن، لماذا يفعلُ هذا يا تُرى؟ ثمَّ استنشقتُ جرعةَ هوائٍ أخرى ومضت تقول: ”إلاّ أنّي لم أعلم ما سيفعله ماءُ التَّنظيفِ بالألواح. أعني أنّي لم أعلم أنّها ستتللُّ كلُّها ولا تنشفُ ثانيةً“.

لم يقل كلارك أيّ شيءٍ.
فحاولت مرةً أخرى بعد: ”إنَّها تتصدَّع. أعني، حسنًا، انظر إليها.

إنَّهَا تَتَكَسَّرُ وَتَنْخَلَعُ...“.

قال كلارك: ”صحيح!“ مع انحناءٍ قصيرةٍ من رأسه، دون أن يرفع حتى عيَّنيه.

فقالت مارتي مُتلعثمَةً: ”إنَّهَا لا تبقى في مكانها. فما الذي يُمكن أن نعمله؟“

وكانت الآن قد باتت غاضبةً نوعًا ما؛ فإنَّ بُرودته أثارت أعصابها. وما لبثت أن رفع نظره وأجاب على مهلٍ: ”لا بأس. عندما أذهب إلى المدينة يوم السبت، سأحضر مزيدًا من معجونة سدِّ الشقوق. إنَّها من نوع خاصٍّ، وهي مصنوعة لجعل الألواح تبدو أكثر بياضًا ونظافة، ولكنها لا تصلح بتاتًا للصدود أمام التقلبات الجويَّة؛ لأنَّ المعجونة الخارجيّة هي ما سيؤدِّي ذلك العمل. ما زال هناك وقت لإصلاح الألواح قبل حلول الشتاء. والماء لا يؤدي الطبقة الخارجيّة البتَّة، لذلك الألواح مُتماسكة بثبات مقبول. لا تقلقي أنتِ بشأن ذلك. وأنا على يقين بأنَّ الوطاويط لن تطير عبر الشقوق قبل أن أصل إليها!“

وابتسم ابتسامَةً خفيفةً، فكان يُمكن أن ترفسه بابتهاج. ثمَّ قام ليذهب.

”أظنُّ أنَّك ما زلتِ تُجهدين نفسك بشدَّة إلى حدٍّ ما، ولكن قد يحسنُ بك ألا تُحاولي تنظيف المكان كلَّه في أسبوع واحد. أمامك مزيدٌ من الأيام، ويبدو أنَّك مُتعبَةٌ نوعًا ما.“ وبعد تردُّدٍ أضاف: ”في

حَالٍ قَرَّرْتُ أَنْ تُنْجِزِي مَزِيدًا مِنَ التَّنْظِيفِ، فَمَا عَلَيْكِ إِلَّا أَنْ تُنْظِفِي
الجُدْرَانَ بِفُرْشَاةٍ نَاشِفَةٍ. مَفْهُومٌ؟“

قَبْلَ مِسي مُودَّعًا بَعْدَمَا قَالَ لَهَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَةَ السُّلُوكِ مَعَ مَامَا،
وَخَرَجَ مِنَ الْبَابِ مِنْ أَجْلِ مَا قَالَ إِنَّهُ رَبَّمَا يَكُونُ آخِرَ يَوْمٍ فِي مُسَاعَدَةِ
جَدِّ لَارِسُونِ عَلَى مَحْصُولِهِ. فَافْتَرَضْتُ مَارْتِي أَنَّه سَيَكُونُ فِي أَنْحَاءِ
الْمَكَانِ أَغْلَبَ الْأَحْيَانِ. وَارْتَاعَتُ مِنَ الْفِكْرَةِ، إِلَّا أَنْ ذَلِكَ كَانَ لَا بُدَّ
أَنْ يَأْتِيَ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا.

وَضَعْتُ مَاءً عَلَى النَّارِ كِي يَغْلِي فَتَمَكَّنَ مِنْ غَسَلِ بَطَّانِيَّاتِ الْخِرْقِ
قَبْلَ حُلُولِ الشِّتَاءِ، ثُمَّ وَجَدْتُ فُرْشَاةً طَرِيَّةً لِإِزَالَةِ الْغُبَارِ عَنِ جُدْرَانِ غُرْفَةِ
الْجُلُوسِ.

لَمْ يَسْتَعْرِقْ تَنْظِيفُ تِلْكَ الْجُدْرَانَ بِالْفُرْشَاةِ تَقْرِيبًا مَا اسْتَعْرَقَهُ فَرَكُ
الْمَطْبَخِ، وَقَدْ عُنِيَ ذَلِكَ بِأَمْرِ بِيوتِ الْعِنَاكِبِ وَالْغُبَارِ فِعْلًا. وَفَاجَأَهَا أَنْ
تُنْهِيَ عَمَلَهَا بِسُرْعَةٍ زَائِدَةٍ، ثُمَّ مَضَتْ تُنْظِفُ النَّوَاذِ وَالْأَرْضِيَّةَ أَيْضًا.

كَانَتْ سِتَائِرُ غُرْفَةِ الْجُلُوسِ مَا تَزَالُ تُرْفَرُ فِي مَهَبِّ نَسِيمِ الْخَرِيفِ،
وَالْبَطَّانِيَّاتُ تَنْشَفُ تَحْتَ الشَّمْسِ، لَمَّا سَمِعَتِ الْكَلْبَ يُعْلِنُ قُدُومَ
حِصَانَيْنِ. وَإِذْ نَظَرْتُ إِلَى الْخَارِجِ مِنَ النَّافِذَةِ، مَيَّزْتُ السَّيِّدَةَ غَرَاهَامَ،
فَأَطْلَقَ قَلْبُهَا خَفَقَةَ سُرُورٍ وَهِيَ تَخْرُجُ لِلتَّرْحِيبِ بِهَا. ثُمَّ تَبَادَلَتَا التَّحِيَّاتِ،
وَوَضَعْتُ مَا غَرَاهَامَ حِصَانِيَّهَا فِي الظِّلِّ، وَقَدَّمْتُ إِلَيْهِمَا بَعْضَ التَّبَنِ
لِإِبْقَائِهِمَا مُطْمَئِنِّينَ فِي انْتِظَارِهِمَا لَهَا. وَبَعْدَئِذٍ لِحِقَّتْ بِمَارْتِي إِلَى دَاخِلِ

استلقى الكلب على أحد جانبي الممر الآن، وراح ويعضض بقوة شيئاً صغيراً يشبه عظمة. ورأت مارتى بفرع أن ذلك الشيء كان إحدى بسكوياتها؛ فالكلب الملعون قد نبشها. وبدقة تورّد إلى خديها، استعجلت السيدة غراهام لتخطيه، آملة أن تخفق المرأة الأكبر سناً في معرفة الكتلة على حقيقتها.

وفيما دخلتا المطبخ، استولى الخجل على مارتى. إذ لم يسبق لها قط أن استقبلت امرأة أخرى في مطبخها. فلم تعرف ماذا تفعل أو تقول، وبالتأكيد كان لديها قليلٌ تُقدّمه إلى الزائرة، كالمشروبات المنعشة.

لاحظت مارتى أن ما غراهام أبقت عينها بحذر بعيداً عن شقوق الألواح المنهارة، وعلقت بدلاً من ذلك على الأرضية المنظفة جيداً. تحرّكت مارتى بنشاطٍ وارتباكٍ مقرونين بالخبجل، واضعةً بعض الحطب في بيت النار، والقهوة على النار. وتكلّمت ما غراهام براحة عن الحالة الجوية، وعن ميسي الصغيرة المبهجة التي أحبّتها بناتها واعتنن بها، وعن المحصول الجيّد. وظلت مارتى شاعرةً بالاضطراب. فكانت شكوراً لما غلت القهوة، وتيسّر لها أن تصبّ فنجاناً لكلّ منهما. ثمّ أجلسّت ميسي على كرسيها وأمامها كأس حليب، ووضعت القشدة والمحلّي لأجل السيدة غراهام في حال استعملتها. وبقلب

غائص، أدركت أنها لم تملك شيئاً تقدّمه مع القهوة، ولا حتى كسرة خبز. أجل، كانت القهوة هي كل ما لديها، فلا بُدَّ أن تفي القهوة بالعرض.

قالت ما مُعلّقة: ”أرى أنك ما زلتِ مشغولةً كَنحلة، بينما تنظفين البيتَ تنظيفَ الخريف“.

فردتِ مارتى: ”صحيح“.

”جيدٌ أن يكونَ كلُّ شيءٍ مُنظفًا لأجلِ النَّهاراتِ والليالي الطَّوالِ قُدَّامنا، حين يصعبُ على المرأةِ الخروجَ كثيرًا. تلكَ أيَّامُ الحَبكِ وتَضريبِ اللُّحف“.

صحيح، فهكذا شعرت.

”ألديكم وفرةٌ من البَطَانِيَّاتِ للتدَثُّر؟“

كانت على يقين بأنَّ لديهم.

”ماذا عن اللُّحف؟ أنتِ محتاجةٌ إلى أيِّ من تلك؟“

لا، لم تظنَّ ذلك.

ارتشفتا قهوتَهُما على مهل. ثمَّ شَخَصَت عينا ما البُتَيْتَانِ الدافئتان إليها.

”كيف تسيِّرُ الأمور، يا مارتى؟“

ما كانت الكلمات، بل كانت النَّظرةُ ما فعَلَ فعَله. فقد قال التَّعبيرُ في عيني ما إنَّها حقًا تهتمُّ بكيفيَّةِ سيرِ الأمور، وإذا بتصميمِ مارتى

الثَّابِتُ عَلَى التَّمَاسُكِ بِشِجَاعَةِ يَنْهَارٍ مِثْلَ شُقُوقِ الْأَلْوَاحِ تَمَامًا.
وَتَدَفَّقَتِ الْكَلِمَاتُ فَوْقَ الْكَلِمَاتِ إِذْ حَكَّتْ لِلسَّيِّدَةِ غِرَاهَامَ كُلَّ شَيْءٍ
عَنِ فِطَائِرِ الْبَانِكِيكِ، وَثَوْرَانَ مِسيِّ الْمُعَانِدِ، وَخُلُوقَ مِعْجَنِ الْخُبْزِ،
وَالْبِسْكَوِيَّاتِ الْفَاسِدَةِ، وَاخْتِفَاءِ مِسيِّ، وَشُقُوقِ الْأَلْوَاحِ، وَالْعِشَاءِ الرَّهِيْبِ
الَّذِي قَدَّمَتْهُ الْبَارِحَةَ، وَأَخِيرًا عَنِ تَلَهُّفِهَا الشَّدِيدِ إِلَى الزَّوْجِ الَّذِي فَقَدَتْهُ
حَدِيثًا. وَقَدْ جَلَسَتْ مَا صَامِتَةً، مُغْرَوْرَقَةً الْعَيْنَيْنِ. ثُمَّ قَامَتْ فَجَاءَةً،
وَبَاتَتْ مَارْتِي خَائِفَةً أَنْ تَكُونَ قَدْ أَثَارَتْ اسْتِيَاءَ الْمَرَأَةِ الْأَكْبَرِ سِنًّا
بِانْفِجَارِهَا.

وَمَا لَبِثَتْ مَا أَنْ قَالَتْ بَرِقَةً- وَقَدْ سَكَنْتِ لَجْهَتْهَا أَيَّ خَوْفٍ مِنْ
الْاسْتِيَاءِ- ”هَلْمِي، عَزِيزَتِي! سَتَلْقَيْنِ دَرَسًا فِي صُنْعِ الْخُبْزِ. ثُمَّ سَأَقْعُدُ
وَأَكْتُبُ لِكَ كُلِّ وَصْفَةٍ أُسْتَطِيعُ تَذَكُّرَهَا. كَمَا هُوَ مُؤَسَّفٌ مَا كَانَ عَلَيْكَ
أَنْ تَجْتَازِي فِيهِ فِي الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ، وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ السِّنِّ هَكَذَا،
وَمَا زَلْتِ فِي غَمْرَةِ الْأَسَى“. ثُمَّ أَجَالَتْ عَيْنَيْهَا الرَّقِيقَتَيْنِ عَلَى شَكْلِ
مَارْتِي، مُضِيْفَةً: ”وَإِنْ لَمْ أَكُنْ مُخْطِئَةً فِي تَخْمِينِي، فَأَنْتِ أَيْضًا فِي
الطَّرِيقِ إِلَى إِنْشَاءِ عَائِلَةٍ، أَلَسْتَ كَذَلِكَ، حُبْلَى بِطِفْلِ؟“

أَوْمَأَتْ مَارْتِي بِرَأْسِهَا إِيْجَابًا بِصَمْتٍ، مُبْتَلِعَةً دُمُوعَهَا، وَتَوَلَّتْ مَا
الْأُمُورِ، مُشْتِغَلَةً وَمُتَكَلِّمَةً، حَتَّى تَيْسَّرَ لَهَا أَخِيرًا أَنْ تَجْعَلَ مَارْتِي تُحِسُّ
أَنَّهَا جَدِيرَةٌ بِالْإِهْتِمَامِ أَكْثَرَ مِمَّا أَحْسَسَتْ مِنْذُ فَقَدَتْ زَوْجَهَا كَلِيمًا.

وَبَعْدَ يَوْمٍ حَافِلٍ بِالنَّشَاطِ، انصَرَفَتْ مَا. وَقَدْ تَرَكَتْ وِرَاءَهَا حُرْمَةً مِنْ

التعليمات الكاملة، وخبزًا طازجًا ملاً المطبخَ برائحته الطيبة، ومِلءَ سَلَّةٍ من أطايبها الخاصَّة، فصارت مارتِي واثقةً بنفسها أكثرَ كثيرًا والعشاءُ في مُتناوَلِ يَدِها.

ثُمَّ نَفَثَتْ مارتِي صلاةً قصيرةً أَنَّهُ إِذَا كَانَ إِلَهُ مَا مَوْجُودًا فَوْقَ فِي مَكَانٍ مَا، فَعَسَى أَنْ يَسْتَحْسِنَ إِرسَالَ بَرَكةٍ مَخْصُوصَةٍ عَلَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ الرَّائِعَةِ الَّتِي تَعَلَّمَتْ مارتِي بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ أَنْ تُحِبَّهَا.

إِنَّهُ عَالَمٌ قَائِسٌ

بَزَغَ فَجَرُ السَّبْتِ صَافِيًا وَأَكْثَرَ بُرُودًا. وَاسْتَعْجَلَ فَطُورُ حَسَاءِ الْحُبُوبِ الْكَثِيفِ وَمَفِينَاتِ الذُّرَّةِ لِيَتَسَنَّى لِكَلَارِكٍ أَنْ يَنْطَلِقَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَاكِرًا. وَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ مَارْتِي اللَّائِحَةَ الَّتِي سَاعَدَتْهَا مَا غَرَاهَامُ عَلَى كِتَابَتِهَا يَوْمَ أَمْسٍ.

وَقَدِ قَالَتْ لَهَا مَا: ”تَذَكَّرِي أَنَّهُ فِي أَشْهُرِ الشِّتَاءِ قَدْ تَمَرُّ أحيانًا ثَلَاثَةُ أَسَابِيعٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ مَا بَيْنَ الرَّحَلَاتِ، وَلَا تَعْرِفِينَ مُسَبِّقًا أَيَّ سُبُوتٍ سَتُفَوِّتِينَ، لَذَا عَلَيْكَ دَائِمًا أَنْ تَخْزَنِي مَقَادِيرَ جَيِّدَةٍ مِنَ الْمَوْنِ“.

وَهَكَذَا كَانَ لَا بُدَّ أَنْ تَطُولَ اللَّائِحَةُ فِي الْأَخِيرِ، فَفَلِقَتْ مَارْتِي فِي سِرِّهَا، وَلَكِنَّ كَلَارِكًا لَمْ يَيْدُ مَدَهوشًا لَمَّا تَفَقَّدهَا عَلَى عَجَلٍ. فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا عَلَى اللَّائِحَةِ، ثُمَّ انْحَنَى لِيُقَبَّلَ مِسي مُودِّعًا، وَاعْدَا إِيَّاهَا بِمُفَاجَأَةٍ عِنْدَمَا يَعُودُ.

تَنَفَّسَتْ مَارْتِي الصُّعْدَاءَ إِزَاءَ نَهَارٍ آخِرٍ بِلَا كَلَارِكٍ، وَصَرَفَتْ أَفْكَارَهَا إِلَى تَخْطِيطِ مَا تَنْوِي الْقِيَامَ بِهِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ. كَانَ كَلَارِكٌ قَدْ نَبَّهَهَا

كي تُهَوَّنَ الأمورَ عليها قليلاً، وقد قالت ما غراهام إنَّها تخشى أن تكون مارتى ”مُبالِغَةً في العملِ لامرأةٍ في وَضْعِها“، ولكنَّ مارتى عَلِمَتْ أَنَّهُ يجب أن يكونَ لَدَيْها شيءٌ يتطلَّبُ جَهْدًا لِمِتلأ سَاعَاتِها، وإلَّا استولى عليها الشُّعورُ بِخَسَارَتِها الفادحة. وتطلَّعت حَوَالِيا لَترى ما يمكن أن تتولَّى القيامَ به في هذا النَّهار. فقرَّرت أن تُكَمِّلَ تَنظِيفِها. ستضع أوَّلًا ماءً على النَّارِ كي تَتَمَكَّنَ من غَسْلِ البِياضاتِ، ثُمَّ تُنظِّفُ النافذةَ والجُدُرانَ والأرضيَّةَ في عُرفة النَّومِ، وإذا سمحَ الوقتُ بعدُ فستُنظِّفُ السَّقِيفَةَ. ولم تُفكِّرْ أدنى تفكيرٍ في تَنظِيفِ السَّقِيفَةِ ذاتِ السَّطحِ المائلِ؛ فذلك مسكِّنٌ كلارك، كما قالت لنفسها، وهي لن تتنظَّلَ.

بعدما أَجَلَسَتْ مارتى مِسي مع دُمِيَّةِ الخِرَقِ الصَّغيرةِ التي لها، ولِحافٍ صغيرِ مصنوعِ باليد لَتُدَثِّرُها به، باشرتْ مَهَامَّها، مُرغِمةً ذَهنَها على التَّركيزِ على ما كانت تقومُ به. إذ كان خَوْفٌ مُرْعِجٌ باسْتِمْرارٍ يرفعُ رأسه بين حينٍ وآخر. فإذا فرِغتَ من التَّنظِيفِ الشَّاقِّ كُلِّه اليوم، فماذا ستفعل غداً، وبعْدَ غَدٍ، وفي اليومِ الذي بعْدَه؟ ثُمَّ دَفَعَتْ هذه الفكرةَ جانِبًا. سيكونُ على أَيَّامِ الغَدِ أن تهتمَّ بِنَفْسِها. فهي لا تستطيعُ الآن أن تُواجهَ مَدَى أبَعَدَ من الحَدِّ طَيِّ المُستقبلِ. وقد كانت على يقينِ بأنَّها إذا سمحتَ لِفِكرِها بأن يُرَكِّزَ على الأَسابِيعِ والأشهُرِ التي أمامَها في هذا الكُوخِ الصَّغيرِ مع زوجٍ لم تختره وطفلةٍ ليست لها، فستنهارُ تحتَ ثِقَلِ ذلك كُلِّه.

أنجزتْ مَهَمَّتِها الأخيرةَ لذلك النَّهارِ في الوقتِ المُناسِبِ تامامًا للبدءِ

بتحضيراتِ العشاء. وكان كلارك قد قال إنه ينبغي أن يكونَ في البيت للقيامِ بالمهامِّ المعتادة في وقتها. فقلّبتُ بإبهامها الوصفاتِ التي كانت ما قد تركتها. سَعِدْتُ بسكويتًا وَيَخْنَةَ خُضْرَ، كما قرّرتُ، مُستعملةً قليلاً من مرقِ اللَّحْمِ الذي أحضرته ما لِتَنكِيهِ اليَخْنَةَ. فمضتُ إلى العملِ، مُكتشفَةً أنّها أهملتُ إذكاءَ النَّارِ مرّةً أخرى.

وإذِ باشرتُ إشعالَ النَّارِ مُجدِّداً، قالتُ مُغتاظَةً: ”اللّعنة! ألن أتعلّم؟“ وقد شاهدتُ مِسي ذلك كَلِّه بعينين واسعتين، مُتشبِّهَةً بِدُميتها.

سَمِعْتُ مارتِي البنتَ الصَّغيرةَ تُهمِّهم: ”أل... لعنة،“ ولم تتمالكِ نَفْسَها عن الشُّعورِ بالارتباكِ قليلاً. فسحبتُ نَفْسًا عميقًا لِتُهدِّي نَفْسَها، وكانتِ الخُضْرُ تَعْلِي بِرفقِ جيِّداً لَمَّا توقَّفَ الحِصانانِ خارجًا. وحلَّ كلاركِ العرَبَةَ بِقُربِ البيتِ لِيسَهِّلَ إنزالَ المَوْنِ، ثُمَّ مضى بالحِصانينِ إلى الحظيرةِ.

تابعتُ مارتِي تحضيراتها للعشاء. وهذه المرّة، بفضلِ ما غراهام، بدتُ البسكويتاتُ واعدةً أكثرَ بكثيرِ.

لاحظتُ أنّ كلاركِ بدأ مُتعبًا لما دخلَ راجعًا من مَهامِّه. وضمَّ مِسي ضِمَّةً حارّةً قبلما جلسَ إلى الطَّاولَةِ، إلّا أنّ مارتِي لاحظتُ أنّ كَتِفِيهَ بدتَا مُنحَنِيَتَيْنِ قليلاً. أكان التَّسَوُّقُ بالفعلِ صَعْبًا على الرَّجُلِ إلى هذا الحدِّ، أم هي جعلتِ اللائحةَ طويلةً جدًّا فصرفتُ كلَّ مالِهِ؟ ففكرتُ مارتِي مليًّا في الأمرِ وهي جالسةٌ في مكانها إلى المائدة، ولكنْ

لم يبدُ أنَّ هُنَالِكَ جوابًا، فرَكَزْتُ من ثَمَّ على تبريدِ يَخْنَةِ مِسي. وإذا بصَوْتِ كلارك يُقَاطِعُ أفكارها: ”أخشى أن يُؤدِّي إدخالُ المَوْنِ كُلِّها إلى إشاعةِ شيءٍ من الفوضى في بيتكِ المُرتَّبِ جيِّدًا في الوقتِ الحاليِّ“.

فردَّتْ مارتِي: ”لا بأس. سنَضَعُ الأشياءَ في أماكنها الصَّحيحةِ عاجلاً“.

وأضَافَ كلارك: ”كثيرٌ من المَوْنِ سيُفَرِّعُ ويُخزَنُ في العِليَّةِ فوقَ المطبخ. تصِلينَ إليها بسُلْمٍ خارجِ البيت“.

أحسَّتْ مارتِي عينيها تتسَّعَّان، وقالت له: ”لم أعلم بوجودِ عِليَّةِ فوقَ هُناك“.

”إنَّها فارغةٌ تقريبًا الآن، لذا ما كانَ عِلْمُكِ بها لينفَعُ كثيرًا. نحنُ نخزِنُ فيها الموادَّ في الخريف، حتَّى لا تنفَدَ عندنا أشياءٌ مثل الدَّقِيقِ والمِلحِ عندما تأتي عواصِفُ الشِّتاءِ. سأحمِلُ مَوْنَ التَّخزينِ إلى فوقَ مُباشرةً، حتَّى لا أَمَلأَ بيتكِ بِرُكامها المُبعَثَرِ. أمَّا الأشياءُ الصُّغرى، فسيكونُ عليَّ أن أدخِلَها إلى هُنا، لكي يتيَسَّرَ لكِ أن تخزِنَها حيثُ تُريدِنها أن تكون. أتريدِنها الآن في المطبخ أم في السَّقِيفة؟“

عِلِمَتْ مارتِي أنَّها ستكونُ أقربَ منالًا في المطبخ، ولكنَّ إذا كانت في السَّقِيفة فلا يكونُ كثيرٌ من الفوضى قبلَ أن تتولَّى وَضَعَهَا في أماكنها. فقرَّرتْ وَضَعَهَا في السَّقِيفة، ثمَّ أسرعَا في عشاَئهما لينصَرفَا

إلى المهمة.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، سحب كلارك من جيبه كيس سكاكر صغيراً وقدم قطعة إلى ميسي. ثم أعطى مارتي الكيس قائلاً لها أن تفضل بأخذ شيء ثم تدس الكيس بعيداً في الخزانة لأجل ضيافات مستقبلية. وامتصت ميسي القطعة بابتهاج ضاحٍ، مُعلنةً أن هذا ”نمنم“ و”حلو بابا“.

غسلت مارتي الصحون، وأدخل كلارك المون في السقيفة كما اتفقاً.

بينما مارتي تملأ العلب والجرار، شعرت بمثل السكر حيال وفرة المواد. وكان في وسعها أن تسمع كلارك وهو يزرع تحت الأكياس الثقيلة، مُتسلقاً السلم مرةً بعد مرةً إلى علية المطبخ.

أخيراً أنجزت المهمة تماماً. وباتت الخزانة محشوةً بالمون. تصوّر لو تيسر لها ولكليم أن يكدسا المواد على ذلك النحو! أما كان ذلك ليكون مثل عيد الميلاد والنزه وأعياد المولد ملفوفةً كلُّها في صرةٍ واحدة؟ ثم تنهدت ومسحت دمعاً غير متوقّعة.

كانت مارتي تُغطي ميسي في السرير كي تنام، مُتسائلةً هل يأتي كلارك ليسمع صلاة البنت الصغيرة كعادته، إذ سمعته ينوء بحملٍ ثقيلٍ نوعاً ما. فقاد مارتي فضولها للرجوع إلى المطبخ كي تتحقق. وإذا بكلارك، وفي يده مطرقة، ينقل صندوقاً فيه شيء كبير. فوقفت

تُرَاقِبُ بَصْمَتٍ مِنَ الْبَابِ فِيمَا كَشَفَتْ أَدَاةُ كَلَارِكِ الْمُحْتَوَى. وَعَلِقَ نَفْسَهَا فِي حَنْجَرَتِهَا، إِذْ هُنَاكَ، بَرَزَتْ أَعْجَبُ مَاكِينَةِ خِيَاطَةِ رَأْتَهَا عَيْنَاهَا يَوْمًا، كَانَتْ بَرَّاقَةً بِالْمَعْدِنِ وَالخَشَبِ الْمَصْقُولِ!

لَمْ يَنْظُرْ كَلَارِكٌ صَوْبَهَا، بَلْ بَدَأَ يَتَكَلَّمُ، وَقَدْ بَدَأَ صَوْتُهُ مُتَعَبًا كَمَا بَدَأَ كِتْفَاهُ قَبْلًا. وَلَكِنَّهُ أَحْسَسَ، عَلَى مَا يَظْهَرُ، أَنَّ نَوْعًا مَا مِنَ التَّفْسِيرِ كَانَ فِي مَحَلِّهِ.

”طَلَبْتُهَا قَبْلَ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ لَتَكُونَ مُفَاجَأَةً لَزَوْجَتِي أَلَيْنَ. كَانَتْ تَحِبُّ الخِيَاطَةَ، وَكَانَتْ دَائِمًا تَصْنَعُ شَيْئًا مُتَقَنَّأً إِلَى أْبْعَدِ حَدٍّ. كَانَتْ الْمَاكِينَةُ سَتَكُونُ بِمُنَاسِبَةِ عِيدِ مَوْلِدِهَا. وَكَانَتْ هِيَ سَتَكُونُ قَدْ بَلَغَتْ الْحَادِيَةَ وَالْعِشْرِينَ غَدًا“. وَعِنْدئذٍ رَفَعَ عَيْنَيْهِ. ”سَأَكُونُ فَخُورًا إِذَا حَسِبْتَهَا لَكَ الْآنَ. أَنَا عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّكَ تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَسْتَفِيدِي مِنْهَا. سَأَنْقُلُهَا إِلَى دَاخِلِ غُرْفَتِكَ وَأَضْعُهَا تَحْتَ النَّافِذَةِ إِذَا أَحْبَبْتِ“.

ابْتَلَعَتْ مَارْتِي نَشْجَةَ. لَقَدْ كَانَ يُعْطِيهَا هَذِهِ الْمَاكِينَةَ الْجَمِيلَةَ. وَكَانَتْ قَدْ حَلَمَتْ دَائِمًا بِامْتِلَاكِ مَاكِينَةِ خِيَاطَةِ تَخْصُصُهَا، غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ تَجْرُؤْ قَطُّ عَلَى الطُّمُوحِ إِلَى وَاحِدَةٍ عَظِيمَةِ جَدًّا. فَلَمْ تَدْرِ مَاذَا تَقُولُ، وَمَعَ ذَلِكَ أَحْسَسَتْ أَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تَقُولَ شَيْئًا مَا.

أَخِيرًا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُهَمِّمَهُمْ: ”شُكْرًا لَكَ. شُكْرًا لَكَ. ذَلِكَ... ذَلِكَ سَيَكُونُ حَسَنًا، حَسَنًا حَقًّا“.

عِنْدئذٍ فَقَطْ أَدْرَكَتْ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ طَوِيلَ الْقَامَةِ أَمَامَهَا كَانَ يُجَاهِدُ

لأجل السَّيطرة. فقد ارتعشت شفتاه، وإذ دارَ لِيَمْضِيَّ كانت على يَقين بأنها رأت دموعًا في عَيْنِيهِ. ثُمَّ مَرَّتْ مَارْتِي بِلِزْقِهِ وخرَجَتْ إلى برودة اللَّيلِ المعتدلة. كان عليها أن تُفكِّرَ، أن تُصنِّفَ الأُمُورَ جيِّدًا. كان قد طَلَبَ الماكينةَ لزوجته أَلينَ، وكان يبكي. ففكَّرتُ: لا بُدَّ أَنَّهُ مُتَأَلِّمٌ أَيضًا. وقد صَعَقَهَا إدراكُها ذلك. ارتخاءُ كَتِفِيهِ المقرونُ بالتَّعبِ، الشَّفتانِ المُرتعشتانِ، العينانِ المُغرورقتانِ. إنَّه... إنَّه لا بُدَّ أن يفهمَ شيئًا ما بشأنِ حَقِيقَةِ شعوري. وبطريقةٍ ما، لم تَكُنْ قَطُّ قد فكَرَّتْ فِيهِ حَامِلًا حُزْنًا عميقًا كهذا. فإذا بدموعٍ حارَّةٍ تَسِيلُ على خَدَّيْهَا.

وبكى قلبُها: آه كَلِيم! لماذا تحدثُ للنَّاسِ أُمُورٌ كهذه، أُمُورٌ قاسيةٌ كهذه؟ لماذا؟ لماذا؟

ولكنَّ مَارْتِي عَلِمَتْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جَوَابٍ سَهْلٍ. كانت هذه أَوَّلَ مَرَّةٍ ذَكَرَ فِيهَا كلاركُ زَوْجَتَهُ. ولم تَكُنْ مَارْتِي قد عَرَفَتْ حَتَّى اسْمَهَا. حَقًّا إِنَّهَا ما زالتْ مَغْمُورَةً فِي حُزْنِهَا الشَّخْصِيِّ بِحَيْثُ لَمْ تَتَسَاءَلْ قَطُّ كَثِيرًا عَنِ المَرأةِ التي كانت زَوْجَةَ كلاركِ، وماما مِسي، ومُدبِّرَةَ هذا المَنْزِلِ. والآنَ استيقظَ ذِهنُها على ذلك. شُجيرةُ الوردِ قُرْبَ البابِ، السِّتائِرُ المُبهجةُ الزَّاهيةُ، فسائِئِنُ مِسي المَخِيطةُ بِحَنانٍ وَالَّتِي كانت تصغُرُ عليها بِسُرْعَةٍ فائِقةً، البُسطُ الكَثيرةُ الغنِيَّةُ الألوَانِ على الأَرْضِيَّةِ: كُلُّ شَيْءٍ... كُلُّ شَيْءٍ فِي هذا البَيْتِ الصَّغِيرِ تَكَلَّمَ عَنِ هذه المَرأةِ. فشعرتُ مَارْتِي كما لو كانت دخيلةً. كيف كانت هيئَتُها، أَلينَ هذه؟ أَعَلَّتِ القهوةَ مَرَّةً فَوْقَ الحَدِّ، أم أَخَفَقَتْ إِخْفَاقًا ذَرِيعًا فِي صُنْعِ

البسكويت؟ لا، لقد كانت مارتى مُتيقِّنةً بأنَّها ما فعلت ذلك. ولكنها كانت صغيرة السنَّ جدًّا- إذ كانت ستبلِّغ الحادية والعشرين فقط غدًّا- وقد رحلت فعلاً. صحيحٌ أنَّ مارتى كانت أصغر سنًّا بعد- في التاسعة عشرة حقًّا- ومع ذلك فقد بدا سنُّ الحادية والعشرين صغيرًا جدًّا على الموت. ثمَّ لماذا ماتت؟ لم تعرفِ مارتى. لقد كانت هنالك أشياء كثيرةٌ جدًّا لم تعرفها، ولكنَّ أشياء قليلةً باتت تتوضَّح لها. إذ وُجِدَت في هذا المنزلِ امرأةً أحبَّته وجعلته بيتًا، وأنجبت طفلةً دلَّلتها، شابَّةً شاركت زوجها في النَّهارات والليالي. ثمَّ فقدها، وخلاهُ فقْدانه لها في غمٍّ وألم... مثل ما كانت تُعانيه هي جرَّاء فقْدِها زوجها كليم. وكانت قد افترضت أنَّها كانت الإنسان الوحيد الذي يحمل ذلك النَّوع من الأسي، غير أنَّ الحال لم تكن هكذا.

وإذ رفعت وجهها إلى فوق، فكرَّت: إنَّه عالمٌ دنيء! وما لبثت أن قالت بصوتٍ عالٍ وهي تُحدِّق صوب العلاء: ”إنَّه دنيءٌ وشريِّرٌ وقاسٍ!“ أومضت لها النُّجوم من فوق، من سماءٍ صافية.

فهمست: ”إنَّه دنيء، ولكنه جميل.“ ماذا كان ما قالتها ما غراها؟ لقد قالت: ”الزَّمن... الزَّمن هو الشَّافي... الزَّمن والله.“ وافترضت مارتى أنَّها عنَت إله كلارك.

”إذا استطعنا أن نحملَ يومًا واحدًا كلَّ مرَّة، فسيأتي اليوم الذي فيه يصيرُ الأمرُ أسهلَ فأسهل. وذات يومٍ سنُفاجئُ أنفسنا بكوننا قادرين أيضًا أن نضحك ونحبَّ من جديد.“ ذلك هو ما قالتها ما غراها.

بدا ذلك بعيدَ المنال جدًّا في نظرِ مارتِي، ولكنَّها بطريقَةٍ ما كانت على ثقة بأنَّ ما غراهام لا بُدَّ أن تكونَ عَليمةً.

رجَعَت مارتِي إلى البيت من جديد. كان الجوُّ الآن قد صار باردًا في المساء، وأدرَكْتَ أنَّها كانت ترتجِف. ولمَّا دخلتِ المطبخَ، وجدتُ أنَّ كُلَّ أثرٍ للماكيِنَة وللصُّندوق قد أُزيل.

على طاوِلة المطبخ كانت رِزْمَةٌ كبيرة ملفوفة بورقٍ أسمر ومربوطة بخيَطٍ مَصَّيص. وأومأ كلارك نحوها.

قال: "لستُ على يقينٍ بما قد يكونُ داخلَ الرِّزْمَة هُناك. طلبتُ إلى المُشْرِفة ماكدونالد في المتجر أن توضِّبَ مهمًا تحتاجُ المرأةُ إليه لِإمضاء الشِّتاء، فأرسلتُ هذه. أرجو أن تكونَ مُلائمةً".

سحبتُ مارتِي نفسًا عميقًا. ماذا عنى تمامًا؟ لم تكن على يقين. "أتودِّينَ أن أنقلها وأضعها على سَريكَ ليتسنى لك أن تتفحصي ما فيها؟"

ودونَ انتظارٍ جوابها الذي رُبَّمَا استغرقَ نصفَ اللَّيلة، إذ شعرتُ بأنَّها مربوطةُ اللِّسان تمامًا، حمَلَ الرِّزْمَة إلى غُرْفَتِها ووضعها على سَريها، ثمَّ استدارَ ليُغادر.

وقالَ بهدوءٍ: "لقد كان يومًا طويلًا. أعتقدُ أنَّي سأُنهيهِ الآن". ثمَّ مضى.

ارتعشتُ أصابعُ مارتِي بارتباك وهي تُضيءُ المِصباح. ثمَّ أسرعَتُ

لِتَحُلَّ الْخَيْطَ. وَإِذْ تَذَكَّرْتَ الْمِقْصَصَ فِي سَلَّةِ الْخِيَاطَةِ، هُرِعْتَ لِإِحْضَارِهِ
كِي تُعَجِّلَ الْعَمَلِيَّةَ. لَمْ تَكَدْ تُطِيقُ الصَّبْرَ، وَلَكِنْ لَمَّا سَقَطَتِ الْوَرَقَةُ
السَّمْرَاءُ، كَانَتْ غَيْرَ مُسْتَعِدَّةٍ كَلِيًّا لِمَا وَجَدَتْهُ.

كَانَ هُنَاكَ لَوَازِمٌ لِلْأَثْوَابِ الدَّاخِلِيَّةِ وَثِيَابِ النَّوْمِ وَأَطْوَالٌ كَافِيَةٌ لثَلَاثَةِ
فَسَاتِينِ. وَكَانَتْ إِحْدَى قِطْعِ الْقُمَاشِ مُدْفِيَّةً وَنَاعِمَةً الْمَظْهَرِ بِلَوْنِ رِمَادِيٍّ
ضَارِبِ إِلَى الْأَزْرَقِ وَبَاهِتِ. وَقَدْ أَخَذَ ذِهْنُهَا أَصْلًا يَتَصَوَّرُ كَيْفَ سَتَبْدُو
الْفَسَاتِينُ بَعْدَ صُنْعِهَا. سَتَكُونُ تِلْكَ الْفَسَاتِينُ لِبَاسِهَا عِنْدَمَا تَزُورُ أَوْ تُزَارَ،
وَقَدْ كَانَتْ جَمِيلَةً. وَاسْتَكشَفَتْ أَكْثَرَ فُوجِدَتْ نَمُودَجًا لِتَفْصِيلِ قُبْعَةٍ،
وَقِطْعَتِي قُمَاشٍ، إِحْدَاهُمَا خَفِيفَةُ الْوِزْنِ وَالْأُخْرَى أَثْقَلُ لِلْجَوِّ الْأَبْرَدِ.

وَكَانَ هُنَاكَ أَشْرِطَةٌ لِلزَّرْكَشَةِ، وَجَوَارِبُ طَوِيلَةٌ مُدْفِيَّةٌ، بَلْ أَيْضًا حِذَائُ
مُدْفِيٍّ وَعَالٍ لِلشِّتَاءِ، وَشَالٌ لِلنَّهَارَاتِ وَالْمَسَاءَاتِ الْبَارِدَاتِ، وَفِي
الْأَسْفَلِ - دُونَ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ - مَعْطَفٌ طَوِيلٌ. فَكَانَتْ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهُ مَا
مِنْ شَخْصٍ سِوَاهَا فِي كَامِلِ الْغَرْبِ سَتَكُونُ لَهُ ثِيَابٌ تُضَاهِي ثِيَابَهَا.
وَقَدْ كَانَ خَدَّاهَا دَافِئِينَ وَيَدَاهَا تَرْتَعِشَانِ. ثُمَّ بِاسْتِجَابَةٍ مَصْدُومَةٍ
لِحَوَاسِّهَا، جَلَسَتْ مُنْتَصِبَةً.

وَتَمَتَّتْ: ”يَا لِكِ مِنْ حَمَقَاءَ صَغِيرَةٍ! لَا يَسْعُكَ أَنْ تَقْبَلِي هَذَا كُلَّهُ.
هَلْ تَعْلَمِينَ أَنَّكَ إِذَا فَعَلْتِ ذَلِكَ فَسَتَكُونِينَ مَدْيُونَةً لِذَلِكَ الرَّجُلِ عَلَى
مَدَى سِنِينَ آتِيَةٍ؟“

غَمَرَ الْاسْتِيَاءُ مَارْتِي. أَرَادَتْ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ، الْأَشْيَاءَ الْجَمِيلَةَ، وَلَكِنْ

آه، لا يُمكنُها أن تقبلها. فماذا يُمكن أن تفعل؟ لن تتضع وتكون مديونةً لهذا الرَّجُل. لن تكون شحاذةً في بيته. وأحرقَت الدُّمُوعُ خديها. آه، ماذا يُمكنها أن تفعل؟ ماذا يُمكنها أن تفعل؟

”لسنا أغنياء، ولكننا نحاول أن نكون مُكتفين“. عبارةٌ عادت لِتنتابها.

هل يُعقلُ أَنَّهُ كان مُحرجًا بمظهرها الرثِّ؟ نعم، كما قرَّرت، قد يكون ذلك هو الأرجح. ومرةً أخرى ارتفعَ ذقنها عاليًا.

لقد قرَّرت أَنَّها ستأخذُ ذلك، ذلك كله. لن تُسبِّبَ إحراجًا لأيِّ رجُل. ستخيطُ الملابسَ بطريقةٍ ستكونُ موضعَ حسدِ كُلِّ امرأةٍ في الجِوار. إِنَّها تستطيعُ أن تخيط، ولا داعيَ لأنَّ يشعُرَ كلارك بالخجل من أجلها.

ولكنَّ عِلْمَها بما كانت تعرفه- أو ظنَّت أَنَّها تعرفه- استنزفَ سُورًا كثيرًا من مشروعِ الثَّياب الجديدة المزمع تنفيذه.

في غُرْفَةِ نومِ كلارك المكوَّنة من السَّقيفة المُلاصقة المنحدرة السَّطح، مدَّ الرَّجُلُ رِجْلَيْهِ طَوِيلَتَيْنِ مُتَعَبَتَيْنِ تحتَ البَطَّانِيَّات. لقد كان ذلك يومًا قاسيًا عليه، مشحونًا بالذِّكريات الصَّعبة.

في ما مضى، كان أمرًا مُبهجًا جدًّا الرَّجُوعُ إلى البيت بمؤنِ الشَّتاءِ لِألِين. فكانت تُبدي تأثرًا وابتهاجًا شديدَيْن حِيالَ ذلك. عجبًا، لو كانت هُنا اليومَ لأشركت مِسي في اللَّعبة وجعلتها شِبهَ مجنونةٍ من فرطِ التأثر. حسنًا، ما كان يُمكنه بالتأكيد أن يلومَ مارتِي، وهي أرملةٌ منذ

خمسة أيام فقط. وما كان يُمكنه أن يتوقع منها أن تكون مُنجرةً بعيداً
 علانيةً بشأن الملح والطَّحين في هذه المرحلة. لا بُدَّ أنَّها في تأدُّ
 عميق، في كَرْبٍ رهيب. فتمنَّى لو يُتاحُ له أن يُقدِّم لها عَوناً ما، ولكن
 كيف؟ ما زال ألمُّه الخاصُّ حاداً فوق الحدِّ. لقد علِمَ أنَّ تخطِّي
 خسارةٍ كهذه يستغرق وقتاً، ولم يُتَحَ له بعدُ وقتٌ كافٍ. لم تكن فكرةُ
 الاحتياجِ إلى امرأةٍ أُخرى قد طرقت رأسه قطُّ منذُ أن فقدَ ألن. ولولا
 مِسي، ما كانت هذه المرأةُ لتكونُ هنا الآن. ولكنَّ مِسي كانت
 بحاجةٍ إليها، حتَّى لو لم يكن هو كذلك، ولا يكادُ المرءُ يقوى على
 حرمانِ الفتاة المسكينة من ذلك.

أولَّ الأمر امتعضَ من وجودها هنا، كما افترض - مُنظِّفةً خزائن ألين
 ومُشغلةً بموقدها - ولكن لا، ذلك لم يكن مُنصِفاً أيضاً؛ فهي لم تخترَ
 أن تكونَ هنا. سيكون عليه حقاً أن يبذلَ مزيداً من الجهد كي يكونَ
 مُحترماً ويتفهَّم حُزنها. إنَّه لم يُردَ لمِسي أن تكونَ في جَوْ كآبة كلِّ
 حين. لا، سيُضطرُّ لأنَّ يُحاولَ أن يُبدِّدَ ذلك الشُّعور، ولعلَّ مارتِي أيضاً
 تستطيعُ ذلك عاجلاً أو آجلاً، بحيثُ يكونُ المنزلُ مكاناً يُناسبُ بنتاً
 صغيرةً لتتموَّ وتعلِّم. وفكَّر: سيكونُ ذلك أصعبَ على مارتِي، ما دامت وحيدهً
 تماماً. لم يكن لها مِسي، أو مزرعة، أو أيُّ شيءٍ في الواقع. وتمنَّى أن
 تكون السيِّدةُ ماكدونلد قد انتقتِ الأشياءَ الصَّحيحةَ لمارتِي؛ فهي
 كانت حقاً ستحتاجُ إلى ملايس أكثرَ إدفاءً لأجل الشتاء الآتي.
 لم تدخلْ تفكيره فكرةً أنَّه كان قائماً بأيِّ شيءٍ خاصٍّ لأجلها إذ

أَحْضَرَ لَهَا الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَيْهَا. فَهُوَ إِنَّمَا كَانَ يُؤْمِنُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ
أَوْلَادَكَ الْمَوْجُودُونَ تَحْتَ سَقْفِهِ. وَهَذَا أَمْرٌ عُلِّمَ أَنَّهُ مِنْ مَسْئُولِيَّةِ رَجُلٍ
الْبَيْتِ، لَمَّا كَانَ مُجَرَّدَ فَتَى يَجُولُ هُنَا وَهُنَا، مُحَاوِلًا أَنْ يُجَارِيَ أَبَاهُ
فِي خَطَوَاتِهِ الْوَاسِعَةِ.

يَوْمَ الرَّبِّ

بزغ فجر يوم الأحد ساطعًا ودافئًا، وليس في الجوِّ إلاَّ غيماتٌ تكفي لتشكيل لوحةٍ طبيعيَّةٍ جذَّابة. وعندَ الفطور، إذ أمَلتَ مارتِي ألاَّ تكونَ مُفصِّحةً أكثرَ ممَّا ينبغي، سألتَ كلارك إذا كان قد انتهى من مُساعدة جد، أو إذا كان ينوي الذَّهابَ إليه اليوم. فنظرَ إليها كلارك مدهوشًا.

ثمَّ قال: ”لدى جد قليلٌ من العملِ بعدُ كي ينتهي، ولن أستغرب بتاتًا إذا اشتغلَ به اليوم. أمَّا أنا فأستريحُ دائمًا في يوم الرَّبِّ. أعلمُ أنَّه لا يبدو أشبهَ بيوم الرَّبِّ حيثُ لا اجتماعٌ، ولكنِّي أحاولُ وأراعي حُرمةَ هذا اليوم على أفضلِ نحوٍ أستطيعه“.

والآنَ حانَ دورُ مارتِي في الدهشة. كان من شأنها أن تعرفَ أفضلَ لو أولتَ الأمرَ بعضَ التَّفكير، ولكنَّها في توقُّعها لأنَّ يكونَ كلارك غائبًا عن المنزلِ لم تُفكِّر في ذلك قطُّ.

فهمست، مُتجنِّبةً عينيه: ”لقد نسيتُ تمامًا أيُّ يومٍ هذا“.

جعلَ كلارك هذا يمرُّ دونَ مزيدٍ من التَّعليق. وبعد لحظةٍ أو

لحظتَيْن، قال: ”كنتُ أفكّر كيف يُمكننا أنا ومِسي أن نُحضّر زادَ الغداءِ ونُمضيَ النَّهارَ في الغابات. يبدو أنّ هذه قد تكونُ الفُرصةَ الأخيرةَ مُدَّةً من الزَّمن؛ فالجَوُّ باتَ أبردَ، وفي الهواءِ نذيرٌ بأنَّ الشّتاءَ قد يكونُ تائقًا قليلًا إلى الإقبال. ونحن نستمتعُ نوعًا ما بمجردَ تمضيةِ النَّهارِ مُتكَاسِلينَ ومُفتشّينَ على آخِرِ الزُّهورِ البريَّةِ والأوراقِ الظَّريفةِ المنظر، وما إلى ذلك. أُناسبُ ذلكَ خُطَطَكِ؟“

فردَّت مُتلعثمَةً تقريبًا: ”بالأكيد... بالتأكيد... جيّد. سأحضّرُ زادَ غدائِكُما بعدَ الفطورِ مباشرةً“.

”جيّد!“

لقد تقرّر الأمرُ إذا. سيُمضي كلارك وصغيرته مِسي النَّهارَ مُتمتّعينَ بالهواءِ الطّلقِ وأحدَهُما بالآخر، وهي مارتي ستحوزُ النَّهارَ لنفسها. وقد حمّستها هذه الفِكرةُ وخوّفتها معًا. فلم تكن على يقينٍ كيف ستتصرّفُ بغيابِ البنتِ الصّغيرة لتُبعدَ أفكارها عن التّوقفِ طويلاً عندَ خسارتها.

خرَجَ كلارك إلى السّقيفةِ ورجَعَ بيّدةٍ بدتَ حمالةً من نوعٍ ما تُوضَعُ على ظهره.

وإذ نظرتُ إلى الأداةِ الغريبةِ الشّكل، أجباب عن سؤالها الذي لم تنطقُ به: ”لأجلِ مِسي! كان عليّ أن أبتكرَ هذه لِمّا اضطررتُ إلى اصطحابها إلى الحقول، أو عند القيامِ بمُهمّةٍ ما. حتّى إنّها كانت

تَنالُ قِيلَوْلانِها فِيها، وَأنا أواصِلُ المَشيَّ“. وابتسَمَ ابتسامَةً واهيةً، مُضيفاً: ”أحياناً تكونُ هذه الصَّغيرةُ أثقلَ من طِفلةٍ صَغيرةٍ في سَنِّها. ظننتُ أَنَّهُ يحسُنُ بي أن آخِذَ هذه الأداةَ معي لأحمِلَها فِيها عندما تتعبُ من المَشيَّ“.

أدرَكتُ مارتي أَنَّها أعطَتهما زاداً أَكثَرَ بكثيرٍ ممَّا يحتاجانُ إليه للغداء، ولكنَّ الهوائَ المُنعِشَ والنُّزهةَ بين التَّلالِ كان لا بُدَّ أن يُعطيَهما شَهِيَّةً شديدةً.

كادت مِسي تطيرُ من الحماسة، وقالت ”وداعاً“ مراراً وتكراراً لمارتي عند مُغادرتَهما. ثُمَّ لِحِقَ بهما بوب العجوز عند الباب، وشاهدتُ مارتي الثلاثة يتوارون خلفَ الحَظيرة. وإذ رجعتُ لتُنظفَ الطَّاولَةَ وتغسِلَ الصُّحونَ، تذكَّرتُ أَنَّ عيدَ مَولِدِ أَلينِ كانَ يُفترضُ أن يَكونَ اليومَ. فرُبَّما اشتمَلتُ نُزهتَهما على زيارةٍ لِقَبْرِها. وقد اعتقدتُ مارتي صدقاً، بطريقةً ما، أَنَّ النُّزهةَ ستتضمَّنُ ذلكَ.

استعجَلتُ مَهامَّ الصِّباحِ اليَسيرةَ، ثُمَّ فرَّتُ فعلاً إلى غُرفةِ نومِها حيثُ اللوازمُ المُنتظرةُ والماكينة الجديدة البرَّاقة. لم تكن على يقينٍ بِكونِها مُنتهكةً يومَ راحةِ كلارك بِخياطَتِها أم لا. فأملتُ ألا تكونَ، ولكنَّها لم تكن مُتيقَّنةً بِقُدرتها على الامتناعِ عن الخِياطةِ حتَّى لو علمتُ الحقيقةَ. وقد رَجَتُ فعلاً ألا تُغضبَ بِذلكِ إلهَ كلارك؛ فقد كانت تحتاجُ إلى آيةٍ معونةٍ كان مِياً إلى أعطائها إيَّها. ثُمَّ دفَعَتِ الأفكارَ

جانِبًا وجعلتْ ذَهْنَهَا ينصِرْفُ تمامًا إلى مهمَّتها... تقريبًا. فبينَ حينٍ
وآخرٍ كادت تقطَعُ عملَهَا بمشاعِرَ جاءت من حيثُ لا تدري.

أما كان كلیم ليفخرَ بأن يراني مُرتديَةً هذا؟
هذا اللونُ المُفضَّلُ لدى كلیم.

وفي ما بعدُ همست: ”كان كلیم يحكي النوادرَ المُضحكةَ عمدًا
سمَّاه «استهتارات النساء»“. ولم تمالك نفسها عن ابتسامه ضئيلة،
إلا أن هذه علقَت على الغُصَّة في حنجرتها.

لا، لقد بدا أنه لم يكن قطُّ من سبيل إلى الدورانِ حولَ الأمر. فإنَّ
كلیم كان هناك لإقلاقِ أفكارها، وما زالَ غيابُه يجعلُ حنجرتها تؤلِّمُها.
وبعداً أبت أن تستسلمَ لتجربةِ إلقاءِ نفسها على سريرها والبكاء، غير
أنها واصلتْ شغلها بحنكٍ مشدود وروحٍ عازمة.

بعدَ الظهر، ألقَت خياطتها جانبًا، حتَّى إنَّها لم تكن قد توقَّفت
لتأكلَ شيئًا ما. ولكنها لم تُفوتَ ذلك، وما زالَ تخبِطُها يجري حسنًا؛
فقد اشتغلت الماكينةُ كما في حلم، ولم تستطع أن تُصدِّق كيف
أنجزتِ الدرزاتُ أسرعَ بمَعونةِ الآلة. غيرَ أنها قرَّرت أنَّ لِعَيْنِهَا أن
تستفيدا من استراحة، بعدَ التَّحديقِ طويلًا جدًّا إلى قاعدةِ الماكينة.
وكانت رجلاها وقدمها آخذاتٍ في التَّعب بعد تحريكِ الدَّواسةِ طوالَ
هذا الوقت.

مشَت إلى الخارج، مادَّةً ذراعِهَا نحوَ السَّماء. كان ذلك يومًا
خريفياً مجيداً، وكادت تحسِّدُ مَرَحَ كلارك ومِسي الصَّاحِبِ عبرَ

الأوراق المُطَقِّطَة. وعلى مهلٍ تمشت حولَ الفناء. كان على شجيرة الورد وردةً وحيدة مُتَفَتِّحة، ليست كبيرةً أو جميلةً مثلَ سابقتها- كما كانت مارتي مُتَيَقِّنة- ولكنها جميلةٌ لمُجَرِّدِ كونها هُناك. ثم مضت إلى الحديقة. كانت الخُضْر، في مُعظمها، قد جُنِيَت، ولم يبقَ إلاَّ أشياء قليلة لتؤخذ إلى قَبوِ الجُذور. وفي طرفِ الحديقة، كانت الحُفرة التي سبق أن حَفَرَتها لِطَمْرِ بَسكويتاتها، وقد أعادَ حَفَرها بوب العجوز، إذ شعَرَ بأنَّ من واجبه أن يُخْرِجَ البسكويتات. وكانت بعضُ الكُتَل الصُّلبة القَدِرَة ما تزال مطروحةً قُربَ الحُفرة... حتَّى بوب العجوز نبذها. ولكنَّ الأمر ما عاد يهْمُها كثيرًا جدًّا، كما فكَرتَ مارتي إذ رَفَسَت واحدةً رَفَسَةً بحذائها البالي. غريبٌ كيف يُمكن أن تتغيَّرَ الأمور!

واصلت مَشِيها، مُستسيغَةً النَّهار. بدتِ الأشجارُ المُثمِرة التي سبق أن حدَّثها كلارك بشأنها واعدةً وسليمة. ألا يكونُ أمرًا عظيمًا أن يملكَ المرءُ تُفَّاحَهُ الخاصَّ؟ لعلَّ ذلك يتمُّ السَّنة المُقبِلة، كما قال كلارك. ثمَّ توقَّفت عند إحدى الأشجار، غيرَ مُتَيَقِّنةٍ إن كانت شجرة تُفَّاح أم لا، ولكنَّ في حالٍ كانت تُفَّاحَة، توسَّلت إليها أن تحملَ بعضَ التُّفَّاح السَّنة المُقبِلة. وما لبثت أن تذكَّرت أنه حتَّى لو أثمرت شجرة التُّفَّاح، فإنَّها هي ستكونُ آنذاك قد ذهبت إلى الشَّرق منذُ مُدَّةٍ طويلة. فلم تُرَعِجَ نفسَها بإخبار شجرة التُّفَّاح بذلك، خَشِيَة أن يخورَ عزمُها فلا تحملَ ثمرًا. ثمَّ دارت ومضت، وقد تلاشى جزءٌ يسيرٌ من همِّها، فما عادَ الآنَ بعمقٍ مُماثلٍ لما كان عليه.

تَابَعَتْ سَيْرَهَا نَزولًا عَلَى الدَّرْبِ إِلَى الجَدْوَلِ وَرَاءَ حُجْرَةٍ تَدخِينِ
الأطْعَمَةَ مُبَاشِرَةً. فَوَجَدَتْ رَصيفًا مَبْنِيًّا إِلَى دَاخِلِ مَجْرَى النَّهْرِ، حَيْثُ
تَفَجَّرَ نَبْعٌ بَارِدٌ مِنْ مُنْحَدَرِ التَّلِّ الصَّخْرِيِّ لِيَنْضَمَّ إِلَى المِيَاهِ فِي الأَسْفَلِ.
وَقَدْ بَرَدَتْ البُقْعَةُ الظَّلِيلَةُ تَمَامًا جِرَارَ الزُّبْدَةِ والقِشْدَةِ بِالمِيَاهِ البَارِدَةِ
كَالتَّلْجِ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ الحَارَّةِ. لَمْ يَكُنْ كَلَارِكٌ قَدْ أَخْبَرَهَا بِهَذَا، وَلَكِنْ
مَا كَانَ مِنْ سَبَبٍ يَدْعُوهُ إِلَى إِخْبَارِهَا، لِكُونَ التَّبْرِيدِ غَيْرَ ضَرُورِيٍّ فِي
هَذَا الوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ. فَتَوَقَّفَتْ لِلحِظَاتِ، تُرَاقِبُ المَاءَ يَتَرَقَّقُ فَوْقَ
الحِجَارَةِ المَلْسَاءِ. كَانَ فِي المَاءِ شَيْءٌ مَا يَخْلُبُ اللُّبَّ- كَمَا قَالَتْ
لِنَفْسِهَا لَمَّا كَانَتْ مَوْشِكَةً عَلَى الرُّجُوعِ- وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا مَكَانًا
مُمْتَازًا لِلانْتِعَاشِ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الحَرَارَةِ والرُّطُوبَةِ مِنْ أَيَّامِ الصَّيْفِ. وَلَكِنَّهَا
ذَكَرَتْ نَفْسَهَا ثَانِيَةً بِأَنَّهَا هِيَ لَنْ تَكُونَ هُنَا عِنْدئِذٍ.

أَكْمَلَتْ سَيْرَهَا إِلَى الزَّرَائِبِ، حَيْثُ مَدَّتْ يَدَهَا مِنْ فَوْقِ السِّيَاحِ
لَتَمْسُدَ الرِّقْبَةَ القَوِيَّةَ لِدَانِ، أَوْ لَعَلَّهُ تَشَارِلِي. وَكَانَتْ البَقَرَاتُ رَابِضَاتٍ
تَحْتَ ظِلِّ أَشْجَارِ الحُورِ الطُّوَالِ، يَجْتَرِرْنَ بِهُدُوءٍ، فِيمَا عَجُولُهُنَّ لِتَلِكِ
السَّنَةِ بَاتَتْ سَمِينَةً مِنْ عُشْبِ المُرُوجِ فِي المَرَعَى المُجَاوِرِ. هَذِهِ مَزْرَعَةٌ
جَيِّدَةٌ- كَمَا قَرَّرْتُ مَارْتِي- تَمَامًا مِنَ النُّوعِ الَّذِي كَانَتْ هِيَ وَكَلِيمٌ قَدْ
حَلَمَا بِهِ.

وَإِذْ هَزَّتْ رَأْسَهَا هَزَّةً سَرِيعَةً، تَوَجَّهَتْ نَحْوَ المَنْزِلِ بِمُحَاذَاةِ فُنِّ
الدَّجَاجِ. وَفَجْأَةً أَحْسَسْتُ جُوعًا فِعْلِيًّا إِلَى الدَّجَاجِ المَقْلِيِّ. مَا كَانَتْ قَدْ
أَدْرَكَتْ كَمْ مَرًّا مِنَ الزَّمَانِ عَلَى تَنَاوُلِهَا أَيِّ لَحْمِ دَجَاجٍ، وَتَذَكَّرْتُ البَيْتَ

والرَّائِحَةَ الغَنِيَّةَ المُنبَعِثَةَ من مَطْبَخِ أُمَّهَا. وفي تلك اللَّحْظَةِ كانت على يقينٍ بأنَّ لا شيءَ آخِرٍ سيكون له طَعْمٌ جيِّدٌ جدًّا. وقد كان إعدادُ الدَّجَاجِ واحدًا من الأمور التي شاهدتُ أُمَّها تقوم بها. فكلِّما كانوا سيأكلون الدَّجَاجَ المَقْلِيَّ، كانت تجلسُ بِقُرْبِ طاوِلَةِ مَطْبَخِ أُمَّها وتُراقِبُ العمليَّةَ كُلَّها من البداية إلى النِّهاية. غيرَ أنَّ أُمَّها ما بدأت قطُّ بِطَيْرِ حَيٍّ. ولم تكنَ مارتي قطُّ قد قطَّعتُ رأسَ دجاجةٍ من قبل، إلاَّ أنَّها كانت مُتيقِّنةً بأنَّ في وسعها أن تُدبِّرَ الأمرَ بطريقتيِّ ما.

مَشَتْ أَقْرَبَ إلى الخُمِّ، مُعَايِنَةً الفَرَايِجَ تُطَلِّقُ أصواتًا حادَّةً وتركُضُ بِسُرْعَةٍ، فيما حاولتُ أن تتنقِّي مُرَشِّحًا مُرَجِّحًا. ولم تكنَ على يقينٍ إن كان ينبغي أولًا أن تُمسِكَ بالطَّيرِ الذي أرادته ثمَّ تأخذه إلى الفأس، أو إن كان ينبغي لها أن تذهبَ إلى سقيفةِ الحطبِ لإحضارِ الفأسِ وتأتي بها إلى الفُرُوجِ. أخيرًا قرَّرتُ أن تأخذَ الفُرُوجَ إلى الفأسِ، عالِمةً أنَّها ستحتاجُ أيضًا إلى خشبةٍ غليظةٍ للقطع.

دخلتُ الخُمَّ وانتقتُ ضحيَّتها، ديكًا صغيرًا مزهواً بدا أنَّه جيِّدٌ للقلبي.

قالت بتملُّق: ”تعالَ إلى هنا، أنت، تعال“، مادَّةً يدها، ولكنَّها سرعانَ ما قبضتُ على حقيقةِ أنَّ الفُرُوجَ يأبى أن يستجيبَ كالكلبِ. وبالْحَقِيقَةِ أنَّ الفَرَايِجَ ظهرتُ شيئًا آخَرَ مُختلِفًا تمامًا. إذ طارتُ وزعَّقتُ وأثارتُ الغُبَارَ وُبَرَّازَ الدَّجَاجِ كزوبعةٍ هوجاءٍ، كلِّما باتتَ مارتي على

مَسَافَةٌ تُمَكِّنُهَا مِنَ الْإِمْسَاكِ بِأَحَدِهَا. وَسُرْعَانِ مَا قَرَّرْتُ أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ
سُتْعِدُّ فَرُوجًا لِلْعِشَاءِ فَالْمُطَارِدَةُ الْكَامِلَةُ كَانَتْ السَّبِيلَ الْوَحِيدَ لِإِيصَالِ
وَاحِدٍ إِلَى الْمِقْلَاةِ. فَأُطْلِقَتِ الْعِنَانُ لِحَوْضِ مُطَارِدَةٍ كَامِلَةٍ، قَابِضَةٌ عَلَى
أَرْجُلِ الْفَرَارِيحِ وَمُنْتَهِيَةٌ إِلَى مِلءِ وَجْهِهِ مِنَ الْوَسَخِ الْمُبْعَثِ وَالرِّيشِ الْوَسِيخِ.
وَقَدْ رَكِضَتْ الْفَرَارِيحُ دَائِرِيًّا فِدَائِرِيًّا. وَكَانَتْ مَارَتِي الْآنَ قَدْ تَخَلَّتْ عَنِ
الدَّيْكِ الصَّغِيرِ الْمَزْهُوِّ، وَقَرَّرْتُ أَنْ تَكْتَفِيَ بِأَيِّ وَاحِدٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَضَعَ
يَدَيْهَا عَلَيْهِ. أَحْيَرًا، بَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ الرِّكْضِ وَالْقَبْضِ اللَّذِينَ جَعَلَا فُسْتَانَهَا
وَسِيخًا، وَشَعْرَهَا مُتَطَايِرًا، وَطَبَعَهَا شَائِطًا، تَيْسَّرَ لَهَا أَنْ تَتَشَبَّثَ بِرِجْلَيْنِ.
وَقَدْ كَانَ الْفُرُوجُ أَثْقَلَ مِمَّا تَوَقَّعْتُ، وَاسْتَلْزَمَ الْقَبْضُ عَلَيْهِ كَامِلَ قُوَّتِهَا، مَا
دَامَ عَاقِدًا عِزْمَهُ عَلَى الْأَلَّا يَكُونُ عِشَاءً لِأَحَدٍ. فَشَدَّدْتُ مَارَتِي قَبْضَتَهَا
عَلَيْهِ، عَاقِدَةً عِزْمَهَا مِثْلَمَا كَانَ هُوَ عَاقِدًا عِزْمَهُ، وَجَرَّتَهُ مِنَ الْخُمِّ، ثُمَّ
أَلْقَتُ نَظْرَهَا عَلَيْهِ. لَقَدْ كَانَ هَذَا هُوَ الدَّيْكِ الْكَبِيرِ بَعِينِهِ - كَمَا كَانَتْ
عَلَى يَقِينٍ - طَلِيْعَةُ السَّرْبِ، رَيْسَ السَّاحَةِ. وَفَكَّرْتُ: فَلَْيَكُنْ، لَا بِأَسْ!
سَيَكُونُ مِلءٌ مِقْلَاةٍ عَظِيمًا، وَلَعَلَّ هَذَا الطَّيْرَ كَرِهَ فِكْرَةَ مُوَاجَهَةِ شِتَاءٍ
آخَرَ، عَلَى كُلِّ حَالٍ.

وَإِذْ تَوَجَّهْتُ مَارَتِي إِلَى سَقِيفَةِ الْحَطَبِ لَاهِثَةً مِنَ الْإِعْيَاءِ، شَعَرْتُ
رُغْمَ ذَلِكَ بِرِضَى بَالِغٍ عَنِ نَفْسِهَا بَعْدَمَا أَنْجَزْتُ مُهْمَتَهَا.
مَدَدَتِ الدَّيْكَ الرَّاقِعَ الْمُرْفِرَفَ عَلَى خَشْبَةِ قَطْعِ غَلِيظَةٍ، وَلَمَّا هَدَأَ
مَدَّتْ يَدَهَا لِتَتَنَاوَلَ الْفَاسَ. فَاسْتَأْنَفَ الدَّيْكَ التَّخْبُطَ، وَاضْطُرَّتْ مَارَتِي
إِلَى إِسْقَاطِ الْفَاسِ لِتَسْتَعْمَلَ كِلْتَا يَدَيْهَا فِي الْإِمْسَاكِ بِالطَّيْرِ. وَبَدَأَتْ

مارتي تُفكّر أنّها كانت معركةً لِتَبَيّنِ مَنْ يَسْتَسَلِمُ أَوَّلًا، ولن تكونَ هي
المُسْتَسَلِمَةُ!

وَبِرْفَرِفَةٍ وَزَعَقَةٍ، أَفَلَتَ الدَّيْكَ وَمَضَى مُتَخَبِّطًا وَمُتَشَكِّيًا عَبْرَ الفِنَاءِ.
وَنظَرَتْ مَارْتِي مِنْ فَوْقَ إِلَى خَشَبَةِ القَطْعِ، فَشَاهَدَتْ مَرْعُوبَةً قِطْعَتِي
مِنقَارِ صَغِيرَتَيْنِ بَقِيَّتَا هُنَاكَ.

فَانفَجَرَتْ غَضَبًا قَائِلَةً: ”لَقَدْ نِلْتَ جَزَاءَكَ!“ رَافِسَةً القِطْعَتَيْنِ عَنِ
الخَشَبَةِ إِلَى التُّرَابِ.

وَإِذْ كَانَتْ مَا تَزَالُ مُصَمِّمَةً عَلَى أَلَّا تُغْلَبَ، تَوَجَّهَتْ ثَانِيَةً إِلَى الخُمِّ،
فِيمَا كَانَ دَيْكٌ وَاحِدٌ قَصِيرُ المِنقَارِ مَا يَزَالُ يَجُولُ فِي المَزْرَعَةِ مُرْفَرِفًا
وَمُصْرِّخًا بِغَضَبِهِ إِلَى عَالَمِ غَادِرِ.

تَقَدَّمَتْ مَارْتِي بِعِزْمٍ وَطِيْدٍ إِلَى الخُمِّ وَابْتَدَأَتْ جَوْلَةً أُخْرَى مِنْ جَدِيدِ.
وَبَعْدَ عِدَّةِ دَقَائِقَ مِنَ المُطَارَدَةِ وَاللُّهَاتِ فِي مُوَاجَهَةِ العُبَارِ المُتَطَايِرِ،
حَصَلَتْ أُخِيرًا عَلَى مُبْتَغَاهَا. كَانَ هَذَا الفُرُوجُ أَقْرَبَ إِلَى الحَجْمِ الَّذِي
تُرِيدُهُ، وَمِنْ جَدِيدٍ انطَلَقَتْ نَحْوَ خَشَبَةِ القِطْعِ الغَلِيظَةِ. وَمَرَّةً ثَانِيَةً لَمْ
تَجِرِ الأُمُورُ حَسَنًا هُنَاكَ. إِذْ مَدَّدَتْهُ وَمَدَّتْ يَدَهَا لِتَنَاطُلِ الفَأْسِ،
وَأَسْقَطَتِ الفَأْسَ وَمَدَّدَتْهُ، مِرَارًا وَتَكَرَّرًا. أُخِيرًا جَاءَهَا الإِلَهَامُ، فَاتَّجَهَتْ
إِلَى المَنْزِلِ حَامِلَةً الفُرُوجِ. وَإِلَى غُرْفَةِ نَوْمِهَا دَخَلَتْ، وَالفُرُوجُ تَحْتَ
إِبْطِهَا، فَأَخَذَتْ مِنَ الجَارُورِ لَفَّةَ خِيطَانِ المَصَّيْصِ المَلْفُوفَةِ بِتَرْتِيبِ. ثُمَّ
رَجَعَتْ إِلَى سَقِيفَةِ الحَطَبِ، حَيْثُ قَعَدَتْ عَلَى حَطْبَةِ ضَخْمَةٍ،

والفُرُوجُ فِي حِضْنِهَا، وَرَبَطَتْ سَاقِيهِ مَعًا بِأَحْكَامٍ. ثُمَّ حَمَلَتْهُ خَارِجًا وَرَبَطَتْ طَرْفَ الْخَيْطِ الْآخَرَ بِشَجَرَةٍ صَغِيرَةٍ. وَفِيهَا هِيَ حَامِلَةٌ الْفُرُوجَ بَعْدَ، رَبَطَتْ عُنُقَهُ بِخَيْطٍ مَصْبُوعٍ آخَرَ. ثُمَّ رَبَطَتْ الْخَيْطَ الثَّانِي بِشَجَرَةٍ صَغِيرَةٍ أُخْرَى. وَأَحْضَرَتْ خَشَبَةَ الْقَطْعِ مِنْ سَقِيفَةِ الْحَطَبِ وَوَضَعَتْهَا فِي الْبُقْعَةِ الْمُنَاسِبَةِ تَحْتَ رَقَبَةِ الْفُرُوجِ الْمَمْطُوطَةِ.

قَالَتْ بِشَيْءٍ مِنَ الرَّضَى: "هَيَّا الْآنَ!" وَإِذَا سَدَدَتْ الْفَأْسَ نَحْوَ الْهَدَفِ بَانْتِبَاهٍ، أَطْبَقَتْ عَيْنَيْهَا وَأَهْوَتْ بِضَرْبَةٍ قَوِيَّةٍ.

نَجَحَ الْأَمْرُ... وَلَكِنَّ مَارْتِي لَمْ تَكُنْ مُسْتَعِدَّةً تَمَامًا لِمَا حَصَلَ تَالِيًا. فُرُوجٌ يَتَخَبَّطُ بِضَرَاوَةٍ، مَقْطُوعَ الرَّأْسِ، غَطَّاهَا بِالْدَّمِ الْمَتْرَشِّشِ دُونَ رَحْمَةٍ.

فَزَعَقَتْ: "كُفَّ عَنِ هَذَا! كُفَّ عَنِ هَذَا! يُفْتَرَضُ أَنْ تَكُونَ مَيِّتًا، أَنْتِ أَيُّهَا الْغَبِيُّ مَقْطُوعُ الرَّأْسِ!"

أَهْوَتْ بِالْفَأْسِ مَرَّةً أُخْرَى، مُحَرَّرَةً الْفُرُوجَ مِنْ أَحَدِ جَنَاحَيْهِ. وَظَلَّ يَتَخَبَّطُ، فَتَرَاوَعَتْ مَارْتِي وَأَسْنَدَتْ ظَهْرَهَا إِلَى حَائِطِ السَّقِيفَةِ لِتَحْمِي وَجْهَهَا مِنَ الْهُجُومِ الضَّارِي الرَّهِيْبِ. وَأَخِيرًا انْطَرَحَ الْفُرُوجُ بِلَا حَرَكَ، مَا عَدَا ارْتِعَاشَةً وَاحِدَةً بِضَعِّ مَرَّاتٍ. فَرَفَعَتْ مَارْتِي يَدَيْهَا عَنِ وَجْهَيْهَا.

قَالَتْ مُغْتَاظَةً: "يَا لَكَ مِنْ طَيْرٍ مَلْعُونٍ!" وَتَسَاءَلَتْ وَقْتًا وَجِيزًا هَلْ تَجْرُؤُ عَلَى التَّقَاطُهِ.

وَنظَرَتْ مِنْ فَوْقَ إِلَى فُسْتَانِهَا الْمُتَسِيخِ الْمُلَطَّخِ بِالْدَّمِ. يَا لَهَا مِنْ

فوضى، وكلّهما لأجلِ عشاءٍ من لحم الدجاج!

وخارجًا في فناء الحظيرة، كان ديكٌ ساخطٌ قصيرُ المنقارٍ يُحاولُ أن يصيح، فيما التقطتْ مارتي كتلةَ الدّم والرّيش البائسة وتوجّهتْ إلى المنزل.

كان لا بُدَّ أن يُنزعَ ذلك الرّيشُ كلّه، ثمّ جاءت مُهمّةُ تنظيفِ الأحشاء، الأكثرُ إغثاءً.

بطريقةٍ ما، أنهتْ ذلك كلّه، وبعدما غسلتِ اللّحم في ماء الينبوع العذب وتبلّته، وضعتّه في المِقلّة مع الزّبدة طيّبة النّكهة. وقرّرت أنّه أحسنُ لها أن تغتسلَ قبلَ رجوعِ كلارك ومسي. فبدا الاستحمامُ الطريقةَ الأبسط والأسرع لقضاء الأمر، ومن ثمّ نقلتْ مارتي حوضًا إلى غرفتها وملائته بماءٍ ساخن. ولمّا عادت نظيفة، أخذتِ الفُستانَ الوسخَ على نحوِ كريبه، ونقّعتّه في ماء الاستحمام. ستتولّى أمرَ ذلك غدًا، كما وعدتْ نفسها وهي تحملُ كتلةَ الفوضى كلّها إلى الخارج وتضعُها على طاولةٍ غسَلٍ بجانب الكوخ.

وإذ شعرتْ مارتي بالانتعاش وبأنّها أشبهُ بنفسِها بعد استحمامها، استأنفتْ تحضيراتها للعشاء. فلمّا وصلَ كلارك ومسي، مُتعبين لكنّ سعيدين من نهارهما معًا، حيّتهما رائحةُ فرُوجٍ يُقلّي. لم تبدُ أيّةُ مُفاجأةٍ على وجه كلارك، وكانت تفاعلات الاثنتين واقعيّةً لمّا رحبتْ مارتي بهما ليدخُلا ويتناولوا العشاء.

في الواقع لم يكّد كلارك يقوى على كبح دهشته في أثناء العشاء، وأوشك أن يسأل مارتى إن كانت قد تلقت زيارةً ذلك النهار، إذ كان مُتيقّنًا تمامًا بأنها لا بُدَّ أن تكون قد حصلت على مُساعدة لإنجاز ما يتطلّبُه تحضيرُ فُرُوجٍ للعشاء. ولكنّه فكّر أفضل في سؤالٍ كهذا. وبعدَ العشاء، في طريقه إلى الحظيرة، رأى الفُستانَ المُتسخ في المياه الملوّثة بالدمّ والفوضى قُربَ سَقِيفَةِ الحَطَب. وكانت خشبةُ القَطع الغليظة ما تزالُ حيث تركتها مارتى، إلّا أنّ بُوبَ العجوز كان قد أزاح بسرعةٍ رأسَ الفُرُوج. وكان خيطُ المَصيص ما يزالُ هناك أيضًا مربوطًا بالشَّجرتين الصَّغيرتين.

وإذ مرَّ بقُربِ الخُمِّ، استطاع أن يحزُرَ أنّه قد وقع شيءٌ من الجَيْشان الشَّامل هناك أيضًا. فقد بدا كأنَّ الفرائجَ تخبّطت دائريًا بِضع ساعات... إذ كان الرِّيشُ وبرازُ الدَّجاج في كُلِّ مكان، بما في ذلك معالِفُ الحُبوب وحِياضُ ماءِ الشُّرب.

وما توجَّع كلُّ شيءٍ، في الواقع، كان الدِّيك الكبير وهو جاثمٌ بغضبٍ على سياجِ الزَّرْبِيَّة، بمنقاره القصير على نحوٍ مُضحك، يصيحُ بعيدًا ليَطغى على السُّرب.

تمتَمَ كلارك: "ما خطرَ لي قطُّ...". هازأ رأسه مذهولًا.

لم يتمالك نفسه عن الابتسام حِيالَ منظرٍ ذلك الدِّيك. غدًا سيفعل شيئًا ما بشأنه. أمّا اللَّيلة، فقد كان شكورًا من أجل وجبةِ الدَّجاج

المَقْلِيّ التي أعدَّتْها مارتي.

ذَبْحُ خَنَازِيرَ عِنْدَ الْجِيرَانِ

أعدتْ مارتِي نَفْسَهَا عَقْلِيًّا لِلأُسْبُوعِ الْجَدِيدِ، أَمَلَةً مِنْ كُلِّ قَلْبِهَا أَنْ يَكُونَ مَمْلُوءًا بِالنَّشَاطِ إِلَى التَّمَامِ.

صَبَاحَ الْاِثْنَيْنِ، أَتَى كَلَارِكُ بِالذِّيكِ الْكَبِيرِ، مَقْطُوعَ الرَّأْسِ وَمُنْتَوَفَ الرِّيشِ. وَنَصَحَ مَارْتِي بِأَنْ تَسْلُقَ شَيْخَ السَّرْبِ بَدَلًا أَنْ تُحَاوِلَ قَلْبَهُ، وَلَمْ تَجِدْ مَارْتِي بِأَسَا فِي أَنْ تَقْبَلَ نَصِيحَتَهُ. فَبَعْدَ تَنْظِيفِ الطَّيْرِ وَوَضْعِهِ عَلَى النَّارِ فِي قِدْرِهَا الْكُبْرَى لِيَنْضَجَ، بَاشَرَتِ الْعَمَلَ فِي غَسْلِ جَمِيعِ الْمَلَابِسِ الَّتِي اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَجِدَهَا، وَالَّتِي كَانَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى غَسْلِهَا. وَأَلَمَهَا ظَهْرُهَا مِنْ لَوْحِ الْفَرْكِ، فَسَرَّهَا أَنْ تُمَضِّيَ بَاقِيَ النَّهَارِ فِي خِيَاطَتِهَا. وَقَدْ أَدْهَشَهَا كَمْ كَانَ سَهْلًا أَنْ تَعْتَنِيَ بِمَسِيٍّ؛ إِذْ كَانَتْ الصَّغِيرَةُ قَانِعَةً تَمَامًا بِمِلْعَقَةٍ خَشَبٍ كَبِيرَةٍ وَوِعَاءٍ لِيُحَرِّكَ وَجِبَاتِ مَزْعُومَةٍ لِدُمَيْتِهَا. وَقَرَّرَتْ مَارْتِي أَنْ تَخِيطَ لِلدُّمِيَّةِ بَعْضَ الثِّيَابِ الْجَدِيدَةِ عِنْدَمَا يُتَاحُ لَهَا وَقْتُ.

كَانَ بَاقِيَ الْأُسْبُوعِ مَمْلُوءًا تَمَامًا أَيْضًا. فَقَدْ ذَهَبَتْ مَعَ كَلَارِكِ إِلَى بَيْتِ بَنِ غَرَاهَامِ لِأَجْلِ ذَبْحِ خَنَازِيرِ. وَكَانَ هُنَاكَ أَيْضًا تَوْدِ اسْتِرْنِ وَابْنَهُ

البالغ، جايسون، وعرفتُهما مارتي بوصفِهما من الجيران اللطفاء الذين
أحضروا جُثمانَ كليم ووفروا مكانَ دَفِنِهِ. فكان الألمُ هناك، حادًا
ومُوجعًا من جديد، ولكنها بذلتَ جَهْدًا فعليًا لدفعه بعيدًا عنها. وقد
سرَّها أن تكونَ مع ما غراها. إذ شعرتَ بأنَّها قادرةٌ على استمداد كثيرٍ
من القوَّة والحكمة والمشورة من المرأة الأكبر سنًا.

وفيما استمرَّ النهار، لم تتمالكِ مارتي نفسها عن ملاحظة النظرات
التي جرى تبادلها بين الشابِّ جايسون وسالي آن ابنة ما. فإن لم
تُخطئِ تخمينها، كان شيءٌ ما يتشكل بينهما.

ولكن كان لديها وقتٌ قليل لتفكَّر في ذلك مِليًا؛ لأنَّ تقطيع اللحم
وإعداده كانا مهمَّةً كبيرة. فبعدما ذبح الرجالُ الحيوانات وسلخوها
وقسموا كلاً منها أربعة أجزاءٍ مُتساوية، ضاقَ وقتُ النساءِ كثيرًا على
مُجاراتهن.

أمَّا المهمَّةُ التي وجدتها مارتي الأصعبَ على المَعِدَّة فكانت إفراغَ
الأمعاء وتحضيرها لحشوِّها بلحم النَّفاق. وقد اجتاحتها سيولٌ من
الغثيان، وكان عليها بضعَ مرَّاتٍ أن تُكافحَ لأجل السَّيطرة. فلمَّا أُنجِزَتِ
النَّفانقُ أخيرًا، خرجتَ مارتي إلى الحمَّامِ وتقيَّاتُ غداها كُله. وقد
سرَّها أن تتخلَّصَ منه، ثمَّ رجعتُ إلى العملِ شاعرةً بشيءٍ من
التَّحسُّن.

اهتمَّ الرِّجالُ بإعداد المحلول الملحيِّ لتقديد لحم الجنب والفخذ،

وجَهَّزُوا حُجْرَةَ التَّدخينِ لِلعملِيَّةِ. وتولَّتِ النِّساءُ فَرَمَ لحمِ النِّقانقِ وتَبْيِلهُ، والعملَ البَطِيءَ والمُضجِرَ بالأحرى في حَشْوِ الأَمعاءِ وربطِها في أطوالٍ مُناسِبَةٍ. وقد ساعدَهُنَّ أن يَكُنَّ قادِرَاتٍ على الدَّرْدِشَةِ في أثناءِ قِيامِهِنَّ بالعملِ، ومع ذلكِ بَدَتِ المِهْمَةُ مُملَّةً. وفي اليَوْمِينِ الثَّانِي والثَّالِثِ، جاءَتِ هيلدي اسْتِرِن مع رِجالِ عائلَتِها، فأسَعَفَتِ الأيدي الزَّائِدَةُ كَثِيرًا في إنْجَازِ العملِ.

وكان لا بُدَّ أن يُفَرَمَ الدُّهْنُ ويُصَهَّرَ، فيُحَفَظَ شيءٌ منه للطَّبْخِ والقَلِي، ويُوَضَعُ شيءٌ منه جانِبًا كي يُستعملَ في صُنعِ الصَّابونِ.

عندَ نِهايةِ كلِّ يومٍ، كان المَعنِيُّونَ يَصيرون مُتَعَبِينَ ومُوجَعِينَ. وقد لَاحَظْتُ مارتي أَنَّ السَيِّدَةَ غِراهام حاولتْ أن تُكَلِّفَها المِهامَّ الأَقَلَّ قَسوَةً، ولكنَّها أَبَتْ أن تقومَ بِأَيَّةِ واحِدَةٍ منها، مُريدَةً أن تُؤدِّيَ كامِلَ الواجبِ المَنووطِ بِها.

في نِهايةِ اليَوْمِ الثَّالِثِ، جرى تَوزِيعُ اللَّحْمِ، ونُظِّفَتِ الأَدواتُ الأَواني وَوُضِبَتِ لُتْستعملَ في ذَبْحِ السَّنَةِ المُقْبِلَةِ. وعَمِلتْ سالي آن ابنةُ ما غِراهام القِهوةَ لَهُم جَمِيعًا؛ فقد كانوا بِحاجةٍ إلى تَجدِيدِ قَواهُم لِأجلِ العملِ الَّذي يَنتَظِرُهُم في مَنازلِهِم عندَ نِهايةِ اليَوْمِ. ولاحَظْتُ مارتي جَيسونَ نَاطِرًا صَوبَ سالي، ورأتِ وَجَهَ سالي يَتورَّدُ حِيالَ ذلكِ. ولم يَكُنْ في وَسعِها أن تَلمُومَ جَيسونَ؛ فقد كانت سالي آن صَبِيَّةً جَميلَةً جَدًّا في السَّابِعةِ عَشَرَ مِنَ العُمُرِ، وكانت لِطِيفَةٍ تامًّا كما كانت

جميلة، كما فكَّرتِ مارتِي. أكان جايسون صالحًا كفايةً لها؟ أمَلتِ مارتِي ذلك. لم تكن تعرفُ عن الفتى أيَّ شيءٍ يجعلُها تُفكِّرُ خلافَ ما فكَّرتِ. فقد بدا قويًّا، ولا شكَّ أنَّه كان يُؤدِّي واجبه المنوطَ به من العمل في الأيام القليلة الأخيرة، كما بدا مُهدِّبًا كفايةً. ولخصَّتِ الموضوعَ كلَّه: أجل، لعلَّه يكونُ مُناسبًا تمامًا. على كلِّ حال، بدا كأنَّه لا بدَّ أن يكونَ كذلك، من الطريقة التي بها كانا يهيِّمان أحدهما بالآخر.

وتذكَّرتِ مرَّةً أخرى كيف كانت الحالُ لما قابلتِ كليم أولَ مرَّة. فلما التفتت عيناها نحوها، استطاعت أن تُحسَّه مُراقبًا إيَّها حتى حين لم تكن ناظرةً إليه مُباشرةً، وكان خدَّها يتورَّدان من فرطِ تأثرها. لقد علمت في الحال أنَّها ستُحبُّه، وحررت أنَّه هو أيضًا علم ذلك. فمُجردُ حضوره فجَّرَ مُفترقاتٍ في أوصالها. وقد شعرت بأنَّها لن تُطبقَ الانتظارَ لرؤيته ثانيةً، إلاَّ أنَّها بالكاد استطاعت الاحتمالَ لما رآته. كانت قد ظنَّت أنَّها ستنفجرُ من حِدَّةِ الأمر، ولكنَّ تلك هي حقيقةُ الحُبِّ. إذ هو جامعٌ ومتملِّكٌ، ويجعلُ الشَّخصَ يكادُ ينفجرُ ابتهاجًا واشتياقًا، لكونه عذبًا ومُعذِّبًا في آنٍ معًا. نعم، هكذا كان الحُبُّ.

استأذَنَ كلارك للقيام عن الطَّعام، وقامت مارتِي أيضًا. وكرَّرت ما وجبَ من شكرٍ وتوديعٍ للسيدة غراهام، وراقبت بدقة جِرارَ الدهن التي كانت على وشك أن تأخذها إلى البيت لِصنع الصَّابون.

فَقَالَتْ مَا غَرَاهَامُ: ”لَا دَاعِي لَأَنْ نَرْتَبِكَ كِلْتَانَا بِصُنْعِ الصَّابُونِ.
مَارْتِي، لَمْ لَا تَتْرُكِينَ الْجِرَارَ هُنَا وَتَأْتِينَ إِلَى هُنَا صَبَاحَ غَدٍ فَنصنعه كُلَّهُ
مَعًا؟“

وَهتَفَ قَلْبُ مَارْتِي: بَارِكْكَ الرَّبُّ، مَا غَرَاهَامُ. أَنْتِ تَعْلَمِينَ جَيِّدًا جَدًّا أَنِّي
سَأخْفِقُ تَمَامًا فِي مُحَاوَلَتِي صُنْعِ صَابُونٍ أَوَّلَ مَرَّةٍ.
ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَى كَلَارِكٍ لَتَرَى رَدَّ فَعَلِهِ.
أَجَابَ كَلَارِكُ: ”تَبْدُو لِي خُطَّةً جَيِّدَةً.“
قَالَتْ مَارْتِي بَرِقَّةً: ”شُكْرًا لَكَ مَا. سَأكون هُنَا فِي الصَّبَاحِ عَاجِلًا
بِقَدْرِ إِمْكَانِي.“

وَبَدَأَ الْقَوْلُ ”شُكْرًا لَكَ“ غَيْرَ وَافٍ تَمَامًا بِعِرْفَانِ الْجَمِيلِ الَّذِي شَعَرَتْ

بِهِ.

أُلْفَةٌ بِلاَ كُلفَةٍ

وفتِ مارتِي بوعدها واستعجَلتْ مَهَامَّها المنزليَّة الصَّباحيَّة، ليتسَنَّى لها أنْ تُؤدِّيَ واجِبَها من العَمَلِ على أكْمَلِ وَجِهٍ عندَ ما غراهاَم. وإذْ ذهَبتْ لإحْضارِ مَعِطَفِ مِسي وَفُبعَتِها، تكَلَّمْ كَلارك بِحرِّيَّة.

”ليسْ لَدِيَّ أيُّ شَيءٍ مُلِحٌّ يَسْتغْرِقُ وَقْتِي اليَوْم. اعتقدتُ أَنَّهُ يُمكنُ أنْ أَعْمَلَ على سَدِّ الحُزُوزِ هُنَا في المَطْبِخ. لِمَ لا تَتْرُكِينِ مِسي فِعْلاً في البَيْتِ مَعِي، وَعندئذٍ لَنْ تُضْطَرِّي لَأَنْ تَقْلِقِي من تَعَثُّرِ الأَقْدَامِ بِها بِقُرْبِ تلكِ القُدُورِ السَّاخِنة؟“

أوماَتِ مارتِي برأسِها عِرفاناً ومُوافَقَةً، وَهَرَعَتِ إلى الحِصانَيْنِ والعِربَةِ الَّتِي أَعَدَّها كَلارك وَوَضَعَهَا في الانتِظارِ.

كانَ ذلكَ النَّهارُ أبردَ باعْتِدالِ. وبالحَقِيقَةِ أَنَّ لِسَعَةَ بَرْدٍ كادَ يَحْمِلُها الهِواءُ. لَعَلَّ الشِّتَاءَ سِيأتِي عَاجِلاً. وما كانَتِ مارتِي مُتَلَهِّفَةً إلى تلكِ النَّهاراتِ الطَّويِلَةِ، والأَمِسيَةِ الأَطوَلِ بَعْدُ، وَالتي كانَتِ كُلُّها مُنتَشِرَةً أَمامِها.

وقد كان صُنْعُ الصَّابُونِ عملاً شاقاً وساخناً، فسُرَّتْ مارتِي لِمَا أَنهَيْتَاهُ. ووُضِعَ مَزِجُ الصَّابُونِ فِي صَوَانِيٍّ، جَاهِزاً لَأَنْ يُقَطَّعَ أَلْوَاْحاً صَغِيرَةً بَعْدَ أَنْ يَبْرُدَ.

جَلَسَتِ الْمَرْأَتَانِ لِأَجْلِ فَنجَانِ قَهْوَةٍ كَانَتَا تَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ كَثِيراً، وَبِضْعَةِ أَقْرَاصٍ مِنْ كَعَكَةِ جُونِي كِيكٍ مِنْ صُنْعِ مَا. وَلَمْ يَبْدُ أَنَّ فُرْصَةً وَافِيَةً لِلْحَدِيثِ الْوَدِيِّ كَانَتْ مُتَاحَةً فِي مَنْزِلِ مَا. فَبِوُجُودِ أَحَدِ عَشَرَ وَلِداً يَحْتَشِدُونَ فِي كُلِّ رُكْنٍ مِنَ الْبَيْتِ الصَّغِيرِ، نَادِراً مَا أُتِيحتْ آيَةٌ فُرْصَةً لِلِاخْتِلَاءِ. وَلَكِنَّ السَّيِّدَةَ غَرَاهَامَ تَحَدَّثَتْ بِحَرِيَّةٍ، مُتْجَاهِلَةً مَنْ يَأْتِي وَيَذْهَبُ.

أَخْبَرَتْ مَا مَارْتِي بِأَنَّ زَوْجَهَا الْأَوَّلَ، ثورنتون بيركنز، كان يملكُ مَخْرَناً صَغِيراً فِي الْمَدِينَةِ، وَلَمَّا تُوفِّيَ بَاكِراً تَرَكَ لَهَا الْمَصْلُحَةَ وَثَلَاثَةَ أَوْلَادٍ صِغَارٍ كِي تُعِيلَهُمْ. فَلَمَّا أَقْبَلَ بَنُ غَرَاهَامَ وَلَدَيْهِ مِزْرَعَةً جَيِّدَةً وَاحْتِياجٌ إِلَى امْرَأَةٍ، بَدَأَ أَنَّهُ اسْتِجَابَةٌ لِلصَّلَاةِ، حَتَّى لَوْ كَانَ لَدَيْهِ أَرْبَعَةُ صِغَارٍ يَجْرُونَ وَرَاءَهُ. وَمِنْ ثَمَّ وَحَدَا قُوَاتِيَهُمَا: الْأُرْمَلَةُ الشَّابَّةُ مَعَ ثَلَاثَةِ، وَالْأَرْمَلُ مَعَ أَرْبَعَةٍ. وَمِنْ ذَلِكَ الْإِتِّحَادِ وُلِدَ سِتَّةُ أَوْلَادٍ أَيْضًا. إِلَّا أَنَّهُمَا فَقَدَا وَاحِدًا وَهُوَ طِفْلٌ، وَوَاحِدًا فِي السَّابِعَةِ مِنَ الْعُمُرِ. كَانَ ابْنُ السَّابِعَةِ وَاحِدًا مِنْ أَوْلَادِ مَا، وَلَكِنَّ بَنَ أَيْضًا شَعَرَ بِالْخَسَارَةِ فِي الصَّمِيمِ. فَالآنَ كَانَ عَدْدُ الْأَوْلَادِ أَحَدَ عَشَرَ، وَكُلُّ مَنْهُمْ كَانَ مُمَيَّزًا.

كَانَتْ سَالِي آنَ وَلُورَا كِلْتَاهُمَا فِي السَّابِعَةِ عَشْرَةَ، بَيْنَهُمَا شَهْرَانِ

فقط، حيثُ كانت لورا ابنةُ بن هي الكُبرى. وتاليًا جاء ثوماس بن، ثم نلي ما. وكان بن ابن ما هو التالي، وقد افترضت ما أن أحد الأسباب التي جعلت بن زوجها مُتعلقًا جدًا بهذا الصبي كان أنهما يحملان الاسم نفسه. وحلّ تاليًا توأمًا بن، لم وكلود؛ وقد سُميا بِاسمي جدّيهما. أمّا الأولاد الأصغر سنًا بعدُ، فلم تُصنّفهم ما بأسمائهم. كان هناك بنتٌ اسمها فيث وصبيُّ اسمه كلينت، كما علمت، وقد ظننت أنها سمعت الأصغر يُنادى لو.

إنما كانت البنتان الكُبريان هما اللتين استحوذتا على الاهتمام الأوّل لمارتي. فقد كانت سالي آن واحدةً من أجمل الفتيات الصغيرات اللواتي رأتهن يومًا، وبدت الفتاة هائمةً فعلاً بأختها غير الشقيقة لورا. إنّما كانت لورا بسيطةً، رغم أنّها قديرةٌ وصاحبةٌ كفاءة، وربّما علمت ذلك، إذ بدا دائمًا أنّها تحاولُ أن تتفوّقَ على سالي آن. فتحيّرت مارتى: لماذا تفعل ذلك. ألا يُمكنها أن ترى أنّ سالي آن تعشقها عمليًّا؟ ليس لدى لورا أيُّ سببٍ دُنيويٍّ لتستبدّ بها؟ ولدى المراقبة من كثبٍ أكثر، حكمت مارتى أنّ لورا لم تكن تعي ما كانت تفعل، مدفوعةً على وجه الاحتمال بشعورٍ عميق بكونها أدنى مرتبةً من أختها الجميلة.

علّلت مارتى في سرّها: ليس من داعٍ لأن تشعّر شعورًا كهذا. فلديها كثيرٌ جدًا تُقدّمه في الحال التي هي عليها.

وافترضت مارتى أنّه لم يكن ثمة أيُّ شيء تستطيع القيام به حيال ذلك. غير أنّها وعدت نفسها بأنّها ستحاول أن تُحسّن مُعاملة لورا

بصورة خاصة، وربما تُساعدُها كي تُدركَ أنها شخصٌ جديرٌ بالاهتمام
والثناء.

كان عصرُ النهار في أواخره، وعلمتِ مارتى أنَّ عليها أن تسلكَ
طريقَ العودة.

فشكرت ما بإخلاص على مُساعدتها الكاملة في صُنعِ الصَّابون.
والآن أحسَّت أنها واثقة بقُدرتها على القيام بذلك وحدها في المرَّة
التَّالية. وقالت للسيدةِ غراهام إنَّه إذا استطاعت توفير الوقت، فهي
بالتأكيد ستُقدِّرُ زيارةً أُخرى منها قبل أن يحبسَ الثلجُ الجميع في
منازلهم. فوعدتُها ما بأن تحاول، ثمَّ عانقتها بحرارةٍ قلبيةً، وسارتَ معها
مسافةً في طريقها.

لَمَّا وصلتِ مارتى إلى البيت خرجَ كلارك من الكُوخ ليتولَّى الاهتمام
بالحصانين، واصطحبَ مِسي في جولته القصيرة إلى الحظيرة. وإذ
دخلتِ مارتى المطبخ، رأت أنَّ جميعَ الشُّقوق القديمة قد سُدَّت
بِوَصَلاتٍ جديدةٍ وكانت على وجهِ السُّرعة آخذةً في التَّحوُّل إلى
البياض المُناسب الجذَّاب. فالآن لن تكنسَ قطعاً منها كلِّما نظَّفت
أرضَ المطبخ. ورُغمَ أنَّها كانت ما تزالُ مُحرجةً بشأن غلطتها غير
المقصودة، فقد سُرَّت بإصلاح الشُّقوق، ولاحظت بتقديرٍ أنَّ كلارك
قد نظَّف حتى أدنى رُكامٍ خلفه لدى إنجازِ العمل.

كانت مارتى مُتعبَةً لَمَّا باشرتِ تحضيراتِ العشاء، وقد علمتِ أنها

سُتَسَّرُ كَثِيرًا عِنْدَمَا يَحِينُ وَقْتُ النَّوْمِ فِي السَّرِيرِ. وَلِأَنَّ يَوْمَ غَدٍ كَانَ يَوْمَ سَبْتٍ، كَانَ عَلَيْهَا أَوْلًا أَنْ تُعَدَّ لِكَلَارِكٍ لِائِثَّةٍ، مَا دَامَ يُرِيدُ كِعَادَتَهُ الْمُغَادِرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَاكِرًا صَبَاحَ غَدٍ.

إنجازُ خِياطتي

غادرَ كلارك بالفعل باكراً إلى المدينة في اليوم التالي، وتنفّستِ مارتِي الصُّعداءَ إذ شاهدته يتوارى مع العربة والحِصانين. فقد كانت ما تزال تشعر بأنّه غريبٌ ينبغي أن تتجنّبهُ كلّما استطاعت، مع أنّ شيئاً من اضطرابها العاطفيّ - دون أن تُدرِك ذلك - كان آخذاً في التلاشي لمُجرّد إدراكها، في قرارة نفسها، أنّ غضبها نحو كلارك كان بلا أساس. إذ كانا، وكلاهما ضحيّة الأحوال، مُرغمين على التّشارك في المنزلِ عينه. وعلى الرُّغم من ذلك، فما زالت مارتِي تطمئنُّ كثيراً عندما تأخذهُ واجباته إلى مكانٍ آخر.

لم تكن لائحةُ المؤون طويلاً مثلَ سابقَتِها، ولكنّ كلارك كان قد طلب منها أن تتفحص ثيابَ مِسي ل ترى ما ستحتاجُ إليه الطّفلَةُ لأجل الشتاء. ففعلتِ مارتِي ذلك وأضافت بحرصٍ بعضَ الموادِّ إلى اللائحة. ثمَّ أوقفَ كلارك مِسي على كُرسِيٍّ ورسمَ نموذجاً لقدمها الصغيرة كي يتيسّر له أن يعود بحذاءٍ لقدميها اللّتين كانتا تكبران.

أشغلتِ مارتِي نفسها بِرُوتينها الصّباحيِّ. وكانت ما تزال تشعرُ

بالتعب من يومِ صُنِعِ الصَّابون. ولقد تساءلتُ في الواقع إن كان الشُّغلُ الشَّاقُّ المدفوعُ عاطفيًّا في التَّنظيف والطَّبْخ والخِياطة، في أثناء الأيَّام السَّابِقة، غيرَ مُستوفٍ جزاءه. فقد شعرتُ بأنَّها مُستنزفةٌ، بل مُصَّابةٌ بدوارٍ خفيفٍ أيضًا، وهي تُنهي غسَلَ الصَّحون. ولأجل الطِّفل الذي كانت تحمِله في أحشائها، عليها أن تكبحَ جماحَ نفسها ولا تُصبَّ كاملَ طاقتها في نشاطٍ محمومٍ. لقد فقدتُ عزيزها كليم، والآن- أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى- أرادتِ الحِفاظَ على طِفله.

قررتُ مارتي أن تجعلَ هذا اليومَ أسهل. فأنجزتِ المهامَّ المنزليَّة التي تخصُّ اليوم، كانبسةٍ ومُرتبةٍ كلِّ غُرْفَةٍ صغيرة. وكانت غُرْفَةُ نومها مُكتظةً تمامًا بسريرها، ومهدٍ مِسي، وخِزانتي جوارير صغيرتين، وصندوقها، وسلَّة الخِياطة، والماكينه الجديدة. كان للماكينه فعلاً مكانٌ أوسعُ في غُرْفَةِ الجلوس، ولكنَّ مارتي كانت على يقين بأنَّ اضطرارَ كلارك إلى رؤية تلك الماكينه سيكونُ مُذكَراً مؤلماً. لا، سيُسُرُّها أن تُوفَّرَ عليه ذلك القدرَ من العناء. ثمَّ أمرتُ يداً ودوداً على الخشب المصقول والمعدن اللَّمَّاع.

وخاطبتِ الطِّفلة: ”اليوم، مِسي، سأنجزُ خِياطتي“.

تحركتُ بينَ الملابس التي أتمتُ خِياطتها، وتحسَّستها بأصابعها فخوراً. علَّقتُ هناك القُبَّعتان المصنوعتان حديثاً؛ إحداهما من قُمَاش رقيق، وهي أكثرُ أناقةً بقليل، والأخرى من قُمَاشٍ قويٍّ مُدفعٍ، للأيَّام

الباردة المقبلة. وكان هناك الثياب الداخليّة، وبعضها مُزركشٌ عند الحواشي بشريطٍ للزينة. ما كانت مارتى قطُّ قد حازتْ من قبل أشياءً أنثويّةً ظريفةً كهذه. حتّى كادت تكره أن تلبسهنّ، لئلا يزولَ منظرهنّ البهّيّ والحديث. كما كانت منامتان مطويّتان موضوعتين في الجارور، وقد أضافت إليهما ثنياتٍ ودرزاتٍ زائدة، وكانت إحداهما مُزوّدةً بشيءٍ من الزخرفة الزرّقاء الأنيقة. وقد علّقَ فُستانان مُكتملان. لم يكونا فاخرين، ولكنّهما كانا مُرتّبين وجذّابين، وأحسّت مارتى أنّها واثقة بأنّ كلارك سيحكّم عليهما بأنّهما ”جيدان“.

وإلى جانب خزانة جواريرها، وقفَ الحذاء الجديد وهو ما زالَ أسود ولماعاً. ما كانت قد انتعلته بعد. فما دامت تستطيع، كانت ستنتعلُ حذاءها العتيق وتحفظُ بالجديد محطّاً للإعجاب. أمّا معطّفها وشالها الجديدان والجميلان جدّاً، فقد علّقها على وتدّين وراء الباب.

تنهّدت مارتى. كان عندها فقط القماشةُ الزرّقاء الضاربةُ إلى الرماديّ لتخيّطها. وقد أبقتها للأخير لأنّه وجبَ أن تكونَ مُميّزة. فنشرت القماشةَ الجميلةَ على ذراعها، ثمّ رفعت إحدى زواياها إلى خدها. وقالت نصفَ هامسة: ”مسي، سأصنعُ لي فُستاناً. ما عليك إلا أن تنتظري حتّى تريه. سيكونُ فخماً، وربّما... ربّما عندما أنجزُ عملي كلّهُ يبقى قماشٌ كافٍ لأصنعَ لك شيئاً ما أيضاً“.

فجأةً، كان ذلك مُهمّاً عند مارتى. فقد أرادت، من كلّ قلبها، أن

تشارك في هذا المقدار الضئيل من السعادة مع شخصٍ ما، وبدتِ
مِسي الشخصَ المَرجوِّ لِتتشارك معه في ذلك.

وإذ أضفتِ مارتِي: ”رَبِّمَا يَبْقَى عِنْدِي أَيْضًا قُمَاشٌ كَافٍ لَصُنْعِ
فُسْتَانٍ لِلدُّمِيَّةِ“، فِيمَا رَبَّتْ مِسي القُمَاشِ وَأَعْلَنْتِ أَنَّهُ ”هَلُو“ (حُلُو،
أَي جَمِيل بُلُغَةِ الأَطْفَالِ). ثُمَّ شَرَعَتْ مارتِي تَشْتَغِلُ، وَلَعِبَتْ مِسي جَيِّدًا
عَلَى البِساطِ بِقُرْبِ السَّرِيرِ، فِيمَا مَاكِنَةُ الخِياطَةِ تُواصِلُ الدَّنْدَنَةَ. وَلَمَّا
بَدَأَتْ مِسي تَتَمَلَّمُ، صُدِمَتْ مارتِي إِذ وَجَدَتْ السَّاعَةَ مُشِيرَةً إِلَى
الوَاحِدَةِ وَعِشْرَ دَقَائِقَ.

حَمَلَتْ مارتِي الطِّفْلَةَ هَاتِفَةً: ”عَرِيزَتِي! أَنَا آسِيفَةٌ فَعَلًّا يَا مِسي. فَاتِ
مَوْعِدُ غَدَائِكِ مِنْذُ وَقْتِ طَوِيلٍ. لَا بُدَّ أَنَّكَ جَائِعَةٌ بِصُورَةٍ رَهِييَّةٍ. سَأَتِي
لِكَ بَشِيءٍ مَا الْآنَ حَالًا“.

أَكَلْنَا مَعًا، ثُمَّ غَطَّتْ مارتِي مِسي فِي السَّرِيرِ كِي تَنَامَ نَوْمَتِهَا
القَصِيرَةَ. فَغَطَّطَ النَّوْمُ عَلَى الطِّفْلَةَ وَهِيَ تُصْغِي إِلَى الخَيْرِ المُتَوَاصِلِ
لِلْمَاكِنَةِ.

ظَهَرَ شَكْلُ الفُسطانِ الجَدِيدِ، وَلَمَّا أَكْمَلَتْ مارتِي بَدَقَّةَ كُلِّ وَصَلَةٍ
وَدَرْزَةٍ، رَفَعَتْهُ لِتُعَايِنَهُ. فَكَادَ يَخْطَفُ أَنْفَاسَهَا. وَقَدْ كَانَتْ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهَا
مَا امْتَلَكَتْ يَوْمًا وَاحِدًا ظَرِيفًا مِثْلَهُ. كَانَتْ قَدْ زَادَتْ قَلِيلًا مِنَ العَرَضِ
لِلِاسْتِيفَادَةِ مِنْهُ فِي الوَقْتِ الحَالِيِّ، وَلَكِنَّ فِي وَسْعِهَا أَنْ تُضَيِّقَهُ بِسُهُولَةٍ
بَعْدَ وَصُولِ طِفْلِهَا. وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُقَاوِمَ تَجْرِيْبَ الفُستانِ وَإِبْدَاءَ

الإعجاب بنفسها صراحةً. ثُمَّ نَقَلَتِ الْفُسْتَانَ عَلَى مَضَضٍ وَعَلَّقَتْهُ
بِحَرَصٍ مَعَ الْفَسَاتِينِ الْأُخْرَى، مُرْتَبَةً كُلَّ طَيَّةٍ لِيُعْلَقَ عَلَى نَحْوِ مُنَاسِبٍ
تَمَامًا.

بَاشَرَتْ مُتَشَوِّقَةً الْعَمَلَ بِالثَّوْبِ الصَّغِيرِ لِمِسي. قَرَّرَتْ أَنْ تَصْنَعَ بُلُوزَةً
صَغِيرَةً مِنَ الْقُمَاشِ الْأَبْيَضِ الَّذِي بَقِيَ مِنْ أَشْيَائِهَا الدَّاخِلِيَّةِ، مَعَ صُدْرَةٍ
تُلْبَسُ فَوْقَهَا مِنَ الْجَوْخِ الْأَزْرَقِ الضَّارِبِ إِلَى الرَّمَادِيِّ. وَبَقِيَ لَدَيْهَا مَا
يَكْفِي كِي تَخِيطَ مِثْلَ ذَلِكَ لِلدُّمِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الْبَالِيَةِ.

أُنْجِزَتِ الْبُلُوزَةُ بِسُرْعَةٍ، وَبِعِنَايَةٍ بَالِغَةٍ بَاشَرَتْ مَارْتِي الْعَمَلَ بِالصَّدَارِ
الصَّغِيرِ. وَقَدْ اِهْتَمَّتْ إِلَى حَدِّ الْوَسُوسَةِ بِالثَّنِيَّاتِ لِتَتَيَقَّنَ بِأَنَّهَا مُرْتَبَةٌ
وَمُتِينَةٌ، وَبَدَتْ كُلُّ دَرَزَةٍ مَخِيطَةً بِأَقْصَى اعْتِنَاءٍ. وَلَمَّا انْتَهَتْ مَارْتِي
عَمَدَتِ عَلَى الْفَوْرِ إِلَى زَخْرَفَةٍ وَصَلَةِ الْكَنْفَيْنِ وَالرَّقَبَةِ بِغَرَزَاتٍ صَغِيرَةٍ
لِلزَّيْنَةِ بِالْإِبْرَةِ وَالخَيْطِ.

أَمَّا مِسي - وَكَانَتْ قَدْ اسْتَيْقِظَتْ مِنْ نَوْمِهَا قَبْلَ وَقْتِ طَوِيلٍ - فَظَلَّتْ
تُصِرُّ عَلَى أَنْ تَرَى "الهُلُو" (أَي الْأَشْيَاءِ الْحَلْوَةَ)، فَكَانَ شِغْلُ مَارْتِي
يُقَاطِعُ فِي أَثْنَاءِ إِطْلَاعِهَا مِسي عَلَى مَا تَخِيطُهُ لَهَا.
وَفَجْأَةً قَفَزَتْ مَارْتِي عَنْ كُرْسِيِّهَا لَمَّا سَمِعَتْ بَوْبَ الْعَجُوزِ مُرْحَبًا
بِرَجُوعِ كَلَارِكٍ إِلَى الْبَيْتِ.

فَالْقَتْ خِيَاطَتَهَا جَانِبًا عَلَى عَجَلٍ وَهَرَعَتْ إِلَى الْمَطْبَخِ قَائِلَةً:
"اللَّعْنَةُ! لَمْ أَفَكِّرْ أَدْنَى تَفْكِيرٍ فِي الْعِشَاءِ".

كان الموقد باردًا لَمَّا مَسَّتْهُ. لقد نَسِيتَ طَوْلَ النَّهَارِ أَنْ تُزَوِّدَهُ بِوَقُودٍ جديد.

وكان كلارك قد واصلَ سَوَقَ العَرَبَةَ إلى الحظيرة. فما كان نَقْلُ المَوْنِ لِيَسْتَوْجِبَ كَثِيرًا من الذَّهَابِ والإيابِ هذه المَرَّةَ، ولا كان ثِقَلُهَا يُصَعِّبُ حَمَلَهَا كما في المَرَّةِ السَّابِقَةِ.

اندفعتِ مارتِي تتحرَّكُ في المطبخ. وقد تذكَّرتِ سِرًّا قديمًا من أسرارِ أمِّها: إذا جاء الرِّجالُ مُترقِّبينَ عشاءهم، وأخذتِ على حينِ غفلةٍ، فعجِّلِي في ترتيبِ المائدة. فَإِنَّ ذلكَ سيَجْعَلُهُم يَعتقدونَ أَنَّ العشاءَ سيحضرُ بعدَ قليل.

وفي اضطرابٍ مسعورٍ، بادرتِ مارتِي إلى وَضْعِ الصُّحُونِ وأدواتِ المائدة. ثُمَّ تورَّدَ خدَّاها حِيالَ حماقتها. إِنَّ ذلكَ لن يخدَعَ كلارك؛ فأمامه تقريبًا ساعةٌ من المَهَامِّ، ولن يكونَ مُتَشَوِّقًا إلى الصُّحُونِ المصفوفةِ الآن. وربما كان موقد فيه نارٌ أكثرَ إقناعًا بقليل. فلمَّا دخل كلارك، كانتِ مارتِي تُشعلُ النَّارَ مُتسائلةً عَمَّا يمكن أن تُحضِّره للعشاءِ في وقتٍ قصيرٍ جدًّا.

وبعدما حطَّ كلارك ما حمَلَه على ذِراعِيه من مُشترِياتٍ، مضى من جديدٍ للقيامِ بالمَهَامِّ، واجتهدتِ مارتِي في تحضيرِ العشاءِ.

عندما رجعَ كلارك من الحظيرة، كانت الوجبة جاهزة، مع أنَّها كانت بسيطة. ولم تُقدِّمِ مارتِي أيَّ اعتذار. فهي رُغمَ كُلِّ شيءٍ، كما

قالت لنفسها، لم تُقَطِّعِ الوقتَ طَوْلَ النَّهَارِ. غَيْرَ أَنَّهَا وَعَدَتْ نَفْسَهَا بِالْأَلَّا
تَدَعَّ ذَلِكَ يَحْدُثُ ثَانِيَةً.

بعدَ إزَالَةِ صَحُونِ الْعِشَاءِ عَنِ الطَّائِلَةِ، أَخْرَجَ كَلَارِكُ مُشْتَرِيَاتِهِ لِأَجْلِ
مِسي. فَهَاجَتْ وَمَاجَتْ مِنْ فَرَطِ بَهْجَتِهَا، إِذْ عَانَقَتْ الْحِذَاءَ الْجَدِيدَ،
وَقَفَزَتْ صَعُودًا وَنَزُولًا بِشَأْنِ مَعْطِفِهَا وَقُبْعَتِهَا الْجَدِيدَيْنِ، وَدَارَتْ فِي دَوَائِرِ
مُلُوحَةٍ بِجَوَارِبِهَا الطَّوِيلَةِ فِي الْهَوَاءِ. وَقَدْ هَتَفَتْ مِنْ أَجْلِ الْقُمَاشِ الَّذِي
سَيُخَاطُ أَثَوَابًا صَغِيرَةً، إِلَّا أَنَّ مَارْتِي كَانَتْ عَلَيَّ يَقِينًا بِأَنَّ الطِّفْلَةَ
الصَّغِيرَةَ لَمْ تَفْهَمْ حَقًّا لِأَجْلِ مَاذَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ. ثُمَّ عَادَتْ إِلَى
الْحِذَاءِ، وَوَضَعَتْ قُبْعَتَهَا عَلَى رَأْسِهَا، جَاعِلَةً الْمُؤَخَّرَ فِي الْمُقَدَّمِ،
وَلَوَّحَتْ دَائِرِيًّا بِجَوْرِبِ طَوِيلِ آخِرِ. فَلَمْ تَتِمَّاكِ مَارْتِي نَفْسَهَا عَنِ
الِابْتِسَامِ، فَاهْمَةٌ كَيْفَ كَانَ شَعُورُ الْبِنْتِ الصَّغِيرَةِ.

وَفَجَاءَتْ دَارَتْ مِسي وَتَوَجَّهَتْ إِلَى غُرْفَةِ النَّوْمِ، وَهِيَ تَجُرُّ وَرَاءَهَا زَوْجَيْنِ
مِنَ الْجَوَارِبِ الْجَدِيدَةِ. فَفَكَّرَتْ مَارْتِي: إِنَّهَا ذَاهِبَةٌ لِتَضَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي خِزَانَةِ
جَوَارِبِهَا. وَبَعْدَ لِحْظَةٍ رَجَعَتْ الْقَدَمَانِ الطَّائِرَتَانِ رَاكِضَتَيْنِ، وَقَدْ حَمَلَتْ
إِحْدَى الْيَدَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ جِدًّا الصُّدْرَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي كَانَتْ مَارْتِي
تَشْتَغِلُ فِيهَا مَوْضُوعَةً عَلَى الرَّأْسِ الصَّغِيرِ. وَرَاقَبَتْ مَارْتِي إِذْ دَفَعَتْ مِسي
الثَّوْبَ إِلَى حِضْنِ كَلَارِكِ، مُشِيرَةً إِلَى الْغُرْزِ وَالذَّرْزِ الْأَنْيَقَيْنِ، وَهَاتِفَةً:
”هَلُوهُ. هَذَا لِي. هَلُوهُ“.

التَّقَطَّ كَلَارِكُ الصُّدَارَ بِحِرْصٍ، بِيَدَيْهِ الْكَبِيرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ خَشَنَهُمَا

العمل. ورقت عيناه إذ رفع نظره صوب مارتى، فحبست نفسها. ولم يتكلم للحظات، بل جلس بهدوء يُربّت الثوب الصغير. ثم بدا صوته مخنوقاً بعض الشيء لما ردّ: ”نعم، مسي، هُلو كثيراً“، وهو في الواقع إلى مارتى تكلم، لا إلى الطفلة المتحمّسة جداً.

كان لدى كلارك مفاجآت أخرى؛ فلمِسي كان لديه كتاب صور. ما كانت قد رأت شيئاً عجيباً كهذا من قبل، فأمضت باقي المساء مُقلّبة الصفحات بانتباه، هاتفةً مرّةً بعد مرّةٍ تعبيراً عن ابتهاجها الشديد للعُثور على بقر وخنازير وأرانب في مكانٍ مُستبعد كهذا. وقد أتى كلارك لنفسه أيضاً ببعض الكُتب، لِأُمسيات الشتاء الطّوال المُقبلة. كانت هذه أوّل مرّةٍ فيها تتنّبّه مارتى إلى أنّ كلارك كان قارئاً. ثمّ تذكّرت الرّفّ في غرفة الجلوس، وعليه عددٌ من الكُتب التي تبدو مُشوّقة. لا شك أنّ بعضاً منها كانت مُفضّلةً لدى أمّ مسي. ولعلّها هي نفسها سيكون عندها وقتٌ من مساءٍ شتاءٍ لتقرأ واحداً أو أكثر من تلك الكُتب.

وكان لدى كلارك زيمةٌ لها أيضاً، من شأنها أن تُساعدها على تمضية الأشهر المُمتدّة أمامها. وقد كان فيها صُوفٌ وصنانييرٌ حبكٍ وقطعٌ قماشٍ لِتنجيد اللُحف. وقال لها إنّ عنده كيساً كبيراً من الصُوف الخام سبق أن خزّنه لوقتٍ فيه تدعو الحاجةُ إليه.

كانت مارتى شكوراً جداً؛ فقد أحبّت أن تحبك. ورغّم أنّها لم تكن

قد نَجَدتْ قَطُّ لُحْمًا من قبل، فكانت مُتلهِّفَةً إلى تجريب يدها في ذلك.

أما مِسي فكانت أكثرَ تأثُّرًا من أن تأويَ إلى السَّرير، ولكنْ بحَرَم أدهشَ مارتِي أعلَمَ كلارك الصغيرةَ بأنَّها قد نالت نصيبًا كافيًا من الابتهاج في ليلةٍ واحدة، وبأنَّ أشياءَها كُلَّها ستكونُ هناك في الصَّباح. وبعَدا غَسَلتْ مارتِي الطِّفلةَ وأعدَّتْها للنَّوم، دَثَّرها كلارك في السَّرير وسمِعَ صلاتِها القصيرة. ثُمَّ طَوَّتْ مارتِي بحِرصٍ الأشياءَ الجديدةَ والتقطتْ قِطْعَ القُماش. وفكَّرتْ بشعور من الراحة: هذه ستملأ أيامًا زائدة قليلة. إذا أُتيحَ لها أن تُبقيَ نفسها مشغولةً فحسب، فلعلَّها لا تشعُرُ بالوحشة والحرمان كثيرًا. فوضعتْ كلَّ شيءٍ في خِزانة مِسي لهذه اللَّيلة، ناويةً أن تعودَ إلى العمل في خِياطةِ الثَّيابِ الصغيرة يومَ غد.

وفجأةً تذكَّرتْ: أوه لا! غداً هو يومُ الرَّبِّ مرَّةً أُخرى!

لم يَسعها أن تتوقَّعَ من كلارك ومِسي أن يمضيا إلى التَّنزهِ مَشياً في الهواء الطَّلَقِ يومِي أَحَدٍ على التَّوالي، لا سيَّما أنَّ الجَوَّ صارَ أبردَ قليلاً. وهتفتْ بِلين: ”يا ويلاه!“

كيف، يا تُرى ستمكَّنُ من التَّحمُّلِ على مدى النَّهارِ البائسِ الطويلِ؟ ربَّما تحتمُّ عليها أن ترتدي ثيابها وتذهبَ إلى الغابات هي نفسُها. لا جدوى من القلق بشأن ذلك الآن؛ إذ كان لَدَيْها قليلٌ من الشُّغلِ تقومُ به في الصِّدار بعد، ثُمَّ تحمِلُ نفسَها المُتعبَةَ إلى السَّرير.

وقد بدأ أمرًا مألوفًا لديها في هذه الأيام أن تشعرَ بالإرهاق.

ألين

كان الأحد يومًا باردًا باعتدال هبَّت فيه ريحٌ من الغرب. وبعد القراءة الصُّباحيَّة لمارتي وكلارك، ظلَّ ذهنُ مارتي حائرًا بشأن المقطع الذي قرأه كلارك من سفر المزامير في الكتاب المقدَّس. فقد سمعتُ كلارك لمَّا قرأ: ”الرَّبُّ راعيَّ“، وتساءلت: كيف يمكن أن يكون الربُّ راعيًّا؟ وبالتدرُّج باتت أكثرَ إصغاءً من كُتِّب، ووجدتَ نفسها راغبةً في طرْح سؤالٍ على كلارك، أو تَكَرُّرِ عِبارةِ بِنِيَّةِ التَّفَكُّرِ في معناها. ولكنَّها لم تستطِع أن تحمِلَ نفسها على سؤاله.

أَيُمْكِن أن يكونَ هذا الإله الذي كان كلارك يقرأ عنه عزاءً لآخرين كما كان للكاتب؟ لقد قال كلارك إنَّ اسمه داوُد. اعترفتَ مارتي بأنَّها عرَفَت قليلاً جدًّا عن الله، وأحياناً ضبَطتَ نفسها تائقةً أن تعرفَ أكثر. فإنَّ قراءةَ الكتاب المقدَّس ما كانت جزءًا من تربيَّتها. وتساءلت بطريقةٍ غامضة إن كانت قد فوّتت شيئًا مهمًّا بالأحرى. وبين لحظةٍ وأخرى، كان كلارك يُضيفُ بضعَ كَلِماتٍ من عنده، مُتحدِّثًا بعضَ الشَّيء عن الكاتب وحياته المُضطربة وقتَ الكتابة. وعلمتَ مارتي أنَّ

التفسير كان مقصودًا لأجلها، إلا أنها لم تستأ من ذلك. وبالْحَقِيقَةِ
أَنَّهَا سُرَّتْ بِأَيِّ شَيْءٍ أَضَافَهُ كَلَارِكٌ إِلَى فَهْمِهَا.

فِي أَثْنَاءِ وَقْتِ الصَّلَاةِ صَبَاحًا، وَجَدْتُ مَارْتِي نَفْسَهَا مُتَسَائِلَةً هَلْ
تَجْرُؤُ عَلَى الْاقْتِرَابِ إِلَى إِلِهِ كَلَارِكٍ بِالطَّرِيقَةِ الْمُبَاشِرَةِ الَّتِي اقْتَرَبَ بِهَا
تَمَامًا كَلَارِكٌ إِلَيْهِ. وَقَدْ شَعَرْتُ بِتَوَقُّقٍ لِأَنَّ تَفْعَلَ ذَلِكَ، غَيْرَ أَنَّهَا تَهَيَّيْتُ.

وَلَمَّا قَالَ كَلَارِكٌ ”آمِينَ“، صَوَّرْتُ شَفَتَا مَارْتِي الْكَلِمَةَ أَيْضًا.
ثُمَّ بَدَأَ الْفَطُورَ بَعْدَمَا لَفْظَتْ مِسي أَيْضًا الْكَلِمَةَ عَلَى طَرِيقَتِهَا بِصَوْتِ
عَالٍ ”مِينَ!“.

مَاذَا يَا تُرَى سَنَفْعَلُ بِهَذَا النَّهَارِ الطَّوِيلِ الَّذِي أَمَامَنَا؟ هَكَذَا تَسَاءَلْتُ مَارْتِي
سِرًّا. لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ فِي يَوْمِ الرَّبِّ هَذَا يَجِبُ أَلَّا تَخِيطُ. كَانَتْ قَدِ
ارْتَكَبَتْ هَذَا الْخَطَأَ الْفَاضِحَ مَرَّةً، وَلَكِنَّ تَكَرَّرَهُ سَيَكُونُ تَجْرِبِيًّا لِعُضْبِ
اللَّهِ كَيْ يَنْزِلَ عَلَيْهَا، وَمَا كَانَ فِي وُسْعِهَا أَنْ تُخَاطِرَ فِي ذَلِكَ. وَإِذَا كَانَ
قَادِرًا عَلَى إِمْدَادِهَا بِأَيِّ عَوْنٍ، فَقَدْ كَانَتْ فِي أَمْسٍ أَحْتِيَاجٍ إِلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ قَاطَعَ كَلَارِكٌ أَفْكَارَهَا: ”فِي طَرِيقِي إِلَى الْمَدِينَةِ أَمْسٍ، تَوَقَّفْتُ
عِنْدَ بَيْتِ مَا غَرَاهَامَ لِأَرَى هَلْ مِنْ شَيْءٍ قَدْ أَحْضَرَهُ لَهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ.
وطلبت ما إليَّ أن نذهب إليهم اليوم في زيارةٍ ونبتناول الغداء عندهم.
من يدري كم يومٍ أحدٍ لطيفًا سيكون لنا قبل أن يحلَّ الشتاء؟ وقد قلتُ
لها إنِّي سأراجِعُكَ فِي الْأَمْرِ“.

فَفَكَّرْتُ مَارْتِي: بُورِكْتِ يَا مَا! بُورِكْتِ حَقًّا!

أَمَّا بِصَوْتِ عَالٍ، فَقَالَتْ بِهَدْوٍ كَافٍ: ”يَعْجِبُنِي ذَلِكَ“، وَهَكَذَا تَقَرَّرَ
الْأَمْرَ.

عَجَّلَتْ بِغَسْلِ صُحُونِ الصَّبَاحِ، وَبَيْنَمَا مَضَى كَلَارِكُ لِإِحْضَارِ
الْحِصَانَيْنِ أَعَدَّتْ مِسي وَنَفْسَهَا بِسُرْعَةٍ لِلذَّهَابِ.

أَلْبَسَتْ مِسي البُلُوزَةَ وَالصِّدَارَ الْجَدِيدَيْنِ مَعَ زَوْجَيْنِ مِنَ الْجَوَارِبِ
الْجَدِيدَةِ وَالْحِذَاءِ الْأَسْوَدِ الصَّغِيرِ. وَسَرَّحَتْ جَدَائِلَ مِسي بِالْفُرْشَاءِ حَتَّى
صَارَتْ نَاعِمَةً وَخَفِيفَةً. وَقَدْ بَدَتِ الطِّفْلَةُ بِالْفِعْلِ صُورَةً جَمِيلَةً إِذْ بَرَمَتْ
وَدَارَتْ عَلَى قَدَمٍ وَاحِدَةٍ، مُبْدِيَةً الْإِعْجَابَ بِنَفْسِهَا وَمُصَفِّقَةً بِيَدَيْهَا
الصَّغِيرَتَيْنِ مِنْ فِرطِ الْإِبْتِهَاجِ.

ثُمَّ اهْتَمَّتْ مَارْتِي بِمَظْهَرِهَا الشَّخْصِيِّ. فَأَنْزَلَتْ الْفُسْتَانَ الْأَزْرَقَ
الصَّارِبَ إِلَى الرَّمَادِيِّ وَأَلْقَتْهُ عَلَى جِسْمِهَا. كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِأَجْلِ
كَلِيمِ. وَبِطَرِيقَةٍ مَا، لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْمِلَ نَفْسَهَا عَلَى ارْتِدَائِهِ. فَإِنْ
أَخْفَقَ كَلَارِكُ فِي مُلَاحَظَةِ الْفُسْتَانِ، يَخِيبُ أَمْلُهَا؛ وَإِنْ أَبَدَتْ عَيْنَاهُ
إِعْجَابًا، فِي صِدْفَةٍ غَرِيبَةٍ مَا، يُؤْلِمُهَا ذَلِكَ أَكْثَرَ بَعْدَ. إِنَّهَا لَمْ تُرِدْ إِعْجَابًا
مِنْهُ أَوْ مِنْ أَيِّ رَجُلٍ آخَرَ. وَمَا زَالَ فِي وَسْعِهَا أَنْ تَرَى بِوَضُوحٍ عَيْنِي
كَلِيمِ الْمُفْعَمَتَيْنِ بِالْحُبِّ إِذْ جَذَبَهَا إِلَيْهِ. فَأَخْمَدَتِ النَّشْجَةَ فِي طَيَّاتِ
الْفُسْتَانِ وَعَلَّقَتْهُ فِي مَكَانِهِ مِنْ جَدِيدٍ. وَاخْتَارَتِ الْفُسْتَانَ الْأَبْسَطَ،
الْأَزْرَقَ الدَّاكِنَ الَّذِي عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْنَةِ عِنْدَ أَعْلَى الصِّدْرِ وَالْكُمِّينِ.
فَأَكِيدُ أَنَّ هَذَا سَيَكُونُ مَقْبُولًا تَمَامًا، بَلْ مُنَاسِبًا أَيْضًا، لِغَدَاءِ يَوْمِ أَحَدِ

عند الجيران.

لبست الثياب الداخلية الجديدة والجوربين الطويلين، وانتعلت الحذاء الجديد، وزلقت الفستان من فوق رأسها. كما قررت أن تعتمر القُبعة الأخف وتلفع بشالها الجديد. ولم يكن البرد شديداً كثيراً بحيث تحتاج إلى معطفها الثقيل.

وبانتباهٍ سرحت شعرها الجعد بالفرشاة، ثم قررت أن ترفعه بالدبابيس وفقاً للزّي الحديث. فقد كانت مهملةً له على نحو رهيب في الآونة الأخيرة. واستغرق تصفيفه بترتيبٍ بضع دقائق. وكانت تُحدّق إلى نفسها بانتقادٍ في المرآة الصغيرة على الجدار، لما سمعت كلارك يُنادي من الباب سائلاً هل باتتا على استعداد.

اندفعت مسي خارجةً من الغرفة لمُلاقاة بابا، وأعلّمت أنها تبدو مثل "سيّدة صغيرة حقيقية، وبابا فخورٌ بك حقاً".

ثم تبعتها مارتي، مُتجنبةً عيني كلارك. لم تُرد أن تقرأ أيّ شيءٍ فيهما، حقيقياً كان أم مُتصوّراً. ولاحظت لما ساعدها على الصعود إلى مقعد العربة أنه قد غير ثياب العمل، فبدأ أنيقاً بالأحرى. وفيما هم ذاهبون بالعربة إلى منزل آل غراهام، صرفت مارتي كامل اهتمامها نحو مسي الصغيرة واليوم الخريفيّ الجميل المُنعش.

ساعدت مارتي ما غراهام والفتيات في تحضير الغداء. وبالمُباينة مع أوّل مرّة فيها وجدت مارتي نفسها في بيت غراهام، كانت الآن قادرةً

على التركيز، فتبين لها أنّ ما طبّخة جيّدة جدًّا. وهذه حقيقة لم تكن مُفاجئة لها بعد جميع الصفات التي زوّدها ما بها. وبعد الغداء، غادر الرّجال إلى طرف الشّرفة الذي تغمّره أشعة الشّمس لأجل شيء من حديث الرّجال.

وعندما حضر أيضًا الشابّ جايسون استرن، تورّد خدًا سالي آن كثيرًا. ثمّ ذهب الاثنان في نزهة مشيًا، باقيين دائمًا ضمن مجال النظر الجليّ من المنزل.

أنجزت المرأتان غسل الصّحون على وجه السّرعة، ثمّ جلستا بدورهما لتتجادبا أطراف حديثهما الودّي الخاصّ. فساوّر مارتى شعور طيّب تمامًا لمجرد الجلوس والتحدّث مع ما. ولم تنزعج مارتى قط من الخمول غير المعتاد، حتّى لو كان لها نصف هذه العشرة السارة. فبعد البحث في مواضيع نسائيّة عامّة، استغلّت مارتى واقع كون الباقيين خارجًا في الهواء الطّلق، والطفلين الأصغرين في قيلولة، لتطرح سؤالًا.

قالت مارتى بجرأة: ”ما، أفي وسعك أن تُخبريني عن ألين؟ يبدو أنّه ينبغي لي أن أعلم شيئًا ما عنها، ما دُمْتُ أتولّى أمر بيتها وطفلتها“.

لم تأت مارتى على أيّ ذكرٍ ”لرّجلها“، وإذا كانت السيّدة غراهام قد لاحظت فإنّها أيضًا لم تُبدِ أيّة إشارة إلى ذلك. وأخبرت ما عن ما كينة الخياطة وانفعال كلارك إزاءها.

تنهّدت ما من أعماقها وسرّحت نظرها بعيدًا في الفضاء لحظاتٍ.

ولمّا تكلمت، كان صوتها مُرتَجِفًا قليلًا. قالت: ”لا أكادُ أدري بأية كلمات سأخبرُك بما كان. لقد كانت ألين شابةً وجذابةً أيضًا. وكانت أكثرَ استمرارًا منك، وأطولَ أيضًا. وكانت من النوع المرح والمُثرثر. بدا لي أنّها كانت تحبُّ كلَّ شيءٍ وكلَّ شخص. كانت هائمةً بكلاك، وهو أيضًا بدا أنّه يحسبُها امرأةً مُمتازةً إلى أبعد حدّ“. ثمّ توقفت ما وتأمّلت في وجه مارتى، مُتسائلةً على وجه الاحتمال كيف كانت استجابةً مارتى لهذا الموضوع الحساس. وإذ أطرقت رأسها مُستغرقةً في التّفكير، تابعت سردَ قصّتها.

لمّا وُلدتِ مِسي، يا لبتكِ رأيتِ كليهما“. وهزّت ما رأسها مُتبسّمةً برِقّة. ”ما رأيتُ قطُّ أشخاصًا مُتأثرين ومُبتهجين هكذا... لقد كانا مثلَ ولّدين. أنا ولّدتُ مِسي. وبالْحَقِيقَةُ أنّي ولّدتُ مُعظَمَ الأطفالِ في هذا الجِوار، ولكنّي ما رأيتُ يومًا أيَّ شخصٍ يبتهجُ ويتحمّس كثيرًا بذلك المقدار حيالَ مولودٍ جديد، وإن كان مُرحّبًا بالأطفالِ عادةً.

سُرعانَ ما قامتِ ألين وعكفت على الاعتناء بالمولودة حديثًا بكلِّ انتباهٍ وحرص. وقد اعتقدت أنّها كانت جميلة جدًّا، ومِسي أيضًا ظريفة جدًّا. على كُلِّ حال، كرّرت الشّهور ومرّت. وكان كلارك وألين على ما يُرام فعلاً. كلارك عامِلٌ نشيطٌ جدًّا، وهذا مدارُ الزراعةِ كلّها. إنّكِ تحصيلين على ما أنتِ مستعدةٌ لدفع ثمنه عرقًا ووجعَ ظهر. أجل، كانت الأمور تجري حسنًا حقًّا، لمّا أقبلَ كلارك ذاتَ يومٍ من شهر

آب/أغسطس الماضي راكبًا إلى داخل الفناء. كان يبدو مُضطربًا جدًّا بالفعل، وعِلِمْتُ أَنَّ هُنَاكَ خَطْبًا مَا. وَمَا لَبِثَ أَنْ قَالَ لِي: «مَا، هَلْ تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَأْتِي سَرِيعًا؟ أَلَيْنِ تُعَانِي أَلْمًا رَهِيْبًا؟» ذَلِكَ هُوَ مَا قَالَهُ. وَمَا زَالَ فِي وُسْعِي أَنْ أَسْمَعَهُ حَتَّى الْآنَ.

وهكذا ذهبتُ، مُخْبِرَةً الْبَنَاتِ بِصَوْتِ عَالٍ مَا يَفْعَلْنَ فِي أَثْنَاءِ غِيَابِي. كَانَتْ أَلَيْنِ تَتَأَلَّمُ فَعَلًّا مُتَمَلِّمِلَةً وَمُتَقَلِّبَةً عَلَى السَّرِيرِ، مُمَسِكَةً بَطْنَهَا بِيَدَيْهَا وَأَنَّةً. لَقَدْ رَفَضَتْ أَنْ تَصْرُخَ مُتَشَكِّبَةً، لِأَنَّهَا لَمْ تُرِدْ أَنْ تَسْمَعَهَا مِسي. فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ عَضَّتْ عَلَى شَفَتِهَا حَتَّى كَادَتْ تُدْمِيهَا.

لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِي أَنْ أَفْعَلَ الْكَثِيرَ سِوَى أَنْ أُحَاوِلَ إِبْقَاءَ وَجْهَهَا مُبْرَدًا. لَمْ يَوْجِدْ أَيُّ طَيْبٍ لِيُسْتَدْعَى، فَمَا كَانَ مِنَّا إِلَّا الْمُرَاقِبَةُ، وَنَحْنُ أَنْفُسُنَا نُعَانِي أَلْمًا مُبْرَحًا جَرَاءَ حَقِيقَةِ عَجْزِنَا عَنِ الْقِيَامِ بِأَيِّ شَيْءٍ لِأَجْلِهَا. وَكَانَ كَلَارِكٌ مُمَزَّقًا بَيْنَ الْبَقَاءِ بِقُرْبِ أَلَيْنِ وَالْإِهْتِمَامِ بِمِسي. مَا حَزِنْتُ يَوْمًا بِذَلِكَ الْمِقْدَارِ الْبَالِغِ مِنْ أَجْلِ رَجُلٍ مَا.

جَرَى اللَّيْلُ بِطَيْئًا، وَأَخِيرًا، فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ صَبَاحًا تَقْرِيبًا، كَفَّتْ أَلَيْنُ عَنِ التَّقَلُّبِ الْمُسْتَمِرِّ. فَهَمَسْتُ بِصَلَاةِ ارْتِيَاكِ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ الْهَدْوُ لِيَطُولُ. إِذْ ظَلَّتْ حَرَارَتُهَا تَرْتَفِعُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ وَفُتُورُ هِمَّتِهَا يَزِيدُ بَاطِرَادًا. وَقَدْ بَلَّلْتُهَا بِالْمَاءِ الْبَارِدِ مَرَارًا وَتَكَرَّرًا، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُجِدِ نَفْعًا قَطُّ.

تَوَقَّفْتُ مَا لِحِظَةً، ثُمَّ أَخَذْتُ نَفْسًا عَمِيقًا وَأَضَافْتُ: ”تِلْكَ اللَّيْلَةُ

فقدناها، وكلارك...”. ثُمَّ تَوَقَّفت ثانيةً.

مَسَحَتْ ما دَمَعَةً ووقفت. ”إنَّما ذلك من الماضي، بُنيتي، ولا جدوى من إعادةِ سرِّ كلِّ ما كان. على كُُلِّ حال، أنتِ الآن هُنَاك كي تعتني بِمِسي، وذلك هو كلُّ ما يَحْتَاجُ إليه كلارك. كان صعبًا عليه بصورةٍ رهيبَةٍ أن يقومَ بِكاملِ شُغله الخريفيِّ وهو حاملٌ تلك الصَّغيرةَ على ظَهْرِهِ. قلتُ له إنِّي سأرعاها هُنَا، ولكنَّه- كما أعتقد- أرادَ لها أن تَعَلَّمَ أنَّها له وأنَّها مُميَّزةٌ وغالية، لا مُجرَّدُ واحدةٍ من مجموعةِ صِغار. أضيفي أنَّه لم يُردِ قطُّ أن يكونَ مَدِينًا لأحد. كان في المدينة زوجان لا أولادَ لهُما، وكان من شأنهما أن يأخذاها بِطِيبِ خاطرٍ، غيرَ أنَّ كلارك لم يُردِ شيئًا من ذلك. وقد قال إنَّها بِحاجةٍ إلى أبيها في ذلك الحين تمامًا؛ ذلك هو ما قاله كلارك. على كُُلِّ حال، يبدو أنَّ صلواتِ كلارك تُستجاب، فَمِسي لها أنتِ الآن، وماما صالِحَةٌ حقًّا أنتِ لها الآن أيضًا... وقد خِطَّت لها ذلك الثوبَ الحلوَ الصَّغير، فضلًا عن كلِّ شيءٍ“.

ثُمَّ رَبَّتْ ذِرَاعَ مارتِي وقالت: ”إنَّكَ تُبلينَ بلاءً حسنًا، يا مارتِي، حسنًا فعلاً!“

في أثناءِ حديثٍ ما كلَّه، كانت مارتِي قد جلست صامتةً، لكنْ مُصغيةً بقلبها كما بأذنيها أيضًا. وقد فَتَحَ سَماعُها أسي كلارك جِراحَ أَلَمِها الشَّخصيِّ من جديد. أرادت أن تبكي، ولكنَّها جلست جافَّةً

العَيْنِينَ، شَاعِرَةً مَجْدِّدًا بِأَسَى بَلِيَّتِهَا كَامِلًا. صَحِيحٌ أَنَّ سَمَاعَهَا خَبَرَ
مَوْتَ كَلِيمٍ كَانَ صَدْمَةً لَهَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُضْطَرَّ لِأَنَّ تَجَلِسَ بِقُرْبِهِ
سَاعَاتٍ مُشَاهِدَةً إِيَّاهُ يَتَأَلَّمُ وَغَيْرَ قَادِرَةٍ عَلَى تَحْرِيكِ يَدٍ لِإِرَاحَتِهِ. فَفَرَّرَتْ
أَنَّهَا رَبَّمَا عَانَتْ أَلَمًا أَيْسَرَ قَلِيلًا بَيْنَ الْمُصِيبَتَيْنِ.

وَهَمَسَ قَلْبُهَا: أَوْ كَلِيمٍ! كَلِيمٍ، يَسُرُّنِي أَنَّكَ لَمْ تُضْطَرَّ إِلَى احْتِمَالِ أَلَمٍ مِثْلِ ذَلِكَ.
ثُمَّ أَقَامَتْ نَفْسَهَا إِذْ هَبَّتْ مَا مُنْدَفِعَةً، هَاتِفَةً أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ طَارَ فِعْلًا
وَأَنَّ الرَّجَالَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا بَانْتِظَارِ الْقَهْوَةِ.

مِسي

في الصّباح التّالي، عندَ الفطور، أخبرَ كلارك مارتِي أنّ يومَ الخميسِ الآتي سيُوافقُ العيدَ الثّاني لمولِدِ مِسي. وفورًا شعرتِ مارتِي بالهمِّ. لم تكن مُتيقّنةً كيف كان مُمكنًا أن تحتفلَ أليِن بالمُناسبة. ولم تُرد أن تخذلَ كلارك، لكنّ كيف لها أن تعلمَ ما اختارتِ العائلةُ أن تفعله بشأنَ أعيادِ المولِد؟ ومن ثمّ فكرتُ في المسألة في ما تبقى من الوجبة.

ولا بُدَّ أنّ كلارك أحسَّ مزاجها، لأنّه أخيرًا استفسر: ”هل من شيءٍ يُقلِّقك؟“

”لا!“ قالتها مارتِي كذّبا، وظلّت صامتةً بضعَ دقائقٍ أُخرى، ثمّ قرّرت أنّ ذلك لن يُجدي نفعًا البتّة. فإن كان عليهما أن يتشاركا في البيتِ نفسِه، ينبغي لهما فعلا أن يكونا صريحين وصادقين أحدهما مع الآخر. ومن ثمّ قالت دونَ تفكير: ”كلُّ ما في الأمر أنّي لا أعلمُ ماذا تودُّ أن يُخطّطَ لعيدِ مولِدِ مِسي. هل يأتيك ضيوف؟ وهل تُقيمُ حفلا؟“

أم تفعلُ شيئاً ما مُختلفاً؟“ وهزَّت كَتِفَها. ”لستُ أدري“.

قال كلارك: ”فهمتُ“. وأحسَّت مارتِي أَنَّهُ فِهمَ فعلاً. ثُمَّ نَهَضَ
وملاً فنجاني قهوتيهِما.

فأنتِ مارتِي نفسها: ويلاه! لقد فاتني ملءُ الفجان ثانيةً باستِغراقي في
التفكير.

لم يبدُ كلارك مُنزعجاً من ذلك. وقد جلسَ من جديد، ووضع
قِشدةً على قهوته، دافعاً صحنه إلى الراء وساحباً فنجانه إلى قُدَّام،
كما لو كان يتأهَّبُ لجلسةٍ طويلةٍ فعلاً.

في هذا الوقت باتت مِسي مُتململةً وراغبةً في النزول من على
كُرسيِّها. فرفعها كلارك وأنزلها، فركضت لِتجد كتابها الجديد.

وعندئذٍ تابَعَ كلارك: ”أمرٌ ظريف! ولكنِّي لا أتذكَّرُ حقاً أيَّ شيءٍ
ثابت سنقوم به بمناسبة عيدِ مَوْلِدها. يبدو عند النَّظر إلى الماضي أنَّ
الأعيادَ كلَّها كانت مُختلفةً بعضَ الشيءِ بطريقةٍ ما. والآن، كان
لمِسي عيدٌ واحدٌ فقط من قبل، وكانت آنذاك أصغرَ قليلاً من أن تُوليَ
الأمرَ كثيراً من الاهتمام“. وتردَّد. ”مع ذلك أعتقد أَنَّهُ سيكون حسناً
أن يُصنَعَ لها قالبُ حلوى. اشتريتُ لها لعبةً من المدينة لَمَّا كنتُ
هُناك السَّبتَ الماضي. وأرجو أن تُسرَّ بها. مُجرَّدُ شيءٍ صغيرٍ بسيطٍ
حقاً، ولكن يبدو كأنه سيُبهجُها قليلاً. لا أعتقدُ أَنَّا سنكون بحاجةً
إلى ضيوفٍ نستعين بهم في الاحتفال. فإنَّها ستستمتع بذلك وحدها

بوجود...“- ثمَّ توقَّف قليلاً وأكمل بسرِّعة- ”بوجودنا نحن فقط“.

تنفَّستِ مارتِي الصُّعداء. فذلك النَّوعُ من الاحتفال بعيدِ مَوْلِدِ شعرتِ بأنَّ في وُسْعها أن تتولَّى أمره. وقد جلستِ في سُكونٍ للحظاتٍ، ثمَّ رفعتْ عينيها أخيراً نحوَ كلارك وقالت: ”كنتُ أفكِّر. يبدو أنني لا أعرفُ الكثيرَ عن مِسي، ويبدو كأنَّه ينبغي لي أن أعرفَ مقداراً أكبرَ بعدُ إذا كنتُ سأرَبِّيها وما يُشبهُ ذلك. أنتِ تعرفُ كيف يكون الصُّغار. فهُم يحبُّون أن يسمعوا أهلَهُم يُخبرون متى فعلوا هذا ومتى قالوا ذلك، وكم كانوا أذكِياءَ وبارِعِين، ومُسرِعِين في سُبلِهِم، وما إلى ذلك. ويومًا ما عاجلاً ستكونُ مِسي راغبةً في أن تسمعَ أمورًا كهذه، وينبغي لي أن أكونَ قادرةً على إخبارها. إنَّما الأمرُ الوحيد الذي أعرفُه عنها حقًّا هو اسمُها“.

فاجأها كلارك إذ ضحكَ بصوتٍ خافتٍ. وكانت هذه أوَّلَ مرَّةٍ فيها تسمَعُه يضحك. فراقها الأمر، ولكنَّها لم تستطع أن تُدرِك سببَ ذلك. وسُرعانَ ما فسَّر.

قالَ بضِحكةٍ خافتةٍ أخرى: ”كنتُ أفكِّرُ أنَّك لم تعرفي حقًّا حتَّى هذا. اسمُها الحقيقيُّ هو مَليسا، مَليسا آن ديفيس“.

فقلتِ مارتِي: ”هذا اسمٌ ظريف. وأنا أيضًا ما كُنْتُ أنادى بِاسمي الحقيقيِّ؛ فاسمي الحقيقيُّ هو مارثا، ولكنِّي لا أحبُّه كثيرًا. وجميعُ أقربائي وأصدقائي دَعَوني «مارتِي» ما عدا أمِّي حين تكونُ مُستاءة“.

فكان الاسم حينئذٍ مارثا، بصوت عالٍ بالفعل، مارثا لوسيندا...“ .
وكادت تُنهيه بِكُنْيَةِ كلارِج، إِلَّا أَنَّهَا أَمَسَتْ نَفْسَهَا فِي الْوَقْتِ
الْمُنَاسِبِ. ”وَلَكِنْ خَبَّرَنِي عَنْ مِسي“ .

”وُلِدَتِ مِسي فِي الثَّلَاثِ مِنْ تِشْرِينَ الثَّانِي/نُوفَمْبَر، قَبْلَ سَنَتَيْنِ، نَحْوَ
السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ صَبَاحًا“ .

وَإِذْ تَأَمَّلَ كلارك المَاضِي، انعكسَ على وَجْهِهِ اسْتِغْرَاقَهُ البَالِغِ فِي
التَّفْكِيرِ. وَتَذَكَّرَتْ مَارْتِي إِخْبَارَ مَا عَنِ الِابْتِهَاجِ الشَّدِيدِ الَّذِي جَلَبَهُ
قُدُومُ مِسي.

ثُمَّ مَضَى كلارك يَقُولُ: ”لَمْ تَكُنْ رِزْمَةً كَبِيرَةً. بَدَتْ لِي بِالأُحْرَى
حَمْرَاءَ وَمَجْعَدَةً وَلَهَا رَأْسٌ جَيِّدٌ عَلَيْهِ شَعْرٌ أَسْوَد. وَبَدَا لِي أَنَّهَا تَنَمُو
بِسُرْعَةٍ وَتَتَغَيَّرُ كَثِيرًا مِنْذِ البَدَايَةِ، وَقَبْلَ أَنْ تَعَلَّمِي بَدَأَتْ تَبْتَسِمُ وَتَرَدُّدُ
أَصْوَاتًا عَلَى نَعْمَةٍ وَاحِدَةٍ. حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ مَوْسِمُ المِيلَادِ، كَانَتْ تَقْرِبِيًّا
تُصَدِرُ الأَوَامِرَ فِي أُنْحَاءِ هَذَا المَكَانِ، كَمَا بَدَا. كَانَتْ طِفْلَةً جَيِّدَةً
نِسْبَةً إِلَى تَطَوُّرِ الأَطْفَالِ، وَصَارَتْ تَنَامُ اللَّيْلَ كُلَّهُ لَمَّا صَارَ عُمرُهَا ثَلَاثَةَ
أَشْهُرٍ. وَخِيَلَ إِلَيَّ أَنِّي رُزِقْتُ فَائِزَةً حَقِيقِيَّةً. ثُمَّ فِي الشَّهْرِ الخَامِسِ بَدَأَتْ
أَسْنَانُهَا تَطْلُعُ. فَتَحَوَّلَتْ مِنْ فَائِزَةٍ عَذْبَةٍ، رَاضِيَةٍ بِاسْمَةِ، إِلَى هِرَّةٍ مُعْرَبِشَةٍ
مُخْرَمِشَةٍ. وَمِنْ سَعَدِنَا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَدُمُ طَوِيلًا، وَإِنْ كَانَ أَحْيَانًا بَدَا أَنَّهُ
سَيَدُومُ إِلَى الأَبَدِ. عَلَى كُلِّ حَالٍ، اجْتَازَتْ تِلْكَ المَرْحَلَةَ أَخِيرًا. وَهَكَذَا
اجْتَرْنَاهَا نَحْنُ أَيْضًا، وَهَدَأَتْ الأُمُورُ مِنْ جَدِيدٍ.

لَمَّا حَلَّ عِيدُ مَوْلِدِهَا الْأَوَّلِ، كَانَ قَدْ أَصْبَحَ فِي وُسْعِهَا أَنْ تَقُولَ
بَعْضَ الْكَلِمَاتِ. بَدَأَ ذَلِكَ بَاهِرًا حَقًّا مِنْ بُنْيَةِ صَغِيرَةٍ، وَدَائِمًا مِنْ
الْبَدَايَةِ، مِنْذُ الْوَقْتِ الَّذِي تَعُودُ بِي الذَّاكِرَةُ إِلَيْهِ، كَانَتْ تُحِبُّ الْأَشْيَاءَ
الْحُلُوةَ. وَتَخْمِينِي أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فُتِّتَ كَثِيرًا بِذَلِكَ الشَّيْءِ الصَّغِيرِ
الَّذِي خَطَبَتْهُ لَهَا، مَهْمَا كَانَ.

بَدَأَتْ تَمْشِي قَبْلَ عِيدِ مَوْلِدِهَا الْأَوَّلِ، وَسُرْعَانَ مَا صَارَتْ تَتَسَلَّقُ فِي
أَثْنَاءِ ذَلِكَ. عَجَبًا، كَيْفَ كَانَتْ تَجُولُ فِي الْأَنْحَاءِ! ذَاتَ يَوْمٍ وَجَدْتُهَا
عَلَى سِيَّاحِ الزَّرْبِيَّةِ، فَوْقَ الْعَارِضَةِ الْعُلْيَا، لَمَّا كَانَتْ مُجَرَّدَ طِفْلَةٍ دَارِجَةٍ.
صَعِدَتْ إِلَى هُنَاكَ وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَنْزَلَ. وَكَانَتْ مُتَشَبِّهَةً لِأَجْلِ حَيَاتِهَا
الْعَزِيزَةِ.

وَقَدْ كَانَتْ آخِذَةً أَيْضًا فِي أَنْ تَكُونَ رَفِيقَةً طَيِّبَةً حَقًّا. فَكَانَتْ
عِشْرَتُهَا مُؤْنَسَةً جَدًّا، تُثْرَثِرُ كُلَّ حِينٍ، وَأَكْثَرَ فَاكْثَرَ بَاتَ يُفْهَمُ مِنْ
ثُرَثَرِهَا شَيْءٌ مَا.

ذَاتَ يَوْمٍ دَخَلَتْ حَامِلَةً وَرْدَةً. وَكَانَتْ مُبْتَهَجَةً بِهَا إِلَى أَقْصَى حَدِّ.
لَقَدْ قَطَفَتْهَا مِنْ شُجَيْرَةِ الْوَرْدِ تَوًّا. كَانَتْ الْأَشْوَاكُ قَدْ وَخَزَتْ أَصَابِعَهَا
الضَّيِيلَةَ وَكَانَ يَسِيلُ مِنْهُنَّ دَمٌ. وَلَكِنَّهَا لَمْ تُعِرْ ذَلِكَ قَطُّ أَيَّ اهْتِمَامٍ، إِذْ
كَانَتْ مُصَمِّمَةً جَدًّا عَلَى اخْتِذَاكِ «الْحُلُوبِ» إِلَى أُمِّهَا. وَالْوَرْدَةُ الْآنَ مَكْبُوسَةٌ
فِي الْكِتَابِ الْمَقْدَسِ لِأُمِّهَا.

تَوَقَّفَ كَلَارِكٌ وَجَلَسَ نَازِرًا إِلَى فَنْجَانِ قَهْوَتِهِ. وَرَأَتْهُ مَارْتِي يَبْلَعُ رِيقَهُ

وشفتاه تتحرَّكان كما لو قصد أن يتابع كلامه، ولكن لم يخرج أيُّ صوت.

فقالَتْ بصوتٍ خفيضٍ: ”لستَ مُضطرباً لأن تُخبرني بأيِّ شيءٍ بعد. فأنا أعرفُ من هذا ما يكفي لِتمكيني من أن أُخبرَ مِسي بشيءٍ ما عن أيَّام طفولتها“.

ونبَّشت عن شيءٍ ما بعدُ كي تقولَه، فوجدت أن أيَّ شيءٍ قد تُعيده إلى الذَّاكرة بدا غيرِ وافٍ، ولكنها أضافت مُتلعثمةً: ”أنا أعلمُ كم ذلك مؤلِّم... أن نتذكَّر. وعلى كلِّ حال، عندما يأتي اليومُ الذي فيه ينبغي لمِسي الصَّغيرة أن تسمعَ قِصَّة أمِّها... وبالتَّأكيد ينبغي أن تسمعَها... إنَّما عندما يأتي ذلك اليوم، فينبغي أن تسمعَها من أبيها“.

ثمَّ قامت مارتِي عن الطَّاولة حتَّى لا يُضطربَ كلارك لأنَّ يقلقَ بشأن ما يقوله بعد. فأكَمَلَ قهوته على مَهَل. وباشرت هي إعدادَ الماء لِتغسِلَ الصُّحون.

كان اليومُ بارداً إلى حدِّ ما، ولكنَّ كلارك أعلنَ أنَّه ينوي أن يرى كم من طبقة التُّراب العُليا يستطيع أن ينكشَ في قطعة الأرض التي طالبَ بها كي يزرعها في الرَّبيع. فأملت مارتِي أن يدوم الجوّ المؤاتي، ليس فقط لكي يُكَمِلَ الحِراثة، بل أيضاً لكي يبقى مشغولاً بعيداً عن المنزل. كانت قد بدأت تعادُه أكثر، لكنَّها ما زالت تشعُرُ بالارتباك وبالعجز عن العمل بكفاءةٍ إذا طال بقاؤه في المنزل.

أحياناً، سارتِ الأيامُ بِبطءٍ زائدٍ على مارتِي، ولكنّها كانت تطمئنُّ متى تيسّر لها دائماً أن تجدَ عملاً به تملأُ فراغَ الأيامِ. فبوجود الغسلِ والتنظيفِ والخبزِ والطبخِ وإعدادِ الطعامِ، جُزئياً، كان عليها أن تترصدَ وقتاً فيه تُنجزُ خياطةَ ما يَخصُّ مِسي. ومع ذلك تشكّلت فعلاً أثوابٌ صغيرة بيديها الماهرتين، وكانت مِسي تهتِفُ حماساً وابتهاجاً حيالَ كلِّ ثوبٍ منها.

أضمرت مارتِي مشروعاً سرّياً بين أشغالها أيضاً. فإنَّ عيدَ مَولِدِ مِسي جعلَ ذهنَ مارتِي يندفعُ مذعوراً بشأنِ ما يُمكنُ أن يُتاحَ لها القيامُ به لأجلِ الطفلةِ الصّغيرة. لم تكنْ تملكُ سنّاً واحداً باسمِها، حتّى لو أمكنها أن تجدَ سبيلاً لإنفاقه. ثمَّ فكّرت في الصّوفِ الجميلِ الألوانِ الذي أحضره كلارك، وفي صنائيرِ الحَبِكِ الجديدة تماماً. فكانت كلَّ ليلةٍ تنكفي إلى غُرفِها حالماً تفرغُ من إنجازِ مَهامِّ يومِها، وفيما تكون مِسي نائمةً في مهدها نوماً عميقاً تُطقطقُ صِنارتا الحَبِكِ بسرعة. عليها أن تشتغلَ بسرعة حتى تُنجزَ المهمّةَ في الوقتِ المُناسبِ. حتّى إذا مضت أخيراً موهونةً لتأويَ إلى السّريرِ كلَّ ليلةٍ، تكونُ أكثرَ تعباً من أن تستلقي وقتاً طويلاً وتتلهّفَ مَوجوعَةً إلى كليم. كانت تُفكّرُ فيه، وكانت أمنيّتها الأخيرة كلَّ ليلةٍ لو قدّرت له أن يكونَ بجانبها، حيثُ يتضامنانِ التماساً للدّفءِ في السّريرِ المُزدوجِ الكبير. ولكن حتّى لو تحوّلت أفكارها نحوه، فقد تطلّبَ جِسمُها المُتعبُ النّومَ، وشعرتْ أغلبَ الأحيان بأنّها أكثرُ إعياءً من أن تبكي على الأقلّ.

بَرِّحْ فَجْرُ الخَمِيسِ بَارِدًا وَعَاصِفًا. وَكَانَ كَلَارِكُ مَا يَزَالُ مُصَمَّمًا عَلَيَّ
مُوَاصِلَةَ حِرَاتِهِ. فَأَمَلْتُ مَارْتِي أَلَّا تُصِيبَهُ قُشَعْرِيرَةٌ بَرِدٍ مِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ. إِلَّا
أَنَّهُ لَمْ يَكْتَرِثْ لِتَوَجُّسَاتِهَا، وَمَضَى عَلَيَّ كُلِّ حَالٍ. فَتَسَاءَلْتُ فِي سِرِّهَا
إِذَا كَانَ يَرِغِبُ أَنْ يَبْقَى بَعِيدًا عَنِ الْبَيْتِ بِقَدْرِ مَا أَرَادَتْ هِيَ ذَلِكَ.

بَعْدَمَا انْتَهَى الْغَدَاءُ وَوُضِعَتْ مِسي لِتِنَامِ نَوْمَتِهَا الْقَصِيرَةِ، شَرَعْتُ
مَارْتِي فِي صُنْعِ قَالِبِ الْحَلْوَى لِأَجْلِ عِيدِ الْمَوْلِدِ. وَقَدْ شَعَرْتُ الْآنَ
بِقَدْرِ مِنَ الثَّقَةِ أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ جَدًّا، بَعْدَمَا تَمَرَّسْتُ بِوَصْفَاتِ السَّيِّدَةِ
غِرَاهَامِ. وَرَاقَبْتُ نَارَهَا بِحِرْصٍ فِي هَذَا الْيَوْمِ. فَلَنْ يُجْدِي نَفْعًا أَنْ تَكُونَ
حَارَّةً فَوْقَ الْحَدِّ، وَلَا أَنْ تَدَعَهَا تَحْمُدُ كَمَا فَعَلْتَ أَغْلَبَ الْأَحْيَانِ.

ثُمَّ تَنَفَّسْتُ الصُّعْدَاءَ لَمَّا أَخْرَجْتَ قَالِبَ حَلْوَى مِسي مِنَ الْفَرْنِ، إِذْ
بَدَأَ وَافِيًا بِكُلِّ مَا أَمَلْتَهُ.

صَارَتْ الرِّيحُ أبردَ الْآنَ، فَوَجَدْتُ مَارْتِي نَفْسَهَا قَلِقَةً عَلَيَّ كَلَارِكِ.
مَاذَا تَفْعَلُ يَا تُرَيُّ إِذَا حَلَّ بِهِ الْمَرَضُ وَاحْتَاجَ إِلَى تَمْرِيضٍ؟ وَأَنْبَتَ عَقْلِيًّا:
رَجُلٌ لَعِينٌ! مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُخَاطَرَ هَكَذَا. سَتُبْقِي رَكْوَةَ الْقَهْوَةِ عَلَيَّ النَّارِ،
حَتَّى مَتَى قَرَّرَ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْبَيْتِ يَكُونُ لَدَيْهَا فِنْجَانُ قَهْوَةٍ بَانْتِظَارِهِ.
وَسَتَقُومُ بِأَيِّ شَيْءٍ تَقْرِيبًا، كَمَا تَصَوَّرْتُ، لِإِبْقَائِهِ وَاقِفًا عَلَيَّ قَدَمِيهِ
وَمَاشِيًّا. أَفَّ! إِذَا طَرَحَهُ الْمَرَضُ فِي الْفِرَاشِ، فَلَا تَدْرِي أَيْنَ تَبْدَأُ فِي
الْمَهَامِ. حَتَّى إِنَّهَا لَنْ تَطَأَ الْحَظِيرَةَ بَتَاتًا، كَمَا أَدْرَكْتُ. كَانَ عَلَيَّ بَعْضُ
النِّسَاءِ أَنْ يَقُمْنَ بِالْحَلْبِ كُلِّ حِينٍ، وَفِي مَا يَتَعَلَّقُ بِتِلْكَ الشُّؤُونِ كَانَ

بعضُ مِنْهُنَّ يتولَّينَ أيضًا أمرَ الحفرةِ الموحِّلةِ للخنازير. ولم يكنْ كلارك قد كلفها حتَّى إطعامَ الدجاج. لعلَّه توقَّعَ منها ذلك، وهي لم تقم به فحسب. فقد كانت مُشوَّشةً ومُرتبِكةً جدًّا لَمَّا جاءت إلى هذا المكان، بحيثُ لم تُعرِ ذلك أدنى فكرة. ستسأله، ربَّما غدًا عندَ الفطور، إذا بدا الوقتُ مؤثيًّا. لقد كانت راغبةً ومُستعدةً أن تؤدِّي ما عليها من واجبات.

وما لبثت أن سمعتِ الحصانين آتيين، فألقت نظرةً خارجَ النافذة. وإذ دفعت رَكَوةَ القهوةِ إلى الأمام فوقَ الموقد، همست: ”يبدو بردانًا بالفعل“.

لَمَّا دخل كلارك، وقفَ بضعَ لحظاتٍ باسطًا يديه الكبيرتين فوقَ موقد المطبخ.

صبَّت مارتى فنجانَ قهوته، وذهبت لإحضارِ شيءٍ من القشدة. وقرَّرت أيضًا أن تأتي ببعض الموفينات والعسل، في حال أرادَ لُقمةً تسري مع الشَّراب الساخن.

راقبها من عند الموقد، ولم يقل شيئًا حتَّى وضعت ذلك على الطاولة بقُرب مكانه.

عندئذٍ سألت: ”أما تنضمين إليّ؟ أكرهه أن أشرب القهوة وحدي“.

رفعت مارتى نظرها مُفاجأةً، ولكنها قالت بهدوء: ”أنت من يحتاجُ إلى القهوة. لا شكَّ أنَّك عرَّضت نفسك لِشُعيرية البرد وأنت تشتغل

خارجًا في تلك الرِّيحِ البائسة وما إليها. سيُحالفُكَ السَّعدُ إنَّ لم تُضطرَّ
إلى بذلِ نَفْسِكَ من أجل ذلك. هيَّا، يحسُنُ بك أن تشرَبَ هذا وهو
ساخن“.

كان ذلك عتابًا رقيقًا، ولكنَّ شيئًا ما فيه بدا مُدغِدًا لكلا ركَ.
فتبسَّم لنفسه إذ عبَرَ إلى الطَّاولَةِ. وكان في وُسعها أن تسمع شكواه
الودِّيَّة: ”يا للنِّساء! بصراحة، قد يحسَبُ المرءُ الرَّجُلَ مصنوعًا من هُلام
السُّكَّرِ حِيالَ انصِرافِهِنَّ الدَّائبِ إلى العمل“. ثمَّ نظرَ إليها مُباشرةً وقال:
”قد أكونُ أنا من يحتاجُ إلى ذلك، ولكنِّي أشكُّ في أنَّ بضعَ دقائقَ
إلى الطَّاولَةِ، دونَ الوقوفِ على قدميكَ، ستكونُ مؤذيةً لك كثيرًا هي
أيضًا. أنتَ تقومينَ بأعمالٍ كثيرةٍ فوقَ الطَّاقة، كما كنتَ أفكِّرُ“.

فقالَت مارتِي بمهابة: ”لا، لستُ أقومُ بما يَفوقُ طاقتي. إنَّما أجدُ
أنَّ العملَ يتغلَّبُ على الأنينِ. ذلك كلُّ ما في الأمرِ. ولكنَّ كما تقولُ،
قد يكونُ فنجانُ قهوةٍ جيِّدًا حقًّا. أقولُ بصراحةٍ إنَّ سَماعَ تلك الرِّيحِ
تعصِفُ يجعلُ فُشعريرةً تسري في دمي، مع أنَّ المكانَ دافئٌ هنا في
الدَّاخلِ“.

ثمَّ صبَّتَ لنفسها فنجانَ قهوةٍ وانضَمَّتَ إليه عندَ الطَّاولَةِ.
بعدَ قهوتِهِما، قالَ كلاركُ إنَّه رجَعَ إلى البيتِ باكِرًا من الحِرائةِ لأنَّه
حسِبَ أنَّ عاصفةً قد تكونُ مُقبِلةً، وقد أرادَ أن يَضَعَ باقيَ نِتاجِ
الحديقةِ في قَبوِ الجذورِ قبلَ هبوبِها. وإذ قالَ هذا، غادَرَ المنزلَ.

عادت مارتي إلى قالب حلوى مسي الذي برُد الآن. فقد أرادت له أن يبدو مُميّزًا عند البنت الصّغيرة، ولذلك استعملت كامل براعتها والمقوّمات المتوافرة لأجل ذلك الغرض. ولمّا انتهت أخيرًا، نظرت إلى القالب بانتقاد. فقرّرت أنه ليس عظيمًا، ولكنه يُلبّي الحاجة. ثمّ وضعت في الخزانة وراء أبوابٍ مُقفلة بانتظار اللّحظة المناسبة. ومضت تُعدُّ خُططًا لشيءٍ إضافيٍّ قليل على العشاء. ثمّ قاطعتها مُناداةً مسي من عُرفة النّوم، فدخلت لِتهتمّ بالبنت الصّغيرة.

قالت: ”مرحبًا مسي. تعالِي إلى ماما“.

كانت قد قالت كلماتٍ كهذه قبلاً، ولم تكن قد راققتها، ومن ثمّ لم تُشير إلى نفسها هكذا في ما مضى. ولكنّ لمّا تفوّهت بهذا الكلام الآن، لم يبدُ تقريبًا في غير محله كما كان سابقًا.

لمّا حملت مارتي الصّغيرة عن السرير، لاحظت أنّ الثّياب كانت بالكادِ ثلاثمُ قِياسِ الصّغيرة؛ فسرها أنّها كانت قد جعلت الثّياب الجديدة التي خاطتها أوسعَ بمقدارٍ وافر.

ركضت مسي لإحضارِ جذائها، فحملت مارتي الطّفلة والحذاء إلى المطبخ، حيثُ انتعلت مسي الحذاء. وكانت عُرفة النّوم قد باتت باردةً أصلاً. فلم تشوّق مارتي مُتلهفةً إلى الشّتاء البارد المُقبل. وكم سرّها أنّها لن تكونَ في العربة المسقوفة بِشادر. فهذه الفكرة وحدها جعلتها ترتجفُ بردًا.

أَعْطَتْ مِسي كُوزَ حَلِيبٍ وَنِصْفَ مُوفِينَةٍ، وَعَادَتْ إِلَى تَحْضِيرِ وَجِبَةِ الْمَسَاءِ.

أَنْهَى كَلَارِكَ الْعَمَلَ فِي الْحَدِيقَةِ، وَأَنْجَزَ مَهَامَّ الْمَسَاءِ أَبْكَرَ قَلِيلًا مِنَ الْمُعْتَادِ. وَقَدْ لَمَسَتْ مَارْتِي حِمَاسَةً لَمْ يَكُنْ قَدْ أَبْدَاهَا مِنْ قَبْلِ. فَعَلِمَتْ أَنَّه لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَلِيقًا مِنْ حُلُولِ عِيدِ مَوْلِدِ الصَّغِيرَةِ وَأَلَيْنَ لَيْسَتْ هُنَاكَ لِتُشَارِكَ فِيهِ، وَلَكِنَّهَا عَلِمَتْ أَيْضًا أَنَّه أَرَادَ أَنْ يَحْتَفِلَ بِالْمُنَاسِبَةِ عَلَى أَفْضَلِ نَحْوٍ لِأَجْلِ الصَّغِيرَةِ.

بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنَ الْعِشَاءِ، تَوَجَّهَتْ مَارْتِي إِلَى الْخِزَانَةِ لِإِحْضَارِ قَالِبِ الْحَلْوَى. وَانْفَتَحَتْ عَيْنَا مِسي وَاسْعَتَيْنِ تَعَجُّبًا، غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ تَفْهَمَ مَعْنَى ذَلِكَ.

”حُلُو، حُلُو!“ هَتَفَتْ مِرَارًا وَتَكَرَّرًا.

فَشَرَحَ كَلَارِكُ: ”هَذَا قَالِبُ الْحَلْوَى الْخَاصُّ بِعِيدِ مَوْلِدِ مِسي. مِسي تَحْتَفِلُ بِعِيدِ مَوْلِدِهَا. كَانَ عُمُرُ مِسي سَنَةً وَاحِدَةً،“ وَأَشَارَ بِإِصْبَعٍ وَاحِدَةٍ مَرْفُوعَةٍ، ”وَالآنَ صَارَ عُمُرُ مِسي سَنَتَيْنِ“. وَانْضَمَّتْ إِصْبَعُ أُخْرَى إِلَى الْأُولَى.

وَتَابَعَ كَلَارِكُ شَرْحَهُ: ”انْظُرِي مِسي! عُمُرُكَ الْآنَ سَنَتَانِ. هَيَّا، فَلْأَسَاعِدْكَ“.

ثُمَّ أَمْسَكَ الْيَدَ الصَّغِيرَةَ بِيَدِهِ الْكَبِيرَةِ وَسَاعَدَ مِسي عَلَى رَفْعِ إِصْبَعَيْنِ. ”أَرَأَيْتِ مِسي؟ عُمُرُكَ الْآنَ سَنَتَانِ“.

فكررت مِسي: ”أمري... ثنتان“.

وقال كلارك، مُبدياً سروره: ”صحيح! عمركِ سنتان، والآن سنأكلُ شيئاً من قالبِ الحلوى الخاصِّ بعيدِ مَوْلِدِ مِسي“.

قطعتِ مارتِي القالب، وأدهشهُم كم كان جيِّداً. وإذ تناولتِ قِضْمَةً، تذكَّرتِ مُحاولَتِها الأولى مع البسكويت. فالآن- والحمدُ لِلَّهِ- بالتمرُّسِ وبفضلِ وصفاتِ ما غراها، بات في وَسْعِها أن تُنتِجَ أشياء لا تُضطرُّ لأنَّ تستحيَ بها. إنَّ ثلاثةَ أسابيعٍ قد أحدثتِ فرقاً ملموساً. وقد طلبَ كلارك فأخذَ قِطْعَةً ثانيةً من الحلوى.

لَمَّا أَنهوا تناولَ الكعكة، أوشكتِ مارتِي على النهوضِ لتغسِلَ الصُّحون، ولكنَّ كلارك اقترحَ أن يَرِيَا أولاً رأيَ مِسي في الهدية التي اشتراها لها.

خرجَ كلارك إلى السَّقيفة ورجعَ حاملاً عُلْبَةً صغيرة، ثُمَّ رَفَعَ مِسي عن كُرْسِيَّها، وقَدَّمَ لها العُلْبَةَ.

قال كلارك: ”لأجلِ عيدِ مَوْلِدِ مِسي“.

التفتتِ مِسي ونظرتِ إلى قالبِ الحلوى، كما لو كانت تتساءل هل تَضَعُ ”عيدَ المَوْلِدِ“ في تلكِ العُلْبَةَ الصَّغيرة.

فقال لها كلارك: ”انظري مِسي. انظري هُنا في العُلْبَةَ. هذه لِمِسي في عيدِ مَوْلِدِها“.

وساعدَ الطِّفْلَةَ على رَفْعِ الغِطاءِ الأعلى، فحدقتِ مِسي مدهوشةً إلى

العَجَبِ الذي دَاخَلَ العُلبَةَ. ثُمَّ رَفَعَ كَلَارِكُ ذَلكَ الشَّيْءَ وَعَبَّأَهُ بِأَحْكَامٍ،
وَوَضَعَهُ عَلَى الأَرْضِ. وَلَمَّا أَفْلَتَهُ، بَدَأَ يَدُورُ مُدَوِّمًا بِأَلْوَانٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَحْمَرَ
وَأَزْرَقَ وَأَصْفَرَ وَبِنَفْسَجِيٍّ... أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تُعَدَّ.

سَبَكْتَ مِسي يَدِيهَا مَعًا بِتَأْثُرٍ وَابْتِهَاجٍ، وَهِيَ أَكْثَرُ ارْتِعَابًا مِنْ أَنْ تَقُولَ
أَيَّ شَيْءٍ.

وَلَمَّا تَوَقَّفتِ اللُّعْبَةُ، دَفَعَتْهَا مِسي صَوْبَ كَلَارِكِ، قَائِلَةً: "اعْمَلْهَا
بَعْدَ".

شَاهَدْتُ مَارْتِي وَقْتًا قَصِيرًا قَبْلَمَا عَادَتْ إِلَى غَسْلِ الصُّحُونِ، ثُمَّ
تَذَكَّرْتُ فِجَاءَةَ هَدِيَّتِهَا الخَاصَّةِ. يَقِينًا أَنَّهُا لَمْ تَكُنْ شَيْئًا مُبْهَجًا لِبِنْتِ
صَغِيرَةٍ عَلَى غِرَارِ هَدِيَّةِ كَلَارِكِ، كَمَا فَكَّرْتُ مَارْتِي لَمَّا حَمَلَتْ الهَدِيَّةَ
مِنْ غُرْفَةِ النَّوْمِ. فَرُبَّمَا لَا تُبَالِي بِهَا مِسي. حَسَنًا، لَقَدْ فَعَلْتَ مَا
اسْتَطَاعْتَهُ بِمَا كَانَ عِنْدَهَا.

وَلَدَى دُخُولِهَا المَطْبِخِ، أَعْلَنْتُ: "مِسي، عِنْدِي شَيْءٌ لِكَ أَيْضًا"،
ثُمَّ مَدَّتْ يَدَهَا بِهَدِيَّتِهَا.

غَمَمَ كَلَارِكُ بِنَبْرَاتِ انْدِهَاشٍ: "أَعْتَقِدُ أَنِّي خَمَنْتُ! مِسي، انظُرِي
حَالًا مَا خَاطَبْتَهُ لِكَ مَامَا".

جَثَّتْ مَارْتِي عَلَى رُكْبَتَيْهَا أَمَامَ الطُّفْلةِ وَرَتَّبَتْ بِانْتِبَاهٍ حَوْلَ كِتْفَيْهَا
الشَّالَ الصَّغِيرَ الذي كَانَتْ قَدْ اشْتَغَلَتْ بِهِ. وَقَدْ صُنِعَ مِنْ قُماشٍ أَزْرَقَ
نَاعِمٍ، وَطُرُزَ بِزُهُورٍ قَرَنُفُلِيَّةٍ. وَحَفَّتْ بِالحَاشِيَةِ شَرَارِيْبُ بَدَا أَنَّهُا فَتَنَّتْ

الصغيرة، إذ ظلت يداها تُمسِدانِها.

قالت مِسي: ”أوه! أوه، ماما“.

كانت تلك أوَّل مرّةٍ فيها تستعملُ مِسي اللفظة، ووجدتُ مارتي نفسها تبتلعُ غُصّةً في حَنجرتِها. فحاولتُ أن تُخفيَ مشاعِرَها بتعديلِ شالِها كي يتدلّى على نحوٍ مُناسب.

فجأةً تنبّهتُ إلى أنّ كلارك كان ينظرُ إليها، وعلى وجهه سِمْماءُ ارتباك. فألقتُ مارتي نظرةً بِخَجَل، وإذ فعلتُ ذلك رأَت مرعوبةً سَبَب سِمْمائه. فلدى جُثُوها أمامَ الطفلة كانت قد جثت على تنورتها، شادّةً إيّاها إلى تحتِ بإحكامٍ شديدٍ أبرَزَ خُطوطَ جِسمِها الآخِذِ في الانتفاخ. وعندَ ذلك هبّتُ واقفةً على قدميها، وقد تورّدَ خدّاها.

وفكرتُ غاضبةً: الآنَ تسرّعتُ وفعلتها! حسناً، ما كان في وُسعها أن تستمرّ في إخفاء الأمرِ إلى الأبد على كُلِّ حال. ثمَّ لماذا ينبغي لها أن تشعرَ بأيِّ خزي؟ لقد كان ذلك طِفْلَ كليم، وقد حُبِلَ به في إطارِ الزّواجِ والحُبِّ. لم يكن في وُسعها أن تفعلَ شيئاً حيالَ عدمِ وجودِ كليم هنا في ما بعدُ كي يتشاركَ معها في الوالديّة. ومع ذلك، دون أن تدري السَّبب، تمنّت لو أنّ هذا الرّجُلَ الذي منحها المأوى لم يُضطرَّ لأنْ يعرفَ بأمرِ الطّفلِ قبلَ ولادته. حسناً، لا جدوى من القلقِ بشأنِ ذلك؛ فقد علِمَ الآن، ولم يوجد أيُّ شيءٍ تستطيعُ أن تفعله حيالَ الأمرِ.

ثُمَّ عَادَتْ إِلَى الصُّحُونِ، وَرَجَعَ كَلَارِكُ إِلَى اللَّعِبِ مَعَ مِيسِي.

سِرُّ مَكشُوفٍ

كان الجَوُّ في الصَّبَاحِ التَّالِي مُعْتَمًا ومُكْفَهَرًا. وما زالتِ الرِّيحُ تهبُّ من الشَّمالِ، مُعلِنَةً للعالمِ أَنَّها صاحِبَةُ السَّيْطَرَةِ الآنِ. فاحتشَدَتِ الأَحْصِنَةُ معًا، وظهَّورُها للعاصِفةِ؛ واجتمعتِ الأبقارُ في مأوى الحظيرةِ، مُحاولَةً أن تَنجُوَ من برودةِ الرِّيحِ الهوجاءِ. وظهَّرتِ دجاجاتٌ قليلةٌ جدًّا خارجَ الخُمِّ، وما لبثتِ الفَراريجُ التي خرجتْ أن عادتْ مُسرِّعةً إلى دِفاءِ المبنى. وإذ لاحظتْ مارتي فرارهنَّ من عصفَةِ الرِّيحِ، تذكَّرتْ تصميمَها على التكلُّمِ إلى كلارك عن تولِّي الاعتناء بهنَّ.

فَهتَفَتْ همسًا: ”سحقًا! لا شكَّ أنِّي حصلتُ على وقتٍ مؤاتٍ كي أبدأ“.

اشتمَلتْ صلاةُ كلارك عندَ الفَطورِ في ذلك الصَّبَاحِ على تشكُّراتِ الله القديرِ من أجلِ المأوى الدَّافئِ الذي كان لهم جميعًا، البشرِ والبهائمِ، ومن أجلِ حقيقةِ أَنَّهُم لا ينبغي أن يخشوا الشَّتاءَ الباردَ، بفضْلِ مراحِمِ إلههم العظيمِ. وأضافتْ مارتي عقليًّا: ومن أجلِ هذا الرَّجُلِ المُجتهدِ في عمله. لكنَّها اعترفتْ بالحقيقةِ الموجودةِ في هذه الصَّلَاةِ؛

فقد كان مُشجَّعًا أن تعلمَ أنَّهم كانوا مُستعدِّين للجوِّ البارد المُنتظر.
كانت مارتِي مُنعطفَةً تَوًّا كي تتساءلَ مرَّةً أُخرى عمَّا يُمكن أن تقومَ
به مع كلارك حولَ المنزلِ طَوَالَ النَّهارِ، إذ أخذها كلارك على حينِ
غَفلةٍ تامًّا.

قال: ”سأغادرُ إلى المدينة في الحال. هل من شيءٍ تحتاجين
إليه؟“

فردَّت مارتِي: ”ولكنَّه يومُ الجُمعة فحسب.“
”أجل، أعرفُ هذا، ولكنَّ عندي هُنَاكَ شُغلاً أوْدُ أن أهتمَّ به عاجلاً
جدًّا؛ وإذا ثارت عاصِفة، فقد نُضطرُّ إلى القُعود في أماكِننا مكتوفي
الأيدي.“

لم تتمالكَ مارتِي نفسَها عن الشُّعور بأنَّ الفِكرةَ كانت خرقاءَ نوعًا
ما. هذه المرَّة سيُصابُ بِقُشعريرةٍ بَرِدٍ يقينًا. لقد استطاعَ أن يُفِلتَ
بطريقةٍ ما من تجرِبتهِ الأخيرةِ للقَدَرِ دونَ أن يبدوَ إطلاقًا أسوأَ حالًا من
جرَّائها، ولكنَّه يقينًا لا يُمكنُ أن يُحالِفَه السَّعدُ على ذلك النَّحوِ ثانيةً.
ولكنَّ مَنْ كانت هي كي تتجادلَ، ومعَ رُجُلٍ؟ فإذا قرَّرَ الرِّجالُ قرارَهم،
فليس في وُسعِ أحدٍ أن يفعلَ الكثيرَ بشأنِ ذلك. وهكذا قامت عن
الطاوِلة، وراجعتْ لائحَتَها لِتَرى هل من شيءٍ آخرٍ ينبغي أن يُضافَ.

جلَسَ كلارك معَ آخرِ رَشفاتِهِ من القهوة، ثُمَّ تكلمَ أخيرًا بصوتِ
خفيفٍ: ”لِكوني رُجلاً وما إلى ذلك، لم ألاحظَ ما أفترضُ أنَّ آيَّةَ امرأةٍ

كان لا بُدَّ أن تراه من زمان. ما كانَ عندي أدنى فكرة أنكِ تنتظرين طفلاً“.

لم ترفعَ مارتِي نظرَها عن لائحتها. إذ لم تُردِ أن تلتقيَ عيناها عينيه. ”أنا آسفٌ حقًّا لأنِّي لم أعلم. كان ممكناً أن أُوفِّرَ عليكِ بعضًا من الأمور الأقسى. من الآن فصاعدًا، لن تنقُلي بعدُ دلاءَ الماءِ الثَّقيلةَ تلك. وعندما تحتاجين إلى مزيد من الماء لأجل الغسْلِ وما يُماثلُه، فما عليكِ إلا أن تُعلميني“.

ففكرتِ مارتِي: كم هذا سخيف! لو كان هذا الطُّفلُ سيتأدَّى من نقلِ الماء، لكان الضَّررُ قد حصَلَ من زمان بعيد.

غيرَ أنَّها لم تقلِ أيَّ شيءٍ، ومضى كلارك قائلاً: ”لقد بُوركنا بكميَّات وافرة من الحليب الجيِّد. أرجو أن تكوني تستفيدين من ذلك. وإن كان هناك أيُّ شيءٍ تحتاجين إليه، أو أيُّ شيءٍ يُمكنني أن أفعله، أكونُ شكورًا إذا أعلمتيني“.

وتوقَّفت للحظاتٍ ثمَّ قال: ”إذ رأيتُ كيف سأذهب إلى المدينة اليوم بأيَّة حال، فكرتُ كيف يُمكن أن تُعدَّ السيِّدة مكدونالد، على وجه الاحتمال، رزمةً من قِطعِ الخياطة التي تحتاجين إليها لِتُخيطي أشياءً للطفل. وإن وُجدَ أيُّ شيءٍ على وجه الخصوص تُصعِّين فكركِ عليه، فحاولي وصفه لها ضمنَ اللائحة“.

وقفتِ مارتِي معقودةَ اللسان، وأحسَّت مَعِدَتها تنعقد. ما كانت قد

تَطَرَّقَتْ بَعْدُ إِلَى الْإِهْتِمَامِ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي بِهَا سَتُلْبَسُ الصَّغِيرَ الْجَدِيدَ
الآتِي. إِذْ كَانَ ذَلِكَ قَدْ بَدَأَ بَعِيدًا جَدًّا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَلَكِنَّ كَلَارِكَ
كَانَ عَلَى حَقٍّ. فَعَلَيْهَا أَنْ تُبَاشِرَ الْخِيَاطَةَ، وَإِلَّا فَلَنْ تَكُونَ مُسْتَعَدَّةً
بِتَانًا.

أَخِيرًا أَجَابَتْ كَلَارِكُ: ”شُكْرًا لَكَ. أَنَا عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ السَّيِّدَةَ
مَكْدُونَالِدَ سَتَكُونُ أَعْرَفَ مِنِّي بِمَا سَاحْتَاجُ إِلَيْهِ“، ثُمَّ نَاولَتْهُ اللَّائِحَةَ
الْمُكَمَّلَةَ.

نَظَرَتْ خَارِجًا مِنَ النَّافِذَةِ، وَهِيَ مَا تَزَالُ قَلِقَةً بِشَأْنِ الْحَالَةِ الْجَوِّيَّةِ.
كَانَتْ الْعَوَاصِفُ تَهْبُّ هُنَا فَجَاءَتْ عَلَى الْمُرُوجِ بَعْضَ الْأَحْيَانِ، كَمَا قِيلَ
لَهَا، وَقَدْ كَرِهَتْ أَنْ تَرَى كَلَارِكَ مُنْطَلِقًا حِينَ كَانَ احْتِمَالٌ بِأَنْ تَكُونَ
إِحْدَاهَا عَلَى وَشِكِّ الْهُبُوبِ. وَبَدَأَ أَنَّهُ قَرَأَ أَفْكَارَهَا.

فَقَالَ: ”تُوجَدُ وَفَرَةٌ مِنَ الْوَقْتِ لِلذَّهَابِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَالرُّجُوعِ مِنْهَا.
وَإِذَا أَدْرَكْتَنِي عَاصِفَةٌ، فَهُنَالِكَ كَثِيرٌ مِنَ الْجِيرَانِ يَعْيشُونَ بَيْنَ هَذَا
الْمَكَانِ وَالْمَدِينَةِ، وَسَأَكُونُ قَادِرًا عَلَى الْإِحْتِمَاءِ عِنْدَ أَحَدِهِمْ إِذَا
احْتَجْتُ إِلَى ذَلِكَ“.

وَقَالَتْ مَارْتِي مُتَلَعِثِمَةً: ”وَلَكِنْ... وَلَكِنْ مَاذَا بِشَأْنِ الْمَهَامِّ؟ حَتَّى إِنِّي
لَا أَعْرِفُ مَاذَا أَعْمَلُ، أَوْ أَيْنَ أَجِدُ الْعَلْفَ، أَوْ أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ“.

فَدَارَ كَلَارِكُ بِسُرْعَةٍ كَيْ يُوَاجِهَهَا، وَكَانَ وَاضِحًا مِنْ سِيْمَاءِ وَجْهِهِ أَنَّهُ
لَمْ يُفَكِّرْ فِي سْؤَالِهَا عَنِ الْمَهَامِّ.

”إذا هبت عاصفة واضطرت إلى الاحتماء ولم أتمكن من الرجوع إلى البيت، فلا تُغادري هذا المنزل. أسمعين؟“

لقد سمعت مارتى عاليًا وواضحًا.

”لا تقلقي بتاتًا بشأن الدجاجات أو الخنازير، أو حتى بقرات الحليب. فلا شيء- وأعني لا شيء حقًا- هناك في الخارج مُهم جدًا بحيث أريد منك أن تكوني خارجًا في عاصفة كي تهتمّي به.“

ففكرت مارتى، مُخفيةً ابتسامتها: هكذا الأمرُ إذًا. حسنًا، لا داعي لأن يتكدر جدًا بشأن ذلك.

كانت تلك أقرب نقطةٍ إلى القلقِ عندها رأت مارتى كلارك يومًا، ولم تتمالك نفسها عن أن تُفاجأ. ودارَ عنها، فزرَّ سترته الثقيلة، وتناول قفازيه. ثمَّ تردَّد: ”لعله يومٌ مناسبٌ لتنجيدٍ لحاف. سوف يكونُ الطفلُ بحاجةٍ إلى لحافٍ مدفئٍ.“

ففكرت مارتى: بلى، سيكونُ هو- أو ربّما هي- بحاجةٍ إلى ذلك على الأرجح. وإذ تحرك كلارك ليُخرج من الباب، قال لها مُطمئنًا: ”سأعودُ لأقومَ بالمهامِّ في أوانها“. ثمَّ توقّف للحظاتٍ وقال: ”أنا مسرورٌ حقًا بأنّه سيكونُ عندك طفلٌ صغيرٌ به تتذكّرين المرحوم“. ثمَّ مضى.

مَتَفَهَمٌ وَمَهْتَمٌ

رَجَعَ كلارك في الوقتِ المُناسبِ للقيامِ بالمَهامِّ، الأمرُ الذي أراحَ مارتي كثيراً. آنذاك كانَ الثلجُ آخِذاً في التَّساقُطِ، مُدَوِّماً بَغَضَبٍ لَدَى تَخَطِّيهِ النَّافِذَةَ. فنزَلَ كلاركُ حالاً إلى الحَظيرةِ كي يَعتنيَ بِدانٍ وتشارلي.

وَإِذِ راقَبَتِ مارتي من نافِذَةِ المَطحِخِ هَمَسَتْ لِنَفْسِها: ”إِنَّهُ يَعتنيَ بِهَذينِ الحِصانينِ أَكثَرَ مِمَّا بِنَفْسِهِ. لَقَدْ كانَ خارِجاً في هَذا الجَوِّ القاسيِ وَقَفاً طويلاً كما كانا هُما“.

تَقَدَّمتْ إلى الموقِدِ ودفَعَت رَكوَةَ القَهوَةِ أَقربَ إلى مَركَزِ بَيتِ النَّارِ حَتَّى تَتَيَقَّنَ بأنَّ القَهوَةَ ستَكُونُ ساخنةً.

كانتِ مِسي ما تَزالُ تَلعَبُ على أرضيَّةِ المَطحِخِ، وَلَكنَّها لَمَّا سَمِعَتِ النَّباحَ التَّرحيبيَّ الفَرِحَ من بوبِ العَجوزِ، هَبَّتْ واقِفَةً وَعَيناها تَتَلاؤنانِ.

وَهتَفَتْ بِحماسَةٍ وابتهاجٍ: ”دادي جاء!“

فابتَسَمَتِ مارتي، مُلاحِظَةً من جَديدِ حَقيقَةٍ كَونِ مِسي غالِباً ما تَقولُ ”دادي“ حَتَّى لو كانَ كلاركُ يُشيرُ إلى نَفْسِهِ بلفِظَةِ ”بابا“.

وقررت مارتى أن أأأن كانت سئفصأ "ءاءى". آسناً، إءاً لأأل أأن سئآءء هى أأصاً إلأ مسى بشأن ءاءى.

وسرعان ما ءآل كلارك وءراعاه مملوءءان بالرزم؁ ووجهه أآمر من آراء الرآء الباردة. فعنءما رأء مسى أباه؁ رقصء ءائراً بآماسة شءىءة.

"ءاءى هُنا... ءاءى هُنا. أهلاً بابا!"

فناءاها كلارك. ولما آآلص من رزمه؁ نئر البئ الصأرة وآمأها على ذراعىه. فأبءء آعأبها من وجهه البارد إء ربءء آءىه.

وإء صبء مارتى فنجان قهوة؁ اقآرآء: "الأآسن أن آئءفاً قلىلاً قبل مباءرة المهام".

فأآاب: "آبءو فآرة آىءة آفاً"؁ آالعا مآطفه الآقفل ومعلقاً إأاه بقرب النار كى يءعه يءفا إلأ أن أأطر إلأ الآرآ آانىة. ووقف قلىلاً باسأاً يءىه فوق الموقء؁ ثم عبء إلأ الطأولة. فسكبء مارتى قشءة فى القهوة وآطءها أمامه.

قال كلارك: "آلك الرزمة المئوسسة الآآم هى لك. لآء آآمسء السىءة مكءونالء فعلاً بشأن إءءاءها. أآقء أنها ارآبكت قلىلاً. وبءا أنها آسبءه طفلى. ولأن ذلك لم أكن قط من شأنها؁ لم أكلف نفسى قط أن أصح لها".

وفىما آآرع بضع آرعات أخرى من القهوة الساآنة؁ ءومت أفكار

مارتي.

طفله؟ كيف أمكن أن يكون طفله ونحن لسنا حتى زوجًا وزوجةً حقيقيين؟ لا شك أن السيِّدة مكدونلد ما كانت لتعرف ذلك. وأحسَّت وجهها يتورَّد ارتباكًا.

حطَّ كلارك فنجانه، وتابَعَ كلامه بهدوء: ”رغم ذلك فكَّرتُ لاحقًا أنه ربَّما كان عليَّ أن أقولَ شيئًا ما، فرجعت. وقلت: «سيِّدة مكدونالد، صحيحٌ أن زوجتي حامل، وصحيحٌ أنني سأعاملُ الطفلَ كما لو كان واحدًا من أطفالي، لكن صحيحٌ أيضًا أن الوالدَ هو زوجها الأوَّل، وذلك مُهمٌّ عندها. فلا أريد أن تختلِطَ الأمور على النَّاسِ».“

وأكمَلَ كلارك قهوته. ”خيرٌ لي أن أقوم الآن“.

ثمَّ لبسَ معطفه مُتلوِّيًا، وغادرَ قبلما أُتيحَ لمارتي وقتٌ كي تُنظِّمَ أفكارها المُشوَّشة.

لقد فهم. وقد رجَعَ إلى المخزن ليُصحِّح الأمرَ للسيِّدة مكدونالد لأنه علم، كما سبق أن قالت ما غراهام لمارتي، أن لسانَ تلك المرأة كان أنشطَ جزءٍ في تركيبها العُضويَّة. أعطِ المرأةَ يومًا أو يومين من الجوّ الحسن، فيعلمَ كلُّ من في المنطقة بأمرِ الطفل الآتي.

إنَّ كلارك يفهمُ أنه مُهمٌّ عندي أن يُعرفَ الطفلُ الجديد بكونه طفلَ كليم. ظلَّ ذهنها يُحاول أن يتبيَّن حقيقةَ هذا الرَّجل، فيما بدأت تضعُ المونَ التي اشتراها كلارك في أماكنها.

وعادت إلى رزمتها، فقرَّرت أن تأخذها إلى سريها لتتفحصَ

المُحتويات. كان الجوُّ باردًا الآن في عُرفة النَّوم، فارتجفت - جُزئيًّا من فرط التَّأثر كما كانت على يقين - إذ فضت ورقَّ المخزنِ البُنِّيِّ.

لا شكَّ أنَّ السَّيدة مكدونالد قد بذلت قُصارى جَهدِها. وإذ نظرتْ مارتى إلى الأقمشة الجميلة، ارتفعت يداها إلى وجهها. يقينًا أنَّ مولودًا حديثًا لا يحتاجُ إلى أشياءِ الطَّفل تلك كُلِّها. وتوردُ خدَّها إذ خطرتْ لها فكرةُ النَّهاراتِ والأُمسياتِ المُقبِلاتِ، حين يُتاحُ لها أن تجلسَ وتشتغلَ بالثَّيابِ الصَّغيرة. فتمنَّت لو كان لديها شخصٌ ما تُحدِّثه بمشاعِرها، وأغرِيتْ بأن تُطلعَ مِسي على كلِّ شيءٍ. لا، الأحسنُ لها أن تنتظرَ فترةً قصيرةً قبلَ القيامِ بذلك؛ فالشُّهورُ الباقية ستبدو أطولَ بكثيرٍ من أن تستوعبَها ابنةُ سنتين. آه، يا ليت كليم كان هنا ليشاركها في ذلك! اغرورقتَ عيناها مُجددًا مرَّةً أُخرى، وتقطَّرتْ دمعَةٌ حارَّةً، فمسحتَها بقفا يديها. ليتَ التَّخلُّصَ من الألمِ في قلبها كان بتلك السُّهولة!



لَمَّا دخل كلارك لأجل العشاء، كان يرتجفُ على نحوٍ ملحوظٍ رغمَ معطفه الثَّقيل. وعلَّقَ بأنَّه لم يستطع أن يُصدِّقَ كم هبَّطتِ الحرارة في ساعاتٍ قليلةٍ جدًّا. ثمَّ أضافَ أنَّ الرِّيحَ، بلا شكَّ، كان لها التَّأثيرُ الأكبرُ في ذلك.

وقبل أن يجلسَ إلى الطَّاولَةِ، أشعلَ الموقدَ في عُرفةِ الجلوسِ. وقد أبدى هذه الملاحظة: ”تخميني أنه آنَ أو أنْ حُصولنا على

دِفءٍ إِضَافِيٍّ مِنْ مَصَدَرٍ سِوَى مَوْقِدِ الطَّبْخِ“.

لَمَّا صَلَّى تِلْكَ اللَّيْلَةَ، طَلَبَ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مَعَ ”النَّاسِ الْمُبَارَكِينَ أَقْلًا مَنًّا“، فَتَذَكَّرْتُ مَارْتِي عَرَبَتَهَا الْمَسْقُوفَةَ ذَاتَ الْعَجَلَةِ الْمَخْلُوعَةَ. وَاقْشَعَرَ بَدْنُهَا إِذْ فَكَّرَتْ فِي مَا سَتَكُونُ حَالَتُهَا عَلَيْهِ لَوْ كَانَتْ مُنْكَمِشَةً فِي دَاخِلِ الْعَرَبَةِ الْآنَ، مُحَاوِلَةً أَنْ تَدْفَأَ تَحْتَ مَا كَانَ لَهَا وَلِكَلِيمٍ مِنْ بَطَانِيَّاتِ ضَيْلَةَ.

بَعْدَ الْعِشَاءِ، انْتَقَلَ كَلَارِكٌ إِلَى غُرْفَةِ الْجُلُوسِ لِيَتَفَحَّصَ النَّارَ وَيُرَوِّدَهَا بِوَقُودٍ جَدِيدٍ، وَأَحْضَرَتْ مِسي لُعبَهَا إِلَى الْبِسَاطِ أَمَامَ الْمَوْقِدِ. غَسَلْتُ مَارْتِي الصُّحُونَ، شَاعِرَةً بِأَنَّهَا دَفِئَةٌ وَمَحْمِيَّةٌ رُغْمَ إِرَادَتِهَا. وَكَيْفَ أَمْكَنَ أَنْ تَشْعُرَ بِسِوَى ذَلِكَ فِي كَوْخٍ دَافِئٍ فِيَمَا الرِّيحُ تَزَعَقُ حَوْلَ زَاوِيَاهُ، عَاجِزَةً عَنِ الدُّخُولِ؟

كَانَ الْمَسَاءُ مَا يَزَالُ فِي أَوَائِلِهِ، وَكَانَتْ مَارْتِي مُتَشَوِّقَةً لِأَنْ تُبَاشِرَ خِيَاطَتَهَا، إِلَّا أَنَّهَا أَدْرَكَتْ كَمْ سَتَكُونُ غُرْفَتُهَا بَارِدَةً. وَكَانَتْ مَا تَزَالُ تُحَاوِلُ أَنْ تَكْتَشِفَ حَلًّا مَا لِمُشْكَلَتِهَا لَمَّا أَفْرَغَتْ حَوْضَ صَحُونِهَا وَعَلَّقَتْهُ عَلَى وَتَدِهِ.

وَمَا لَبِثَتْ أَنْ سَمِعَتْ كَلَارِكٌ يَقُولُ مِنْ وَرَائِهَا: ”سَيَكُونُ الْجَوُّ بَارِدًا حَقًّا فِي غُرْفَتِكَ مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا. هَلْ تُرِيدِينَ أَنْ تُنْقَلَ مَا كَيْتُكِ إِلَى غُرْفَةِ الْجُلُوسِ؟ يُوجَدُ مَكَانٌ وَاسِعٌ لَهَا هُنَا“.

فَالْتَفَتْتُ مَارْتِي وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ مُبَاشِرَةً، وَسَأَلْتُ عَلَى مَهَلٍ: ”هَلْ تَجِدُ

بأسًا برؤيتها قائمةً هناك؟“

فأجاب بصراحة: ”أظنُّ أنني أجدُ إلى حدِّ ما. ولكنَّ الأمر الآن ليس قاسياً كما كان عند رؤيتها أوَّل مرَّة. وسيكونُ مُجرَّدَ طيشٍ ألاً تُوضع حيثُ يُمكن أن تُؤدِّي النَّفَع الأفضَل. سأعتادُ وُجودَها“. وما إن قال هذا، حتَّى ذهبَ لِيُفعل ما اقترحَه.

وفكرتُ مارتي بينها وبينَ نفسها: نعم، هذا الرَّجُل سيفعل الأمر الصائب حتَّى لو أوجعَه.

شعرتُ بشيءٍ من الأنانيَّة بشأنِ توقُّعها أن تَخيَطَ في العُرفة الدافئة. إذا كان لا بُدَّ للأُمور أن تكونَ كما كانت، حيثُ هي عالِقةٌ في زواجٍ ما كانت بالتأكيد لِيختاره من تلقاءِ ذاتها، فقد كان مُمكنًا أن تفعلَ أسوأ. إنَّها ما تزالُ تتوقُّ توقُّاً مُوجِعاً إلى عزيزها كليم. وقد تمنَّت أن يعود، حتَّى لو عنى ذلك أن يكونَ عندها أقلُّ بكثيرٍ ممَّا عندها الآن. ومع ذلك تكونُ مُجحفةً إذا أبَّت أن ترى الصِّلاحَ في هذا الرَّجُل الذي باتت تحمِلُ اسمَه وتُشاركُه في بيته. كان جليلاً أنَّه كان عاملاً حقيقياً وعائلاً جيِّداً، ولكنَّها كانت تكتشفُ أشياءً أُخرى عنه أيضاً- أشياءً مثَل التَّفهُم والاهتمام. يقيناً أنَّه لم يكنُ مُمكنًا أن تلومَه على مطالِبِه منها. إذ كان مُتوقِّعاً منها فقط أن تكونَ ماما مِسي، وأن تُدبِّرَ شُؤونَ البيتِ الصَّغير. حتَّى إنَّه لم يتدمَّر بشأنِ طبخِها. لا- هكذا حكمت- حتَّى لو لم تحبَّ وضعَها، كان ممكناً أن تفعلَ أسوأ بكثير.

عقدت عزمها على الاهتمام بِخياطتها. ستُعطي مِسي قليلاً بعدُ من

وقت اللَّعِبِ قَبْلَ أَنْ تُغَطِّيَهَا فِي السَّرِيرِ لِتَنَامَ لَيْلَتِهَا. وَكَانَ كَلَارِكٌ قَدْ اسْتَقَرَّ بِقُرْبِ النَّارِ مَعَ وَاحِدٍ مِنْ كُتُبِهِ الْجَدِيدَةِ. فَالْتَقَطَتْ مَارْتِي شَاكِرَةً نَمُودَجًا كَانَتْ السَّيِّدَةُ مَكْدُونَالْدُ قَدْ وَضَعَتْهُ دَاخِلَ الرِّزْمَةِ. مَا كَانَتْ مَارْتِي قَطُّ قَدْ خَاطَتْ قَبْلًا لِطِفْلَةٍ صَغِيرَةٍ الْحَجْمِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ النَّمُودَجُ لَعَانَتْ صَعُوبَةً شَدِيدَةً كَيْ تَعْرِفَ كَيْفَ تَقْصُّ الْقُمَاشَ. وَارْتَعَشَتْ يَدَاهَا بَعْضَ الشَّيْءِ مِنْ فَرَطِ انْفِعَالِهَا. سَتَقُومُ بِقِصِّ الْقُمَاشِ عَلَى طَاوِلَةِ الْمَطْبَخِ، حَيْثُ كَانَ لَدَيْهَا مَكَانٌ أَوْسَعُ. وَلَمْ تَتَمَالَكُ نَفْسَهَا عَنِ التَّفْكِيرِ فِي أَنَّ ثَلَاثَتَهُمْ بَدَا أَشْبَهَ بَعَائِلَةَ حَقِيقِيَّةً.

غِيَابُ غَامِضٍ

أَتَتْ أَيَّامُ تَشْرِينَ الثَّانِي/نوفمبر بمزيدٍ من العواصف، فانطرحَ الثلجُ ثَقِيلًا على الحُقُولِ، وارتفعتْ كُومُ ثَلْجٍ كَبِيرَةٌ حَوْلَ الْأَمَاكِنِ الْمَحْمِيَّةِ. وَبَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ، كَانَتْ الرِّيحُ تَكْفُفُ عَنِ الْهُبُوبِ وَالشَّمْسُ تُرْسِلُ أَشْعَتَهَا، غَيْرَ أَنَّ دَرَجَاتِ الْحَرَارَةِ بَقِيَتْ دَائِمًا تَحْتَ نُقْطَةِ التَّجَمُّدِ. إِنَّمَا بَقِيَ كَثِيرٌ يَنْبَغِي أَنْ يُجَزَّزَ، وَلَمْ يَتَوَقَّفِ النَّشَاطُ فِي أَرْجَاءِ الْمَزْرَعَةِ الصَّغِيرَةِ بِسَبَبِ الْحَالَةِ الْجَوِّيَّةِ. وَكَلَّمَا خَفَّتْ عَوَاصِفُ الثَّلْجِ، شَدَّ كَلَارِكُ الْعَرَبَةِ إِلَى الْحَصَانَيْنِ، وَأَمْضَى وَقْتَهُ مَعَ دَانَ وَتَشَارَلِي الْوَفِيِّينَ فِي الْغَابَاتِ جَامِعًا أَزْنَادَ الْحَطَبِ لِأَجْلِ مَخْزَنِ الْوَقُودِ لَدَيْهِمْ.

وَفِي الْأَيَّامِ الْأَكْثَرِ بؤْسًا، أَدَّى قِضَاءُ وَقْتٍ إِضَافِيٍّ فِي الْحِظِيرَةِ إِلَى إِرَاحَةِ الْحَيَوَانَاتِ فِي أَثْنَاءِ الْجَوِّ الْقَاسِيِ بِأَقْلٍ قَدْرٍ مُمَكِّنٍ مِنَ الْإِزْعَاجِ.

مَلَأَتْ مَارْتِي أَيَّامَهَا بِالْإِهْتِمَامِ بِمَسِيٍّ، وَتَدْبِيرِ الْمَنْزِلِ، وَالخَبْزِ وَالغَسْلِ وَإِصْلَاحِ الثِّيَابِ وَكَيْهَاهَا. وَقَدْ بَدَتْ اللَّائِحَةُ بِلَا نِهَاطَةَ لَهَا، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ شَاكِرَةً بِأَنْ يُشْغَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَيَّامِ الطَّوَالِ، لَا سِيَّمًا تِلْكَ الَّتِي تُضْطَرُّهَا إِلَى الْبَقَاءِ فِي الْبَيْتِ.

وفي كلِّ مساء، كانت تمضي بسرور إلى خياطتها، مُضيفَةً كلَّ غرزةٍ إلى الأثواب الصَّغيرة جدًّا بعنايةٍ رقيقة. وكانت قد وضعت جانبًا اللِّحافَ الذي بدأت تنجيده. ففي وسعه أن ينتظر. لقد أرادت أن تُركِّز على التَّحضيرات لأجل الطفل.

كانت قد لاحظت أنَّ كلارك غالبًا ما أشار إلى الطفل الآتي مُستعملًا الصَّميرَ ”هو“. وفيما علمت أنَّ الطفلَ يُمكن أن يُفاجئهما كليهما ويكون بنتًا، كانت مُصمِّمةً بالأحرى على التفكيرِ بِابنٍ لكليم.

لقد سبقَ أن اختارت اسمًا: كلاردج لوك. ”كلاردج“ على اسمِ عائلةٍ والده، و”لوك“ إكرامًا لأبيها. فكم سيكونُ أبوها فخورًا إذ عرفَ أنَّ له حفيدًا يحملُ اسمه! ولكنَّ ذلك لا بُدَّ أن ينتظرَ أوَّلَ قافلةٍ عرباتٍ مُسافِرةٍ نحوَ الشَّرق، حينَ تصطحبُ ابنها- ورُبَّما مِسي أيضًا- وتتوجَّهَ راجعةً إلى ديارها.

سبَّبت لها فكرةُ اصطحابِ مِسي قلقًا مُتزايدًا. فماذا كان الأفضلُ، لأجلِ البنتِ الصَّغيرة ولأجلِ كلارك على السَّواء؟ لقد رأتِ المحبَّةَ العظيمةَ التي يكنُّها كلارك لابنته، وتساءلت هل يقدرُ حقًّا أن يدعها تذهبُ عندما يحينُ الوقت. أو هل ينبغي له ذلك؟ ثمَّ إنَّ مارتِي نفسها كانت آخذةً في التعلُّقِ بالطفلةِ على نحوٍ رهيب. فقولُ ”ماما“ باتَ يأتي بسهولةٍ إلى كِلَيْهِمَا الآن. وبالحقيقة أنَّ الشُّعورَ بأنَّها كذلك، أي ماما مِسي، كان يتسلَّلُ لاشعوريًّا تمامًا. فكلَّ يوم، استمتعتُ أكثرَ

بعشرة الطفلة الصغيرة، ضاحكةً من تصرفاتها الغريبة الساذجة، متعجبةً من كلماتها الجديدة، بل مُطلعةً كلارك أيضًا على بعضٍ منهم لدى رجوعه إلى البيت مساءً.

وبينما لم تكدّ مارتى تُدرك الأمر، كانت مِسي صائرةً جزءًا من حياتها إلى حدٍّ بعيد. وبالجهد استطاعت أن تنتظر إقبال السنة الجديدة لتبوح بسرّها للفتاة الصغيرة. فقد كانت على يقين بأنّ الطفلة لا بُدَّ أن تُطلع الآخرين على ترقّبها الطفل الجديد. غير أنّ مارتى لم تدع نفسها تتوقّف لتفكّر بعمقٍ زائد في الأمر كلّها، أو لتحلّل مشاعرها المتغيّرة بالتدرّج. فكان كافيًا أن تلاحظ انقضاء الأيام البطيئة، نابذةً إيّاها بلامبالاةٍ كشيءٍ أدّى غايته، وتقدّم إلى الأمام. وذلك لأنّ مارتى كانت ما تزال تُراوح الخُطى فعلاً.

فيما اقترب حلولُ كانون الأوّل/ديسمبر، أدركت مارتى أنّ كلارك، على ما يظهر، قد قام بعددٍ غير مُعتاد من السّفرات إلى المدينة، لا سيّما لذلك الوقت من السنة. وما كان ذلك كأنّ لديهم احتياجًا إلى مؤنٍ مُحدّدة. إذ كانوا قد خزّنوا الموادّ استعدادًا لقبضة الشتاء الحابسة. وفي الواقع أنّ كلارك كثيرًا ما عادَ بمُشترياتٍ قليلة جدًا، مُستخدمًا حتّى حصان الرُّكوب أحيانًا بدلًا من حصاني العرّبة. لم تُفكّر مارتى في التّساؤل عن ذلك أوّل الأمر، ولكنّ حديثَ الفطور في هذا الصّباح جعلها تُفكّر في الأمر تفكيرًا عميقًا. كان كلارك قد أعلن، عرضًا إلى حدٍّ كافٍ، أنّه سيغيّب ثلاثة أيّام أو أربعة. فقد أوضح أنّ الجوّ يشهدُ

استراحةً في ما يبدو، ولذلك قرّر أنّ الوقت مؤاتٍ كي يقومَ بسفرةٍ إلى مدينةٍ أكبرَ من مدينتهم المحليّة الصّغيرة. وقال لها إنّهُ ربّ للفتى توم غراهام أن يأتي في المساء ويبيتَ ليلاً ليَقومَ بمهامّ المساء والصّباح. وإذا ساءَ الجوُّ، ففي وُسعِ مارتِي أن تطلّبَ إليه البقاءَ في النّهار أيضًا. وإن احتاجتَ إلى أيّ شيءٍ، ففي وُسعِها أن تبعثَ بخبرٍ إلى آلِ غراهام مع توم.

حيّرتَ كلماته مارتِي. ولَمّا فكّرتَ في الأمرِ الآن، تبيّنَ لها أنّهُ فعلاً قد قامَ بعددِ استثنائيٍّ من السّفراتِ، ولكنّ ذلكَ بالحقيقة لم يكنْ شأنها قطّ. ربّما كانَ يبحثُ عن آلاتٍ جديدةٍ لِحِراثةِ الأرضِ، أو عن بذارٍ أفضلٍ، أو مكانٍ لِيبيعَ خنازيره. على كلّ حال، تلكَ أشغاله، فلماذا ينبغي أن تقلقَ هي بشأنها؟ سيأتي الفتى توم ويبقى. فما كانَ من شيءٍ بعدُ تُقلِقُ نفسَها بشأنه.

ومع ذلكَ، فلَمّا عاتقَ كلاركُ مِسي مُودّعًا وأوصاها أن تكونَ بنتًا صالحَة مع أمّها، لم تتمالكِ مارتِي نفسها عن أن تشعُرَ على الأقلّ بحُبِّ الاستِطلاعِ، وربّما بشيءٍ من الاضطرابِ.

قبلَ أن يذهبَ إلى الحظيرةِ لإحضارِ دان وتشارلي، وعدّ: ”سأرجعُ مساءَ السّبتِ في الوقتِ المُعيّنِ للقيامِ بالمهامّ“. وإذ راقبته مارتِي مُغادرًا، لاحظتَ أنّ القفصَ كانَ في صُندوقِ العرّبةِ وأنّ خنزيرينَ كانا مُسافرَينَ معه إلى المدينة.

ماذا سبق أن قال من زمان؟ ”إذا احتجنا إلى مالٍ نقديٍّ إضافيٍّ، يُمكننا دائماً أن نبيعَ خنزيراً“.

ثُمَّ قَرَّرَتْ بِهِزَّةٍ كَتَفَيْنِ: لا بُدَّ أَنَّهُ يُرِيدُ شِرَاءَ مِحْرَاطٍ آخَرَ أَوْ مَزِيدًا مِنَ الْبِدَارِ. إِلَّا أَنَّهَا، مِنَ النَّاحِيَةِ الْآخَرَى، كَانَتْ قَدْ كَلَّفَتْهُ مَبْلَغًا بَاهِظًا مِنَ الْمَالِ الْإِضَافِيِّ، سِوَاءً بِالثِّيَابِ الشَّتَوِيَّةِ لَهَا، أَمْ بِالصُّوفِ لِلْحَبْكِ وَلَوَازِمِ التَّنْجِيدِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِجِهَازِ الطِّفْلِ.

ذُعِرَتْ مَارْتِي إِذْ أَدْرَكَتْ ذَلِكَ، الْأَمْرُ الَّذِي كَبَحَتْ نَفْسَهَا عَادَةً عَنِ الْوُقُوعِ فِيهِ. وَأَخِيرًا، بِجَهْدٍ فِعْلِيٍّ، نَحَّتُهُ جَانِبًا.

وَتَمَتَّتْ لِنَفْسِهَا: ”لَا نَفْعَ مِنَ الْاسْتِرْسَالِ فِي هَذَا. تَخْمِينِي أَنِّي فَاقِدَةُ الشَّهِيَّةِ قَلِيلًا، أَوْ أُعَانِي شَيْئًا مَا، لِأَكُونَ قَلِقَةً هَكَذَا بِشَأْنِ الْأَمْرِ. أَتَمَنَّى لَوْ أَقُومُ بَزِيَارَةِ جَيِّدَةٍ لِمَا غَرَاهَامُ. مِنْ شَأْنِ ذَلِكَ أَنْ يُقَوِّمَ الْأُمُورَ. حِينَ يَرْجِعُ كَلَارِكُ، يَكُونُ شَهْرُ كَانُونِ الْأَوَّلِ/دَيْسَمْبَرِ قَدْ بَدَأَ فِعْلًا.

كَانَ الزَّمَنُ يَتَقَدَّمُ حَقًّا، مَهْمَا بَدَأَ بِطَيِّئًا. أَوْلَمَ تَقُلْ مَا غَرَاهَامُ إِنَّ الزَّمَنَ هُوَ الَّذِي يَشْفِي؟ وَأَمَلْتُ أَنْ تَمْضِيَ الْأَيَّامُ بِسُرْعَةٍ فِي أَثْنَاءِ غِيَابِ كَلَارِكِ.

بَاتَتْ مَارْتِي مَطْمَئِنَّةً أَكْثَرَ مِمَّا تَوَدُّ أَنْ تَعْتَرِفَ إِذْ رَأَتْ الْحَصَانَيْنِ مُقْبِلَيْنِ يَوْمَ السَّبْتِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ. لَمْ تَدْرِ لِمَاذَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَشْعُرَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الشُّعُورِ؟ كَانَتْ عَلَيَّ يَقِينٌ بَأَنَّ الْفَتَى تَوْمَ أَدَّى الْمَهَامَّ عَلَيَّ مَا يُرَامُ، وَلَمْ تَجِدْ بَأْسًا قَطُّ بِرِفْقَتِهِ فِي الْأَمْسِيَةِ. فَبَعْدَ الْعِشَاءِ كَانَ

يلعب مع مسي، أو يقرأ لها كتابها مرّةً ومرارًا. لقد كان فخورًا بحقيقة كونه قد تعلّم حروفه وبات يعرف كيف يقرأ، شأنه شأن كل أولاد ماغراهام. وأحب أن يتباهى أمام مسي... وأمامها هي أيضًا، كما راهنت مُتبسّمةً. وقد باتت مسي الآن قادرةً على إعادة كثيرٍ من سُطور كتابها، وراقها أن تتظاهر بأنها كانت تقرأ هي نفسها.

سارت الأمور حسنًا إلى حدٍ بعيد في أثناء غياب كلارك. ومن ثم لم يكن لذلك أدنى تعلق بشعورها بالفرح إذ رآته راجعًا إلى البيت. ربّما كمنّت في أعماقها الذكرى المُنتابهة لِوَادِعِ عابِرٍ لكليم واكتشافها في ما بعد أنه كان آخرَ وِدَاعٍ، غير أنها استبعدت حاليًا ذلك الاحتمال وذهبت لتقول لمسي إن بابا راجع الآن إلى البيت.

غمَرَ مسي الفرح الشديد عند رؤية أبيها، وبدأت ترقص حاليًا لمحتته من على الكرسي عند النافذة.

لاحظت مارتي أن القفص بات فارغًا الآن، ولكنها لم تستطع أن ترى أيّ مشتريات بالمبلغ المقبوض. إنّما كانت بضعة رزمٍ صغيرة مُستقرّة على المقعد بجانب كلارك. لقد بدا دان وتشارلي مُرهقين، كما ظنّت، إذ راقبتهما يتهديان نحو الحظيرة، ولكنّ خطأهما ما لبثت أن استعادت نشاطها حالما اقتربا إلى المرباط الدافئة والمعالف المملأ.

يبدو كلارك أيضًا مُتعبًا، هكذا حكمت لما شاهدته يترجّل ويأشُرُ فكّ

الحِصَانَيْنِ. فهو لم يَكُنْ يتحرَّك بِمِثْلِ الطَّاقَةِ التي رافقت أنشِطَتَهُ عَادَةً.
وَإِذْ سَاعَدَتْ مَارْتِي مِسي عَلَى النُّزُولِ عَنِ كُرْسِيِّهَا عِنْدَ النَّافِذَةِ،
قَالَتْ مُعَلِّقَةً: ”أَبوك هُنَا الْآنَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَرِيدَ بَعْضَ الْقَهْوَةِ السَّاخِنَةِ“.
لَمْ تُشَكِّلِ الْقَهْوَةُ أَيَّةَ مُشْكِلَةٍ؛ لِأَنَّ مَارْتِي جَعَلَتْهَا عَاجِلًا فِي مُتَنَاوَلِ
الْيَدِ. فَقَدْ أَعَدَّتْهَا بَيْنَ خَطَوَاتِهَا ذَهَابًا وَإِيَابًا نَحْوَ النَّافِذَةِ مُتَرْقِبَةً أَوَّلَ لِمِحَةٍ
لِلْحِصَانَيْنِ.

أَمَلْتُ أَنْ تَسْتَمِرَّ الْأُمُورُ الْآنَ فِي سَبِيلِهَا الْمَعْهُودِ. لَمْ تَكُنْ هَذِهِ هِيَ
الْحَيَاةَ الَّتِي أَرَادَتْهَا أَوْ خَطَّطَتْ لَهَا، وَلَكِنْ كَانَتْ أَيَّامُهَا عَلَى الْأَقْلِّ قَدْ
اتَّخَذَتْ الْآنَ نَمَطًا مَأْلُوفًا لَدَيْهَا، وَقَدْ كَانَ فِي الْمَأْلُوفِ مِقْدَارٌ مُعَيَّنٌ مِنْ
الْعِزَاءِ.

دَخَلَ كَلَارِكُ حَامِلًا شَيْئًا مِنَ الْبِقَالَةِ، فَاسْتَقْبَلَتْهُ مَارْتِي بِفَنْجَانِ قَهْوَةٍ
وَفَتَاةٍ صَغِيرَةٍ سَعِيدَةٍ لِتُرْحَابِ بِهِ.

تحضيراتُ عيدِ الميلادِ

خاطَبَ كلاركُ اللهَ القديرَ في صلاته الصَّباحيَّة: ”أبانا السَّماويَّ، فيما نقتربُ إلى موسمِ ولادةِ ابنك، اجعلْ قلوبنا شاكِرَةً من أجلِ مجيئه، وأعِنَّا حتَّى نُحبَّ الآخرينَ بِمثلِ المحبَّةِ التي أظهرها لنا“.

ففكَّرتُ مارتي بتنبُّهٍ مُفاجئٍ إلى المَوسِمِ الآتي: إنَّه يتكلَّمُ عن عيدِ الميلادِ. عَجِبِي! إنَّه بعدَ أسبوعينَ فقط، وأنا ما كنتُ مُفكِّرةً فيه أدنى تفكيرٍ.

اندفعَ ذهنُها بسُرعةٍ من فكرةٍ إلى فكرةٍ، حتَّى فاتتها بقيَّةُ الصَّلَاةِ مرَّةً أُخرى، وبقيتَ جالسةً وعيناها ما زالتا مُغمَضَتين. فشَدَّتْ مِسي بِكُمِّها، مُبتغيةً فَطورَها.

رَفَعَتْ مارتي وجْهًا مُتورِّدًا، وأعدَّتْ لِمِسي على عَجَلٍ حِساءَ الحبوبِ، نافخةً عليه حتَّى تُبرِّده قبلَ إعطائه للطفلةِ.

وبعدَ قليلٍ تجرَّأت على القولِ: ”أُدري؟ لقد نسيْتُ تمامًا كم عيدُ الميلادِ قريبٌ“.

فرَفَعَ كلاركُ نظره عن طاسَةِ حِساءه. ”أُدري إنَّه يصعُبُ التفكيرُ في

عيد الميلاد هذه السنة. ففي حال كان صعبًا فوق الحدِّ عليك،
يُمكننا أن ننسى ذلك اليومَ تقريبًا، ما عدا قراءةَ القِصَّةِ وجُوربِ هديَّةِ
لمِسي الصَّغيرة“.

فكرتُ مارتي دقائقَ قليلة.

وأخيرًا أجابت: ”لا، لن يكونَ ذلك صائبًا. إنَّ مِسي تحتاجُ إلى
عيدِ الميلاد الذي يخصُّها... عيدٍ مُمتازٍ تقريبًا. وأنا أحسبُ أنه سيعود
علينا بالخير نحنُ أيضًا. لا يُمكننا أن نبقى في الماضي مُتعهِّدين
حُزننا... لا لأجلها ولا لأجلنا. يبدو لي أنَّ عيدَ الميلاد وقتٌ مؤاتٍ
كي نضعَ وجعنا جانبًا ونبحثَ عن شيءٍ شافٍ“.

حدَّقَ إليها كلارك للحدِّياتِ، ثمَّ ردَّ عينيه نِزولًا إلى طاسِته. أخيرًا
قال على مهل: ”يبدو أنني ما سمعتُ قطُّ على لسانِ أيِّ واعظٍ زائرٍ
عِظَةً أفضلَ من تلك التي سمعتها تَوًّا“. وبعد أن توقَّفَ لحظةً،
أضافَ: ”أنتِ على حقٍّ، بلا شكِّ. فماذا تُخطِّطينَ إذا؟“

قلَّبتُ مارتي الأمر في ذهنها، مُحاولَةً أن تتذكَّرَ تمامًا ما كان يجري
في بيتها تحضيرًا لعيد الميلاد. لم تكن تُقرأُ قِصَّةَ الميلاد من الكتاب
المقدَّس، ولكنَّ في وسعهم أن يُضيفوا ذلك بسُهولةٍ كافية. وكان
هنالك قدْرٌ وافٍ من نبيذِ الدُّرَّة، الأمر الذي في وسعهم أن يستغنوا
عنه. خلافَ ذلك، لا بُدَّ أنَّ هنالك أشياءَ قليلة يُمكنها أن تعملها كما
كانت أمُّها تعملها. سيكون هذا أوَّلَ عيدٍ ميلادٍ لها بعيدًا عن ديارها-

أَوَّلَ عِيدِ مِيلَادِ تَصْنَعُهُ لِأَجْلِ آخِرِينَ، بَدَلَ أَنْ يَصْنَعَهُ آخَرُونَ لِأَجْلِهَا.
وقد جعلتها هذه الفكرة تشعُرُ بالتَّوَجُّسِ والتَّحَمُّسِ مَعًا.

ثُمَّ قَالَتْ: ”سَأخْبِرُ بَعْضَ الكَعَكِ الخَاصِّ بِعِيدِ المِيلَادِ. لَعَلَّ عِنْدَ مَا
غَرَاهَامُ بَعْضَ الوَصْفَاتِ الخَاصَّةِ الَّتِي سَتُطَلِّعُنِي عَلَيْهَا. ثُمَّ سَنَنْصُبُ
شَجَرَةً لِأَجْلِ مِيسَى. سَنَقِيمُهَا عَشِيَّةَ المِيلَادِ بَعْدَ أَنْ تَأْوِيَ مِيسَى إِلَى
سَرِيرِهَا. وَسَنَشْكُ شَيْئًا مِنَ الفُشَارِ وَنَصْنَعُ سِلَاسِلَ مُلَوَّنَةً، وَنُشْعَلُ بَعْضَ
الشَّمْعِ عِنْدَ التَّوَافِدِ. وَسَنَذْبَحُ دِيكَيْنِ مِنْ أَحْسَنِ الدُّيُوكِ، وَسَاجِدُ لِي
شَيْئًا مَا أَصْنَعُهُ لِمِيسَى...“.

وَلَا بُدَّ أَنْ الحِمَاسَةَ المُتَعَاظِمَةَ فِي دَاخِلِهَا كَانَتْ مُعَدِيَّةً. فَقَدْ انضَمَّ
إِلَيْهَا كَلَارِكُ بِتَشَوُّقِهِ الشَّخْصِيِّ إِلَى عِيدِ المِيلَادِ الآتِي.

وَأَعْلَنَ: ”دِيُوكِ؟ لَا، بَلِ سَأَذْهَبُ بِنَفْسِي وَأَشْتَرِي لَنَا دِيكًا رُومِيًّا مِنْ
عِنْدِ آلِ فِكْرَزِ. السَّيِّدَةُ فِكْرَزُ تُرَبِّي بَعْضًا مِنَ الدُّيُوكِ الرُّومِيَّةِ المُمْتَازَةِ.
وَلَعَلَّ هُنَالِكَ شَيْئًا مَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَعْمَلَهُ لِأَجْلِ مِيسَى مَعًا. سَأُرْكَبُ إِلَى
بَيْتِ غَرَاهَامِ اليَوْمِ وَأَحْصِلُ عَلَى الوَصْفَاتِ مِنْ عِنْدِ مَا غَرَاهَامُ... أَوْ
أَفْضَلُ بَعْدَ: يَبْدُو يَوْمًا رَائِقًا، فَهَلِ تُرِيدِينَ أَنْ أَشُدَّ العَرَبَةَ إِلَى دَانَ
وَتَشَارِلِي العَجُوزَيْنِ لِكِي تَذْهَبِي بِنَفْسِكِ؟“

كَتَمَتْ نَبْرَاتُ مَارْتِي الِاتِّمَاسَ فِي قَلْبِهَا: ”أُوهِ، هَلِ لِي بِذَلِكَ؟ أَوَدُّ
أَنْ أَرَى مَا غَرَاهَامُ لِأَجْلِ دَرْدِشَةِ... فِي حَالِ كُنْتُ مُتَيَقِّنًا بِأَنْ لَا بَأْسَ
بِذَلِكَ.“

وهكذا تقرّر أن تذهب مارتي إلى آل غراهام. ولكنّ كلارك أضافُ
بُعدًا آخر إلى الخُطّة. إذا حُسِنَ عندها الأمر، فهو يُقلُّها إلى بيتِ ما
غراهام، ثمَّ يُكملُ هو ومسي الطريقَ إلى آلِ فِكرز ويُحضِران الدِّيكَ
الرُّومِيَّ. وتلك الطريقة يضمنون شراءَ الدِّيكِ عندما يأتي اليومُ الكبير.
وفي وَسعِ مِسي أن تنعمَ بشيءٍ من الهواءِ المُنعشِ، وبعضِ الوقت مع
أبيها.

استعجَلتْ مارتي غسلَ الصُّحونِ، فيما ذهبَ كلارك لإحضار
الحِصانَيْن. ثمَّ ألبست مِسي بأناقة، وارتدت هي معطِفها الطَّويلَ
بِعَجَلَة. كانت تلك أوَّلَ مرّةٍ فيها ترتديه، وإذ نظرت إلى نفسها مُكشِّرةً
فكرت: لعلّها المرّةُ الأخيرة. فقد أبى اثنانٍ من الأزوار أن يَصِلا إلى
عُروتَيْهِما المُقابلَتَيْن. وتنهَّدت، ثمَّ تناولت شالها قائلةً لمِسي: "حسنًا،
تخميني أنّي سأضطرُّ فعلاً إلى سترِ ما بقيَ منِّي بهذا!"

شكّل النّهارُ الذي أمضته مع ما غراهام متعةً حقيقيّةً. فقد استغرقتنا
في قراءة وصفاتِ السيِّدة غراهام، وانتقتْ مارتي كثيرًا منها بحيثُ لن
تتمكنَ بتاتًا من خبزها كلّها. ستختارُ بعضًا من بين الوصفاتِ الكثيرة
في وقتٍ لاحق. وكذلك أيضًا دوّنت تعليماتٍ دقيقةً عن كيفية حشوِ
الدِّيكِ الرُّومِيِّ وشيّه، إذ كانت تلك مُحاولتها الأولى في هذا المجال.
وقد تشاركتنا في خُططٍ وبحثنا في احتمالاتٍ بشأنِ العيدِ المُنتظر.
فأحسّت مارتي جيّشانَ اهِتمامٍ جديدٍ في داخلها لدى التّشوّقِ إلى
ذلك. كانت قد شعرت، مُدّةً طويلةً فعلاً، بأنّ الحياةَ الصّغيرةَ التي

تحمّلها كانتِ الجُزءَ الحيّ الوحيدَ فيها. والآن، أوّل مرّةٍ في غُضونِ شُهور، بدأتُ تُحسُّ أنّها حيّةٌ من جديد.

فجأةً، سمعتِ الحِصانينِ يقتربان. وقد دُعِيَ كلارك إلى الدّاخِل لأجلِ فنجانِ قهوةٍ قبلَ الانطلاقِ إلى البيت، فدخَلَ حاملاً مِسي مُتورِّداً وجهُها، مُتحمّسةً ومُبتهجةً بِرحلتها، وتواقّةً إلى إخبارِ كلِّ واحدٍ بِالِ ”غِرغِر-غِرغِر“ الذي عندهم في العرّبةِ لأجلِ ”إيد ميلاد“.

كان في وُسعِ مارتِي أن تسمعَ الدّيكَ الرّوميّ الحيّ مُعترِضاً بقوّةٍ على فَصلِهِ عن باقي السّرْب. وقد قال كلارك إنّ الدّيكَ الرّوميّ سيودَع في قُنِّ الدّجاجِ ويُعطى بِسَخاءٍ ذُرّةً مَجروشةً وأشياءَ مُسمّنةً أُخرى حتّى أيّامٍ قليلةٍ قبلَ عيدِ المِيلاد.

لَعِبَتِ مِسي بِصَخَبٍ مع لُو الصّغيرةِ فيما تناوَلَ الكِبارُ قهوتَهُم، وكانت أكثرَ انفعالاً من أن تُنهيَ حتّى كَأْسَ حليبيها.

وفي الطّريقِ إلى البيت، استجمعتُ مارتِي شجاعَتها لِتُفصِحَ عن فكرةٍ ظَلَّتْ تتشكّلُ بالتدرِيج. وقد كانت مُتردّدةً قليلاً، ولم تكدُ تدرِي كيف تُعبّرُ عنها.

”هل تفتري... أعني هل تُمانعُ أن يأتِي آلُ غراهام إلينا لأجلِ وليمةِ عيدِ المِيلاد؟“

”كلّهم؟“ وقد كانت صدمةٌ كلارك واضحة.

فأجابت مارتِي بِإصرار: ”بالتأكيد كلّهم. أعلمُ أنّه سيكونُ ثلاثةَ عشرَ

منهم وثلاثةٌ منّا، أي ما مجموعهُ ستّة عشر. إنّ طاولةَ المطبخ، إذا مُدَّت قليلاً تستوعِبُ ثمانية. وهُم البالغون الأربعة، والأصغرون الأربعة من آل غراهام. أمّا مِسي فستكونُ في كُرسيِّها. وهذا يُقي صغارَ آل غراهام السَّبعة. فسَنرتِّب لهم مكانًا في عُرفةِ الجلوس، وتستطيعُ لورا وسالي أن تهتَّما بهم“.

كان مُمكنًا أن تستمرَّ في الثَّرثرة، ولكنَّ كلارك أوقفها، بضِحكةٍ وِيدٍ مرفوعة. ثمَّ قال: ”على مهلٍ! أرى أنّك ربَّبتِ كلَّ شيء. هل تكَلِّمتِ مع ما غراهام في الموضوع؟“

فقالَت مارتِي: ”لا بالتأكيد! ما كنتُ لِأفعلَ ذلك قبل أن أشاوركَ“. نظرَ إليها بغَضَبٍ، وأضفى على صوتِهِ نبراتِ الجِدِّيَّة: ”لستُ أدري“. ثمَّ أضافَ بعدَ تردُّدٍ: ”يبدو الأمرُ مُهمَّةً عسيرةً نوعًا ما، إعدادُ وليمةٍ ميلاديَّة لستّة عشرَ شخصًا وتقديمُها في منزلنا الصَّغير، وأنتِ في الحالة التي أنتِ فيها، بكلِّ ما فيها“.

علِمَت مارتِي أنّ عليها أن تُكافِحَ لِأجلِ فِكْرَتِها إذا شاءت أن تتمَّ. واستهَجَنَت احتِجاجَه. ”ليس من خَطبٍ في حالتي. إنِّي أشعرُ بملءِ النَّشاط والحيويَّة كحالي دائميًا. أمّا من جهةِ إعدادِ الوليمة، فسأحضِرُ ما أمكِنني منها مُسبِّقًا، قبل أن يَحصَّ المنزلُ بِمن فيه. وعندئذٍ لن تكون المُشكلةُ كبيرة. فحينَ يأتون، ستمدُّ ما غراهام والبناتُ إليَّ يدَ العون...وفي غَسَلِ الصُّحون أيضًا. آه حقًّا...“.

توقَّفت وصاحت مُفصِّحةً: ”الصُّحون! كلارك، ألدِّينا صُحونٌ كافيةٌ
لنُرتِّبَ مائدةً لهذا العدد؟“

”لستُ أدري، ولكن إن لم يكن لديك، فإنَّ ما غراهام ستُحضِرُ
معها بعضًا من صُحونها.“
”جيد!“

ابتسمت لنفسها. لقد قال تقريبًا إنَّ في وُسعهم أن يأتوا. فكانَّها
دفعته إلى خارج السَّبيل بتحويل انتباهه نحو الصُّحون. وشعرت بشيءٍ
من الذَّنْب، لكن ليس بما يكفي لأنْ تقلقَ بشأنه. ثمَّ تجرَّأت على
القول: ”لقد تقرَّر الأمرُ إذًا“. وكان هذا خيرًا أكثرَ منه سؤالًا.

في حبس الثلج

رجع كلارك إلى أيامه في التلال قاطعًا الأشجار، ورجعت مارتي لتعمل في مطبخها. فأمضت وقتًا في قراءة الوصفات، وبعدما حسمت خياراتها أخيرًا، أمضت يومًا بعد آخر في إنتاج الأطيب المغرية. ومع أن مسي حاولت أن "تساعد"، فقد بدأت المخبوزات تتكدس على نحو مُنذرٍ بالخطر، فواجهت مارتي وقتًا صعب الاحتمال في العثور على أمكنة لِحزنِ المنتجاتِ كلِّها.

تذوّقت مسي وأبدت استحسانها، مُفضِّلةً كعك الزنجبيل الذي صنّعه مارتي للأولاد على هيئة صبيانٍ صغار.

وفي الأمسية، اشتغلت مارتي مع كلارك في صنع بيتٍ مُصغَّرٍ لِلْعِب لأجل مسي. كان كلارك قد أنشأ مبنىً بسيطًا من غرفتين، وكان مشغولًا بصنع كراسي وطاولاتٍ وأسرّةٍ من خشب. فكان دور مارتي أن تضع في البيت ستائرًا وبُسطًا وبطانياتٍ بأحجامٍ صغيرة. وقد قال كلارك: "هذه الأشياء تصنعها المرأة عادةً". فوجدت مارتي متعةً إذ أسهمت في المشروع مُراقبةً البيت في أثناء تشكُّله. كان في

المطبخ خزانة صغيرة لها أبوابٌ تفتَحُ فعلاً، وطاولة وكُرسيَّان وبنك. هذا كان شُغْلَ كلارك. فعَلَّقَتِ مارتِي ستائرَ مطبخٍ صغيرةً، وأضافتِ بِساطينِ زاهيين على الأرضيَّة، ووضعتِ وِسَادَتَيْنِ صغِيرَتَيْنِ على الكُرسيَّين.

وكان في عُرفَةِ النَّومِ والجلوسِ سريرٌ صغيرٌ مُزوَّدٌ ببطانياتٍ ووسائد، ومَهْدٌ مُنَمَّم، وكُرسيَّان، ومِسْنَدٌ قَدَمَيْنِ، وصندوقٌ له غِطَاءٌ يُرْفَع. فكان على مارتِي بَعْدُ أن تُعِدَّ البَطَانِيَّةَ والمِخْدَةَ للمَهْدِ، والسَّائِرَ لهذه العُرفَةِ. أمَّا كلارك فكان يشغَلُ بِموقدٍ للمطبخ.

وقد قال مُسَوِّغًا: ”لن يكون أشبه بمطبخٍ بلا موقد“.

سُرَّتِ مارتِي بِمَجْهُودِهِمَا، وابتَهجتُ بأنَّ البيتَ اللَّعْبَةَ سَيُكْمَلُ بِسَهولَةٍ في الوقتِ المُناسبِ لِأجلِ عيدِ المِيلادِ الذي يَخُصُّ مِسي.

كان كلارك قد قام بِبضعِ سَفَرَاتٍ إِضافِيَّةٍ إلى المَدِينَةِ، مُعَرِّجًا أَوَّلَ مَرَّةٍ كي يدعُو آلَ غِراهامِ إلى وليمَةِ المِيلادِ. بدا أَنَّهُ يحسَبُ تلكَ السَّفَرَاتِ مُهمَّةً، ولكنْ بِقَدْرِ ما استطاعتِ مارتِي أن تَرى لِمَ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيءٌ يُبَيِّنُهُ بِشأنِهنَّ لَدَى رُجوعِهِ. فَهَزَّتْ كَتِفَيْهَا لِامُبَالَاةِ بِذلكِ.

أخِرَ مَرَّةً، عادَ بِبعضِ التَّوَابِلِ الخاصَّةِ لمخبوزاتها، وبأشياءٍ صغيرةٍ لِمِسي.

وَإِذْ ناولَ مارتِي تلكَ الأشياءَ لِتَهْتَمَّ بِها، قال: ”ستكونُ بِحاجةٍ إلى شَيءٍ ما داخِلَ جِوَرِها المِيلادِي“.

راجعت مارتى ذلك كله في تفكيرها وهي تبسط قطع الكعك
المحلى حتى تبرد.

هل يتوقع كلارك هدية منها؟ افترضت أنه لا يتوقع ذلك. سيكون
حسنًا أن تقدم إليه شيئًا صغيرًا ما، ولكن لم يكن في حوزتها أي مال
للشراء، ولا سبيل للذهاب إلى أي مكان لتشتري شيئًا ما. ثم ماذا
يسع المرأة أن تخطط لرجل؟

وبينما هي تشتغل، تذكرت قطعة الجوخ الناعمة الزرقاء الضاربة إلى
الرمادي، تلك التي ما زالت ملقاة في سلّة خياطتها. فبعد أن تفرغ من
صنع الكعك المحلى، ستلقي عليها نظرة وترى إن كان ممكنًا أن
تصنع وشاح رجل من تلك القماشة.

لما تفحصت القماشة لاحقًا، حكمت بأن ذلك ممكن فعلاً. وإذا
علمت أن كلارك لن يعود من قطع الأشجار قبل وقت المهام، باشرت
العمل. فأكملت الدرز، وإذا وجدت أنه لا بُدّ من إجراء شيء من
الإصلاح دسّت القماشة بعيدًا. غداً، عندما يكون كلارك غائبًا،
ستطرز يدويًا أول حرفين من اسمه واسم عائلته.

سيحل عيد الميلاد عاجلاً. ومن ثمّ تساءلت هل يكون اليوم نفسه
مُشوّقًا بمقدار نصف ما كانت التحضيرات لأجله.

بقي الآن ثلاثة أيام فقط. كانا قد أنجزا هديتهما لمسي في الليلة
السابقة، وهنأ أحدهما الآخر على الحصيلة. والآن فرغوا من الفطور،

وقد ذهبَ كلارك لقطع الحطب. سبقَ أن طلبتَ إليه أن يُبقيَ عيناً على أغصان الصنوبر الجيدة التي تحملُ أكواذاً حتى تصفرَ بضعةً أكاليل، فقال إنه سيرى ما يمكن أن يفعله.

سيشتغلُ كلارك صباحاً في التلال، وبعدَ الظهرِ سيدبَحُ الديكَ الرُوميَّ الذي لم يكن يُعطى فطوره حاليًا. فعجَّلتَ مارتي في مهامِّها. ثمَّ أحضرتَ الوشاحَ الذي تصنعه لكلارك. وباعتناءٍ طرَّزتَ عليه حرفين كبيرين، ك د، ثمَّ دسَّته في جارورها قبلما وصلَ كلارك لأجلِ الغداء.

الآن بقيَ يومانٍ فقط حتى عيد الميلاد، ولكن اليومَ كان يومُ الربِّ، وأيُّ تحضيراتٍ إضافيةٍ وجبَ أن تنتظر. فسلمتَ مارتي لنفسها بأنَّ يومَ راحةٍ ربَّما كان فكرةً حسنة. ولمَّا غطَّيتَ مسي في مَهديها، تمدَّدتَ مارتي على سريها وجذبتَ فوقها بطانيةً مدفئةً. أحسَّت أنها مُرهقة، مُرهقةٌ حقًّا، وقد جعلَ ثقلُ الطفل الذي تحمله كلَّ مُهمَّةٍ قامت بها ذاتَ صُعبيةٍ مُضاعفة. فأغمضتَ عينيها واستسلمتَ لنومٍ سارٍّ جدًّا.



اليومَ الأوَّل... غدًا عيدُ الميلاد. وقد ذُبِحَ الديكُ الرُوميُّ ونُتِفَ ونُظِّفَ، وعُلِّقَ كي يبرُدَ تحضيرًا للحشو. كانت مارتي قد ضفرتَ أكاليلها، مسرورةً بالأغصان التي انتقاها كلارك، وربطتها بخيطان المصيص المُدخَّرة. وقد علَّقتَ واحدًا على كلِّ نافذةٍ وواحدًا على الباب. وكانت شجرةٌ صغيرة قد جاءت من التلال مع آخرِ حملِ حطبٍ ووُضعتَ خارجًا بانتظارِ الوقت الذي فيه تُغطَّى مسي في السريرِ لتنامَ ليلاً،

وعندئذٍ تُنصَبُ في زاويةٍ من عُرفة الجلوس. كذلك كانتِ الذرةُ قد سُكَّتْ في أسلاك، وصنعتِ مارتِي سلاسلَ من قُصاصاتِ ورقِ مُلَوَّنٍ سبقَ أن وفَّرَها بحرص. حتَّى إنَّها صنعتِ بعضَ السَّلاسلِ أيضًا من ورقِ الرِّزْمِ البُنِّيِّ المُستعملِ في المتاجر، والذي جاء من المدينة.

كان الوشاح المُنجَزَ موضوعًا في الجارور. ولكنَّ لَمَّا نظرتِ مارتِي إليه، استولى عليها شعورٌ بالانزعاج. فبطريقةٍ ما، لم يبدُ الشَّيءُ الذي يُقدِّمُ إلى رجلٍ مثلِ كلارك. وتساءلت هل تكون لَدَيْها حقًا الشَّجاعةُ للمُضِيِّ قُدَمًا بذلك.

ثمَّ وضعتِ المسألةَ على الرَّفِّ عقليًّا، قائلة: ربَّما سأضطرُّ إلى تولِّي هذا الأمرَ عندما يحينُ الوقت، شاغلةً فكري فقط بما أفعله الآن.

وما كانت "تفعله الآن" كان تفسيرَ كمِّيَّاتٍ كبيرةٍ من الجرزِ واللِّفتِ والبَطاطا لأجلِ وليمةِ الميلاد. وسيكونُ هناك كُرنبٌ يُقطعُ مُكعَّباتٍ صغيرةً أيضًا. وكانت عَجنةُ الخُبزِ تنتفخُ، وستصيرُ جاهزةً للخَبزِ عاجلاً. كما كانت الفاصوليا منقوعةً، وستنكَّهُ لاحقًا مع قديدِ الفخذ. وكانت الخُضِرُ والمُخلَّلاتِ المعلَّبةِ مصفوفةً على الأرضِ قُربَ الخزانة، بانتظارِ أن تُفتَحَ، والجوزُ البرِّيُّ قد وُضِعَ في سلةٍ بقُربِ الموقدِ كي يُحمَّصَ فوق النَّارِ المكشوفة.

شطَّبتِ مارتِي لائحتها ذهنيًّا. وقد بدتِ الأمورُ جاريةً حسبَ المُقرَّرِ. ونظرتِ حوَالَيْها إلى وَفرةِ الطَّعامِ. لقد بشرَ يومُ غدٍ بأن يكونَ يومًا جيِّدًا، والليِّلةُ سيستمتعانِ بتزيينِ الشَّجرةِ لأجلِ مِسي وتعليقِ جَوَرَبِ هداياها.

حلَّ عيدُ الميلاد! فتحتِ مارتِي عينيها أبكرَ من المعتاد، وقد بدأ رأسُها يُدوِّمُ أصلاً. يجبُ عليها أن تُحضِرَ حشوةَ الدِّيكِ الرُّوميِّ، وتضعَ الخُضَرَ على النَّارِ لتطبخَها في أكبرِ قُدورها، وتأتي بمخبوزاتٍ كثيرةٍ من السَّقيفة، حيثُ كانَ لا بُدَّ أن تتجمَّدَ في هذا الجوّ. وإذ ارتدَّت ثيابها بسرِّعة، تسارعَ فِكْرُها.

أحسَّتِ العُرفةَ بارِدةً جدًّا بحيثُ سرَّها أن تدخلَ المطبخَ الدَّافئ. فانحنت بِصمتٍ فوقِ مِسي لتتحقِّقَ أنَّها مُغطَّاةٌ جيِّداً، ثمَّ خرجت من العُرفة بهدوءٍ على رُؤوسِ أصابعِ قَدَميها.

كانت عُرفةُ الجلوسِ بارِدةً أيضاً، فأسرَّعت إلى داخلِ المطبخ. لم يكنِ أيُّ مصباحٍ مُضاءً هناك، فأدرَكتُ أنَّ كلارك لم يكنِ قد نهض. وارتجفتُ برداً إذ عَجَلت لِتُضيءَ المِصباح، ثمَّ انتقلت لِإشعالِ النَّار. وقد كانَ البردُ شديداً جدًّا حتَّى أحسَّت خدرًا في يديها أصلاً. وكان في وُسعها أن تسمعَ الرِّيحَ مُنتحِبةً حولَ الكوخ، فيما تملَّقت اللَّهيبَ حتَّى يُضرمَ. لا بُدَّ أن يمرَّ بعضُ الوقت قبل أن تُغادرَ البُرودةُ جوَّ المطبخ، وهكذا انتقلت إلى عُرفةِ الجلوسِ لِتوقِدَ النَّارَ هناك؛ إذ وجبَ أن ينتشرَ الدَّفءُ في العُرفة قبلَ نهوضِ مِسي.

لَمَّا اشتعلتِ كلتا النَّارَينِ، نظرتِ مارتِي إلى السَّاعة، فإذا هي السَّادسةُ إلَّا ثلثًا. لا عَجَبَ أنَّ كلارك لم يستيقظ بعد. فهو عادةً ينهَضُ نحوَ السَّادسةِ والنِّصفِ في أشهرِ الشِّتاء. إنَّها بحاجةٌ إلى كلِّ

دقيقة يُمكنها الحصولُ عليها. فعندَها كثيرٌ جدًّا تقومُ به.

التفتت إلى النَّافذة المغطَّاة بالصَّقيع، وكشَّطت بأصابعها فُسحةً صغيرةً لتَنظُرَ خارجًا إلى يومِ الميلاد. فإذا برَّيحٍ عاتية تُدوِّمُ الثلجَ المُتساقطَ بكثافة، مُكدِّسةً كَوْمًا ذاتَ أبعادٍ ضخمةٍ في ما يبدو. حتَّى إنَّها لم تستطع أن ترى البئرَ بسبب كثافةِ الثلجِ.

لم تكنَ مارتِي بحاجةٍ لأنْ يُقالَ لها إنَّها تشهدُ عاصفةً ثلجيةً، عيفةً رهيبةً، تهبُّ على المَروج. وبدأ الألمُ المُصاحبُ لذلك كَلَّه يُحرقُ داخلَها. أرادتُ أن تصرخَ عاليًا بوجهِ العاصفة، أن تطرُدَها شاتمةً، أن تُلقِيَ نفسها على سريها في وابلٍ من الدَّموعِ. فارتختُ كتفَها وأحسَّت أنَّها مُرهقةٌ ومغلوبَةٌ. ولكنَّ أيَّ نفعٍ يُجديها أن تردَّ بهُجومٍ شديدٍ؟ ستظلُّ العاصفةُ نائرةً! وما كانَ أيُّ عاقلٍ ليَتحدَّها من أجلِ وليمةٍ ميلاديَّةٍ فحَسب. لقد هُزِمَت، وشعرتُ بأنَّها مَيِّتةٌ مرَّةً أُخرى. ثمَّ استولى عليها فجأةً غضبٌ جديد. لماذا؟ لماذا ينبغي أن تفوزَ العاصفةُ؟

وإذ حدَّقت خارجًا عبرَ النَّافذة، استشاطتُ غضبًا وقالت بصوتٍ عالٍ: "استمرِّي. استمرِّي وولولي. عندنا الديكُ الرُّوميُّ باتَ جاهزًا ليُوضَعَ في الفُرن. عندنا كثيرٌ جدًّا من الطَّعام. عندنا شجرتنا. عندنا مِسي. إننا... إننا سنحتفلُ بالميلادِ رُغمَ كلِّ شيءٍ!"

مسحتُ دموعَ الغضبِ بطرفِ مِثْرَها، وقومتُ كتيفيها، ودارتُ لِتزوِّدَ

النَّارَ بِمَزِيدٍ مِنَ الْحَطَبِ. ثُمَّ لَاحَظَتْ كَلَارِكُ جَالِسًا هُنَاكَ، يُرَاقِبُهَا وَحِذَاؤُهُ فِي يَدِهِ.

نَظَّفَ حَنْجَرَتَهُ مُتَّحِنِحًا، فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ بِثَبَاتٍ. لَقَدْ اشْتَغَلَتْ بِكَدِّ شَدِيدٍ لِأَجْلِ هَذَا الْيَوْمِ، وَالْآنَ مُنِعَتْ قَسْرًا مِنَ الْإِحْتِفَالِ بِهِ. وَتَمَّتْ أَلَّا يُحَاوِلَ كَلَارِكُ قَوْلَ أَيِّ شَيْءٍ يُيَدِي عَطْفًا، وَإِلَّا أَنْهَارَتْ عَزِيمَتُهَا. فَانْتَقَلَتْ بِسُرْعَةٍ لِتَقِفَ قُدَّامَهُ وَهُوَ قَاعِدٌ يَشُدُّ سُيُورَ حِذَائِهِ، وَبَابِتْسَامَةٍ لَوَّحَتْ بِيَدِهَا نَحْوَ الْخِزَانَةِ الْمُحَمَّلَةِ. ”عَجَبًا! مَاذَا سَنَفْعَلُ، يَا تُرَى، بِهَذَا الطَّعَامِ كُلُّهُ؟ سَيَكُونُ عَلَيْنَا أَنْ نُمْضِيَ النَّهَارَ كُلَّهُ فِي أَكْلِهِ!“

ثُمَّ انْتَقَلَتْ رَاجِعَةً إِلَى الْخِزَانَةِ، وَبَاشَرَتْ الْعَمَلَ فِي تَحْضِيرِ الدِّيكِ الرَّومِيِّ لِلشَّيِّ.

”أَرْجُو أَلَّا يَكُونَ آلُ غِرَاهَامِ قَدْ فَوْجئُوا وَهُمْ مُقْصِرُونَ فِي تَحْضِيرَاتِ الْمِيلَادِ. إِنَّا جَالِسُونَ هُنَا، نَحْنُ الثَّلَاثَةُ فَحَسْبُ، وَعِنْدَنَا هَذَا الطَّعَامُ كُلُّهُ، وَهُمْ جَالِسُونَ هُنَاكَ بَعْدَهُمُ الْكَبِيرِ...“. ثُمَّ تَلَعَّثَتْ فَتَوَقَّفَتْ، وَنَظَرَتْ صَوْبَ كَلَارِكِ، حَيْثُ كَانَ جَالِسًا فَاعْرَ الْفَمِ وَفَرْدَةٌ حِذَائِهِ تَتَدَلَّى مِنْ يَدِهِ.

فَهَزَّ رَأْسَهُ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ: ”مَا غِرَاهَامُ أَذْكَى مِنْ أَنْ تَوْخَذَ عَلَيَّ حِينَ غِرَّةٍ. إِنَّهَا تَعْرِفُ السَّبِيلَ الْخَبِيثَ لِهَذَا الرَّيْفِ. لَا أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ مُحْتَاجِينَ بَتَاتًا“.

شَعَرَتْ مَارْتِي بِالْفَرَجِ حِيَالَ هَذَا الْخَبَرِ، وَقَالَتْ: ”أَنَا مَسْرُورَةٌ حَقًّا“

بَسْمَاعِ هَذَا. لَقَدْ جَعَلْتَنِي الْعَاصِفَةَ أَقْلَقَ“.

وَأَكْمَلْتَ حَشَوَ الدِّيَكِ الرُّومِيِّ، ثُمَّ فَتَحْتَ بَابَ الْفُرْنِ.

فَقَالَ كَلَارِكُ: ”الْأَفْضَلُ أَنْ تَدْعِينِي أَحْمِلُ هَذَا الطَّيْرَ. إِنَّهُ ثَقِيلٌ فِعْلًا“. ثُمَّ عَجَّلَ لِيَضَعَهُ فِي الْفُرْنِ.

لَمْ تَعْتَرِضْ مَارْتِي. وَإِذْ كَانَ الدِّيَكُ يُشَوِي بِأَمَانٍ وَالْمَوْقِدُ يُدْفِئُ الْمَطْبَخَ بِالتَّدْرِيجِ، وَضَعْتَ رَكْوَةَ الْقَهْوَةِ عَلَى النَّارِ، ثُمَّ قَعَدْتَ عَلَى كُرْسِيِّ.

أَقْرَتَ عَلَى مَهْلٍ: ”يَبْدُو أَنَّ الْعَاصِفَةَ فَازَتْ. وَلَكِنْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَفُوزَ إِلَّا إِذَا سَمَحْتَ لَهَا، أَيُمْكِنُهَا ذَلِكَ؟“

لَمْ يَقُلْ كَلَارِكُ أَيَّ شَيْءٍ. وَلَكِنْ لَمَّا نَظَرْتَ مَارْتِي إِلَيْهِ، قَالَتْ لَهَا عَيْنَاهُ إِنَّهُ فَهَمَ خَيْبَةَ أَمَلِهَا... وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ: انْتِصَارَ الْعَاصِفَةَ عَلَيْهَا. فَمَدَّ يَدَهُ وَمَسَّ يَدَهَا. وَلَمَّا تَكَلَّمَ، كَانَ صَوْتُهُ عَذْبًا: ”أَنَا فَخُورٌ بِكَ حَقًّا، يَا مَارْتِي“.

لَمْ يَكُنْ قَطُّ قَدْ لَمَسَهَا قَبْلًا، إِلَّا لِمُسَاعَدَتِهَا عَلَى الصُّعُودِ إِلَى الْعَرَبَةِ وَالتُّزُولِ مِنْهَا. فَإِذَا بِشَيْءٍ مَا فِي لَمَسَتِهِ بَيْتٌ شُعُورًا بِالْدَّفءِ فِي أَوْصَالِهَا. لَعَلَّهُ كَانَ عَلِمَهَا بِأَنَّهُ فَهَمَهَا. فَتَمَنَّتْ إِلَّا يَكُونُ قَدْ لَاحَظَ اسْتِجَابَتَهَا حِيَالَ لَمَسَتِهِ، وَقَالَتْ بِسُرْعَةٍ: ”سُنْضَطَّرُ إِلَى طَهْوِ الدِّيَكِ الرُّومِيِّ بِكَامِلِهِ، وَلَكِنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُجَلِّدَ مَا لَا نَقْدِرُ أَنْ نَأْكُلَهُ. سَأُضَعُ الْخُضَرَ فِي قُدُورٍ أَصْغَرَ، وَنَطْبُخُ مَا سَنَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَقَط. أَمَّا الْبَاقِي

فَسِيحْفُظُ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ فِي حُفْرَةِ التَّبْرِيدِ. وَأَمَّا الْمَخْبُوزَاتُ-“ إِذْ ذَاكَ تَوَقَّفْتُ وَلَوَّحْتُ بِإِحْدَى يَدَيْهَا نَحْوَ جَمِيعِ الْأَطْيَابِ الْمَكْدَّسَةِ حَوْلَيْهَا وَضَحِكْتُ- ”فَسَوْفَ نُوَاصِلُ أَكْلَهَا كُلَّهَا حَتَّى الرَّبِيعِ إِنْ لَمْ نَحْصُلْ عَلَى مُسَاعَدَةٍ مَا“.

فَقَالَ كَلَارِكُ: ”ذَلِكَ أَمْرٌ لَنْ أَكُونَ مُتَذَمَّرًا بِشَأْنِهِ. كُنْتُ هُنَا قَلِقًا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ صِغَارُ آلِ غِرَاهَامِ أَوْلَئِكَ كُلُّهُمْ، بِشَهِيَّاتِهِمُ الْهَائِلَةِ، وَلَا يُقَوِّلُوا لِي أَيَّ شَيْءٍ. وَالآنَ هَآنَذَا أَنْعَمُ بِهَذِهِ الْبَرَكَاتِ كُلِّهَا!“

وَقَالَتْ مَارْتِي، بِفَزَعٍ مُصْطَنَعٍ: ”كَلَارِكُ، هَلْ صَلَّيْتُ كَيْ تَأْتِيَ هَذِهِ الْعَاصِفَةُ؟“

لَمْ تَكُنْ مَارْتِي قَطُّ قَدْ سَمِعَتْهُ يَضْحَكُ بِهَذِهِ الشَّدَّةِ مِنْ قَبْلُ، فَشَارَكَتُهُ فِي الضَّحِكِ. حَيْنَئِذٍ كَانَتِ الْقَهْوَةُ تَغْلِي، فَصَبَّتْ فَنَجَانِينَ فِيمَا ذَهَبَ هُوَ لِإِحْضَارِ الْقَشْدَةِ. كَانِ الْمَطْبِخُ أَكْثَرَ دَفْنًا الْآنَ، وَبَدَّدَتْ الْقَهْوَةُ السَّاخِنَةَ فُلُولَ قَشْعِرِيرَتِهَا.

وَإِذْ نَهَضَتْ بِالسَّرْعَةِ الَّتِي يَسْمَحُ بِهَا حِمْلُهَا الْإِضَافِيُّ، قَالَتْ: ”لَنَا أَيْضًا أَنْ نَتَنَاوَلَ شَيْئًا مِنَ الْمَخْبُوزَاتِ يُنَاسِبُ الْقَهْوَةَ. فَلَا بُدَّ أَنْ نُبَاشِرَ أَكْلَهَا يَوْمًا مَا. فِيمَ تَرْغَبُ؟“

فَاخْتَارَ كَلَارِكُ ثُرْتَةً مُنْكَهَةً، وَتَنَاوَلَتْ مَارْتِي كُعَيْكَةً غُرْبِيَّةً بَسِيطَةً. تَحَدَّثَا بِشَأْنِ الْيَوْمِ الْمُنتَظَرِ وَهُمَا يِرْتَشِفَانِ الْقَهْوَةَ مَعًا. لَنْ يَذْهَبَ كَلَارِكُ إِلَى مَهَامِّهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَسْتَيْقِظَ مَسِي. وَبَتَلِكِ الطَّرِيقَةَ لَا يَفُوتُهُ

ابتهاجها الغامر. ثم يتناولون فطورًا متأخرًا، ووليمتهم الميلاديّة عند العصر. أمّا وجبة المساء، كما قال كلارك، فستكون "الفتات". ومن شأن ذلك أن يُنقذَ مارتي من الوجودِ قُربَ الموقدِ طولَ النهار. وقد بدت تلك لها أشبهَ بخُطّةٍ معقولةٍ، فأبدت موافقتها بإيماءةٍ من رأسها.

قال كلارك: "كنّا نلعبُ لعبةً لَمّا كنْتُ ولدًا صغيرًا. ما لعبتُ لعبةً منذُ سنين، ولكن قد تكونُ مُسليّة. كانت تُرسمُ على وَرقةٍ أو لوح، وكنّا نستعمل ملاقطَ أو أزرارًا. فبينما تشتغلين، سأصنعُ لنا واحدة".

مضت السّاعةُ تُتكتِكُ، ولم يكفِ الثّلاجُ ولا خفت سرعةُ الرّيح، إلّا أنّ ذلك لم يعدَ يهَمُّ الآن. فقد قُبِلَ الأمرُ بوصفه حقيقةً من حياة المروج، واتّخذت الاحتياطاتُ المُناسبة.

لَمّا نادى مِسي من مَهديها، ذهبَ كلارك لإحضارها. أمّا مارتي فتمركزت بقُربِ نارِ غُرفةِ الجلوس، لِتُشاهدَ استجابةَ الفتاةِ الصّغيرة لتحضيراتِ عيدِ الميلاد. ولم يَخبِ أملُهما. إذ خرجت مِسي عن طَورها ابتهاجًا وتحمُّسًا. فاندفعت مُسرعةً إلى الشّجرة، وذهبت من الألعابِ الصّغيرة في جوربِ هداياها إلى البيتِ اللّعبة، ثمّ إلى الجورب فرجوعًا إلى البيتِ اللّعبة، هاتفةً مرارًا وتكرارًا بتعجُّبها من ذلك كلّه. أخيرًا وقفت وشبكتَ يديها الصّغيرتين معًا، وقالت: "أوه، إيد ميلاد حُلُو!"

فضحك كلارك ومارتي. وعادت مِسي إلى هداياها، إذ جثت أمامَ

الْبَيْتِ اللَّعْبَةِ، حَامِلَةً كُلَّ قِطْعَةٍ صَغِيرَةٍ بِحِرْصٍ وَهِيَ تُخْرِجُهَا ثُمَّ تُرْجِعُهَا إِلَى مَكَانِهَا.

أخيراً وقفَ كلارك على مَضْضٍ كِي يَذْهَبَ لِلْقِيَامِ بِالْمَهَامِّ. كَانَتِ الْعَاصِفَةُ مَا تَزَالُ ثَائِرَةً، فَارْتَدَى ثِيَابًا مُدْفَعَةً تَصَدِّيًا لَهَا. إِنَّ الْإِعْتِنَاءَ بِالْمَاشِيَةِ سَيَكُونُ صَعْبًا فِي يَوْمٍ كَهَذَا. وَقَدْ هَمَسَ لِمَارْتِي بِأَنَّهُ مَسْرُورٌ لِأَنَّ الْحَيَوَانَاتِ كَانَتْ مَحْمِيَّةً مِنَ الرِّيحِ.

شَعَرْتُ مَارْتِي بِشَيْءٍ مِنَ الْقَلْقِ إِذْ شَاهَدْتَهُ يَخْرُجُ. فَقَدْ كَانَ الثَّلْجُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ كَثِيفًا جَدًّا بِحَيْثُ يَحْبُبُ رُؤْيَةَ الْحَظِيرَةِ. وَسُرَّتْ مَارْتِي لِأَنَّ كُلَّارِكَ اصْطَحَبَ بَوْبَ الْعَجُوزِ، مَا دَامَ الْكَلْبُ قَادِرًا عَلَى إِدْرَاكِ الْإِتِّجَاهَاتِ إِذَا أُدْرِكَتِ الْعَاصِفَةُ كُلَّارِكَ. كَذَلِكَ تَرَكَ لَهَا بَعْضَ التَّعْلِيمَاتِ أَيْضًا. فَإِنَّ لَمْ يَرْجِعْ قَبْلَ السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ صَبَاحًا، كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تُطْلِقَ النَّارَ مِنَ الْبُنْدُقِيَّةِ فِي الْهَوَاءِ، وَتُكْرِّرَ ذَلِكَ - إِذَا دَعَتِ الضَّرُورَةُ - كُلَّ خَمْسِ دَقَائِقٍ. وَأَمَلْتُ مَارْتِي بِحِمَاسَةٍ شَدِيدَةٍ أَلَّا تَدْعُوَ الضَّرُورَةَ إِلَى ذَلِكَ.

إِنَّمَا أَرَاخَ مَارْتِي كَثِيرًا أَنَّ كُلَّارِكَ دَخَلَ الْبَيْتَ قَبْلَ الْمَوْعِدِ الْمَضْرُوبِ، مُصَابًا بِالْبَرْدِ مِنَ الرِّيحِ، لَكِنَّهُ أَخْبَرَ بَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ. وَضَعَتِ اللَّمَسَاتِ الْأَخِيرَةَ عَلَى الْفَطُورِ، وَجَلَسُوا كِي يَأْكُلُوا. لَمْ تَكَدْ مَسِي تَطْبِيقُ تَرَكَ لِعَبْهَا، وَمَا جَاءَتْ إِلَّا بِوَعُودٍ مُكْرَّرَةٍ أَنَّ فِي وَسْعِهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِنَّ بَعْدَ الطَّعَامِ.

حنوا رؤوسهم جميعاً، وصلى كلارك: ”أحياناً، يا رب، نتحير بشأن طرُقك. شكراً لك، يا رب، لأن العاصفة جاءت قبل انطلاق آل غراهام بوقتٍ طويل. ما كنا نودُّ لهم أن يعلقوا في عاصفة كهذه“.

لم تكن مارتى قد فكرت في ذلك، ولكنها وافقت كلياً.

”نشكرك أيضاً، أبانا، من أجل الذين يُشاركوننا في مائدتنا. بارك هذا اليوم، ذكرى ميلاد ابنك الحبيب. ولتكن ذكرى نحتفلُ بها بمشاعر دافئة حتى لو كان اليوم بارداً. شكراً لك، يا رب، من أجل هذا الطعام الذي وفرته لنا بجودك. آمين!“

فقالَت مِسي: ”آمين!“ ثم رفعت عينيها نحو أبيها، وأشارت بيدها: ”البيت... شكراً... بيت“.

بدا كلارك مُتحيّراً. وشعرت مارتى أيضاً بالذهول، إلا أنها حاولت أن تفهم ما قصدته الطفلة.

أخيراً تجرأت مارتى فقالت: ”أعتقد أنها تريدُ منها أن تشكر الله على بيتها اللُّعبة“.

”أذلك صحيح؟ حسناً، مِسي، نُصلي أيضاً. وشكراً لك، يا رب، على بيت مِسي اللُّعبة. آمين“.

فسرَّت مِسي، وبعد قولها ”آمين“ ثانية، باشرت تناولَ فطورها بسرعة بين نظراتٍ سريعة ترمقُ بها البيت اللُّعبة المحبوب.

حمصاً جَوْزاً على النار المكشوفة، ولعباً باللُّعبة التي صنعها كلارك

ففاضت مارتى بإصرارٍ مُخيفٍ، وراقبت مسى فى لِعَبها. ولَمَّا غُطِّتِ
الطُّفلةُ لاحقًا لِتَنامَ نومَةً قصيرةً، وفى يديها كُرسيٌّ دُمِيَّةٌ صَغِيرٌ جدًّا،
اشتغلت مارتى بالتَّحضيراتِ الأخيرةِ لِوَلِيمةِ العيدِ. فبعد أن تستيقظ
الطُّفلةُ، يتناولون وجبةَ الميلادِ. وقد أرادت مارتى أن يكون كلُّ شيءٍ
مُتقنًا. فمن تلكِ الأيامِ الباكِرةِ التى أكلوا فيها فطائرَ البانكيك فقط إلى
مائدةٍ سَخِيَّةٍ بَسِطَ عليها كلُّ نوعٍ من الأطايِبِ، كان قد مرَّ شهرانِ
ونيف فقط. وكانت مارتى مسرورةً بنفسها إلى حدِّ ما.

وبعدما أكلوا فوقَ الشُّبَعِ من الوليمةِ الفاخرةِ، اقترحَ كلاركُ أن يقرأوا
قِصَّةَ الميلادِ فى غُرْفَةِ الجِلسِ ريثما يستقرُّ طعامُهم.

قال كلاركُ مُعلِّقًا: ”بَيِّنَتِ أخيرًا أَنَّكَ طَبَّاحَةٌ ماهرةٌ فِعْلاً!“ وكان فى
وُسْعِ مارتى أن تُحسَّ وجهها مُتورِّدًا إزاءَ إطرَائِها. ثمَّ أضاف: ”أعتقدُ أنَّ
ما غراهام ستكونُ أكثرَ منى تأثُّرًا. فما علينا إلَّا أن نُخطِّطَ لنا جَمعةً
أخرى لِيُتاحَ لها أن تكتشفَ مهارتكِ بنفسها“.

انتقلوا إلى غُرْفَةِ الجِلسِ، فأجلسَ كلاركُ مسى على رُكبته وفتحَ
الكتابَ المقدَّسَ. وقرأَ أوَّلًا عن ظهورِ الملاكِ للعدراءِ مريمَ، قائلاً لها
إنَّها اختيرت لتكونَ أمًّا للمسيحِ الطُّفلِ. ثمَّ تقدَّمَ ليقراَ عن سَفَرِ يوسفَ
ومريمَ إلى بيتِ لحمَ، حيثُ لم يكنْ لهما مكانٌ فى الخانِ (المنزلِ)،
وهكذا وُلِدَ الطُّفلُ يسوعُ فى الإسطبلِ ووُضِعَ فى مِدوِدِ عَلفٍ للبهائمِ.
وقد سَمِعَ الرُّعاةُ البِشارةَ من الملائكةِ وهُرِعوا لِيَرَوْا المَلِكَ الذى وُلِدَ

للتَّو. وبعدَ مُدَّةٍ من الزَّمان وصلَ المَجوسُ مُهتَدِينَ بالنَّجمِ حاملين هداياهم إلى الصَّبيِّ، ثُمَّ رَجَعوا إلى بلادهم على طريقِ آخرٍ لِحِمايةِ الصَّبيِّ.

فَكَرَّتْ مارتي أَنَّها ما سَمِعَتْ قَطُّ أيَّ شيءٍ جميلٍ جدًّا كهذا. لم تستطِعْ قَطُّ أن تتذكَّرَ هل عَرَفَتْ قَبْلًا القِصَّةَ الكاملةَ كما جاءت في الأسفار المقدَّسة: أَنَّ طِفْلاً صَغِيرًا وُلِدَ في إسْطِبلٍ كان ابنَ الله. ووضَعَتْ يَدَها فوقَ صَغِيرِها.

ثُمَّ فَكَّرَتْ: لن يَهْمَنِي أن يولَدَ ابني في حَظيرة. ولا أَظُنُّ أيضًا أَنَّ الله كان راغِبًا في حصولِ الأمرِ على هذا النِّحو، إلا أنَّ أحَدًا لم يَكُنْ لَدَيْهِ مكانٌ لِطِفْلِ صَغِيرٍ جدًّا. رُغِمَ ذلك، فقد حَرَسَهُ اللهُ وحماه، مُرْسِلًا مَلَائِكَةً لِتبشِيرِ الرُّعاةِ مع كلِّ ما رافقَ ذلك. ثُمَّ أتى في ما بعدَ بالمَجوسِ أيضًا حاملينَ هداياهم الثَّمينة. نعم، لقد كان اللهُ مُهْتَمًّا بأمرِ ابنه.

أَسْرَتِ القِصَّةُ مُحَيَّلَةَ مارتي إذ كانت تنتظرُ ولادةَ طفلِها الأوَّل، وفَكَرَّتْ فيها وهي تغسِلُ الصُّحون. وما إنَّ أَنهَتْ عملَها في المَطْبَخ، حتَّى رَجَعَتْ إلى غُرْفَةِ الجِلس. كان كلارك قد خرجَ لِلقيامِ بمهامِّ المساءِ قَبْلَ اشتِدادِ الظَّلام. وكان صعبًا إلى حدِّ بعيدٍ أن يَرى المرءُ طريقه في ضِوءِ النَّهارِ أثناءَ عاصفةٍ كهذه.

قَعَدَتْ مارتي والتقطتِ الكتابَ المقدَّس. تمنَّت لو تعرفُ أينَ تجدُ قِصَّةَ ميلادِ المسيحِ حتَّى تقرأها ثانيةً. ولكنَّ لَمَّا قَلَبَتِ الصفحات، لم تستطِعْ أن تجدَ الموضعَ الذي قرأه كلارك. غيرَ أَنَّها وجدَتِ المزاميرَ

فِعْلًا، فَقَرَأَتْ مَزْمُورًا بَعْدَ آخِرِ وَهِيَ جَالِسَةٌ بَقُرْبِ النَّارِ الْمُدْفِئَةِ. وَبَطْرِيقَةٍ
مَا، كَانَتْ الْمَزَامِيرُ مُعْزِيَّةً، حَتَّى حِينَ لَا يَفْهَمُ الْمَرْءُ جَمِيعَ الْعِبَارَاتِ
وَالْأَفْكَارِ، كَمَا فَكَّرَتْ.

قَرَأَتْ حَتَّى سَمِعَتْ كَلَارِكَ دَاخِلًا السَّقِيفَةَ، وَعِنْدئذٍ وَضَعَتْ الْكِتَابَ
جَانِبًا. فَالْأَحْسَنُ لَهَا أَنْ تَضَعَ الْقَهْوَةَ عَلَى النَّارِ.

فِي وَقْتٍ لَاحِقٍ مِنْ ذَلِكَ الْمَسَاءِ، بَعْدَمَا وَضَعَتْ مِسي فِي السَّرِيرِ،
اسْتَجَمَعَتْ مَارْتِي شَجَاعَتَهَا لِتَطْلُبَ إِلَى كَلَارِكِ أَنْ يَقْرَأَ "الْقِصَّةَ" ثَانِيَةً،
إِنْ كَانَ لَا يُمَانِعُ. وَبَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ، جَلَسَتْ تُحَاوِلُ أَنْ تَسْتَوْعِبَهَا كُلَّهَا.
لَقَدْ أُتِيحَ لَهَا هَذِهِ الْمَرَّةَ أَنْ تَعْرِفَ قَلِيلًا عَنْهَا بَعْدُ، وَهَكَذَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ
تُتَابِعَهَا بِمَزِيدٍ مِنَ التَّرْقُبِ، مُلْتَقِطَةً أَشْيَاءَ فَاتَتْهَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى.
وَتَسَاءَلَتْ بِصُورَةٍ عَابِرَةٍ هَلْ سَمِعَ كَلِيمٌ هَذِهِ الْقِصَّةَ كُلَّهَا يَوْمًا مَا. فَمَا
كَانَ أَجْمَلَهَا مِنْ قِصَّةٍ!

بَكَى قَلْبُهَا. آهَ كَلِيمِ! يَا لَيْتَنِي شَارَكْتُكَ فِي عِيدِ مِيلَادِ كَهَذَا. وَلَكِنَّ ذَلِكَ مَا
كَانَ مُمْكِنًا أَنْ يَكُونَ. فَشَهَقَتْ نَفْسًا عَمِيقًا، وَرَكَزَتْ عَلَى الْقِصَّةِ مِنَ
الْكِتَابِ.

بَعْدَ الْقِرَاءَةِ، جَلَسَتْ مَارْتِي صَامِتَةً، فِيمَا صِنَّارَتَا حَبَكِبَهَا فَقَطْ
تُطَقِّطِقَانِ؛ لِأَنَّهَا مَا كَانَتْ تَسْتَمْتَعُ بِالْكَسَلِ، حَتَّى فِي عِيدِ الْمِيلَادِ.
وَضَعَ كَلَارِكُ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ فِي مَكَانِهِ وَخَرَجَ إِلَى السَّقِيفَةِ ذَاتِ
الْسَطْحِ الْمُنْحَدِرِ. ثُمَّ رَجَعَ حَامِلًا رِزْمَةً صَغِيرَةً.

وَإِذَا بَدَأَ مُسْتَحْيَاً وَمُتْرَقِبًا مَعًا فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ، قَالَ: "لَيْسَ هَذَا
بِكَثِيرٍ. إِنَّمَا هُوَ لِأَقْوَلِ لَكَ شُكْرًا عَلَى اهْتِمَامِكَ بِمِسْيِ وَعَلَى كُلِّ
شَيْءٍ".

أَخَذَتْ مَارْتِي الرِّزْمَةَ مِنْهُ شَاعِرَةً بِشَيْءٍ مِنَ الْارْتِبَاكِ. وَبِأَصَابِعِ
مُتَلَمِّسَةٍ، نَزَعَتْ الْغِلَافَ لِيُظْهَرَ طَقْمَ مِزِينَةٍ جَمِيلٍ، مَعَ مُشْطٍ مِنْ عَاجٍ
وَفُرْشَاةٍ وَمِرَاةٍ يَدَوِيَّةٍ. وَقَدْ زَيَّنَتْ قَفَا الْأَخِيرَتَيْنِ زُهُورًا مَرْسُومَةً بِالْيَدِ بِالْوَانِ
رَقِيقَةً، ذَهَبِيَّةً وَبُنَيَّةً ضَارِبَةً إِلَى الْحُمْرَةِ، كَادَتْ تَخْطِفُ أَنْفَاسَ مَارْتِي.

قَلَبَتْ الْمِرَاةَ فِي يَدِهَا، فَلَا حِظَّ أَحْرَفًا عَلَى الْمَسْكَةِ "م ل ك د".
وَاسْتَعْرَقَتْ دَقِيقَةً لِتُدْرِكَ أَنَّ تِلْكَ هِيَ الْأَحْرَفُ الْأُولَى فِي اسْمِهَا كَامِلًا:
مَارْتَا لَوْسِينِدَا كَلَارِدْجِ دِيْفِس. إِنَّهُ لَمْ يُعْطِهَا الطَّقْمَ فَقَطْ، بَلْ رَدَّ لَهَا
اسْمَهَا أَيْضًا. فَانْدَفَعَتْ دُمُوعٌ مِنْ تَحْتِ أَجْفَانِهَا وَانزَلَتْ عَلَى خَدَّيْهَا.
وَقَالَتْ هَمْسًا: "هَذَا جَمِيلٌ. إِنَّهُ جَمِيلٌ حَقًّا، وَأَنَا... أَنَا لَا أَدْرِي
كَيْفَ أَشْكُرُكَ".

بَدَأَ أَنَّ كَلَارِكَ فَهَمَّ مَا حَفَزَ دُمُوعَهَا، فَطَاطَأَ رَأْسَهُ بِبُطْءٍ.
ذَهَبَتْ مَارْتِي لِتَضَعَ طَقْمَ الْمِزِينَةِ عَلَى خِزَانَتِهَا ذَاتِ الْجَوَارِيرِ فِي
غُرْفَتِهَا. وَتَذَكَّرَتْ الْوِشَاحَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنَ الْجَارُورِ وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ. ثُمَّ
أَعْرَضَتْ. فَلَمْ يَكُنْ يَسْعُهَا ذَلِكَ حَقًّا. وَلَنْ يُجِدِيَ الْأَمْرُ نَفْعًا. فَأَقْحَمَتْهُ
دَاخِلَ الْجَارُورِ مُجَدِّدًا؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ جَيِّدًا كِفَايَةً، كَمَا حَكَمَتْ... لَمْ
يَكُنْ جَيِّدًا بِمَا يَكْفِي بَتَاتًا.

زيارة من ماغراهام

عند التفكير في ما جرى، صرّحت مارتني بأن عيد الميلاد ذاك كان جيّداً، رُغم اضطرارها إلى التعلّب على خيبة أملها الشديدة. فلو تشاركت فيه مع آل غراهام لكان مُمتعاً أكثر، ولكن كما استنتجت لم يكن ثمّة شيء كان يمكن أن يفعل بشأن ذلك. وبطريقة ما، أحسّت يقيناً بأن صلاة كلارك قد استُجيبَت، وأنهما في السنين المُقبلة سيتدكّران ما كان بمشاعرٍ راسحةٍ بالموّدة والعرفان.

بعد العاصفة، كَفَّتِ الرِّيحُ عن العويل، وبرزت الشمس. فتنقّلت المواشي في الخارج من جديد، وتجرّأ الدجاج على الخروج من الخُمِّ إلى الحظيرة المسيّجة لأجل شيءٍ من التّمرن. وركض بوب العجوز في دوائر، مسروراً بأن يُمدّد قوائمه. فحسدته مارتني إذ شاهدته. ما أحسن أن يشعر الشخصُ بأنه خفيفٌ وسهلُ الحركة!

وإذ نظرت إلى نفسها بانتباهٍ أوّل مرّة منذ أشهر، تفحصت ذراعيها ويديها، فأدركت أنّهنّ بتنّ أنحفَ ممّا كنّ. ثمّ شمّرت تُنورتها ونظرت إلى ساقَيْها. نعم، لقد خسرت بعضَ الوزن، إلا في الموضع الذي فيه

قد اكتسبته دون شكٍّ بحملها. فوَبَّخَتْ نفسها قائلةً إِنَّ عَلَيْهَا أَنْ تَأْكُلَ أَكْثَرَ قَلِيلًا. لقد كانت نحيفةً كفايةً في ما مضى. وبعدَ قُدومِ الطِّفْلِ، "ستطيرُ في مهبِّ الرِّيحِ إذا كانت غيرَ مربوطة على الأرض"، كما كان من عادةِ أبيها أن يقول. لقد كانت بكلِّ يقينٍ مربوطةً على الأرض، كما استنتجت. إذ بدا أنَّ الطِّفْلَ يغدو أثقلَ كلِّ يوم. وشعرت بأنَّها ضخمةٌ وخرقاء؛ شعورٌ لم تكن قد اعتادته. ثمَّ أدركت أنَّ ذلك كان مُتوقَّعًا؛ فشهرُ كانون الأوَّلِ/ديسمبر يكادُ ينتهي. حتَّى إذا فكرت في ذلك، بدا شهرُ كانونِ الثَّاني/يناير مُمتدًّا أمامها، مُتطاولًا جدًّا على نحوِ مؤسف. فتساءلت إنَّ كانت قادرةً على تحمُّله. سيكونُ عليها أن تتقبَّلَ كلَّ يومٍ منه يومه.

هلَّ شهرُ كانونِ الثَّاني/يناير بسماءٍ صافية دونِ هُبوبِ ريح. وهذا أمرٌ تعلَّمتِ مارتى أن تكونَ شكورًا من أجله؛ فهي تكرهُ الرِّيح، كما حكمت، إذ تبعثُ فيها قشعيراتٍ تنسابُ في أوصالها.

هذه كانتِ السَّنة الجديدة. فماذا تحمِلُ لها؟ طِفلاً جديدًا بالتأكيد. ثمَّ ضغطَ عليها قلقٌ واهٍ، وتوسَّلت إلى إلهِ كلارك راجيةً أن يجعلَ كلَّ شيءٍ على خيرٍ ما يُرام.

كانَ كلارك قد ذهبَ إلى المدينة أمسٍ ثمَّ عادَ إلى البيتِ وسيماءُه مكفهرَةً تقريبًا. وأوشكتِ مارتى أن تسأله عن معنى جميعِ سفراته، إلاَّ أنها كبحت لسانها.

وَإِذْ ذَهَبْتَ لِتَضَعَ الْفَطُورَ عَلَى الطَّائِلَةِ، قَالَتْ لِنَفْسِهَا: إِذَا كَانَ ذَلِكَ شَيْئًا يُعَوِّزُنِي أَنْ أَعْرِفَهُ، فَإِنَّهُ سَيَقُولُهُ لِي.

يَبْدُو أَنَّهُ فِي يَوْمٍ جَدِيدٍ مِنْ سَنَةٍ جَدِيدَةٍ يَنْبَغِي أَنْ يَحْصُلَ شَيْءٌ جَيِّدٌ مَا.

وَعِنْدَمَا تَطَلَّعْتَ خَارِجَ نَافِذَةِ الْمَطْبِخِ، أَحْسَسْتِ أَنَّ ذَلِكَ قَدْ حَصَلَ حَقًّا، إِذْ كَانَ هُنَاكَ ثَلَاثَةُ غَزَلَانٍ رَشِيقَةٍ وَمَتَوَتَّرَةٍ تَعْبُرُ الْمَرْعَى. فَهَرَعْتَ مَارْتِي رَاجِعَةً إِلَى غُرْفَةِ النَّوْمِ لِأَجْلِ مِسي.

وَأَيْقَظَتِ الْفَتَاةَ الصَّغِيرَةَ قَائِلَةً: ”مِسي، تَعَالَى انظُرِي“.

ثُمَّ أَسْرَعْتَ رَاجِعَةً إِلَى الْمَطْبِخِ، رَاجِعَةً أَلَّا تَكُونَ الْغَزَلَانُ قَدْ اخْتَفَتِ فِعْلًا. فَإِذَا بِهَا قَدْ تَوَقَّفَتْ وَأَخَذَتْ تَرعى فِي بُقْعَةٍ فِيهَا كَانَتْ الْأَحْصِنَةُ قَدْ نَكَشَتِ الثَّلَجَ عَنِ الْعُشْبِ بِحَوَافِرِهَا.

قَالَتْ مَارْتِي مُشِيرَةً بِيَدِهَا: ”انظُرِي، مِسي“.

وَعَبَّرَ صَوْتُ مِسي عَنِ ابْتِهَاجِهَا وَتَحَمُّسِهَا: ”أُوهِ! كِلَاب“.

فَقَهَقَتْ مَارْتِي قَائِلَةً: ”لَا، مِسي. هَذِهِ غَزَلَانُ“.

”غَزَلَانُ؟“

”صَحِيحٌ. أَلَيْسَتْ حُلُوءَةً، مِسي؟“

”حُلُوءَةٌ“.

وَفِيمَا هُمَا تُشَاهِدَانِ، دَخَلَ كِلَارِكُ آتِيًّا مِنَ الْحَظِيرَةِ وَبُوبَ الْعَجُوزَ يَقْفِزُ أَمَامَهُ، نَابِحًا عَلَى أَيِّ شَيْءٍ يَحْطَى بِإِعْجَابِهِ. وَمَا لَبِثَتِ الْغَزَلَانُ أَنْ تَنَبَّهَتْ، فَمَدَّتْ أَعْنَاقَهَا الطَّوِيلَةَ عَالِيًّا، وَشَدَّتْ قَوَائِمَهَا، ثُمَّ كَمَا لَوْ

كانت تُلبِّي إشارةً أعطيت لها وثبت ثلاثتها بخطي رشيقة وواسعة،
وتخطت بخفةٍ سباح المرعى راجعةً إلى داخل غاباتها الأصلية. كان
منظرًا أخاذًا، ولمَّا دخل كلارك كانت مارتي ومسي ما تزالان عند
النَّافذة مُحَدِّقَتَيْن وراء الغزلان.

صاحت مسي، مُشيرةً بيدها: ”بابا! غزلان... تَنْطُ“.

”إذا شاهدتُماها، أليس كذلك؟“

فقلت مارتي برهبة: ”أما كانت منظرًا عجبًا؟“

”هي جميلةٌ حقًّا، وإن كانت مصدرَ إزعاجٍ أيضًا. كنتُ ألاحظُ آثارَ
أقدامها مُقترِبةً أكثرَ فأكثر. لن أتعجَّب إذا وجدتها ذات صباحٍ في
الحظيرة مع بقراتِ الحليب“.

ابتسمت مارتي لهذه المُبالغة. وأخيرًا جرَّت نفسها بعيدًا عن النَّافذة
واشتغلت بالفطور.

ثمَّ في وقتٍ لاحقٍ من ذلك النَّهار، بعدَ غسلِ صُحونِ الغداء
ووضْعها في مكانها؛ وفيما كانت مارتي تضعُ غُرزاتٍ قليلةً على منامةٍ
للطفل الجديد، سمعت بوب العجوز يُباشِرُ النَّباح من جديدٍ فجأةً.
وحكمتُ أن شخصًا ما كان آتيًا، وأنَّه ليس بغريب. فعبرتُ إلى النَّافذة
ونظرتُ إلى الطريق.

وهتفت: ”عجبًا! إنَّهما ما وبَنِ غراهام!“

غمَرها الفرحُ إذ ألقت خياطتها جانبًا وركضت لِترحُّب بهما.

دَخَلَ كَلَارِكَ مِنَ الْفِنَاءِ، وَلَمْ يَبْدُ مَدْهُوشًا جَدًّا. فَأَخَذَ هُوَ وَبَنِي
الْحِصَانَيْنِ إِلَى الْحَظِيرَةِ لِإِطْعَامِهِمَا وَإِرَاحَتِهِمَا بَعْدَ تَعَبِهِمَا الْمُضْنِي فِي
الْقَفْرِ فَوْقَ بَعْضِ كُتَلِ الثَّلْجِ الْكَبِيرَةِ عَلَى الطَّرِيقِ. ثُمَّ قَعَدَ الرَّجُلَانِ فِي
غُرْفَةِ الْجُلُوسِ بِقُرْبِ النَّارِ، وَتَحَدَّثَا بِشَأْنِ زَرْعِ الرَّبِيعِ الْمُقْبِلِ، وَبِشَأْنِ
خُطَطِهِمَا لِتَوْسِيعِ حُقُولِهِمَا، وَبِشُؤْنٍ أُخْرَى يَتَحَدَّثُ فِيهَا الرَّجَالُ.

وَفِيمَا مَارَتِي تَضَعُ الْقَهْوَةَ عَلَى النَّارِ، فَكَّرْتُ: تَصَوَّرِي التَّفَكِيرَ فِي الزَّرْعِ
الآنَ وَفَوْقَ حُقُولِ الذُّرَّةِ كُتْلُ ثَلْجٍ ارْتِفَاعُهَا ثَلَاثَةُ أَمْتَارٍ!

اسْتَقَرَّتِ الْمَرَاتَانِ فِي الْمَطْبَخِ. وَكَانَتْ مَا غَرَاهَامَ قَدْ أَحْضَرَتْ شَيْئًا
لِلْحَبِّكَ، فَجَاءَتْ مَارَتِي بِالْجُورْبِ الَّذِي كَانَتْ تَحْبِبُكَ لِأَجْلِ كَلَارِكِ.
إِذْ كَانَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى مُسَاعَدَةٍ فِي تَشْكِيلِ الْكَعْبِ، وَسُرَّتْ بِتَوْجِيهَاتِ
مَا غَرَاهَامِ.

تَحَدَّثْنَا بِشَأْنِ احْتِفَالِهِمَا بِعِيدِ الْمِيلَادِ وَبِخِيَةِ الْأَمَلِ، وَلَكِنَّهُمَا
كِلَيْتِهِمَا اعْتَرَفْنَا بِحُصُولِ احْتِفَالٍ جَيِّدٍ رُغْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ. وَعَلَّقْتُ مَا غَرَاهَامَ
بِأَنَّهُمَا كَانَا مَسْرُورَيْنِ جَدًّا بِأَنْ يَقُولَا نَعَمْ لِمَا عَرَّجَ كَلَارِكَ عَلَيْهِمَا أَمْسَ
وَدَعَاهُمَا إِلَى الْمَجِيءِ لِارْتِشَافِ الْقَهْوَةِ يَوْمَ رَأْسِ السَّنَةِ إِذَا بَقِيَ الْجَوْ
صَحْوًا.

فَفَكَّرْتُ مَارَتِي: هَكَذَا إِذَا. وَهُوَ لَمْ يُخْبِرْنِي خَشِيَةَ أَنْ يُفْسِدَ الْأَمْرَ ثَانِيَةً جَرَاءَ
الْجَوْ "التَّعْيِسِ"، كَمَا يَدْعُوهُ.

اِكْتَسَبَتِ الزِّيَارَةَ مَعْنَى أَوْفَى بَعْدُ فِي نَظَرِ مَارَتِي؛ فَقَدْ أَخْبَرَتْهَا مَا
غَرَاهَامَ بِأَنَّ الشَّابَّ جَايسُونَ اسْتَرْنَ بَاتَ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِمْ كُلَّمَا أَدَارَتْ ظَهْرَهَا

تقريبًا. وحدثتها بعينين غائمتين كيف جاء جايسون عشيةً الميلاد وطلب يد سالي آن ”كي يتزوجا عندما يأتي الواعظ في زيارته الربيعية“. ثم أضافت: ”يبدو شابًا صالحًا حقًا، وينبغي لي أن أشعر بالفخر، ولكن بطريقة ما صعب أن أتخلى عن سالي، وهي لم تُتم الثامنة عشرة بعد، وإن كانت ستتمها قبيل موعد الزواج“.

عادت مارتي بأفكارها إلى توسلاتها الشخصية الدامعة إذ ناشدت أمها وأباها أن يأذنا لها بأن تتزوج من الشابّ كليم. وقد كانت في عمر سالي آن تقريبًا. وفجأةً رأت أمها وأباها تحت ضوءٍ جديد. فلا عجب إن كانا قد تردّدا؛ إذ علما أنّ الحياة قد تكون قاسية. ومع ذلك، سرّها أنّها أمّضت مع كليم تلك الأشهر القليلة، حتّى لو كانت صعبةً أيضًا.

وتابعت ما غراها: ”جايسون ذاك بدأ قطع الأخشاب لبناء كوخ. وهو يريد أن تكون جاهزة للربيع، حتّى يتسنى له أن يقوم بأشغال المزرعة والحظيرة أيضًا. إنّه يشتغل بكلّ جدّ وكدّ، وأبوه يُساعده. وسوف يزرع الأرض المجاورة لأرض أبيه تمامًا. بالحقيقة، لم نتمكن من أن نرفض، أنا وابن. مع أنّنا متيقّنان من اشتياقنا العتيد لبهجة سالي وعونها لنا. وأعتقد أنّ الأمر سيُضايق لورا أيضًا؛ فهي لم تكن حقًا في حالتها السويّة في الأيام القليلة الأخيرة، بل هي مُتقلّبة المزاج وبعيدة جدًّا عن الواقع تقريبًا. لقد كانت دائمًا فتاةً هادئةً، ولكنها الآن تبدو

مُنْغَلِقَةً عَلَى نَفْسِهَا إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ. إِنَّ الْأَمْرَ يُقْلِقُنِي فَعَلًا“.

تَوَقَّعْتُ مَا غَرَاهَامُ وَبَدَتْ نَازِرَةً إِلَى شَيْءٍ مَا فِي الْبَعِيدِ الْبَعِيدِ. ثُمَّ جَذَبَتْ انْتِبَاهَهَا إِلَى الْحَاضِرِ مُجَدِّدًا. ”عَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نَتَكَيَّفَ وَنُضَيِّفَ أَشْيَاءَ إِلَى لَوَازِمِ زَوْاجِ سَالِي: لُحْفًا وَبُسْطًا وَمَا شَابَهُ. عِنْدِي كَوْمَةٌ أَقْوَمُ بِهَا بَيْنَ الْآنَ وَالرَّبِيعِ“.

ثُمَّ غَيَّرْتُ مَا غَرَاهَامُ الْمَوْضُوعَ، آخِذَةً مَارْتِي عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ تَمَامًا: ”كَيْفَ تَسِيرُ الْأُمُورُ مَعَ الطَّيِّبِ؟“

فَقَالَتْ مَارْتِي مُتَحِيرَةً: ”أَيُّ طَيِّبٍ؟“

”عَجَبًا! ذَاكَ الَّذِي يَعْمَلُ كَلَارِكْ لِأَجْلِ الْإِتْيَانِ بِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ. ذَاكَ الَّذِي سَافَرَ لِأَجَلِهِ طَوَالَ الْوَقْتِ مَعَ الْحُصُولِ عَلَى تَوَاقِعِ جَمِيعِ الْجِيرَانِ. إِنَّهُ مُتَلَهِّفٌ جَدًّا لِحَمَلِهِ عَلَى الْمَجِيءِ إِلَى هُنَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ صَغِيرُكَ الْمُنْتَظَرُ إِلَى هَذَا الْعَالَمِ“.

وَإِزَاءَ نِظَرَةِ مَارْتِي الْمَشْدُوهَةِ، تَابَعَتْ مَا غَرَاهَامُ بِوَهْنٍ: ”أَمَا قَالَ لِكَ؟“

فَهَزَّتْ مَارْتِي رَأْسَهَا نَفِيًّا.

وَقَالَتْ مَا: ”أَمَلٌ أَلَّا أَكُونَ قَدْ أَفْشَيْتُ سِرًّا دُونَ قَصْدٍ، وَلَكِنْ كُلُّ شَخْصٍ فِي الْغَرْبِ كَلَّهُ يَعْلَمُ بِذَلِكَ، عَلَى مَا يَبْدُو لِي. ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنْتِ أَيْضًا تَعْلَمِينَ بِالْأَمْرِ. وَلَكِنَّهُ رَبَّمَا اسْتَحْسَنَ مِنْ ثُمَّ أَلَّا تَرْفَعِي آمَالَكَ عَالِيًّا. عَسَى أَلَّا تَذْكُرِي طُولَ لِسَانِي أَمَامَهُ، هَهُ؟“ ثُمَّ ابْتَسَمَتْ مَا

غراهام بارتباكٍ ابتسامَةً يَسِيرَةً، فهزَّتْ مارتِي رأسها مُوافِقَةً بِصَمْتٍ.

كانت تلك القضية إِذَا. جميعُ تلك السَّفرات الطارئة إلى المدينة وما وراءها أحياناً، حتَّى في الجوّ السيِّئ، ورجوعه إلى البيت منهكاً، في سبيلِ الإتيانِ بطبيبٍ إلى المنطقة قبلَ ولادةِ طفلها. وإذ قامت لِتَضَع رَكوةَ القهوة على النَّار، هزَّتْ رأسها. فقدِ اضطرَّت إلى التَّحْرُكِ مُبتعدةً بِسُرعةٍ قبل أن ترى ما غراهام دموعها.

كانت قهوتهما الصَّباحيَّةُ معاً ضيفاً سخيَّة. وعادت مارتِي بأفكارها إلى وقتِ الزيارة الأولى لما غراهام، حينَ كان كلُّ ما استطاعت أن تُقدِّمه هو القهوة. فكم كانت هذه الزيارة مُختلفةً بوفرةِ الخبزِ الطَّازجِ والهَلَام، والحلوى الفاخرة، والتُّرُتات، والكعك المُحَلَّى! وقد أبدى بَن تعليقاتٍ إطرأءٍ بِضَعِ مرَّاتٍ بشأنِ جُودةِ طهوها، فأجابت بأنَّها ينبغي أن تكونَ كذلك، ما دامت طاهيَّته قد علَّمتها. ثُمَّ استيقظت مِسي فُضِّمَّت إليهم على كُرسيِّها طالبةً كعكةَ زَنجَبِيلٍ على هيئة صَبِيٍّ. ومرَّ الوقتُ بِسُرعةٍ فائقةٍ فيما تشارَكوا في الطَّعام والحديث.

كرهت مارتِي أن تراهما يذهبان، ولكنها كانت شاكراً من أجلِ الوقتِ الذي أمضوه معاً على غيرِ توقُّعٍ منها، وأرادت فعلاً أن يَصِلَا إلى بيتهما قبلَ الغروب.

بعدَ أن مَضَيَا في سبيلهما، بدأت تُنظِّفُ بابتهاج. والتفتت إلى كلارك قائلةً: "شكراً جزيلاً لك على دعوتكما".

وإزاء سيماءِ التَّعَجُّبِ على وجهه، فسَّرت: ”زَلَّ لِسَانُ ما غراهام
بذلك، وهي لا تَعْلَمُ بَأني لم أَعْلَمُ أَنَّكَ دَعَوْتُهُما“. ولم تستطع أن
تقاومَ المُتَابَعَةَ: ”لكنِّي لاحظتُ أَنَّكَ لم تدعُ جميعَ أولئك الصِّغار
ذوي الشَّهِيَّاتِ الشَّديدة“.

فتشاركا كِلاهُما في ضحكة.

دبَّت أَيَّامُ كانونِ الثَّاني/ينايرِ الباردةِ بِبطء. وقامَ كلاركُ بمزيدٍ من
الرَّحلاتِ إلى المدينة، أو حيثُما ذهب. فما عادتِ مارتِي تتحيَّر،
وكانت على يقينٍ تامٍّ بأنَّه كان يغيَّبُ في تلكِ الأيَّامِ الباردةِ لأجلِ
خيرِها. كانت خياطُها قد أنجزت تقريبًا الآن، فنظرت بكثيرٍ من
الرَّضى إلى الثَّيابِ الصَّغيرةِ لطفِها الآتي. سيُسعدُها أن تتمكَّنَ من
استعمالِ جِهازِ الطِّفلِ، الجديدِ والطَّيبِ الرَّائحة.

قلِقَ كلاركُ لِعدمِ وُجودِ مَهد، فطمأنته مارتِي بأنَّ الحاجة لا تدعو
إلى واحدٍ الآن، ما دامت قد نوت أن تُنومَ الصَّغيرَ معها في سريرِها
حتَّى يكبُرَ قليلًا. وسرَّ كلاركُ بذلك، قائلاً إنَّه عندما يأتي الجوّ
الأحسنُ سيشتغلُ بَصنْعِ سريرٍ أكبرَ لمِسي ويجعلُ الطِّفلَ يأخذُ سريرَها.
لَمَّا قاربَ الشَّهرُ آخِرَه، شعرتِ مارتِي بأنَّه حانَ الوقتُ الذي فيه
تستطيعُ أن تُطلِعَ مِسي على سِرِّها. وكان كلاركُ قد مضى في سَفَرَتِه
البعيدة مرَّةً أُخرى، والاثنتان في البيتِ وحدَهُما.

قالت مارتِي: ”تعالِي مع ماما، يا مِسي. ماما تُريدُ أن تُريكَ شيئًا

ما“.

لم تكن مِسي بحاجةٍ إلى تملُّق، إذ كانت تُحِبُّ أن ”تُرى شيئاً ما“. فذهبتا معاً إلى غُرْفَةِ النَّومِ، حيثُ أخرجتِ مارتِي مجموعةً من الثِّيَابِ الصَّغِيرَةِ من الجارور. ولم تتمالكُ نفسَهَا عنِ الابتِسامِ إذ حمَلتِ الثَّوبَ الأعلى لِتَراهُ مِسي. ثمَّ قالت: ”انظُرِي، مِسي. هذه الثِّيَابِ لِطِفْلِ جَدِيدٍ. سَيَكُونُ عِنْدَ ماما طِفْلٌ جَدِيدٌ لِماما وَلِمِسي. طِفْلٌ صَغِيرٌ جَدًّا، فقط بهذا الحَجْمِ تقريبًا. ويُمكنُ أن تُساعدَ مِسي ماما على الاهتِمامِ بالطِّفْلِ“.

راقبتِ مِسي وَجَهَ مارتِي بتركيز. بدا واضحًا أَنَّها لم تكن مُتيقِّنةً عَمَّا كان ذلك كُلُّهُ، ولكنَّ ماما كانت مسرورة، وإذا كانت ماما مسرورةً فلا بُدَّ أن يكون الأمرُ جيِّدًا.

مسَدَتِ مِسي الثِّيَابَ الناعمة، مُكرِّرةً: ”ط...ف...ل...ل، ط...ف...ل...ل لِماما... ولمِسي؟“

فسرَّتِ مارتِي سُورًا فائقًا: ”صحيح!“ ثمَّ جَلَسَتْ على سَريرِها وتابعت: ”طِفْلٌ لِمِسي. انظُرِي، مِسي. الآن، الطِّفْلُ نائِمٌ هُنَا“.

ووضعتِ يَدَ مِسي على بَطْنِها، فكوفئتِ مِسي بِرَفْسَةٍ قويَّة. وإذا سحبتِ يَدَها بعيدًا بِسُرعة، ارتفعتِ عيناها نحو عيني مارتِي تعجبًا.

”ذلك هو الطِّفْلُ، مِسي. قريبًا سَيَنامُ الطِّفْلُ في سَريرِ ماما. سيأتي ليعيشَ مع ماما ومِسي، وسنُلبِسهُ هذه الثِّيَابَ الجديدة ونُلْفُهُ بهذه

البطانيات النَّاعمة، ويُمكن أن نَحْمِلَه على أذْرُعِنَا، بَدَلِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي
بِهَا تَحْمِلُهُ مَامَا الْآنَ“.

كَانَ مُؤَكَّدًا أَنَّ مِيسِي لَمْ تَفْهَمْ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَلَكِنَّهَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ
تَفْهَمْ أَنَّ طِفْلًا كَانَ آتِيًا وَأَنَّ مَامَا كَانَتْ مَسْرُورَةً، وَأَنَّ الطِّفْلَ سَوْفَ
يَسْتَعْمِلُ الْأَشْيَاءَ النَّاعِمَةَ وَيَعِيشَ فِي سَرِيرِ مَامَا. فَبَرَقَ فِي عَيْنَيْهَا تَلَأُؤٌ،
وَلَمَسَتْ مَارْتِي بِخَجَلٍ، مُكْرَّرَةً: ”ط...ف...لُ مَامَا“.

وَسَحَبَتْ مَارْتِي الْبِنْتَ الصَّغِيرَةَ إِلَيْهَا وَضَحِكَتْ بِفَرَحٍ، قَائِلَةً: ”أُوهُ،
مِيسِي. سَيَكُونُ ذَلِكَ مُمْتَعًا جَدًّا“.

رَجَعَ كَلَارِكُ إِلَى الْبَيْتِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَفِي مُؤَخَّرِ عَرَبَةِ الْجَلِيدِ كُتِلَةٌ غَرِيبَةٌ
الْمَنْظَرُ مُغَطَّاةٌ بِشَادِرٍ.

فَفَكَّرَتْ مَارْتِي بِسُخْرِيَّةٍ: أَنَا عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ طَبِيبًا!
وَقَدْ أَثِيرَ فُضُولُهَا بِشِدَّةٍ.

وَبَعْدَمَا أَطْعَمَ دَانَ وَتَشَارَلِي وَأَبْرِكَا، دَخَلَ كَلَارِكُ مِنَ الْبَابِ حَامِلًا مَا
اشْتَرَاهُ، وَالَّذِي كَانَ مُفَاجَأَةً.

لَمْ تَكَدْ مَارْتِي تُصَدِّقُ عَيْنَيْهَا، وَهَتَفَتْ: ”كُرْسِيٌّ هَزَّازٌ جَدِيدٌ!“
فَقَالَ كَلَارِكُ: ”صَحِيحٌ! تَعَهَّدْتُ مِنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ بِأَنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِي
هَذَا الْبَيْتِ يَوْمًا طِفْلٌ آخَرَ فَسَيَكُونُ هُنَاكَ كُرْسِيٌّ هَزَّازٌ لِتَهْدِيَّتِهِ بِهِ“.

ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً إِذْ قَالَ هَذَا، وَعَلِمَتْ مَارْتِي أَنَّ كَلِمَاتِهِ كَانَتْ
سِتْرًا لِمَشَاعِرٍ أُخْرَى.

فأجابت بمرح: ”جيد! الأحسن أن تقعد وتري مسي كيف يشتغل، حتى يتسنى أن تعرف كيف تستعمله عندما يحتاج الطفل إلى تهدئة“. وتشاركنا في ابتسامه.

ثم رفع كلارك مسي وأجلسها في حضنه وضمها بقوة. وبعد هزتين، رفعت الفتاة رأسها لتحدق إلى هذا الشيء العجيب. فراقبت وهي تترجح فيما هز كلارك بضع مرات أخرى، ثم استقرت من جديد مسرورة، مُستمتعة بالعجب الجديد.

كان على كلارك أن يُغادر عاجلاً لأجل المهام، فتسلقت مسي وحدها زحفاً كي تُحاول جعل الكرسي يتجاوب بصورة صحيحة.

وقالت مارتي لنفسها: سيكون مُمتعاً جداً وجود هذا الكرسي. فما عليّ إلا أن أتصور نفسي مع صغيري لابسين أجمل ثياب، وأنا جالسة هنا أهزه. وقد يتسع المكان بقربي لمسي أيضاً. لا أكاد أطيع الانتظار.

بدا الطفل أيضاً نافد الصبر، إذ رفس رفسة شديدة جعلت أمه تحبس نفسها وترجع إلى الورا قليلاً عن الخزانة التي كانت تشتغل فيها.

لما رجع كلارك من المهام، نزلت مسي عن الكرسي بسرعة وركضت لتمسك يده.

وقالت متوسلة: ”دادي، تعال“.

فقال كلارك ضاحكاً: ”اصبري يا مسي، حتى يخلع بابا معطفه. ساتي... ساتي“.

تراجعتُ مِسي بِضَعِ خُطْيَ، وراقبتهُ يُعلِّقُ مَعِطِفَه، ثُمَّ أَمَسَكَ يَدَه
ثانيةً: ”تعالِ انظُرْ“.

ظنَّتُ مارتِي أَنَّ مِسي ما زالت مُتحمِّسَةً بِشأنِ الكُرسيِّ، وبدا كأنَّ
كلارك افترضَ ذلكَ أيضًا، إذ دار نحو الكُرسيِّ. ولكنَّ مِسي شدَّت
بيدِه لِتقتاده إلى مارتِي.

وإذ أشارت إلى المَوْضِعِ، هتفتُ: ”انظُرْ... ط... ف... ل -
ط... ف... ل لِمِسي. ماما يد مِسي تلمسه“.

فتورَّدَ وجهُ مارتِي، وابتسمَ كلارك ابتسامَةً عريضةً.

وإذ حَمَلَ البِنْتَ الصَّغيرةَ، قال: ”أحسُّبُ ذلكَ رائعًا جدًّا“. ثُمَّ
مشى مع الطِّفلةِ، مُتَابِعًا: ”سيكون لِمِسي طِفْلٌ جديدٌ إذا، وسنهزُه في
الكُرسيِّ. أحسنُ لنا أن نتمرَّنَ قليلًا؛ ألا تعتقدين ذلك؟ فلنُهزِهزُ قليلًا
ريثما تُحضِّرُ ماما عشاءنا“.

وهكذا فعلاً.

طِفْلٌ جَدِيدٌ

كان شهرُ شُباطَ/فبرايرِ قدِ انتصفَ. وكانتِ مارتِي جالِسةً قُبالةَ كلاركِ إلى الطَّاولَةِ، وكِلاهُما مُستغرِقانِ في أفكارِهِما الخاصَّةِ. بدتِ كَتِفا كلاركِ مُرتخِيَتَيْنِ، فعَلِمَتِ مارتِي أنَّه رُبَّما كانِ شاعِراً بالإحباطِ حِيالَ حصيلةِ مَجْهُوداتِهِ كُلِّها. فقدِ جرى فِعْلاً تَأْمِينُ طَبِيبٍ لِلبَلَدَةِ والأَحْيَاءِ المُحِيطَةِ بها، ولكنَّه لَنْ يَصِلَ قَبْلَ وَقْتِ ما مِنْ نَيْسانِ. وكانِ هذا مُتَأخِّراً فَوْقَ الحَدِّ عَمَّا أَرادَ كلاركِ- ومارتِي أيضاً- الطَّيِّبَ لِأجلِهِ.

جَلَسَتِ مارتِي صامِتَةً، وأفكارُها مُكْتَثِبَةٌ. فالصَّغِيرُ كانِ صائِراً ثَقِيلاً جدًّا، وفي الأيَّامِ القليلةِ الأخيرةِ بدتِ الأُمُورُ مُخْتَلِفَةً تامَّامًا. لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُحدِّدَ ما كانِ ذلكِ، ولكنَّها عَلِمَتِ أنَّه كانِ هُنالِكَ، وقدِ تشَوَّشَ تفكيرُها. فكانِ هذا هو الوقتُ الَّذِي تَحْتَاجُ فِيهِ المِراةَ إلى زَوْجٍ ”حَقِيقِيٍّ“ - زَوْجٍ يُمَكِّنُها أَنْ تَتحدَّثَ إِلَيْهِ. يا لَيْتَ كَلِيمٍ كانِ هُنَا... اللَّا زِمَةُ الخالِدةُ مُجدِّدًا! فما كانَتِ لِتَرْتَبِكَ مِنْ مُحادِثَةِ كَلِيمٍ فِي الأَمْرِ.

وقاطَعَ كلاركِ أفكارَها: ”كنتُ أفكِّرُ أَنَّ وقتَكَ لا بدَّ أَنْ يَحِينَ قَرِيبًا. فيبدو أَنَّكَ قدِ تشعُرِينِ بِمزيدٍ مِنَ الرِّاحةِ إِذا اسْتَطاعَتِ ما غِراها مَ أَنْ

تأتي قبل أيامٍ قليلة من الولادة وتمكث معكِ مُدَّةً“.

لم تكذّ مارتى تجرؤ على أن ترجو. ”أعتقدُ حقًا أنّها تستطيع ذلك؟“

”لا أدري لِمَا لا. سالي آن ولورا قادرتان جيّدًا على الاعتناء بالبقية. وهذه فرصةٌ تمرين جيّدةٌ لسالي آن. سمعتُ أنّها بحاجة لأن تتعلّم الشؤون المنزليّة كلّها بأسرع ما يُمكن. سأركبُ إلى هناك وأُحدّثُ إلى ما غراهام. وأنا أرجو ألاّ نُضطرّ إلى إبقائها مُدَّةً طويلة“.

أوه، وأنا أيضًا...أنا أيضًا. كانت أفكارُ مارتى خليطًا من الفرح والحرج. ولكنّها كانت شكورًا جدًّا من أجل اقتراحِ كلارك حتّى اضطرّرتُ إلى بذلِ الجهدِ لِحَبسِ الدُموع.

وهكذا كان أنّ ما غراهام جاءت ذلك اليوم، مُحضرةً معها وسادة ريشٍ ثقيلةً وبعضَ اللُّحَف لتصنَع بها سريرًا لها على أرضيّةِ غُرفةِ الجلوس. فقد كانت خبيرةً بذلك، واستمدّت مارتى راحةً وافرةً من وجودها هناك.

لم تُبقِ مارتى انتظارها طويلًا. فبعدَ ذلك بِصباحين، في السّادسَ عشرَ من شباط/فبراير، استيقظتُ من نومٍ مُفعمٍ بالأرق والقلق، في وقتٍ ما بين السّاعتين الثّالثة والرّابعة. وقد تملّمتُ وتقلّبتُ عاجزةً أن تجدَ وضعيّةً مُريحة، شاعرةً بالانزعاجِ عُمومًا.

وما كان انزعاجًا تحوّل بالتدريج إلى طلقٍ، وكانت المدة ما بين

الطَّلِقِ وَالْآخَرَ مُتَبَاعِدَةً نَوْعًا مَا، وَلَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً كَثِيرًا، وَلَكِنَّهَا عَرَفَتْ
الْمَخَاضَ عَلَى حَقِيقَتِهِ. وَنَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ، لَا بُدَّ أَنْ مَا غَرَاهَام
سَمِعَتْ تَحْرُكَاتِ مَارْتِي فَدَخَلَتْ غُرْفَتَهَا لِتَرَى كَيْفَ حَالُهَا.

أَنْتِ مَارْتِي وَقَالَتْ مُغْمِغَةً: ”أَشْعُرُ بِأَنِّي بَائِسَةٌ وَتَاعِسَةٌ حَقًّا!“

وَضَعَتْ مَا غَرَاهَامَ بِرَفِقٍ يَدًا مُتَعَاظِفَةً عَلَى بَطْنِ مَارْتِي، وَانْتَظَرَتْ حَتَّى
جَاءَهَا طَلْقٌ آخَرَ، فَقَالَتْ: ”جَيِّدٌ! إِنَّهَا أَطْلَاقٌ سَلِيمَةٌ وَثَابِتَةٌ. الطِّفْلُ فِي
طَرِيقِهِ إِلَى الْوِلَادَةِ“.

ثُمَّ أَخْبَرَتْ مَا غَرَاهَامَ مَارْتِي بِأَنَّهَا سَتَذْهَبُ لِتَتَيَقَّنَ بِأَنَّ النَّارَ الَّتِي
غُطِّيتْ بِالرَّمَادِ الْبَارِحَةَ مَا زَالَتْ حَيَّةً. وَتَسْنَى لِمَارْتِي أَنْ تَسْمَعَهَا تُلْقِي
مَزِيدًا مِنَ الْحَطَبِ وَتَمْلَأُ الْغَلَّايَةَ وَالْقِدْرَ الْكَبِيرَةَ بِالْمَاءِ. وَقَالَتْ مَا غَرَاهَامَ
لِمَارْتِي عَبْرَ بَابِ غُرْفَةِ النَّوْمِ: ”لَا ضَرَرَ مِنْ وَفْرَةٍ فِي الْمِيَاهِ السَّاخِنَةِ. رَبَّمَا
لَا يَأْتِي الطِّفْلُ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَكُونُ مُتَأَهِّبًا جَيِّدًا“. وَقَدْ كَانَ
هَدُوُّهَا الْمَرِحَ وَخَبِرَتْهَا الْوَاضِحَةُ مُطْمَئِنِّينَ كَثِيرًا لِمَارْتِي، وَهَنَا سَرَى فِيهَا
طَلْقُ مَخَاضٍ آخَرَ.

وَإِذْ سَمِعَ كَلَارِكُ بَعْضَ التَّحْرُكَاتِ يَقِينًا، بَرَزَ مِنَ السَّقِيفَةِ ذَاتِ
السَّطْحِ الْمَائِلِ. وَاسْتَطَاعَتْ مَارْتِي، حَتَّى فِي وَجَعِهَا، أَنْ تَرَى أَنَّهُ كَانَ
شَاحِبًا، وَقَلِقًا بِالْفِعْلِ.

ثُمَّ سَمِعَتْ مَارْتِي مَا غَرَاهَامَ تَقُولُ لَهُ: ”الآنَ، كُفِّ عَنِ الدُّعْرِ. أَعْلَمُ
أَنَّهَا امْرَأَةٌ صَغِيرَةٌ الْحَجْمِ“ - وَانْخَفَصَ صَوْتُهَا دَرَجَةً وَاحِدَةً - ”وَلَكِنَّهَا

حَمَلَتِ الطِّفْلَ جَيِّدًا. لَقَدْ تَحَقَّقْتُ قَبْلَ دَقِيقَةٍ. إِنَّهُ هَبَطَ جَيِّدًا إِلَى التَّمَامِ، وَيَبْدُو أَنَّهُ انْقَلَبَ حَسَنًا. هِيَ مَسْأَلَةٌ وَقْتٍ فَقَطْ حَتَّى تَكُونَ حَامِلُهُ عَلَى ذَلِكَ الْكُرْسِيِّ الْهَزَّازِ“.

لَمْ تَسْتَطِعْ مَارْتِي أَنْ تَكْبَحَ أَنَّهُ عِنْدَ الطَّلْقِ التَّالِي، فَهَرَعَتْ مَا غَرَاهَامَ إِلَى دَاخِلِ الْغُرْفَةِ كَيْ تُهَدِّئَهَا وَتَضَعَّ خِرْقَةً مُبَلَّلَةً عَلَى جَبِينِهَا. وَلَمَّا اسْتَطَاعَتْ مَارْتِي أَنْ تَلْتَقِطَ أَنْفَاسَهَا وَتَسْتَرخي قَلِيلًا، تَسَنَّى لَهَا أَنْ تَرَى كَلَارِكَ، وَهُوَ يَبْدُو أَكْثَرَ شُحُوبًا بَعْدَ، جَالِسًا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ كُرَاسِيِّ الْمَطْبَخِ حَانِي الرَّأْسِ وَمُتَحَرِّكُ الشَّفَتَيْنِ. فَعَلِمَتْ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي لِأَجْلِهَا وَلِأَجْلِ الطِّفْلِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَكْثَرَ إِرَاحَةً لَهَا بَعْدُ مِنْ يَدَيِ مَا غَرَاهَامَ الْمَاهِرَتَيْنِ.

أَلْبَسَ كَلَارِكُ مِسي ثِيَابًا مُدْفَعَةً وَأَخَذَهَا مَعَهُ إِلَى الْحَظِيرَةِ حَتَّى لَا تَسْمَعَ أَنَّاتِ أُمَّهَا مِنْ شِدَّةِ عَذَابِهَا.

وَاسْتَمَرَّتْ مَارْتِي، مُحَدِّثَةً طَلْقًا وَاحِدًا كُلَّ مَرَّةٍ، وَجْهَهَا مُبَلَّلٌ بِالْعَرَقِ مِنَ الْجَهْدِ، وَشَفَتَاهَا تَكْظِمَانِ الصَّرَخَاتِ الْمَحْبُوسَةَ فِي دَاخِلِهَا. فَلَازَمَتْهَا مَا غَرَاهَامَ مِنْ قُرْبٍ، مُقَدِّمَةً إِلَيْهَا كَلِمَاتِ التَّشْجِيعِ وَقَائِمَةً بِمَا أَمَكْنَهَا مِنَ النَّصْحِ وَالْإِرَاحَةِ.

مَرَّ الْوَقْتُ بَطِيئًا جَدًّا... عَلَى مَارْتِي، إِذْ كَانَتْ تُرَاحُ مَكَانَهَا فِي الطَّلْقِ؛ وَعَلَى كَلَارِكِ، إِذْ كَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يَشْتَغِلَ بَعْدَةَ الْأَحْصِنَةِ فِي الْحَظِيرَةِ، كَمَا قَالَتْ مَا غَرَاهَامَ لِمَارْتِي؛ وَعَلَى مَا غَرَاهَامَ نَفْسِهَا، إِذْ كَانَ

واضحًا أنها أرادت للمحنة أن تمرَّ بسلامة عليهم جميعًا.

مالتِ الشَّمْسُ نحو الغُروب. هل ينتهي هذا أصلًا؟ هكذا تساءلت
مارتي بينَ طَلْقٍ وَآخِر. وكان ذلك مُعَدَّبًا جدًّا. وظلَّت ما غراهام تقولُ
لها إنَّها من سنواتِ خُبْرَتِها تعلمُ أنَّ الوقتَ كان آخذًا في الاقتراب.
فكان كلُّ شيءٍ يجري يُيسر. ثمَّ في السَّاعة الرَّابِعةِ إلَّا رُبْعًا، أصدرتْ
مارتي صرخةً حادَّةً انتهت إذ برزَ رأسُ طفلي ذَكَرٍ إلى العالم.

استلقتْ مارتي على ظهرها بِنَشْجَةٍ مُنْهَكَةً، شاكِرةً جدًّا من أجلِ
إنجازِ عملِها، ومن أجلِ وجودِ يَدَيَّ ما غراهام الماهرَتينِ هُناك لتقوم بما
هو ضروريٌّ لأجلِ الطِّفلِ الجديد.

لم يَسعِ ابتسامةً مُوهَنةً، لكنَّ بهيجةً، إلَّا أن ترتسِمَ على وجهِ مارتي
لَمَّا سَمِعَتْ ابنَها يبكي.

وقالت ما غراهام: ”إنَّه بِخَيْرٍ حَقًّا. صبِّي كبيرٌ جميلٌ“.

وفي الحالِ أصلحتْ ما غراهام هِنْدَامَ الأمِّ والطفلي كِلَيْهِمَا، وإذ
وضعتْ الصَّغِيرَ على ذِرَاعِ مارتي، ذهبَتْ لِتُزَفَّ البِشَارَةَ إلى كلارك.
سَمِعَتْ مارتي قولَ ما غراهام بصوتٍ عالٍ خارجِ الباب: ”قد جاء،
وهو وسيم“.

ثمَّ سَمِعَتْ بوضوحٍ خَطَوَاتُ كلارك المُتسارِعَةَ، وسُرْعانَ ما دخلَ
الكوخَ حاملاً مِسي.

”أهَيَّ بِخَيْرٍ؟“ وانتقلتْ عَيْنَاهُ القَلِقتانِ من ما غراهام إلى بابِ غُرفةِ

النَّوْمِ إِذْ أَنْزَلَ مِيسَى .

أجابت ما غراها م: ”في تمام الصِّحَّة“. وعَرَفَتْ مارتى أَنَّ ما غراها م
اطمأنتَ أَيضًا. ثُمَّ تابَعَتْ ما غراها م: ”لقد قامت بعملٍ عظيم، وقد
جاءها صَبِيٌّ جميل. إذا تمَهَّلْتَ قليلًا وملَكْتَ نفسك، يُمكنُ أن أُتِخَ
لك حتَّى إلقاءِ نظرةٍ قصيرةٍ عليه“.

خَلَعَ كلارك مَعطِفَه ونَزَعَ الثَّيابَ الثَّقِيلَةَ عن مِيسَى .

وسَمِعَتَه مارتى يقولُ للبنْتِ الصَّغِيرَةِ: ”هَيَّا مِيسَى، لِنَتَدَفَّأَ قليلًا قبل أن
نذهب لرؤية أمِّك“. فوقفا كِلاهُما بَقْرِبِ النَّارِ، ثُمَّ رَفَعَ مِيسَى وتَبَعَ ما
غراها م إلى عُرفَةِ النَّوْمِ.

وقَفَ كلارك بجانب السَّريرِ ونظَرَ إلى مارتى. كانت مُتَعَبَةً، وَعَلِمَتْ
أَنَّها رُبَّمَا لم تَبْدُ في أَفْضَلِ حالاتها بعدَ هذا النَّهارِ العسيرِ الطَّوِيلِ، إِلَّا
أَنَّها ابْتَسَمَتْ بِكِياسَةٍ. وانتَقَلَتْ حَمَلَقَةً كلارك إلى الوَلِيدِ الجَمِيلِ.
فَحَمَلَتْ مارتى الطِّفْلَ لِيَتَسَنَّى لِكَلارك أن يراهُ بِصُورَةٍ أَفْضَلِ. كان ما
يزالُ أَحْمَرَ قليلًا، وَلَكِنَّه كان صَبِيًّا حَسَنًا بِالتَّأَكِيدِ. وكانت قَبْضَةٌ صَغِيرَةٌ
مُطَبَّقَةٌ مُلَقَاةً على خَدِّه.

قال كلارك: ”إِنَّه وَسِيمٌ حَقًّا،“ وقد نَمَّتْ نَبْرَاتُ صَوْتِهِ عَنِ الرَّهْبَةِ
التي كان شاعِرًا بها. ثُمَّ أَضَافَ: ”مَاذا سَتُسَمِّيَنِي؟“

فأجابت مارتى: ”كلاردِج لوك“.

”اسمٌ جميل. إلامَ يَرُمُّزُ لوك؟“

”أبي“.

”لو رآه، لكان فخورًا فعلاً. وكان من شأن والده أيضًا أن يكون فخورًا بأن يُرزق ابناً وسيماً كهذا“.

فأومات مارتى برأسها موافقةً، وقد آلمت غصّة حنجرتها حيال الفكرة.

”كلاردج لوك ديفيس“. قالها كلارك على مهل، ثمّ أضاف: ”اسمٌ جيّد الوقع فعلاً. أيزعجك إذا قصرته أحياناً إلى كلار؟“
فقال مارتى: ”لا، بتاتاً“. وبالْحَقِيقَةِ أنّها تساءلت هل من شيءٍ يُمكن أن يُزعجها بعدُ.

كانا كلاهما قد نسيا مِسي في أثناء حديثهما، وبقيتِ البنتُ الصّغيرة صامتةً على ذراعِ أبيها، مُحدّقةً إلى الصّغير المُتلوّي الغريب. وفي الأخيرِ استفسرتْ- وكأنّها تُحاولُ أن تستوعب الأمر- ”ط...ف...ل...؟“

فتحوّل انتباهُ كلارك نحوها: ”نعم، مِسي، طفل. هذا هو الطّفلُ الذي جاءتكِ ماما به. هو كلار الصّغير“.

وسألَت مِسي: ”نُهزهُزُ ال... طفل؟“

فقال كلارك ضاحكاً: ”أه، لا. ليس الآن، بل في وقتٍ لاحق. أوّلاً لا بُدَّ أن ينال الطّفلُ وأمّكِ راحةً طويلةً جيّدة. الأحسنُ لنا أن نذهب الآن ونَدعُهُما يستريحان“.

رَدَّتْ مَارْتِي بَابْتِسَامَةٍ خَفِيفَةٍ فَحَسْبُ. وَقَدْ كَانَتْ هِيَ نَفْسُهَا خَلِيطًا
غَرِيبًا مِنَ السَّعَادَةِ الْهَادِيَةِ الَّتِي يُمَارِجُهَا حُزْنٌ، وَكَانَتْ بِالْفِعْلِ مُنْهَكَةً
جَدًّا.

وَإِذَا غَادِرَا كِلَاهُمَا الْغُرْفَةَ فَكَّرَتْ: أَسْتَطِيعُ التَّأَكِيدَ فِعْلًا أَنْ ذَلِكَ عَلَى مَا
أَعْتَقَدُ أَصْعَبُ عَمَلٍ دُونَ مَنَازِعِ قُمْتُ بِهِ فِي حَيَاتِي كُلِّهَا. وَبَعْدَمَا ارْتَشَفَتْ عَلَى
مَهْلٍ شَيْئًا مِنَ الشَّايِ الْخَاصِّ مِنْ مَا غَرَاهَامُ، غَطَّطَ عَلَيْهَا النَّوْمَ.

وَفِي غُرْفَةِ الْجُلُوسِ، كَنَكَنَ كَلَارِكُ وَمِسي مُتَضَامَيْنِ فِي الْكُرْسِيِّ
الْهَزَّازِ. ”مِسي، لِنُصَلِّ لِأَجْلِ مَامَا وَالطِّفْلِ الْجَدِيدِ“. وَإِذَا أَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا
مُؤَافَقَةً، أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَصَلَّى: ”شُكْرًا لَكَ، أَبَانَا السَّمَاوِيِّ، مِنْ أَجْلِ
مُسَاعَدَتِكَ لِمَا غَرَاهَامُ، وَمِنْ أَجْلِ وِلَادَةِ مَارْتِي بِسَلَامَةٍ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ
الطِّفْلِ الْجَدِيدِ الْجَمِيلِ“. وَرَدَّتِ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ فِي حِضْنِهِ صَدَى قَوْلِهِ:
”آمِينَ!“

ما غراهام تكشِفُ قلبَها

مكثت ما غراهام عند مارتى بضعة أيام بعد مجيء كلارِج لوك الصّغير.

وأكدت ما غراهام: ”أريد أن أراك على قدميك من جديد قبل أن أتركك. ثمّ إنّه ليس في البيت الآن أيّ شيءٍ مُلِحّ“.

وقد سُرت مارتى سرورًا فائقًا بأن تحظى برفقة المرأة الأكبر سنًا وبمساعدها. كانت مُبتهجةً جدًّا بإبنيها الجديد وتواقّةً لأن تقوم وتستأنف نشاطها. وليكونها امرأة لا تُسرُّ بأن تلزم الفراش، فقد ألحّت على ما غراهام بأن تسمح لها بالنهوض من اليوم الثّاني فصاعدًا. وبعد مُمانعة السيّدة غراهام أوّل الأمر، سمحت لها بأنشطةٍ يسيرةٍ زادت بالتّدرّج كلّ يوم.

أمّا مسي، وقد كانت مُتحمّسة ومُبتهجةً بالطفّل الجديد، فأحبّت أن تُشاركه في حِضنِ مارتى عند الهزهزة في الكرسيّ. وبدا أنّ كلارك أظهرَ طابعًا جديدًا من الفخر العائليّ، إذ أكّد: ”لقد زاد ذلك الطّفّلُ

الصَّغِيرَ فَعَلًّا أَكْثَرَ مِنْ سَنْتِمِتر طُولًا، وَاکْتَسَبَ كِيلوغرامًا وَزَنًّا. وَفِي
وُسْعِي أَنْ أَرَى ذَلِكَ بِمُجَرَّدِ النَّظَرِ“.

ثُمَّ جَاءَ الْيَوْمَ الَّذِي فِيهِ أَحْسَسْتُ مَارْتِي أَنَّهَا قَادِرَةٌ مَا يَكْفِي عَلَى تَوَلِّي
تَدْبِيرِ الْمَنْزِلِ وَالْوَالِدَيْنِ بِمُفْرَدِهَا. وَقَدْ كَانَتْ عَلَى يَقِينٍ بَأَنَّ مَا غَرَاهَامُ،
مَعَ كُلِّ لُطْفِهَا وَكَرَمِهَا، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُتَلَهِّفَةً إِلَى الرَّجُوعِ إِلَى الْبَيْتِ
وَالاهْتِمَامِ بِخَاصَّتِهَا.

أَوْمَأَتْ مَا غَرَاهَامُ بِرَأْسِهَا مُوَافَقَةً. ”صَحِيحٌ، الْأُمُورُ تَجْرِي حَسَنًا هُنَا.
اعْتَنِي بِنَفْسِكَ، وَسَتَكُونُ الْأُمُورُ عَلَى مَا يُرَامُ. سَأَطْلُبُ إِلَى كَلَارِكِ أَنْ
يُقَلِّنِي إِلَى الْبَيْتِ غَدًا“.

سَتَفْتَقِدُ مَارْتِي السَّيِّدَةَ غَرَاهَامَ عِنْدَمَا تُغَادِرُ، وَلَكِنْ سَيَكُونُ جَيِّدًا أَنْ
تَتَصَرَّفَ فِي مَكَانِهَا الصَّغِيرِ كُلِّهِ بِنَفْسِهَا مِنْ جَدِيدٍ.

عَصَرَ ذَلِكَ النَّهَارَ، فِيمَا الْمَرْأَتَانِ تَشْرَبَانِ الْقَهْوَةَ مَعًا مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ،
انْتَقَلَ حَدِيثُهُمَا مِنْ مَوْضُوعٍ إِلَى آخَرَ. فَتَحَدَّثَتَا بِشَأْنِ عَائِلَتَيْهِمَا وَآمَالِهِمَا
مِنْ جِهَةِ الْمُسْتَقْبَلِ. وَعَبَّرَتْ مَا غَرَاهَامُ مُجَدِّدًا عَنْ احتِياجِهَا إِلَى
التَّكْيِيفِ مَعَ الرَّحِيلِ الْقَرِيبِ لِسَالِي أَنْ مِنَ الْعُشِّ الْعَائِلِيِّ.

قَالَتْ مَا غَرَاهَامُ: ”تَبْدُو صَغِيرَةً السِّنِّ جَدًّا بَعْدُ. وَلَكِنَّكَ تَعْلَمِينَ أَنَّكَ
لَا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَقُولِي لَا حَالًا يُفْصِحُ شَابٌّ عَنْ نَيْتِهِ“.

فَرَدَّتْ مَارْتِي: ”وَلَكِنَّهَا لَا تَتَصَرَّفُ بَعْنَادٍ، بَلْ هِيَ مُغْرَمَةٌ حَقًّا. أَلَا
تَتَذَكَّرِينَ، يَا مَا، كَيْفَ كَانَتْ الْحَالَةُ لَمَّا كُنْتِ صَغِيرَةً وَمُغْرَمَةً جَدًّا،

حَتَّى كَادَ قَلْبُكَ يَتَوَقَّفُ عَنِ الْخَفْقَانِ عِنْدَ رُؤْيَةِ فَتَى أَحْلَامِكَ، وَتَوَرَّدَ
وَجْهُكَ حِينَ لَمْ تَكُونِي تُرِيدِينَ أَنْ يَتَوَرَّدَ؟ أَوْلَا تَتَذَكَّرِينَ الشُّعُورَ الْجَامِحَ
الْمُصَاحِبَ لِلْحُبِّ؟“

أَجَابَتْ مَا غَرَاهَامَ عَلَى مَهَلٍ: ”بلى، كما أظنُّ، مع أن ذلك كان
منذُ زمانٍ طويلٍ مضى. فَإِنِّي أَتَذَكَّرُ، مع ذلك، أَنِّي لَمَّا التَّقَيْتُ ثُورِنْتُونَ
لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أَتَصَرَّفَ أَفْضَلَ بِكَثِيرٍ مِنْ سَالِي آنَ، حَسَبَ تَخْمِينِي“.
ثُمَّ أَطْلَقَتْ ضِحْكَةً خَافَتَهُ قَاصِرَةً، إِلَّا أَنَّهَا سَرَعَانَ مَا بَدَتْ جَدِيَّةً مِنْ
جَدِيدٍ.

”كيف كانت الحال لَمَّا فُقدتِ ثُورِنْتُونَ، يا ما؟“

فَكَرَّرَتْ مَا: ”لَمَّا فُقدتِ ثُورِنْتُونَ؟ أَجَلْ، كان ذلك منذُ زمانٍ طويلٍ
مضى. وَلَكِنِّي مَا زِلْتُ أَتَذَكَّرُ ذلكَ، وَإِنْ كانَ لَا يُؤَلِّمُنِي بِجِدَّةٍ كَمَا
كانَ يُؤَلِّمُنِي قَبْلًا. أَرَدْتُ أَنَا نَفْسِي، فِي أَعْمَاقِ كِيَانِي، أَنْ أَمُوتَ
أَيْضًا. وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِي أَنْ أَدْعَ ذلكَ يَحْدُثُ، إِذْ كانَ عِنْدِي
ثَلَاثَةُ صِغَارٍ أَهْتَمُّ بِهِمْ. فَاسْتَمَرَّرْتُ فِي الْكِفَاحِ، رُغْمَ أَنِّي أَحْسَسْتُ
طَوَالَ الْوَقْتِ أَنَّ جُزْءًا مِنِّي فَقَطْ كانَ هُنَاكَ. أَمَّا بَاقِيٌّ، فَبِداَ مَفْقُودًا أَوْ
فَاقِدَ الْحِسِّ أَوْ شَيْئًا مِنْ قَبِيلِ ذلكَ“.

قَالَتْ مَارْتِي: ”أنا أعلمُ ما تَقْصِدِينَ“. وَقَدْ كانَ صَوْتُهَا خَفِيضًا جَدًّا
بِحَيْثُ لَمْ تَتَيَقَّنَنَّ بَأَنَّ مَا غَرَاهَامَ تَسْمَعُهَا. ثُمَّ قَالَتْ بِصَوْتٍ أَعْلَى: ”ثُمَّ
التَّقَيْتِ بَنَ“.

”أجل، ثُمَّ التَّقَيْتُ بَنَ . وقد تَسَنَّى لي أن أرى أَنَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ،
وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَعْتَمِدِي عَلَيْهِ.“

”وَوَقَعْتَ فِي غَرَامِهِ؟“

فَتَوَقَّفْتُ مَا، ثُمَّ هَزَّتْ رَأْسَهَا. ”لا، يا مَارْتِي، لَمْ يَحْصُلْ تَوَرُّدٌ فِي
الْوَجْهِ وَوَثْبٌ سَرِيعٌ لِلْقَلْبِ.“

وَحَمَلْتُ مَارْتِي.

”لا، الأَمْرُ مُخْتَلَفٌ مَعَ بَنَ . كُنْتُ مُحْتَاجَةً إِلَيْهِ، وَكَانَ مُحْتَاجًا إِلَيَّ .
لَقَدْ تَزَوَّجْتُ بِهِ لَا عَن حُبِّ، يَا مَارْتِي، بَلْ لِأَجْلِ صِغَارِي... وَلِأَجْلِ
صِغَارِهِ.“

تَوَقَّفْتُ مَا غَرَاهَامَ عَنِ الْكَلَامِ وَجَلَسْتُ تَتَأَمَّلُ فِنِجَانَ قَهْوَتِهَا، مُدِيرَةً
إِيَّاهُ تَكَرَّرًا فِي يَدِهَا، وَقَالَتْ: ”فِي الْوَاقِعِ، يَا مَارْتِي...“. ثُمَّ تَوَقَّفْتُ
ثَانِيَةً، وَعَلِمْتُ مَارْتِي أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ شَاقٌّ عَلَيْهَا. ”فِي الْوَاقِعِ أَنِّي أَوَّلَ
الْأَمْرِ شَعَرْتُ بِأَنِّي مُذْنِبَةٌ بِصُورَةٍ مَا. شَعَرْتُ كَمَا لَوْ كُنْتُ امْرَأَةً فَاجِرَةً،
أَنَامُ مَعَ رَجُلٍ لَمْ أَشْعُرْ بِالْحُبِّ تُجَاهَهُ.“

لَوْ لَمْ تَكُنْ مَا غَرَاهَامُ تَبْدُو جَادَّةً، لَوَجَدْتُ مَارْتِي هَذَا الْقَوْلَ
مُضْحَكًا. فَقَدْ كَانَ صَعْبًا تَصَوُّرُ مَا غَرَاهَامُ ”امْرَأَةً فَاجِرَةً“، وَهِيَ امْرَأَةٌ
فَاضِلَةٌ وَصَلْبَةٌ وَصَادِقَةٌ، لَهَا إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَعِنْدَهَا عَائِلَةٌ قِيَامُهَا أَحَدَ عَشَرَ
فَرْدًا. إِلَّا أَنَّ مَارْتِي لَمْ تَضْحَكْ. حَتَّى إِنَّهَا لَمْ تَتَبَسَّمْ. فَقَدْ فَهِمَتْ
مِقْدَارًا مَا مِنَ الْمَشَاعِرِ الْعَمِيقَةِ الَّتِي عَبَّرَتْ عَنْهَا مَا.

أخيراً همست مارتى: ”ما علمت قطُّ، وما كنتُ قطُّ لأخمنَنَّ أنكِ لم تُحبيَّ بنَ“.

وفي الحال نتأ رأسُ ما غراهام، وقد اتَّسعت عيناها. وهتفت: ”يا إلهي، أيتها المرأة! ذلك كان آنذاك. عجباً! إنني أحبُّ عزيزي بنَ الآن، وفي وسعك أن تكوني واثقةً بذلك حقاً. فالواقع هو أنه ظلَّ رجلاً صالحاً حقاً لي، ويخيّل إليَّ أنني أحبُّه أكثرَ ممَّا أحبُّ نفسي“.

وفيما مارتى مفتونةً، وأيضاً خائفةً قليلاً ممَّا قد تسمعه، سألت: ”متى... متى وكيف حصلَ ذلك؟ تدويمُ الرأسِ وخفقانُ القلبِ وكلُّ شيءٍ؟“

فابتسمت ما غراهام. ”لا، لم يحصل ذلك قطُّ. انظري... لقد تعلّمتُ درسًا. هنالك أكثرُ من طريقة يأتي بها الحُبُّ. صحيحٌ أنه يأتي أحياناً جامحاً، مُحوّلاً الخلقَ إلى سُذجٍ مُتململين. لقد سبقَ أن رأيتهُم، وسبقَ لي أن كنتُ أنا نفسي هناك. ولكن ليس واجباً أن يكون الحُبُّ بتلك الطريقة، وهو ليس أقلَّ حقيقةً ومعنىً بتاتاً إذا أتى بطريقةٍ أخرى. فاعلمي، يا مارتى، أنَّ الحُبَّ أحياناً يأتي مُتسللاً إليك بالتدريج، لا صائحاً بكلماتٍ صريحةٍ أو مُلوّحاً بأعلامٍ زاهية. حتّى إنَّك لا تدريين أنه ينمو وينمو ويقوى إلى أن... لستُ أعلم. فجأةً يستولي عليك بصورةٍ مُباغطةٍ، فتفكرين: ”منذ متى وأنا أشعرُ بمثلِ هذا الشعور، ولماذا لم ألاحظ ذلك من قبل؟“

اضطربتِ مارتِي. كان غريبًا جدًا أن تُتاحَ لها نظرةٌ خاطفةٌ إلى داخل ما غراها على هذا النحو. لقد تصوّرتِ امرأةً شابةً، مُترَمِّلةً على غرارها، ذاتَ أَلَمٍ وِغَمٍّ، فاعِلةً ما شعرتِ بأنّه الأفضلُ لأجلِ أولادها. ثمَّ إنَّ ما غراها سبقَ أن شعرتِ... بالذَّنْبِ! فسرتِ في مفاصِلِ مارتِي قُشَعْريرةً مُرجفةً.

وفكّرتِ: أنا واثقةٌ بأنِّي ما كُنْتُ لِأفعلَ ذلك. شكراً لأَيَّةِ قوَّةٍ تُمسِكُ بزمامِ الأمور على كوني لم أوضِعْ في وِضْعٍ مثلِ ذاك. فأنا كان عليّ فقط أن أكونَ ماما.



كان كلار الصَّغير آخذًا في التُّمُوِّ والاكْتِنازِ، مُناغياً كُلَّ من يُناغيه. وأبدتِ مِسي فخراً كبيراً بالطفل الجديد الذي كانت تُشيرُ إليه بقولها "أهي" (أي أخي). وقد سرَّ كلارك بأن يأخذَ "الفتى الصَّغير" ويَهْزِهْه إذا احتاجَ إلى مَنْ يُهدِّئه أو يُجشِّئه عندما تكونِ مارتِي مشغولةً بإعدادِ الطَّعامِ أو تنظيفِ البيتِ أو غَسْلِ الصُّحونِ. وكان التَّعبُ غالبًا ما يستولي عليها آخرَ اليومِ، إلَّا أنَّها نامت جيِّدًا، وإن كانت المشاعِرُ المُتضاربةُ تُقاطعُ ليايها.

أمَّا كلارك فكان يبدُلُ جَهْدًا مُضاعفًا في الاشتغالِ بقَطْعِ أزندِ الخشبِ. وكان قد قال لِمارتِي إنَّ كوخَهُم أصغرُ من أن يكفيهم، وقد نوى أنه عندما يأتي الرِّبيعُ سيهدمُ السَّقيفةَ ذاتِ السَّطحِ المائلِ ويضيفُ عُرفتي نوم. وتساءلتِ مارتِي هل نسيَ وعده بتجهيزها للسَّفَرِ في رحلةٍ عَوَدَتِها إلى ديارها. لا بأس؛ فالوقتُ مُتوافِرٌ لتذكيره بذلك. إذ كان

الزَّمَنُ آنَ ذَاكَ أَوَّلَ آذَارٍ/ مَارِسَ فَحَسَبَ.

زائرات

وَفَرَّ قُدُومُ طِفْلِ جَدِيدٍ عُدْرًا مُبْهِجًا لِلجاراتِ كِي يَضَعْنَ واجباتِهِنَّ
اليوميَّةَ جانبًا ويذهبنَ زائراتٍ مُهَنَّتاتٍ. وهكذا كانَ أَنَّهُ في الأَسابيعِ التي
تَلَّتْ مَجِيءَ كَلارِ الصَّغِيرِ اسْتَقْبَلَتْ مارتِي بعضًا من جاراتها اللواتي لم
تَكُنْ تَعْرِفُهُنَّ سابِقًا، إِلَّا بِصورةٍ عابرةٍ؛ إذ رَأَتْ أَوْجُهَهُنَّ في جنازةِ
كليم.

كانت أَوَّلَ زائرةٍ لرؤيةِ مارتِي والطفْلِ هي وَندا مارشال.

وضَعَتْ مارتِي جانبًا الزُّبْدَةَ التي كانت تَمخُضُها، ورَحَّبَتْ بِوِندا
تَرحيبًا صادقًا. ”سَرَّني جَدًّا أَنَّكَ آتَيْتِ إِلَيَّ“.

بَدَتْ وَندا صَغيرةَ الحَجمِ والسِّنِّ، ذاتَ شَعرٍ أَشقرٍ لا بُدَّ أَنَّهُ كانَ
جَميلًا جَدًّا في ما مَضَى، ولها عَينانِ زَرَقاوانِ باهَتانِ بَدَتا حَزينَتينِ
بِطَريقةٍ ما، حَتَّى لو ابْتَسَمَت. وعَرَفَتها مارتِي بِأَنَّها تَلِكُ الشَّابَّةُ التي
تَكَلَّمَتِ إِلَيها يَومَ جِنازَةِ كليم ودَعَتها إلى المُشاركةِ في بيتها المُكوَّنِ
من عُرفَةٍ واحِدة.

تَبَسَّمت وَنَدا بِحِياءٍ، وَقَدَّمت هَدِيَّةً لِأَجْلِ الطِّفْلِ الجَدِيدِ.

ولَمَّا فَتَحَت مارتِي الرِّزْمَةَ، وَجَدَت مَرِيْلَةً صَغِيرَةً مُقَطَّبَةً بِبِراعةٍ، وَعَليها تَطْرِيزٌ مُنَمِّمٌ جَدًّا بِحيثُ لَم تَكُد مارتِي تُدْرِكُ كَيفَ تَستطيعُ امْرَأَةٌ أَنْ تُنَجِّزَ عَمَلًا مُتَقَنًَّا كَهذا. وَقَد بَدَتِ المَرِيْلَةُ رَقيقَةً وَأَنيقَةً، عَلى غِرارِ التي قَدَّمَتها، كَما فَكَّرَت مارتِي. فَشَكَرَت وَنَدا وَأَبَدت إِعجابَها بِالتَّقْطِيبِ المُمتازِ، الأَمْرُ الذي قابَلتَه وَنَدا بِهزَّةٍ خَفيفةٍ مَن كَتِفيها النَّحيفَتين.

”ليس عَندِي أَيُّ شَئٍ آخَرَ عَمَلُهُ.“

فَقالت مارتِي: ”يا إِلَهي! يَبدو أَنِّي لا أَجِدُ بَتاًا وَقَنا لِأَيِّ شَئٍ مَندُ أَنْ جَاءَ كَلارِ الصَّغِيرِ. حَتَّى مَسائِي لا يُتَيحُ لي وَقَنا كَثيرًا لِمَجَرَّدِ الاستِرخاءِ.“

لَم تُجِب وَنَدا إِذ حَمَلَت عَيناها في أَناحِءِ البَيتِ. وَأخيراً تَكَلَّمَت بِصوتٍ يَكاَدُ أَنْ يَكونُ هَمَسًا: ”هَل لي أَنْ أَرى الطِّفْلَ؟“

فَأجابَت مارتِي بِحماسَةٍ: ”عَجبًا، نَعم! إِنَّه الآنَ يَنامُ نَومَةً قَصِيرَةً- وَمِسي كَذلكَ أَيضًا- وَلَكنْ إِنْ مَشِينا عَلى رِؤوسِ أَصابعِ أَقدامنا، يُمَكِّنا إِلقاءَ نَظرةٍ خَاطِفةٍ. وَلَعَلَّنا نَتمكَّنُ مَن ارْتِشافِ القَهوةِ قَبلَ أَنْ يَستَيقِظَ مُريدًا غَداً.“

تَقَدَّمت مارتِي الطَّرِيقَ إِلى غُرفةِ النَّومِ. وَأَلَقَت وَنَدا نَظرةً عَلى مِسي النَّائمةِ بِضفائِرها المُشَعَّثةِ وَخَدَّيها المُتَوَرِّدينَ مَن النَّومِ. ”إِنَّها طِفلَةٌ جَميلةٌ، أَلِيسَتْ هَكذا؟“

فقلت Marti بحنان: "مسي؟ نعم، إنها ذميمة، تلك الصَّغيرة!"

ثمَّ التفتت إلى سرير Marti، حيثُ كان كلار الصَّغير نائمًا. وقد كان مَكْسُومًا بالثَّياب المَزخرفة بإتقان، والتي كانت أمُّه الفخورُ قد خاطتها له. كان رأسه الدَّاكن بارزًا فوق البَطَّانيَّة، ومَن خَطَا أَقْرَبَ إليه حظي بنظرة إلى وجهه الطَّفليِّ الأحمر الوردِيّ ذي الرُّموشِ الرَّقِيقة كحريِّ الهندباء البريَّة النَّاعم أعلى خديهِ. وكانت اليدان الصَّغيرتان طليقتين، وقد تشبَّثت قبضةً ضئيلةً بزاويةِ بَطَّانيَّته.

لم تتمالك Marti نفسها عن التَّفكير في أَنه بدا جميلًا، وتعجَّبت من عدم إدلاء زائرتها بأيِّ تعليق. ولمَّا رفعت نظرَها، كان ذلك لرؤية زائرتها مُغادِرةً العُرفة.

تحيَّرت Martي. حقًّا إِنَّ بعضَ الناس لا يُمكن أن تحزَّروهم البتَّة. ثمَّ طبَّعت قُبلةً رقيقةً على رأس كلار الغَضِّ وتبعَت وَندا مارشال عائدةً إلى المطبخ.

لَمَّا وصلتُ Martي إلى المطبخ، كانت المرأةُ الشَّابةُ تنظرُ خارجًا من النَّافذة. فذهبتُ Martي بهدوءٍ لِتُضيف مزيدًا من الحطب إلى النَّار وتضعَ عليها رَكوةَ القهوة. أخيرًا دارت وَندا بِبُطء، فلاحظتُ Martي باندهاش أَنها كانت تُغالبُ الدُّموع.

وإذ حاولت مُوهنةً أن تبتمس، قالت: "أنا آسفة. إنَّه... إنَّه طفلٌ جميل، مُمتازٌ فعلاً".

ثُمَّ جَلَسْتُ إِلَى طَاوِلَةِ مَارْتِي، تُقَلِّبُ يَدَيْهَا بِتَوَثُّرٍ عَصَبِيٍّ فِي حَضْنِهَا، وَعَيْنَاهَا مَخْفُوضَتَانِ، مُتَأَمِّلَةٌ فِي مَا يَبْدُو حَرَكَةَ يَدَيْهَا. وَلَمَّا رَفَعَتْ نَظَرَهَا ثَانِيَةً، خُيِّلَ إِلَيَّ مَارْتِي أَنَّهَا بَدَتْ مَعْمُومَةً تَمَامًا وَأَكْبَرَ مِنْ سِنَوَاتِ عُمْرِهَا.

وَبِمُحَاوَلَةٍ ابْتِسَامٍ أُخْرَى، مَضَّتْ تَقُولُ: "أَنَا آسِيفَةٌ. حَقًّا، أَنَا آسِيفَةٌ. لَمْ أَدْرِ أَنَّ الْأَمْرَ سَيَكُونُ قَاسِيًا جَدًّا. أَعْنِي أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَدَيَّ فِكْرَةٌ أَنِّي سَأَتَفَاعَلُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْغَبَاوَةِ. كَمْ... كَمْ أَحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِي طِفْلٌ، طِفْلِي الْخَاصُّ كَمَا تَعَلَّمِينَ. لَقَدْ كَانَ لِي. أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ لِي أَطْفَالٌ. ثَلَاثَةٌ فِي الْوَاقِعِ - صَبِيَّانِ وَبِنْتٌ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعِيشُوا... إِذْ كَلَّمَهُمْ...". وَتَنَاقَلَ صَوْتُهَا، ثُمَّ تَقَسَّتْ سِيْمَاوَهَا، فَانفَجَرَتْ قَائِلَةً: "يَا لِهَذَا الْبَلَدِ الْبَائِسِ! لَوْ بَقِيتُ فِي الشَّرْقِ بَعِيدًا، إِلَى حَيْثُ أَنْتُمِي، لَكَانَتْ الْأُمُورُ مُخْتَلِفَةً. وَلَكَانَتْ لِي عَائِلَتِي، أَوْلَادِي جُودِي وَأَسْتِيرُ وَيُوشِيَا. إِنَّهُ هَذَا الْمَكَانُ الْمُرُوعُ! انظُرِي... انظُرِي مَا فَعَلَهُ بِكَ أَيْضًا، إِذْ فَقَدْتَ زَوْجَكَ وَاضْطُرَّرتَ لِأَنْ تَتَزَوَّجِي... غَرِيبًا لَكِي تَعِيشِي. إِنَّهُ مَكَانٌ بَغِيضٌ. هَكَذَا هُوَ... بَغِيضٌ تَمَامًا!"

عِنْدئِذٍ كَانَتْ الْمَرْأَةُ الشَّابَّةُ تَبْكِي بِنَشِيحٍ مُتَقَطِّعٍ يُمِزُّ الْقَلْبَ. فَوَقَفَتْ مَارْتِي جَامِدَةً فِي مَكَانِهَا حَامِلَةً شَرَائِحَ مِنَ الْكَعَكِ. وَفَكَّرَتْ بِتَأَثُّرٍ وَارْتِبَاكِ: يَا لَلَسَّمَاءِ! يَا لَهَا مِنْ مَسْكِينَةٍ! مَاذَا أَفْعَلُ الْآنَ؟

سَحَبَتْ نَفْسًا عَمِيقًا كِي تَتَمَاسَكَ، وَعَبَّرَتْ إِلَى وَنْدَا، وَاضِعَةً يَدًا

عَطُوفًا عَلَى كَتِفِهَا. وَقَالَتْ بِرِقَّةٍ: ”أَنَا آسَفَةٌ جَدًّا، آسَفَةٌ جَدًّا! يَا إِلَهِي، إِذَا فَقَدْتُ كَلَارِي الصَّغِيرِ، لَسْتُ أُدْرِي... لَسْتُ أُدْرِي فَعَلًّا إِنْ كَانَ فِي وُسْعِي أَنْ أَتَحَمَّلَ“.

لَمْ تَأْتِ عَلَى ذِكْرِ فَقْدِهَا كَلِيمَ مُجَدِّدًا. فَهَذِهِ الْمَرْأَةُ كَانَتْ تُصَارِعُ حُزْنَهَا لَمْ تَكُنْ مَارْتِي قَدْ وَاجَهَتْهُ... مَرَارَةً مُؤَلِّمَةً. ثُمَّ تَابَعَتْ: ”لَا يَسْعُنِي حَقًّا أَنْ أَعْلَمَ كَيْفَ تَشْعُرِينَ حَتْمًا، إِذْ فَقَدْتِ ثَلَاثَةَ أَطْفَالٍ عَلَى التَّوَالِي، وَلَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ مُوجَعَةٌ عَلَى نَحْوِ رَهِيْبٍ بِالتَّأَكِيدِ“.

كَانَتْ مَارْتِي الْآنَ قَدْ طَوَّقَتْ بِذِرَاعَيْهَا الْكَنَفَيْنِ الْمُرْتَجِفَتَيْنِ وَشَدَّتِ الشَّابَةَ صَوْبَهَا. ”إِنَّهُ أَمْرٌ صَعْبٌ، صَعْبٌ حَقًّا، أَنْ تَفْقِدِي شَيْئًا تُرِيدِيهِ كَثِيرًا جَدًّا. وَلَكِنِّي أَعْلَمُ هَذَا أَيْضًا: لَا يَنْبَغِي أَنْ تَلُومِي الْغَرْبَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ. كَانَ مُمْكِنًا أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ فِي أَيِّ مَكَانٍ... فِي أَيِّ مَكَانٍ. فَالنِّسَاءُ هُنَاكَ فِي الشَّرْقِ يَفْقِدْنَ صِغَارَهُنَّ أحيانًا أَيْضًا. يَجِبُ أَلَّا تَكْرَهِي هَذِهِ الْأَرْضَ. إِنَّهَا أَرْضٌ جَمِيلَةٌ. وَأَنْتِ أَيْضًا. فَأَنْتِ شَابَةٌ، وَلَكِ حَيَاتُكَ أَمَامَكَ. يَجِبُ أَلَّا تَدْعِي هَذِهِ الْمَآسِي تُمَرَّرُكَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ. لَنْ يَعُودَ عَلَيْكَ بِأَيِّ أَثَرٍ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ تُحَارِبِي الْحَالَ الَّتِي تَسْتَقِرُّ الْأُمُورُ عَلَيْهَا، فِي حِينٍ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ لِتَغْيِيرِهَا“.

وَمَا لَبِثَتْ وَنَدَا أَنْ تَمَكَّنَتْ مِنْ تَهْدِئَةِ نَشِيْجِهَا، وَبَدَتْ سَامِحَةً لِنَفْسِهَا بِأَنْ تَقْبَلَ الْعِزَاءَ الَّذِي حَمَلَتْهُ إِلَيْهَا كَلِمَاتُ مَارْتِي وَذِرَاعَاهَا.

فهمست مارتى: ”الحياةُ هي ما تجعلينها، من غير ريب. ما من امرأة تجدُ خيرًا في دفنِ ثلاثةٍ من أطفالها، ولكن- كما قلتُ- ما تزالين شابةً بعد. ربّما-“ كانت على وشك أن تقولَ إلهُ كلارك- ”الزمنُ الممتدُّ أمامك سيُعطيك بعدُ أطفالاً تحمليَنهم وتُحبيَنهم. ما عليك إلا أن تنتظري ويكون لك إيمانٌ و...“.

ثمّ تناقلَ صوت مارتى. يا إلهي، ما كنتُ أظنُّ أن في وُسعِي أن أستمِرَّ في التكلّم هكذا دون توقُّف!

وإذ دهَمَتها فكرةٌ أخرى، قالت: ”وفضلاً عن ذلك، سيكون عندنا الآن طيبٌ في المدينة، وربّما بمُساعدةٍ منه...“.

وتركتِ الفكرةَ مُلقاةً هناك دون أيّ تعليقٍ إضافيٍّ.

بدت وندا في سلامٍ الآن. وبقيت مُستندةً إلى مارتى بضعَ دقائقَ أخرى، ثمّ اعتدلت على مهل، وقالت: ”أنا آسفة. أعلمُ أنني خرقاءُ جدًّا. أنتِ بالغةُ اللُطفِ والشجاعةِ، وأنتِ على حقٍّ أيضًا. سوف... سوف أكونُ بخير. أنا مسرورة... بشأنِ الطيب“.

أوشكتِ القهوةُ أن تغلي وتفور، فهُرعت مارتى لإنقاذها. وإذ جلستنا وأمامهُما قهوتُهُما وكعكتيهُما، باشرت مارتى دَرَدشتَهُما بسؤال وندا عن خلفيّتها.

وعلمت مارتى أنّ وندا كانت ”بنتَ مدينة“، حسنةُ التّنشئةِ والتربيةِ، وربّما مُدلّلةٌ قليلاً أيضًا. أمّا كيف سلكت طريقها إلى الغربِ النَّائي

فأمرٌ كان ما يزال يبدو لُغزًا مُحيرًا حتّى في نظرها شخصيًا. وقد هزّت رأسها كما لو كانت بعدُ لا تستطيعُ أن تسبِرَ تمامًا كيف جرى ذلك كُلُّه.

واضطربَ كلار، فمضتْ مارتِي لتأتي به وتُرضِعَه فيما هُما تتحدَّثان فوق قهوتيهما. وإذ لم تعلمْ مارتِي أيُّ تأثيرٍ قد يكونُ لحُضور الطِّفل بالنِّسبة إلى وندا، أبقتُه مخفيًا جيّدًا بالبطانيّة.

ومضتْ وندا تتحدّثُ بشأنِ قُدرتها على القيامِ بأمرٍ قليلة جدًّا. كانت تُتقِنُ التَّقطِيبَ الجميل، كما علّمتْ مارتِي، ولكنْ لم يكنْ عندها أيُّ مَنْ تَحيطُ له. وما كانت تُحسِنُ التَّنْجيدَ، ولا كانت تُحسِنُ الحَبْكَ أو التَّطْرِيزَ، فما كانت تقومُ بأيِّ أمرٍ يتخطى ما عليها أن تقوم به. وكانت تحبُّ القِراءة، إلاَّ أنّها قرأتْ كُتُبها القليلة مرّاتٍ كثيرة حتّى بات بإمكانها أن تتلوها تسميعًا، ولم يكن لها سبيلٌ إلى الحُصولِ على المزيد.

فعرّضتْ مارتِي الاقتراحَ العمليّ بأن تُعلِّمها كيف تُنجدُ أو تحبِّك أو تُطرِّز، إذا همَّها أن تتعلَّم.

وتحمّستْ وندا: ”أوه، هل تفعلين ذلك؟ أوْدُ كثيرًا لو أتعلَّم“.

فأجابت مارتِي بابتهاج: ”يسرُّني ذلك. في أيِّ وقتٍ يهْمُك أن تأتي إليّ، ما عليك إلا أن تفعلي في الحال“.

أنهى كلار الصِّغير وقتَ الرِّضاعة، وشرَعَ في التَّلوي. فصرّفتْ مارتِي

انتباهها نحوَ الطفل، مُرتبةً ثيابها بصورةَ حسنة، ورافعةً إياه ليُطلقَ تجشُّؤًا ضاجًّا.

وضحكتَ وندا ضحكةً خافتة، ثمَّ تكلمتَ بهدوءٍ: ”هل تُمانعين إذا حملته دقيقة؟“

فأجابتَ مارتِي: ”لا، بتاتًا. لِمَ لا تجلسين هُنَاكَ على الكرسيِّ الهزازِ دقيقةً؟ لقد دَلَّلتُهُ الهزهزةُ أصلًا، على ما أظُنُّ، حتَّى إنَّ قليلًا منها بعدُ لا يُحدثُ أيَّ فرق.“

وبحذرٍ شديد، حملتَ وندا الطفلَ إلى الكرسيِّ الهزازِ، حيثُ قعدتَ وهو مُمكنكُنٌ في حِضنها. أمَّا مارتِي فذهبتَ لِتُنظفَ الطاولة.

لَمَّا نادَت مِسي بعدَ بضعِ دقائق، وعبرتَ مارتِي غُرفةَ الجلوسِ لِإحضارِ البنتِ الصَّغيرة، لاحظتَ وندا تُهزهُزُ برفقٍ، وعيناها سارحتان بعيدًا جدًّا لكنَّ حانيتان، والطفلُ كلار يبدو كأنه مُستمعٌ تمامًا بالاهتمام.

فتجاوبَ قلبُ مارتِي: يا للمِسكينة! يا للمِسكينة! إنِّي محظوظةٌ جدًّا. تاليًا، جاءتَ ما غراهام، آتيةً بِشالٍ طفليِّ جميلٍ محبوبٍ باليد. وأكَّدتَ مارتِي أنَّها ما رأتَ قطُّ شالًا بِمثلِ جَماله. وقدِ اصطحبتَ ما غراهام أولادها في هذه الزَّيارة. كانوا كلُّهم تواقين إلى إلقاءِ نظرهم الأولى على جارهم الصَّغيرِ الجديد. وبدتَ ما تُراقبُ بعينين يَقظتين إذ حملتَ سالي أنَ الطفلَ الصَّغيرِ، ضامَّةً إياه من قُربٍ وعيناها تتلألآن.

وقد أخذ كلُّ من أولادِ ما دورًا في حملِ الطِّفلِ بانتِباهٍ بالغٍ... حتَّى الصِّبيانُ؛ لأنَّهم ترَبَّوا أن يحسبوا الأطفالَ كُنوزًا بالفعل.

تغدَّتِ المجموعةُ معًا، وولَّى عصرُ النَّهارِ قبلَما بدا ذلك مُمكنًا.

وفي اليومِ التَّالي، ظهرتْ عندَ بابِ مارتِي غريبةٌ رثَّةُ الثِّيابِ، ومعها بنتانِ صغيرتانِ رثَّتا الثِّيابِ أيضًا. ولدى ترحيبِ مارتِي قائلةً ”تفضِّلِي ادخُلي“، لم ترُدِّ المرأةُ جوابًا، بل دفعتْ إلى مارتِي صُرةً صغيرةً ملفوفةً على عَجَلٍ.

شكرتها مارتِي وحلَّتِ الهديةُ لتجدَ مَريَلةً أخرى. وقد كانت هذه مُختلفةً تمامًا عن تلك التي أتت بها وندا مارشال، بل مُختلفةً أكثرَ ما يُمكنُ حقًّا: إذ كانت القُماشَةُ خَشِنَةً، ورُبَّما قُدَّت من وِزرةٍ بالية، مع أنَّ الغِزاتِ كانت مُرتَّبةً ومُتناسقةً، ولم تُبدَل أَيَّةُ مُحاولَةٍ لزيادةِ إتقانها، وبدت مُغصَّنةً نوعًا ما من جرَّاءِ حملِها. لكنْ شكرتْ مارتِي المرأةَ بإخلاصٍ مُجرَّد، ودعتُهنَّ مرَّةً أخرى إلى الدُّخولِ.

دخلنَ بِحياءٍ، وأعينُ ثلاثِهنَّ مخفوضة وأقدامُهنَّ مجرورة.

وتجرَّأت مارتِي فقالت: ”لا أتذكَّرُ أنَّي التقيتُكِ من قبل.“

فلم ترفعِ المرأةُ نظرها، وغمغمت: ”أنا...“. ولم تفهم مارتِي أكانت رينا أم تينا أو شيئًا آخر، إلاَّ أنَّها سمعتْ لارسون.

”أه، أنتِ السيِّدة لارسون.“

فأوماتِ المرأةُ برأسها بالإيجاب، وهي ما تزالُ مُحدِّقةً إلى الأرضِ.

”وهاتان بنتاكِ؟“

تورّد وجهها الفتاتين المُشارِ إليهما تورّدًا شديدًا، وبدتا كأنهما تمنّتا أن
تغمرا نفسيهما في ثنايا تنورة أمهما المُغضّنة.

”هذه ناندرى، وهذه كلاي.“

لم تتيقّنْ مارتى بأنّها سمعتِ الاسمّين صحيحين، ولكنّها قرّرت ألا
تسأل ثانيةً.

وبانتظار أن تغلي القهوة، سحبت مارتى نفسًا عميقًا وحاولت أن
تُطلقَ الحديث: ”الجوّ جيّد قياسًا إلى أوّل آذار/مارس“.

فأومات المرأة برأسها مُوافقةً.

”هل يشتغلُ زوجك في قطع الخشب؟“

هزّت رأسها نفيًا. وأخيرًا أجابت، مُقلّبةً يديها في حِضنها: ”إنّه
متنوعٌ قليلًا“.

”آه!“ التقطت مارتى هذا بسرّعة، آملةً أن تُقيمَ رابطًا بينها وبين
زائرتها المُنطوية على نفسها. ”أنا آسفةٌ حقًا لِسَماعِ هذا. أيّ مرضٍ
يشكو؟“

فرفعتِ السيّدة لارسون كِتفًا لِتُبَيّنَ أنّ ذلك كان لُغزًا عندها.

وفكرت مارتى بحُزن: إذا، هذا هو السّبب، مُتصوِّرةً زوجًا وأبًا مُدمنًا على
الكحول.

ثمّ سألت: ”هل تُردنَ رؤيةَ الطّفل؟“

فأوماتِ الثلاثُ برؤوسهنَّ بالإيجاب.

وقامتْ مارتِي. ”إنَّه ينامُ الآنَ نومةً قصيرةً. تعالينَ“.

علّمتْ مارتِي أنْ لا حاجةً إلى تنبيههنَّ للحفاظِ على السُّكوتِ.
فهذا الثلاثيُّ الشَّجِي لم يكنْ قادرًا على أيِّ شيءٍ أعلى من التَّنَفُّسِ،
كما علّمتْ يقينًا.

وصلنَّ إلى السَّريرِ، حيثُ كانَ الطُّفلُ نائمًا. ورفعتْ كلُّ واحدةٍ من
الثلاثِ عينيها عن حدائِها البالي وقتًا يكفي لإلقاء نظرة خاطفة على
الطفل. أكان ذلك بَرِيقَ اهتمامٍ في عيني البنت الصُّغرى؟ لعلَّ مارتِي
تصوَّرت ذلك، كما حكمتْ، ومن ثمَّ تقدَّمتُهنَّ رُجوعًا إلى المطبخِ.

ما كانت مارتِي قطُّ، في حياتها كُلِّها، أكثرَ عرفانًا من أجل رؤية
رُكوةِ قهوةٍ تغلي. ولما قدَّم الكعكُ المُحلَّى، تناولتْ كلُّ من زائراتِها
كعكةً باستحياءٍ، وبدتْ مُترَيِّفةً في أكلها كما لإطالةِ الاستمتاعِ.
فخالجَ مارتِي شعورٌ بأنَّهنَّ قلَّما حَظِينَ بالكعكِ المُحلَّى. وصرتْ لهنَّ
كعكاً بقدرٍ ما تجاسرتْ ليأخذنه معهنَّ إلى بيتهنَّ. ثمَّ أكَّدتْ للبنتينِ:
”لنْ نتمكَّنْ بتاتًا من أكلِ هذا كلِّه قبلَ أنْ يصيرَ عتيقًا“. وقد تجنَّبتْ
بِحذرٍ التَّواصلَ البصريَّ مع أمِّهما. فهي لم تُرد أن تُحرِّجَ هذه المرأةَ
الفقيرةَ.

ثمَّ أقبلتْ هيلدي استرن والسَّيدة واتلي معًا. وكانت هيلدي امرأةً
ودودًا في خريفِ العمرِ. لم تكنْ حكيمةً بقدرٍ ما غراهام، كما قالتْ

مارتي لنفسها، إلا أنها كانت امرأة لا بُدَّ أن تُشكِّلَ جارةً جيِّدةً حقًّا.
أمَّا السيِّدة واتلي التي لم تسمع مارتي اسمها الأوَّل، فكانت امرأةً
صخَّابةً أميلَ إلى البدانة. لم تبدُ ميَّالَةً إلى الإكثار من التَّنقُّل، ولمَّا
سألت مارتي هل تودَّانِ الذَّهابَ إلى غُرْفَةِ النَّومِ لِإلقاءِ نظرةٍ على الطِّفلِ،
أسرعتِ السيِّدة واتلي بتقديمِ اقتراح. ”لماذا لا تأتينَ به إلى هنا
فحسب، يا عزيزتي؟“

وقررتا أن تنتظرا ريثما يستيقظُ كلار من قيلولته.
أحضرت كلُّ من السيِّدتين هديَّة. وكانت هديَّة هِلدي استرن كنزَةً
صغيرةً محبوبكةً باليد. وقد سُرتِ مارتي بها كثيرًا.
أمَّا السيِّدة واتلي فأهدت مارتي مريَّةً أخرى. وهذه المريَّة، الحسنَةُ
الخياطةِ والبسيطةُ وغير المَزخرفةِ بقدرِ الإمكان، ستُستعملُ جيِّدًا معَ
الأخريين. وقد شكرتهما مارتي كليهما بإخلاصٍ مُتساوٍ.
لمَّا أنهينَ شُرْبَ قهوتهنَّ، عمدتِ السيِّدة واتلي - وقد بدا كأنَّها
استمتعتْ ببضعةِ صُحونٍ من الكعكِ والكعكِ - إلى إبداءِ تَعجُّبها من
كونِ مارتي ”طاهيةً صغيرةً عظيمةً“. وتاليًا، تفحصتا الطِّفلَ الجديد.
وبعدما حكمتا بأنَّه عيْنُهُ مُمتازة، قائلتينِ كلُّ ما تتوقَّعُ أمُّ جديدة أن
تسمعه، التفتتِ السيِّدة واتلي نحوَ هيلدي استرن.

”لِمَ لا تركُضينَ وتُحضِرِينَ الحِصانينَ، عزيزتي، وسأُلاقيكِ عندَ
البابِ؟“ وهكذا كان.

كانت السيِّدة فيكرز آخرَ الجارات الزائرات، القرياتِ كفايةً بحيثُ يستحقُّ طفلٌ جديدٌ منهنَّ رحلةً بالعربةِ على طُرُق الشتاء. وقد أقلَّها صبيُّها شيم، فأرسلته إلى الحظيرة مع الحصانين، ثمَّ أقبلت مُستعجِلةً على الممرِّ، وشرعتْ تتكلَّم حتى قبلما وصلتِ مارتي إلى الباب لتفتحه.

”عجبا، عجبا! يا له من شتاءٍ نعيشه! رُغمَ أنني رأيتُ أسوأ منه، فإنني رأيتُ أحسنَ أيضًا... في وسعك أن تعتمدني على ذلك حقًا... سمعتُ أنكِ رزقتِ صغيرًا جديدًا... لا بُدَّ أنه من السيِّد الأوَّل، كما قلتُ لما سمعتُ بذلك... لم تمضِ بعدُ مُدَّةٌ كافية حتى الآن لأجل ذلك. كيف حاله؟ سمعتُ أنه سليم... وذلك هو المُهمُّ كما أقولُ ذلك. أعطيني صغيرًا سليمًا أيَّ يوم بدلَ ان تُعطيني واحدًا وسيما... هكذا أقولُ دائمًا... خذي السليم في أيِّ وقت“.

ثمَّ رفستِ الثَّلجَ عن حذائها ودخلتِ المطبخ. ”عجبا، عجبا! لستِ سعيدة الحظُّ فقط، بل هنا أيضًا مكانٌ صغيرٌ جميل. لا شكَّ أنه يتفوق على تلك العربة المسقوفة بِشادرٍ والتي كنتِ تعيشين فيها. ليس من نساءٍ كثيرات في هذا الجوار لهنَّ بيتٌ جميل كهذا. وأنتِ قد حصلتِ عليه جاهزًا منجزًا تقريبًا. فلنرَ ذلك الصَّغير“.

اقتَرحتِ مارتي بلباقة أن تتناولوا قهوةً ريشما يُكمِلُ كلار قيلولته، ولم تُسقطِ السيِّدة فيكرز العرَض. فاستقرَّت على واحدٍ من كراسيِّ المطبخ،

وجعلت لسانها ينزلق على شفيتها كما لو كانت تُزيت الآلة حتى تشتغل بيسر.

أتيحت لمارتي فرصة لم تكد تتخطى إيماءة خفيفة من رأسها بين لحظة وأخرى. وفكرت في أن ذلك ربّما كان مناسبًا أيضًا. فلو أُعطيت فرصة للكلام، لربّما قالت ليزائرتها بعض الأمور التي تفتقر إلى الحكمة. وبين حصص السيّدة فيكرز من الكعك وجرعاتها من القهوة، سمعت مارتي أن:

”جد لارسون ليس سوى كسول لا ينفع لشيء، يبدأ دائمًا عندما ينتهي كل واحدٍ سواه... إلا حين يتعلق الأمر بالأكل أو الشرب أو إنجاب الصغار... لقد مضى على زواجهما عشر سنين، في أثنائها وُلد لهما ثمانية أطفال... إنّما عاش منهم ثلاثة فقط... إذ دفنا خمسة... ولأنّ زوجته كثيرة الخجل والتهرّب، لا تريد لأيّ شخص في الجوار أن يكلف نفسه حتى الاقتراب...“.

قطعت مارتي لنفسها عهدًا بأنّها عندما يتحسن الجو جيّدًا ستزور السيّدة لارسون.

”وعشيرة غراهام تلك... هل رأيت يومًا صغارًا كثيرين هكذا في عائلة واحدة؟ يكاد ذلك أن يكون إهانة للبشر، ذلك واقع حاله... أمر سيّئ، مثل القِطط أو الفئران... امتلاك مجموعة كاملة من الجراء مثل تلك...“.

وجدتْ مارتِي نَفْسَهَا لَا تَكَادُ تَقْوَى عَلَى كَبْحِ لِسَانِهَا.

”هل رأيتِ أيضًا تلك الشَّابَّةَ، السيِّدة مارشال؟ أنا واثقةٌ بأنَّه كان خَيْرًا لتلك الشَّابَّةِ الصَّعْبَةِ الإرضاءِ لو بقيتْ بعيدًا في الشَّرْقِ، إلى حيثُ تنتمي... هِيَ وأهواؤها المُتأنِّقة... رَغِمَ أَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ حَتَّى تَرْبِيَةَ طِفْلٍ... لا شَأْنَ لِلرَّأَةِ هُنَا فِي الغَرْبِ النَّائِي إِذَا كَانَتْ لَا تَسْتَطِيعُ تَرْبِيَةَ طِفْلٍ... وَأَنَا عَلَى يَقِينٍ... أَعْتَقِدُ أَنَّ هُنَاكَ أَمْرًا تَافَهًا... يَصْعُبُ أَنْ تَضَعِي إِصْبَعَكَ عَلَيْهِ... وَلَكِنْ لَا فَرْقَ فِي كُلِّ ذَلِكَ... حَتَّى إِنَّهَا لَا تَسْتَقْبِلُكَ بِمُجَامَلَةٍ عِنْدَمَا تَزُورِينَهَا... لَقَدْ ذَهَبْتُ إِلَيْهَا مِرَارًا، كَمَا تَفْعَلُ الجَارَاتِ، كُلَّمَا مَاتَ وَاحِدٌ مِنْ صِغَارِهَا... وَقَلْتُ لَهَا بِصِرَاحَةٍ مَا يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ قَائِمَةً بِهِ عَلَى نَحْوِ خَاطِئِي... هَلْ تَعْلَمِينَ مَا جَرَى؟... أَغْلَبَ الأَحْيَانُ كَانَتْ تُدِيرُ لِي ظَهْرَهَا...“

فَفَكَّرْتُ مَارْتِي: مَسْكِينَةٌ وَنَدَا! مُتَأَلِّمَةٌ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ أَجْلِ صَدِيقَتِهَا الجَدِيدَةِ.

”الآن... إِذَا كَانَتْ تِلْكَ حَالَهَا، أَقُولُ، فَلأَدْعُهَا وَشَأْنَهَا. هَلْ زَارْتِكِ هِيلْدِي وَمُود؟ رَأَيْتُهُمَا مَارَّتَيْنِ مِنْذُ بَعْضَةِ أَيَّامٍ... فَقَلْتُ إِنَّهُمَا ذَاهِبَتَانِ لِرُؤْيَةِ ذَلِكَ الطِّفْلِ الجَدِيدِ عِنْدَ آلِ دِيْقِس... حَسَنًا، هِيلْدِي جَارَةٌ مُمْتَازَةٌ... مَعَ أَنَّ لَدَيْهَا بَعْضَ الخُصُوصِيَّاتِ الغَرِيبَةِ... وَأَنَا لَسْتُ أَمْرًا تَعْمِدُ إِلَى ذِكْرِهِنَّ. وَالآنَ، مُود وَاتْلِي... تِلْكَ مَسْأَلَةٌ أُخْرَى... مَا كَانَتْ لِتَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ يَتَطَلَّبُ مَجْهُودًا مَا، تِلْكَ الرَّأَةِ... وَلَمْ تَكُنْ دَائِمًا كَبِيرَةً

كما هو العَرَبُ نفسه... عاشت هناك مُدَّةً قبل أن تصطادَ رَجُلَهَا إذ كانت فتاةً مَرَقَصَ... لا تُريدُ لأحدٍ أن يعرفَ ذلك بالتأكيد... ولكن هذا هو الواقع... هل ذهبتِ إلى المدينة يوماً؟“

ولدى هَزِّ مارتِي رأسها نفيًا، استعجَلتْ زائرتها مُتابعةً حديثها.

”انْبِهي، عندما تذهبين، لا تحكي هُنَاكَ للسَيِّدة مَكدونالْد أَيَّ شيءٍ لا تُريدن أن ينتشرَ خبرُه بِسرعة زائدة؛ فتلك المرأة سليطة اللسان من الدرْجة الأولى.“

واكتشفتْ مارتِي أيضًا أَنَّ السَيِّدة ستاندن كثيرًا ما زارتِ المدينة إذ كان لها عشيقٌ تلتقيه أَيَّامَ السَّبْتِ.

”أنا واثقة بأنَّ القَسَّيسَ الزَّائرَ لديه ما يُخفيه، ولولا ذلك لاستقرَّ في مكانٍ واحد.“ وقد خفَصَتِ المرأة صَوْتَهَا كأنَّ أحدًا آخر قد يسمَعُ السِّرَّ الخفيَّ.

”آل كرافت بانتظارِ مَوْلودٍ جديدٍ يجعلُ صِغارَهُم خمسة.“

”ومِلت كوتِرز، عازِبُ المِنطقة، ييدو صائِرًا أغْرَبَ كلِّ يوم. ينبغي أن تُدَبَّرَ له زوجة... ذلك سينفَعُه بعضَ الشيء... إنَّه يتعاطى المُسكرَ في مكانٍ ما أيضًا... لا أحدٌ يعلمُ أين، ولكنَّ عندي سُكوكي.“

وبِلا انقِطاع، استمرَّت تتحدَّثُ كصحيفةٍ متنقِّلة. سيَصِلُ الطَّبیبُ الجديد في نَيْسان/أپریل... يقولُ الأهالي إنَّ كلارك أتى به... هُم يحتاجون إلى طيب... عسى أن يتمتَّعَ بالكفاءة ولا يأتي إلى هُنا

لمجرّد كَسْبِ المال من مصائب الناس.

وستتزوَّجُ الشَّابَّةُ سالي آن بجايسون استرن... يُظَنُّ أَنَّ العائلتين ستترافقان حسناً إلى حدٍّ بعيدٍ في السنين القليلة التالية.

أخيراً، توقفتِ المرأةُ لأخذِ نفسٍ، فأبدتِ مارتي بصوتٍ عالٍ تساؤلها عن عدم مجيء شيم من الحظيرة، وافترضت أنَّ البردَ والتَّعبَ من الانتظار لا بُدَّ أن يكونا قد بدأا يستوليان عليه. ستبعثُ إليه بقطعةٍ كعكٍ، وكعكةٍ زنجبيل أو كعكتين مع السيِّدة فيكرز.

لا بُدَّ أن تكونَ السيِّدة فيكرز قد فهمتِ التلميح، فتوجَّهت نحوَ الباب وهي ما تزالُ تُثرثرُ لدى مُغادرتِها. كان رأسُ مارتي يُدومُ وأذناها تَطْنان. ولم تكنِ الزائرةُ قد أَلقت على الطُّفل حتى نظرةً واحدة.

اكتِشافاتٌ جديدةٌ

كانت أَيَّامُ آذَارٍ/مارس حافلةً بالنَّشاطِ لكَلارك. وقد راقبتِ مارتِي فيما بذَلَ جَهْدًا مُضَاعَفًا في قطعِ أزنَادِ الخَشَبِ، مُشْتَغِلًا ما دامَ ضَوْءُ النَّهَارِ مَوْفُورًا، ثُمَّ قَائِمًا بالمِهَامِّ على ضَوْءِ فانوس. وكانَ كلَّ لَيْلَةٍ، إلى مائدةِ العشاءِ، يُسَجَّلُ مجموعَ الأزنَادِ التي قطعَها لأجلِ الإضافةِ الجديدةِ. وبقيَ مع مارتِي على بِيئَةٍ من عددِ الأزنَادِ الإضافةِ التي تقتضيها الحاجةُ.

وكانتِ أَيَّامُ مارتِي أيضًا مملوءةً بالعملِ، فيما تقومُ بالأعمالِ المنزليَّةِ المُعتادةِ وتهتمُّ بالطفْلِ الجديدِ وبمِسي. ومعَ ازديادِ الاحتياجِ إلى ثيابٍ مغسولةٍ، استصعبتِ مارتِي أن تجعلَ الثَّيابَ تجفُّ بين الغسلةِ الواحدةِ وتاليَّتها.

في الأمسياتِ، بعد أن يُوضَعَ الولدانُ في الفراشِ لِنَما لَيْلًا، كانَ كلاركُ ومارتِي كِلاهُما مَسرورينَ بأن يجلسا في هدوءٍ أمامَ النَّارِ المكشوفةِ، حيثُ تنكبُّ مارتِي على التَّنْجيدِ أو الحَبْكِ، ويقرأُ كلاركُ واحدًا من كُتُبِهِ أو يشتغلُ في مشروعٍ ما، أو يُصلِحُ إحدى الأدواتِ

الصغيرة من نوعٍ أو آخر. وقد وجدتُ مارتي التحدُّثَ مع كلارك أمرًا مُريحًا على نحوٍ مُتزايد. فبالحقيقةِ أنَّها كانت تتشوق إلى سردِ أحداثِ اليوم والتحدُّثِ بأحداثِ مِسي معها.

أمضى كلارك عدَّةَ أمسياتٍ يُشكِّلُ سريرًا جديدًا لمِسي، حتَّى يُتاح لِكَلار الصَّغير النَّامي بسرعة أن يستحوذَ على المهد. فاستمتعتُ مارتي برؤية السَّرير يتشكَّل. ولاحظتُ أنَّ الأدواتِ البسيطةَ القليلة التي اشتغلَ كلارك بواسطتها استجابتُ جيّدًا ليدَيه الماهرتين. وقد ضمتُ بحذرٍ القطعَ التي ستكوّن اللِّحافَ الجديدَ المُناسبَ للسَّرير، وأحسَّت شعورًا مُتناميًا بالمُشاركة في الإنجاز.

وفيما هُما يَعمَلمان، تحدَّثتا بشأنِ الأشخاصِ والأحداثِ التي تُكوّنُ عالمَهُما الصَّغير. فالخريفُ المُبكرُ والشتاءُ الطَّويلُ جعلَ الحيوانات تنزِلُ من الجبال بحثًا عن طعام. وقد ظلَّ ذئبا قَيُوطٍ مؤخرًا يتنقلانِ أقربَ فأقربَ في اللَّيالي، فيقَهقه كلارك ومارتي معًا حيالَ النَّباحِ الصَّاحِبِ لبوب العجوز تعبيرًا عن قلقه بسبب التَّطفُّل.

نادرًا ما شوهدَ الجيرانُ في أثناءِ أشهرِ الشتاء، ومن ثمَّ كانت الأخبارُ شحيحة. وقال كلارك إنَّ أخبارًا سُمِعَت عن إصاباتِ حَصْبَةٍ في البلدة، ولكنْ لم تنشأَ حالاتٌ خطيرة.

تحدَّثَ الاثنانِ بشأنِ الزَّرْعِ في الرَّبيعِ وخُطَطِ بناءِ غُرْفَةِ النَّومِ الجديدة، آمليْنِ أن يأتي الرَّبيعُ باكرًا ولا يتأخَّر. وتضاحكا حيالَ

محاوَلاتِ مِسي القِيامِ بِدَوْرٍ أُمٍّ لِلطِّفْلِ الَّذِي كَانَتْ تُسَمِّيهِ ”أَهِي
كلارك“. لَمْ يَتَبَادَلَا أَيَّ أَحَادِيثَ مَخْصُوصَةٍ تَدُورُ حَوْلَ مَوْضُوعٍ مُعَيَّنٍ،
وَلَكِنَّهُمَا كَانَا عَلَى وَجْهِ الاحْتِمَالِ يَكْتَشِفَانِ أُمُورًا أَعْمَقَ، أَحَدُهُمَا عَنِ
الْآخَرِ، دُونَ أَنْ يَكُونَا مُتَبَنِّهَيْنِ فِي الْوَاقِعِ إِلَى تِلْكَ الْحَقِيقَةِ. فَقَدْ جَرَى
التَّشَارُكُ فِي الْأَحْلَامِ وَالْأَمَالِ، بَلْ فِي الْإِيمَانِ أَيْضًا، بِطَرِيقَةٍ عَفْوَِيَّةٍ
عَادِيَّةٍ.

وَذَاتَ مَسَاءٍ، بَيْنَمَا مَارْتِي تُتَجَدُّ وَكَلَارِكُ يَصْقَلُ لَوْحَةَ السَّرِيرِ الرَّأْسِيَّةِ
بِالْوَرَقِ الْمُرْمَلِ، تَطَرَّقَ حَدِيثُهُمَا إِلَى الْمَقْطَعِ الَّذِي كَانَ كَلَارِكُ قَدْ قَرَأَهُ
عَالِيًا مِنَ الْكِتَابِ الْمَقْدَّسِ عِنْدَ الْفَطُورِ فِي صَبَاحِ ذَلِكَ الْيَوْمِ. وَإِذْ لَمْ
تَكُنْ لِمَارْتِي أَيَّةُ خَلْفِيَّةٍ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، اسْتَصَعَبَتْ أَنْ تَفْهَمَ كَثِيرًا مِنَ
الْحَقَائِقِ الَّتِي سَمِعَتْهَا مِنَ الْكِتَابِ الْمَقْدَّسِ. فَمَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ، كَانَ
كَلَارِكُ قَدْ شَرَحَ لَهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْوَعُودِ الَّتِي قَطَعَهَا اللَّهُ لِلشَّعْبِ الْعِبْرَانِيِّ
بِشَأْنِ مَسِيحِ سِيَّاتِي. وَلَكِنَّ إِدْرَاكَهُمْ لِلغَرَضِ مِنْ مَجِيئِهِ كَانَ مُخْتَلِفًا إِلَى
أَبْعَدِ الْحُدُودِ عَمَّا جَاءَ لِإِنجَاذِهِ فَعَلًّا. فَقَدْ أَرَادُوا الْحُرِّيَّةَ مِنْ ظَالِمِيهِمْ،
أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَ لِإِعْطَاءِ الْحُرِّيَّةِ مِنَ الذَّاتِ وَالخَطِيئَةِ. أَرَادُوا أَنْ يَكُونُوا
جُزءًا مِنْ مَمْلَكَةِ دُنْيَوِيَّةٍ عَظِيمَةٍ، أَمَّا مَمْلَكَتُهُ فَكَانَتْ سَمَاوِيَّةً أَصْلًا.

بَدَأَتْ مَارْتِي تَفْهَمُ بَعْضَ الْأُمُورِ الْمُخْتَصَّةِ بِالْمَسِيحِ، وَلَكِنْ بَقِيَ فِي
ذَهْنِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَسْئَلَةِ غَيْرِ الْمُجَابِ عَنْهَا.

وَسَأَلَتْ بِصِرَاحَةٍ: ”هَلْ تَعْتَقِدُ حَقًّا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي يُدِيرُ الْعَالَمَ كُلَّهُ

يَعْرِفُكَ شَخْصِيًّا؟“

فأجاب كلارك ببساطة: ”أنا على يقينٍ حقًا بأنه يَعْرِفُنِي كذلك“.
”وكيف يُمكنك أن تكون مُتيقنًا هكذا؟“

فنظرَ كلارك، وهو مُستغرقٌ في التَّفكير، إلى الكتاب الموضوع بعنايةٍ على الرَّفِّ بقُرب الطَّاولَةِ، وقال: ”أنا أُصدِّقُ الكتابَ المقدَّسَ، وهو يقولُ لي إنَّ الله يفعل ذلك. وأيضًا لأنَّه يستجيبُ صَلواتي“.

”تعني بإعطائك أيِّ شيءٍ تطلبُه إليه؟“

فكَّرَ كلارك دقيقةً، ثُمَّ هزَّ رأسه نفيًا. ”لا، ليس كذلك. أغلب الأحيان، يُساعدُنِي ببساطة حتَّى أتابعَ حياتي بغيرِ ما طلبتُه“.

فهزَّت مارتِي رأسها. ”تبدو تلك فكرةٌ غريبةة“.

وحدَّق كلارك إليها لحظةً، ثُمَّ قال: ”أعتقدُ أنَّها ليست غريبةةً جدًّا. فأحيانًا كثيرة، ما يطلبُه النَّاسُ لا يحتاجون إليه“.

”ماذا مثلًا؟“

”مثلًا المحاصيلَ الجيِّدة والمحاريثَ الجديدة، وحيارةٌ بقرةٌ أو بقرتين بعدُ“.

”وماذا إذا فقدتَ شيئًا في حوزتكِ فعلاً وقد حقًا أحببتَه؟“

فقال بلا تردُّد: ”تقصُدينَ مثلَ كليمٍ أو أَلين؟“

وأوماتَ برأسها على مهلٍ مُوافقةً.

”إنَّه لا يَنْزِعُ البَلَوَى، ولكنَّه يَقيِنًا يُشارِكُك في احتِمالِها“.

”بينما كان عليّ أنا أن أجدَ شخصًا أُشارِكُه في بلوأي“.

”لقد كان حاضرًا، وأعتقدُ أَنه ساعدك أَكثَرَ ممَّا كُنْتَ تعلمين“.

”ولكنِّي لم أعْرِفَ حقًّا أن أطلبَ إليه ذلك“.

”أنا فعلتُ ذلك“.

كارثة!

في السَّادِسَ عَشَرَ من آذار/مارس، أكْمَلَ كلار الصَّغِيرُ شَهْرَهُ الأوَّلَ في العائلة. حَتَّى الآن، ما زالَ طِفْلاً من الدَّرَجَةِ الأوَّلَى، ولكنَّ كلارك ظلَّ يُحذِّر: ”ما عليك إلا الانتظار حَتَّى تبدأ أسنانه بالطلوع“.

قالت مارتى لكلارك إنَّها تَتمنَّى أن يكون مُخطئًا... وكلارك أيضًا تَمنَّى ذلك بحرارة. وقد قال لها: ”مسي نفسها مرَّت في وقتٍ مُرَوِّع فعلاً عندَ طلوع أسنانها“.

باتَ النَّهارُ أَبْرَدَ بعدما ظَهَرَت بعضُ تباشير الرِّبِيع، وبدا كأنَّ عاصفةً أُخرى قد تَهَبُّ سَريعًا. وكان كلارك قد غادرَ باكراً في الصَّبَاح للتَّروُّدِ مُجدِّداً بِالْمُؤَنِ الضَّرورِيَّةِ.

ثمَّ رَجَعَ كلارك أَبْكَرَ من المُعتاد، والعاصفةُ المُتوقَّعة ما تزالُ ساكنة. وقد أرسلتِ السَّيِّدة مَكْدونالد رِزْمَةً صَغيرةً لِأَجْلِ الطِّفْلِ. ففتحتْها مارتى ووجدتْ مَريلاً صَغيرةً أُخرى.

فقالَت ضاحِكةً: ”أنا واثقةٌ بأنَّ الصَّبِيَّ سيُكون مزوِّداً جيِّداً بِالْمَرايِلِ.“

تَحْمِينِي أَنَّهُ سَيُفْرَزُ اللَّعَابَ كَثِيرًا عِنْدَمَا تَبْرُزُ أَسْنَانُهُ“.

وَضَحِكَ كَلَارِكَ مَعَهَا.

كَانَ سَرِيرُ مِسي قَدْ كُمَّلَ الْآنَ وَوُضِعَ فِي غُرْفَةِ النَّوْمِ، وَالْمَهْدُ الصَّغِيرُ نُقِلَ إِلَى غُرْفَةِ الْجُلُوسِ، حَيْثُ كَانَ الْمَكَانُ أَكْثَرَ دِفْئًا لِلطِّفْلِ فِي أَثْنَاءِ النَّهَارِ. وَقَدْ بَاتَ الْآنَ مُسْتَيْقِظًا أَغْلَبَ الْأَحْيَانِ، كَمَا أَحَبَّ أَنْ يَتَمَدَّدَ وَيَتَطَّلَعَ حَوَالِيهِ، مُلَوِّحًا بِقَبْضَتَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ فِي الْهَوَاءِ بِاهْتِجَاجٍ شَدِيدٍ. وَكَانَتْ مَارْتِي مَا تَزَالُ تُؤْوِيهِ فِي السَّرِيرِ مَعَهَا لَيْلًا.

لَمَّا انْتَهَى النَّهَارُ وَهَبَطَ الْمَسَاءُ، لَاحِظَ كَلَارِكُ وَمَارْتِي كِلَاهُمَا تَغْيِيرًا فِي الرِّيحِ. وَعَلَّقَ كَلَارِكُ: ”أَخْمَنُ أَنَّنَا لَنْ نَتَعَرَّضَ لِتِلْكَ الْعَاصِفَةِ اللَّيْلَةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ“.

لَقِيَتْ تِلْكَ الْفِكْرَةَ تَرْحِيبًا مَلْمُوسًا. كَانَتْ كَوْمٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الثَّلْجِ مَا تَزَالُ مُنْطَرِحَةً عَلَى الْأَرْضِ، وَقَدْ خَابَتْ تَكَرَّرًا آمَالُهُمَا بِرَبِيعٍ مُبَكَّرٍ. وَبَقِيَ الْجَوُّ بَارِدًا مُعْظَمَ الْأَحْيَانِ، مَعَ تَسَاقُطِ ثَلْجٍ بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ، وَقَدْ جَعَلَتْ الرِّيَّاحُ الْقُطْبِيَّةَ الشَّمَالِيَّةَ إِقَامَةَ الشِّتَاءِ الطَّوِيلَةَ أَكْثَرَ كَابَةً بَعْدَ.

بَعْدَ سَفَرِ كَلَارِكِ الْعَاجِلَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقِيَامِ مَارْتِي بِصُنْعِ الْخُبْزِ وَغَسْلِ ثِيَابِ الطِّفْلِ، بَاتَا كِلَاهُمَا مُتَعَبَيْنِ مِنْ شُغْلِ نَهَارٍ طَوِيلٍ. فَمَا كَانَ مِنْ كَلَارِكِ إِلَّا أَنْ قَالَ: ”لَيْلَةٌ سَعِيدَةٌ“ وَتَوَجَّهَ إِلَى السَّقْفِيفَةِ ذَاتِ السَّطْحِ الْمُنْحَدِرِ.

دَسَّتْ مَارْتِي نَفْسَهَا فِي السَّرِيرِ، مَادَّةً أَصَابِعَ قَدَمَيْهَا عَمِيقًا دَاخِلَ

البَطَانِيَّاتِ المُدْفِئَةِ. وَأَرْضَعَتْ كَلَارَ الصَّغِيرِ جَيِّدًا حَتَّى يَنَامَ أَطْوَلَ مُدَّةٍ مُمَكِّنَةً مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ اسْتَلَقَتْ وَهُوَ مُغَطَّى جَيِّدًا بِجَانِبِهَا. وَخِيَّلَ إِلَيْهَا أَنَّهَا لَمْ تَكُدْ تَسْتَسَلِمُ لِلنَّوْمِ إِذِ اسْتَيْقَظَتْ وَكَلَارُكَ مُنْحَنٍ فَوْقَهَا وَهُوَ يَرْتَدِي سِتْرَتَهُ مُسْتَعْجِلًا.

”الحظيرة تشتعل. ابقِي في مكانك. أنا ذاهبٌ لأجلِ الماشية“. ثُمَّ

مضى.

أَحْسَتْ مَارْتِي رَأْسَهَا غَائِمًا بِالنَّوْمِ. هَلْ حَلَمَتْ حُلْمًا؟ لَا، لَقَدْ كَانَتْ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ كَلَارُكَ كَانَ هُنَاكَ فَعَلًا. فَمَاذَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَفْعَلَ؟ بَدَأَ أَنَّهُ مَرَّ دَهْرٌ قَبْلَمَا تَمَكَّنَتْ مِنَ التَّحْرُكِ أُخِيرًا، مَعَ أَنَّ الْمُدَّةَ دُونَ شَكٍّ كَانَتْ مَسْأَلَةَ ثَوَانٍ فَحَسَبَ. وَهَبَّتْ مَدْعُورَةً مِنَ السَّرِيرِ، مُتَحَقِّقَةً أَنَّ كَلَارَ وَمَسِي كِلَيْهِمَا كَانَا نَائِمِينَ، ثُمَّ دُونَ أَنْ تَتَوَقَّفَ لِتَرْتَدِي ثِيَابَهَا، أَوْ تَلْبَسَ حَتَّى جَوْرِيَّهَا الْبَيْتِيِّينَ، رَكَضَتْ عِبْرَ الْمَنْزِلِ إِلَى نَافِذَةِ الْمَطْبَخِ. وَحَتَّى قَبْلَمَا أَزَاحَتِ السُّتَارَةَ، اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَرَى الْوَهَجَ الْأَحْمَرَ الْغَاضِبَ. فَاسْتَوَلَى عَلَيْهَا الرَّعْبُ إِذْ نَظَرَتْ إِلَى الْمَشْهَدِ. كَانَ سَقْفُ الْحَظِيرَةِ مُشْتَعِلًا، وَالسِّنَةُ اللَّهَبِ الْمُتَوَاتِبَةُ تَخْتَرِقُ الْفَضَاءَ الْمُظْلِمَ، وَالذُّخَانُ يَتَدَفَّقُ صُعُودًا، وَظَهَرَتْ هُنَاكَ صُورَةُ كَلَارِكَ الْمُظَلَّلَةَ قُبَالَةَ الْمَشْهَدِ الْمُرُوعِ. وَقَدْ فَتَحَ بَابَ الْحَظِيرَةِ عَلَى مِصْرَاعِيهِ فَشَرَعَ الذُّخَانُ يَتَرَاقِصُ خَارِجًا.

وَإِذْ أَدْرَكَتْ مَارْتِي مَا قَالَهُ لَهَا فَعَلًا، وَرَأَتْهُ يَهْمُ بِدُخُولِ الْجَحِيمِ، خَرَجَ

صَوْتُهَا مَخْنُوقًا، وَكَانَ لَهُ فِي أُذُنَيْهَا مَا شَعَرَتْ بِهِ مِنْ وَقَعِ يَأْسٍ: ”لَا،
كَلَارِك، لَا. لَا تَدْخُلْ إِلَى هُنَاكَ، رَجَاءً، رَجَاءً...“.

إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَدْ دَخَلَ... لِأَجْلِ الْحَيَوَانَاتِ. فِي وَسْعِنَا أَنْ نَحْصُلَ عَلَى
حَيَوَانَاتٍ أُخْرَى، يَا كَلَارِك. وَبِكَى قَلْبُهَا فِي صَمْتٍ.

وَقَفْتُ عِنْدَ النَّافِذَةِ... مُرَاقِبَةً، مُتَوَتِّرَةً، مَائِتَةً أَلْفَ مِيتَةٍ فِي مَا بَدَأَ أَنَّهُ
دَهْرٌ، مُصَلِّيَةً بِأَفْضَلِ مَا تَسْتَطِيعُ. ثُمَّ مِنْ خِلَالِ الدُّخَانِ بَرَزَ تَشَارِلِي - أُم
كَانَ دَانَ؟ - وَوَرَاءَهُ تَمَامًا خَرَجَ الحِصَانُ الأَخْرَى، رَافِعًا قَائِمَتِيهِ الأَمَامِيَّتَيْنِ
وَرَافِسًا الهَوَاءَ بِحَوَافِرِهِ فِيمَا يَسْتَنِدُ إِلَى قَائِمَتِيهِ الخَلْفِيَّتَيْنِ. وَخَرَجَ وَرَاءَهُمَا
تَمَامًا حِصَانُ الرُّكُوبِ، جَارًّا حَبْلَ رَسْنِهِ وَرَافِعًا رَأْسَهُ بِجُمُوحٍ. وَقَدْ رَكَضَ
حَتَّى اصْطَدَمَ بِسِيَاحِ الزَّرْبِيَّةِ فِي بِلَاهَةِ، ثُمَّ سَقَطَ إِلَى الوَرَاءِ، وَمَا لَبِثَ
أَنْ قَامَ مِنْ جَدِيدٍ لِيَرْكَضَ دَائِرِيًّا مَذْعُورًا مَسْعُورًا.

حَدَّقْتُ مَارْتِي بَعَيْنَيْنِ غَيْرِ طَارِفَتَيْنِ إِلَى بَابِ الحِظِيرَةِ. وَهَمَسْتُ عَبْرَ
أَسْنَانٍ مُطَبَّقَةٍ بِأَحْكَامٍ: ”أَه، كَلَارِك، كَلَارِك، رَجَاءً، رَجَاءً. يَا اللَّهُ، إِذَا
كَنتَ قَادِرًا أَنْ تَسْمَعَ، فَرَجَاءً دَعُوهُ يَخْرُجُ“.

وَلَكِنَّ الشَّكْلَ القَائِمَ التَّالِيَّ كَانَ بَقْرَةً حَلُوبًا، ثُمَّ أُخْرَى، ثُمَّ أُخْرَى.

فَقَالَتْ مَارْتِي نَاشِجَةً: ”أَه، يَا اللَّهُ! لَنْ يَنْجُو هَكَذَا“.

بَاتَتْ جُدْرَانَ الحِظِيرَةِ الآنَ مَعْمُورَةً بِأَلْسِنَةِ النَّارِ أَيْضًا. وَقَدْ لَحَسَتْ
النَّارُ بَنَهُمَ عُرْضَ الحَائِطِ، مَادَّةً أَصَابِعَ مُرُوعَةٍ نَحْوِ البَابِ المَفْتُوحِ. ثُمَّ
رَأَتْهُ مَارْتِي، مُتَعَثِّرًا عَبْرَ البَابِ، جَارًّا عُدَدَ أَحْصِنَةٍ وَمُتْرَنِّحًا، حَتَّى وَصَلَ

إلى سِياج الزَّرِيَّة. وتَسَنَّى لها أن تراه مُتَشَبِّثًا بِالسِّيَاح لِأَجْلِ الدَّعْمِ
وسَاحِبًا مَنشَفَةً مُبَلَّلَةً، لا بُدَّ أن يَكون قَدِ التَّقَطُّهَا وَهُوَ خَارج، بَعِيدًا عَن
رأسه وَوَجْهه.

وَإِذِ انْهَارَتْ مَارْتِي كُومَةً عَلَى أَرْضِيَّةِ المَطْبَخِ البَارِدَةِ، صَاحَتْ: ”آه،
يا اللهُ!“

وَبطَرِيقَةٍ ما، تَرَاقَصَتِ اللَّيْلَةُ الطَّوِيلَةُ بِأَجْزَائِهَا الضَّبَائِيَّةِ مَنذِ ذاكِ الحَينِ
فِصَاعِدًا. إِذِ لَمْ تَستَطِعْ مَارْتِي بِبِساطَةِ أن تَستوعِبَ كُلَّ ما جَرى. نَجا
كَلارِكُ سَالمًا، وَلَكنَّ الحَظِيرَةَ صَارَتْ فِي خَبَرِ كان. وَبَدَأَ رِجالُ الجِوارِ،
حَاملين مَاءً وَثَلْجًا، مُنتَشِرِينَ فِي كُلِّ مَكان، مُحاوِلِينَ الآنَ إنقاذَ
المَبانِي الخَارجِيَّةِ الأُخْرى.

وَكانَ هُنَاكَ نِساءً أَيْضًا، يَحْمَنَ حَولِها فِي صَخَبٍ، مُتَحَدِّثاتٍ
وَمادَّاتٍ لِلرِّجالِ أَيْدِي العَونِ بِالتَّنَاقُوبِ، مُحَضَّراتٍ السَّانِدِويَتِشاتِ
والقَهوَةِ. وَقَدِ شَعَرَتْ مَارْتِي بِالخَدَرِ مِنَ الإِعياءِ العَاطِفيِّ. وَإِذا بِأِحْداهُنَّ
تَضَعُ الطِّفْلَ كَلارِ عَلَى ذِراعِي مَارْتِي، قائِلَةً:

”إِنَّهَ يَبْكِ لِياكُلُ. الأَحْسَنُ لِكَ أن تَقْعُدِي وَتُرْضِعِيهِ.“

فَفَعَلَتْ. وَذلكَ المِقْدارُ أَمْكَنَها فَهَمُّه.

لَمَّا جَءَ الصَّبَاحُ، كانَتِ الحَظِيرَةُ رُكامًا مُدْخَنًا، وَلَكنَّ السَّقائِفَ
أُنقَذَتْ.

احْتَشَدَتْ وَجوهٌ مُتَعَبَةٌ، سَوَّدَها الدُّخانُ، حَولَ مَشْعَلَةٍ أُضْرِمَتْ عَلَى

عَجَلَ فِي الْفِنَاءِ، لِتَنَاوُلِ الْقَهْوَةِ وَالسَّانْدُوَيْتِشَاتِ. وَقَدْ كَانَتْ ثِيَابُهُمْ
وَجَزَمَاتُهُمْ مَكْسُوتَةً بِالْجَلِيدِ، وَأَيْدِيهِمْ حَوْلَ الْكُؤُوسِ طَلَبًا لِلدَّفْعِ.
وَتَحَدَّثُوا بِأَصْوَاتٍ مَخْفُوضَةٍ. فَأَنْ يَخْسَرَ الْمَرْءُ مَزْرَعَتَهُ وَعَلَفَ مَاشِيَتِهِ،
وَالشِّتَاءُ مَا يَزَالُ فِي عِزِّهِ، كَانَتْ خَسَارَةً فَادِحَةً، وَكُلُّ وَاحِدٍ عَرَفَ ذَلِكَ
جَيِّدًا.

وَأخِيرًا جَمَعَ الرَّجَالُ نِسَاءَهُمْ بِهُدُوءٍ، تَوَاقِينَ لِأَنْ يَذْهَبُوا إِلَى بَيْوتِهِمْ
وَيَخْلَعُوا ثِيَابَهُمُ الْمُجَلَّدَةَ. وَمَا إِنْ غَادَرَ أَوَّلَ حِصَانَيْنِ الْفِنَاءِ، حَتَّى وَصَلَ
جَدٌ لَارِسُونِ مَعَ حِصَانِيهِ.

سَمِعَتْ مَارْتِي هَمْسَ انْزِعَاجٍ: "إِنَّهُ جَدُّ الْكَهْلُ الطَّيِّبِ. لَعَلَّهُ يَتَأَخَّرُ
عَنْ جَنَازَتِهِ أَيْضًا!"

تَوَلَّى جَدُّ الْأَمْرِ حَيْثُ غَادَرَ الْآخَرُونَ، مُتَفَضِّلًا تَلْقَائِيًّا بِشُرْبِ فِنْجَانِ
قَهْوَةٍ وَخَطْفِ سَانْدُوَيْتِشٍ. وَبَيْنَمَا غَادَرَتِ الْعَائِلَاتُ الْمُجَاوِرَةَ، وَاحِدَةً إِثْرَ
وَاحِدَةٍ، بَدَأَ أَنَّهُ قَاعِدٌ لِأَجْلِ دَرْدِشَةِ طَوِيلَةٍ.

وَإِذَا نَظَرَتْ مَارْتِي خَارِجًا بِقَلْقٍ عَبْرَ نَافِذَةِ الْمَطْبَخِ، فَكَّرَتْ: مَسْكِينٌ
كَلَارِك! يَبْدُو مَهْزُومًا بِالْفِعْلِ. يَغْمُرُهُ الرَّمَادُ وَالسُّخَامُ، وَهُوَ شَبَهُ مُجَلَّدٍ، وَالْآنَ يُرِيدُ جَدُّ
أَنْ يَقْعُدَ وَيُثَرِّثُ لَهُ حَتَّى يَقْتَلَهُ... لَا حِسَّ لَدَى جَدِّ ذَاكَ بِنَاتًا. لَنْ أَسْمَحَ بِهَذَا. ثُمَّ
أَلْقَتْ شَالَهَا حَوْلَ كَتْفَيْهَا وَخَرَجَتْ بِخَطْوِيٍّ ثَابِتَةٍ.

حَيَّتِ الرَّجُلَ، مُبْقِيَةً صَوْتَهَا مُسْتَوِيًّا: "سَيِّدُ لَارِسُونِ. حَسَنًا فَعَلْتَ إِذْ
جِئْتَ لِتَمُدَّ لَنَا يَدَ الْعَوْنِ. أَحْمَنُ أَنَّ الْأُمُورَ تَحْتَ السَّيْطَرَةِ الْآنَ، بِفَضْلِ
جَمِيعِ جِيرَانِنَا الطَّيِّبِينَ. هَلْ شَرِبْتَ قَهْوَةً؟ جَيِّدٌ! آسِفَةٌ لِلْمُقَاطَعَةِ، وَلَكِنْ

الآن أحشى أن تكون الحاجة داعيةً زوجي إلى الداخل، إذا سمحت له“.

لم تكن قطُّ قد أشارت إلى كلارك بوصفه زوجها قبل الآن، وإذا بفنجان كلارك يتوقفُ في نصفِ الطريق إلى فمه، إلا أنه لم يقل أيَّ شيء. وأومات برأسها نحو الباب إيماءً ذات معنى، فأضاف كلارك تشكراته لجد ودخل البيت.

وقالت مارتى للرجل: ”بلغ زوجتك تحياتنا. لن نؤخرك بعد، إذ لك في البيت مهامٌ بانتظارك. مُرحَّبٌ بك أن تأتي ثانيةً عندما يُمكنك أن تقعدَ وتحدِّثَ قليلاً. وأحضِرْ عائلتك معك. شكرًا لك مُجددًا. لا بُدَّ أن يُقدِّرَ المرءُ الجيران الطيبين حقًا. الأحسنُ لي أن أدخَلَ لأجلِ صغيري. طاب يومك، سيّد لارسون“.

دارت مارتى نحو البيت، ناظرةً من فوقِ كتفها إذ مشى جد لارسون مُتثاقلاً وتسلَّقَ عربته ووجهها نحو بيته. وقد لاحظت أنه لم ينقل صندوقَ العربة بعدُ إلى عربة الجليد. لا شكَّ أنه ظلَّ يُخطِّطُ للقيام بذلك، ولكن لم يجدِ الوقت المطلوب.

دخلت مارتى البيت لِتجدَ كلارك حائرًا. وما لبثَ أن قال: ”كنتُ أظنُّ أن مِسي ستكونُ في حالةٍ من نوعٍ ما، وتحتاجُ إلى بعضِ التَّشجيعِ من أبيها، ولكنها ما تزالُ نائمةً نومًا عميقًا كما يبدو. أمَّا كلار فهو مُستيقظ، إلا أنه لا يبدو في حالٍ سيئةٍ من التعب“. ثمَّ

هَشَّ كلارك من عُلِّ للطفِّ المُطمئنِّ في المهد وسأل مُستضحجًا:
”مَن يحتاجُ إليَّ؟“

فحدّقتُ إليه مارتي صامتةً، وقد رأت شفّتيه مُشققَتين ونازفتين من حرارة النَّار. كانت قد تماسكت طوَالَ اللَّيْلِ بِبِسالَة، ولو مذعورةً تقريبًا، مُجاوبَةً عن أسئلةٍ بشأنِ مكانِ القهوةِ وكلِّ شيءٍ، وهل هي بخير. وكانت قد كبّحت نفسَها عن الرّكضِ خارجًا فإلى داخلِ الحظيرة ل ترى هل كان كلارك بخيرٍ حقًّا. وقد منعتُ نفسَها أن تستشيطَ غضبًا على مَن - أو ما - جعلَ هذا الأمرَ الكارثيَّ يحدثُ لكلارك، وهو الذي اشتغلَ بكدِّ وجدِّ، وساعدَ جيرانه، وكان صبورًا جدًّا وتكلّمَ بهدوءٍ وما خرَجَ عن طوره قطُّ، وما شربَ كحولًا ولا أساءَ مُعاملةَ عائلته، وآمنَ باللهِ وصلّى إليه كلَّ يومٍ، وعاشَ طائعًا للكتاب وعاملًا بما يقوله.

شكّتُ مرَّ الشكوى بصمتٍ: لماذا؟ لماذا وجبَ أن يحدثَ هذا لكلارك؟ ولماذا ليس ليجد لارسون الكسلان أو... أو...؟ بعدما عايشتُ ما جرى في هذه اللَّيلةِ المأساويّةِ، والآنَ رأت كلارك سالمًا أمامها، لم تُعدَ تستطيعُ أن تُلزمَ نفسَها الهدوءَ والصّمت. فأشاحت وجهها، واستندت إلى الجدار، وتركت النّشيجَ المُتقطعَ يستولي عليها.

أحسّست يديه على كتفيها، ثمَّ أدارها إليه وجذبها برفق بين ذراعيه. وضمَّها من قربٍ كما يضمُّ ولدًا باكيًا، مُمسِّدًا شعرها الطويلَ المُسدلَ حولَ كتفيها. لم يقل كلمةً، بل تركها تبكي مُتكئةً على صدره.

أخيراً تمكّنت من التّوقّف، وقد تلاشى منها الارتباك والغضب كلُّهما. فسحبتَ نفسَها مُبتعدَةً، ماسحةً وجهها بمئزرِها. وقالت همساً: ”آه، كلارك! أيُّ أمرٍ، يا تُرى، سنفعله الآن؟“

لم يُجب للحظاتٍ، ثمّ تكلمَ بهدوءٍ بالغٍ بحيثُ علّمت أنه واثقٌ بجوابِهِ: ”سنُصلِّي، وما يرانا الله في حاجةٍ إليه يُعطينا إيّاه. وما يرى أننا لا نحتاجُ إليه، فسيجعلنا نستغني عنه.“

تقدّمته مارتِي إلى الطّاولَةِ، فجلّسا وحنياً رأسيهما معاً. ثمّ مدّ كلارك يده وتناولَ الكتابَ المقدّسَ، ففتحهُ بهدوءٍ وأخذَ يقرأ: ”الرّبُّ راعيّ، فلا يُعوّزني شيءٌ...“.



لَمّا دخل كلارك لأجلِ الفطور بعدَ مَهامِّ ذلك الصّباح، علّمت مارتِي أنّ الأبقارَ هربتْ مرعوبةً. والأحصنةُ أيضاً تفرّقت. أمّا الخنازير فكانت سالمةً في زرائبها، وكذلك الدّجاجُ في الحُمِّ، ولكنّ كلارك واجهَ صعوبةً في العثور على ما يُشبعُها دون أن يحفُرَ أعَمَقَ ممّا ينبغي في حُبوبِ البذار التي نجت من الحريق. أمّا الماشيةُ التي ترعى، وقد فرغَ مرعى واحد، فكانت في مكانٍ إقامةٍ زاعقةً كي تُطعمَ، ولكنّ ماذا؟ إنّ كلّ علفٍ لها قد تبدّدَ مع الدُّخان. وعلّق كلارك هازئاً كنفِيهِ: ”لقد فعلتُ أحسنَ ما في وُسعي حتّى الآن!“

قلّقت مارتِي بشأنِ شفّتيهِ المُشققَتين ويديهِ المُقرّحتين، ولكنّه هو لم

يُبالِ بقلَقِها.

كانت مِسي صامِة على نحوٍ مُستغَرَب وهُم يأكلون، شاعِرةً دونَ شكٍّ بأنَّ خطبًا ما وقعَ، إذ نظرت بين أبيها وأمِّها.

أخيراً لم تُعدْ مارتِي تستطيعُ أن تحبسَ السُّؤال: ”ماذا تنوي أن تفعل؟“

فأجاب كلارك بواقعيَّة: ”أوَّلَ كلِّ شيءٍ، سأذهبُ إلى بن. لقد قال إنَّه يُسرُّ حقًّا بأن يأخذ اثنتين من بقرات الحليب. وهو سيُطعمُهما كِلتَيْهما مُقابلَ الحليب من البقرة التي ما زالت تُعطي حليبًا. وعندما يصيرُ عندي علفٌ من جديد، نسترجعُهما“.

”وباقِي الماشية؟“

”سنُضطرُّ إلى بيعِ الخمسةَ عشرَ رأسًا في زريبة الرعي“.

”والخنازير؟“

”سيكون علينا أن نتخلَّصَ من مُعظَمها. أرجو أن أبقِي لي خنزيرةً صغيرةً أو اثنتين“.

”وكيف ستُطعمُهما؟“

”لم نخسرَ حُبوبَ البذار. إنَّها في الصناديق بقرب زريبة الخنازير. سأضطرُّ إلى صرفِ النَّظر عن زرع تلك الأرض الجديدة التي كنت أَعولُ عليها حتَّى سنَةِ أُخرى، وسأستعملُ بعضَ الحَبِّ لإطعامِ خنزيرةٍ في فصل الربيع“.

”والأحصنة؟“

”الأحصنة جيدة تمامًا في الرعي، حتى في الشتاء، وتستطيع أن تنبش بحوافرها وسط الثلج. وسأقتطع لي جزءًا من المال الحاصل من بيع الماشية لتوفير علفٍ كافٍ لإطعام البقرة الحلوب التي نحتفظ بها“.

فقلت مارتي برهبة: ”لقد ربّيت كلَّ شيءٍ فعلاً“.

”ليس كلَّ شيءٍ تمامًا، ولكنني اشتغلُ بذلك. قد نُضطرُّ لأنْ نُقتَرَّ قليلاً هنا وهناك، إلاَّ أننا سننجح. وإذا سارَ كلُّ شيءٍ حسناً، فمتى جاء وقتُ الغلال، نكونُ آخذين في الوقوف على أقدامنا من جديد“.

وأجرةُ السفرِ رجوعاً إلى الشرق؟ لم تُفصحِ مارتي عن السؤال، ولكن لا بُدَّ أنَّ كلارك رآه في عينيها بطريقةٍ ما.

نظرَ إليها بثباتٍ للحظاتٍ، ثمَّ تكلمَ على مهل: ”لما طلبتُ إليك أن تستقرِّي ههنا للاهتمام بمسي، قطعتُ لكِ وعداً. ولم أترجعْ عنه. أقول لكِ الحقَّ إنني سأفتقدك إذا رحلتِ، أنتِ والصَّغيرين“ - وتوقَّفت فاستطاعت مارتي أن ترى تُفاحةَ آدم في عنقه تتحرَّك إذ بلعَ ريقه- ”ولكنني لن أستبقيكِ إذا كان ذلك هو ما تُريدينه“.

وأوَّلَ مرَّة، ما عادت مارتي مُتيقِّنة.



نَفَذَ كلارك حُطَّطه بشأنِ الماشية. فقد بيعتِ الخنازير، ما عدا

خِزْرِيَّتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ وَاِعْدَتَيْنِ، وَكَذَلِكَ مَاشِيَةَ الرَّعِيِّ. وَقَرَّرَ أَنْ يَشْتَرِيَ عُلْفًا كَافِيًا لِلْبَقْرَةِ الْحَلُوبِ وَالخِزْرِيَّتَيْنِ، وَيَسْتَبْقِي حَبَّ الْبِذَارِ حَتَّى يَتَيَسَّرَ زَرْعُ الْحَقْلِ الْجَدِيدِ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ. وَسَوْفَ يَحْتَاجَانِ إِلَى مَالِ الْغِلَالِ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلِ لِدَعْمِ النَّفَقَاتِ حَتَّى تَتَعَزَّزَ الْمَاشِيَةُ مُجَدِّدًا. وَقَدْ اسْتَبْقَيْتُ دَجَاجَاتٌ قَلِيلَةً فَقَط. أَمَّا الدَّجَاجُ الْبَاقِي فَوُضِعَ فِي أَقْفَاصٍ وَأُخِذَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

بَاتَ كَلَارِكُ الْآنَ فِي مُوَاجَهَةٍ مَزِيدٍ مِنْ أَزْنَادِ الْخَشْبِ الَّتِي يَنْبَغِي قَطْعُهَا؛ لِأَنَّهُ عِنْدَمَا يَأْتِي الرَّبِيعَ سَيَكُونُ ضَرُورِيًّا بِنَاءَ حَظِيرَةٍ جَدِيدَةٍ.

قَالَتْ لَهُ مَارْتِي: "لَا تَقْلَقْ بِشَأْنِ الْغُرْفَةِ الْإِضَافِيَّةِ. سَنَحْتَاجُ إِلَى الْحَظِيرَةِ أَوْلًا". وَلَكِنَّهُ قَالَ إِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُدَبِّرَ بِنَاءَهُمَا كِلْتَيْهِمَا مَعَ تَأْخِيرٍ طَفِيفٍ فِي إِنْجَازِ الْمَنْزِلِ.

أَصْلِحَ سِيَاحُ الزَّرْبِيَّةِ، وَوُضِعَتِ الْبَقْرَةُ الْوَحِيدَةُ وَحِصَانَا الْعَرَبَةِ فِي زَرْبِيَّةِ الرَّعِيِّ، حَيْثُ تَوَافَرَ مَأْوَى لِلْجَمِيعِ. أَمَّا حِصَانُ الرُّكُوبِ فَقَدْ أُعِيرَ لِجَايْسُونِ اسْتَرِنَ الَّذِي بَدَأَ أَنَّهُ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَيْهِ حَالِيًّا.

بَطْرِيقَةٍ مَا، عَادَتِ الْحَيَاةُ إِلَى رُوتَيْنِ مَأْلُوفٍ. وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ تَوَافًا إِلَى الرَّبِيعِ أَحَرَ مِمَّا كَانَتْ مَارْتِي، وَلَكِنَّهَا وَجَدَتْ نَفْسَهَا رَاجِبَةً فِيهِ لِأَجْلِ كَلَارِكِ أَكْثَرَ مِنْهَا لِأَجْلِ نَفْسِهَا.

مَعُونَةٌ فِي بِنَاءِ حَظِيرَةٍ

وَدَعَّ آذَارُ/مارس الدُّنيا بِزَمْجَرَةٍ غَاضِبَةٍ مِنْ رِيحٍ وَثَلَجٍ. ثُمَّ وَعَدَ قُدُومَ نَيْسَانَ/أبريل بِأُمُورٍ أَفْضَلَ. فَإِذَا تَقَدَّمَ الشَّهْرُ، بَدَأَ التَّلَجُّ يَنْصَهُرُ مُشَكَّلًا تَخْرِيْمَاتٍ بِلَوْرِيَّةٍ، وَاکْتَسَبَتِ الشَّمْسُ دَفْنًا جَدِيدًا، وَظَهَرَتِ بِالتَّدرِجِ رُقْعُ اخْضِرَارٍ فِي الْأَمَاكِنِ الْمَحْمِيَّةِ. وَتَقَصَّى دَانَ وَتَشَارَلِي بِنَهُمِ كُلِّ بُقْعَةٍ خَضْرَاءَ، تَوَاقَيْنِ إِلَى رَعِي أَسْهَلٍ بَعْدَمَا طَافَا بَحْثًا عَنِ عُشْبِ وَسْطِ التَّلَجِ مِنْذُ الْحَرِيقِ. كَانَتِ الْبَقْرَةُ قَدْ تَوَقَّفَتْ عَنِ إِعْطَاءِ الْحَلِيبِ، مُعَدَّةً نَفْسَهَا لِإِنْتِاجِ عِجَلٍ. فَبَاتَ وَاجِبًا الْآنَ إِحْضَارُ الْحَلِيبِ لِمِسي وَلِلطَّبْخِ بِالسَّطَلِّ مِنْ عِنْدِ آلِ غَرَاهَامِ كُلِّ بَضْعَةِ أَيَّامٍ.

أَوَاخِرَ الشَّهْرِ، نَظَرَتِ مَارْتِي خَارِجًا إِلَى الْحَدِيقَةِ الْجَرْدَاءِ. كَمْ كَانَتِ تَوَاقَةً إِلَى مُبَاشَرَةِ زَرْعِهَا! فَبَعْدَمَا حُبِسَتْ تِلْكَ الْأَشْهُرَ كُلَّهَا، لَمْ تَكَدْ تُطَبِّقُ الْإِنْتِظَارَ لِلْقِيَامِ بِبَعْضِ الْمَهَامِّ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُوَدَّى فِي الْهَوَاءِ الطَّلَقِ.

وَلَكِنْ كَانَتْ لَدَى كَلَارِكِ أُمُورٌ أُخْرَى يَجِبُ الْقِيَامُ بِهَا قَبْلَ تَحْضِيرِ الْأَرْضِ لِحَدِيقَةِ مَارْتِي. فَعَلَى مَدَى الشَّهْرِ الْأَخِيرِ، كَانَ رِجَالُ الْجَوَارِ قَدْ

أتوا بأحصنتهم وعرباتهم ومدُّوا لكلارك يدَ العون في قطع الأزند. والآن باتت الأزندُ مُكدَّسةً وجاهزةً لبناء الحظيرة الجديدة. وقد وعدوا بأن يُساعِدوه أيضًا في إنشاء عُرفتي النّوم الجديدتين، إذا تيسَّر لهم يومٌ جيّد.

نظرتَ مارتي الآن إلى الخارج، مُتصوِّرةً الحظيرةَ الجديدةَ قائمةً حيثُ كانت القديمة. كم سيكون جيّدًا أن يكونَ لكلارك- وللحيوانات- حظيرةٌ من جديد! أمّا عُرفتا النّوم... فإنّها ستنتظرُهما ما دامت مُضطرةً إلى ذلك.

غيرَ أنّ الحدّثَ الكبيرَ الأوّلَ لدى أهلِ الحيّ وجبَ أن يكونَ بناءً منزليًا للشائين جايسون استرن وسالي آن غراهام، ليكونَ المنزلَ حتّى أكثرَ أهميّةً للثنتين من إنشاء حظيرة. وقد خُصِّصَ يومٌ غَدٍ للبناء، وظلّتَ مارتي مشغولةً بإعداد الكروت من الملفوف المخلّل، وطبخَ فخذ، وخبزَ مزيدٍ من الخبز والفطائر. سيقدّمُ الرّجالُ جهودَهم، وستفتَحُ النّساءُ حُجرَ المون. وكم تشوّقتَ مارتي إلى هذا اليوم! فسيكونَ مُرحّبًا جدًّا أن تُتاحَ لها زيارةٌ جاراتها.

أنشئَ المنزلَ حسنًا، وأنجزَ الرّجالُ المهمّةَ أوخرَ العصر. وتمتعتَ النّساءُ بنهارٍ دردشةٍ عن عائلاتهم وتبادلٍ للوصفات والنّماذج. وقد تأخّرَ آل لارسون، ولمّا وصلوا أخيرًا حطّتِ السيّدةُ لارسون باستحياءٍ قدرَ يخبئة البطاطا التي أحضرتها على الطاولة المُحمّلة بالأطايب. في أغلبِ

الأحوال، لم يبدُ أن أحداً أعارها اهتماماً وافراً، إلا أنَّ مارتِي عبَّرت على الأقلِّ لتقولَ ”مرحبا“ للمرأة الموحَّشة.

وقد حَضَرَ زوجها جَد لارسون للمُساعدة فقط في الأزناد القليلة الباقية، ثمَّ بدا أنه يحسبُ نصائحه أهمَّ بكثيرٍ جدًّا من عضلاته. على أنَّه استطاع أن يلتهمَ وجبةً مُشبعة مع الآخرين.

رجعت مارتِي إلى البيت مسرورةً بعدَ ذلك الوقت، وبما جرى إنجازُه. فسَيكونُ لسالي آن كُوخٌ صغيرٌ جميلٌ تُمارِسُ فيه أوَّلَ تدبيرٍ للشؤون المنزليَّة. صحيحٌ أنَّه بقيَ كثيرٌ ينبغي أن يُعملَ، ولكنَّ مارتِي كانت واثقةً بأنَّ جايسون سيهتمُّ بذلك عاجلاً.

في أثناء النَّهار، كان لمارتِي حديثٌ وُدِّيٌّ طويلٌ مع وندا مارشال، وقد أرتها نموذجَ بسيطاً لحبكٍ تطريزيٍّ، ووجدتَ لنفسها تلميذةً نجيةً في الشُّغل اليدويِّ.

طافَت السيِّدة فيكرزُ مُثرثرةً، هامسةً بأخبارٍ مُختارة في آذانِ شتَّى، وانغرستَ السيِّدة واتلي في بُقعة مُشمسة بقُربِ أصنافِ الحلويات، وشغلتَ نفسَها بارتشافِ القهوة و”إبعاد الصِّغار عن مدِّ أيديهم إلى الطَّعام“.

كان الأمرُ مُمتعاً كلُّه، كما حكمتَ مارتِي، والأسبوعَ التَّالي يأتي دَورُهُما لإضافة الجيران وتلقِّي مجهوداتهم المُبهجة.

ثمَّ وفاءً بالوعد، بدأ أفراد المجموعة يصلون صباحَ الثَّلاثاء،

مُصَمِّمِينَ عَلَى إِنْجَازِ الْمَهْمَةِ. وَبَدَأَتِ الْحَظِيرَةُ تَتَشَكَّلُ زَنْدًا بَعْدَ آخَرَ. وَقَدْ اشْتَغَلَ كَلَارِكٌ وَتَوَدَّ اسْتَرْنَ بِمَهَارَةٍ بِالْفُؤُوسِ الَّتِي تَقَطُّعُ الْأَخَادِيدَ حَتَّى يَعِشَقَ كُلُّ زَنْدٍ بِتَالِيهِ. وَكَانَ كَلَارِكٌ قَدْ قَرَّرَ بِنَاءَ الْحَظِيرَةِ أَكْبَرَ قَلِيلًا لِتُؤَوِّيَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَوَقَّعَهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

حِينَ طَنَّتِ النِّسَاءُ عَلَى الْقِدْرِ إِعْلَانًا لِلْغَدَاءِ، كَانَتِ الْحَظِيرَةُ تَقْرِيبًا قَدْ بَلَغَتْ مَرِحَلَةَ السَّقْفِ الْمَائِلِ. وَكَانَ الرَّجَالُ تَوَاقِينَ إِلَى اسْتِثْنَائِهِمْ، فَلَمْ يَتَمَهَّلُوا طَوِيلًا فِي تَنَاوُلِ الطَّعَامِ.

وَبَيْنَمَا كَانَتِ النِّسَاءُ يَغْسِلْنَ الصُّحُونَ، دَخَلَ تَوْمِي غِرَاهَامَ وَأَعْلَنَ بِإِلَاءِ مُقَدِّمَاتٍ: "قَالَ أَبِي إِنَّهُ إِذَا نَقَلْتِ الْأَعْرَاضَ مِنَ السَّقِيفَةِ ذَاتِ السَّطْحِ الْمَائِلِ، فَسَنَهْدِيهَا وَبَنِي غُرْفَتِي النَّوْمِ".

كَادَتْ مَارْتِي أَنْ تَطِيرَ. مَا كَانَتْ قَطُّ قَدْ دَخَلَتْ السَّقِيفَةَ الْمُضَافَةَ قَبْلًا، وَصُدِمَتْ بِأَثَائِهَا الْبَسِيطِ. إِذْ كَانَ عَلَى هَيْكَلِ السَّرِيرِ فَرَشَةٌ قَشٌّ خَشِنَةٌ. فَوَضَعَتْ مَارْتِي يَدَهَا عَلَيْهَا وَوَجَدَتْهَا صُلْبَةً وَذَاتَ كُتْلٍ بَارِزَةٍ. وَإِذْ تَذَكَّرَتْ فِرَاشَ الرِّيشِ النَّاعِمِ الَّذِي لَهَا، شَعَرَتْ بِشَيْءٍ مِنَ الْوَحْزِ. لَا بُدَّ أَنَّ الْجَوْهْرَ فِي الْخَارِجِ كَانَ بَارِدًا عَلَى نَحْوِ رَهِيْبِ طَوَالِ الشِّتَاءِ، هَكَذَا فَكَّرَتْ، شَاعِرَةً بِالذَّنْبِ، إِذْ نَقَلْتِ الْأَشْيَاءَ الْقَلِيلَةَ الَّتِي كَانَتْ لِكَلَارِكٍ إِلَى حُجْرَةِ الْجُلُوسِ، وَأَيْضًا ثِيَابَهُ عَنِ الْأُوتَادِ.

لَمْ تَكَدْ مَارْتِي تَنْتَهِي، حَتَّى سَمِعَتْ مَطَارِقَ وَعْتَلَاتٍ تَدُكُ السَّقِيفَةَ الْمُضَافَةَ. وَقَدْ مَضَى الرَّجَالُ يَشْتَغِلُونَ بِعِزْمٍ وَطِيدٍ، حَتَّى إِذَا حَانَ الْعِشَاءُ

كانت الأزنادُ في مكانها.

كان العشاءُ أشبه بِمِهْرَجَانٍ؛ فقد كان الرِّجالُ مسرورينَ تمامًا- وكانوا في ذلك على حقّ- بِما جرى إنجازُه في نهارٍ واحدٍ فقط. وكان في وُسعِ مارتِي أن تُؤكِّدَ أنّ كلارك ديفس كان جاريًا محبوبًا. فلم يكن هناك رجلٌ واحدٌ لم يُساعدِه كلارك مرَّةً أو أُخرى، وقد سرَّهم أن يتمكَّنوا من مدِّ يدِ العونِ له في المقابل.

لَمَّا انتهتِ الوليمةُ، تحادَثَ الرِّجالُ فيما نظَّفتِ النِّساءُ الطَّاولاتِ وصنَّفنَ أوانيهِنَّ الفخاريَّةَ ومقاليهِنَّ لأخذها معهنَّ لدى العودَةِ إلى منازلِهِنَّ.

وقد سجَّلَ جَدَ رقمًا قياسيًّا جديدًا لنفسه في ذلك اليوم؛ إذ حضرَ في الوقت المحدَّد للغداء والعشاءِ كليهما، مُتناوِلًا الطَّعامَ بحريَّةٍ في كلتا الوجبتين. أمَّا زوجته فلم تستطع الحُضورَ، ”لِشعورها بِوعكة“ كما قال. وشعرت مارتِي بالأسى حقًّا من أجل المرأة المسكينة وابنتيهما.

أخيرًا قال أفراد المجموعة ”وداعًا“ وتسَلَّقوا بِجهدٍ عَرَبَاتِهِم الخاصَّةَ بالمزارع أو مُتونَ أحصنة، وقد وعدَ بعضُهم بأن يرجعوا ليعاونوا في إنشاء السَّقْفِ وبَسَطِ الأَرْضِيَّةِ.

كاد كلارك أن ينهارَ على قدميه من فرطِ الإعياء، بعدَما حاولَ أن يحملَ فوقَ حصَّته من الحِمْلِ في إنشاء حظيرته، وبعدَ اضطراره تاليًا إلى الخروج للقيام بالمَهامِّ بعد الانتهاء من أعمالِ الإنشاء. ثمَّ استلقى

على فرشة القش المطروحة الآن على أرضية حجرة الجلوس، مُصرِّحاً
بأنه قصد أن يستريح قليلاً قبل النوم في سرير "بصورة ملائمة" في
المبنى المضاف الجديد. ولكنه ما عتَمَ أن راح يغطُّ في نوم عميقٍ
غَطِيطاً خفيفاً، فيما وضعتْ مارتى الطفلين حيثُ ينامان ليلاً.

دخلتْ مارتى الغرفة وتوقَّفتْ فجأةً. وهتفتْ برِقَّة: "يا إلهي! إنه
مُرَهَّقٌ تماماً".

ثمَّ تقدَّمتْ لثمَّهَدَ برفقٍ وسادةً تحت رأسه وتنزِعَ حذاءه. وبعد ذلك
وضعتْ بطَّائِيَّةً عليه، ومضتْ إلى سريرها.

لورا

في أقلّ من أسبوعين، سيأتي الواعظُ الزائر في زيارته الربيعيّة، وستتزوج سالي آن. وما زالت ما غراهام تنتحبُ إذ تُفكرُ في مُغادرة ابنتها الكبرى حلقة العائلة، إلاّ أنّها قالت لِمارتي إنّها تحسبُ ذلك جزءًا من الحياة، ومن الآن فصاعدًا ستخسرُ بناتها واحدةً فواحدة.

ولكنّ السلوكَ الغريب من قِبَل الابنة الثانية لورا أقلقَ أمّها. إذ كانت الفتاةُ تتصرّفُ بطريقةٍ مختلفةٍ جدًا مؤخرًا؛ إذ تكون مُعاندَةً وسريعةَ الامتِعاظ في المنزلِ وحوله، ثمّ تنسلُّ مُبتعدةً في نُزهٍ طويلةٍ سيرا على قدميها، حتّى إنّها أحيانًا كانت تذهب بعيدًا مُمتطيّةً واحدًا من أحصنة الشغل.

لم تتبيّنْ مارتي ذلك كلّهُ إلاّ بعدَ مُضيِّ مُدّةٍ على وقوعه، ولكنّ أخيرًا ما عادت ما غراهام قادرةً على احتمالِ الأمر، وعلمت أنّ عليها أن تُجريَ حديثًا مع الفتاة. فانتظرت إلى وقتٍ كانتا فيه وحدهُما، ثمّ بدأتِ الحديثَ بِالطَفِ ما في وسعها.

”لورا، يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّ شَيْئًا مَا يُزْعِجُكَ. سَيَسْرُنِي حَقًّا أَنْ أَشَارِكَ فِي حَمَلِهِ إِذَا وَضَعْتَهُ عَلَيَّ“.

وبدا أن لورا نظرت إلى ما غراهام والعصيان في عينيها. ثم أجابت بامتعاض: ”ليست هناك أية مشكلة“.

”أعتقد أن عندك. ولعله أمرٌ طبيعي... بوجود كل هذا الاهتمام بسالي آن وهذه التحضيرات لأجلها“.

فارتفع ذقن لورا: ”ماذا يهمني بشأن سالي آن؟“
”إنها أختك...“.

”لا، ليست أختي“.

رمقت ما الفتاة بنظرة ثابتة الآن. وبدأ الغضب يجيش في داخلها.
”أصغي إلي يا بنت. سالي وأنت ما زلتما قريبتين منذ كنت أنا أمك“.

”أنت لست أمي“.

توقفت ما غراهام هنا، وكما قالت لمارتي لاحقًا كانت على يقين بأن فمها انفغر واسعًا. كانت قد علمت أن الأمور كانت سيئة، ولكنها ما حمنت أنها كانت بذلك الشؤ. وأخيرًا استأنفت كلامها على مهل: ”لورا، أنا آسفة. إنني آسفة حقًا. ما علمت قط أنك كنت تشعرين بالشؤ على هذا النحو الشديد. حاولت دائمًا أن أكون أمك. إنني أحبك كما لو كنت مولودتي حقًا، كما أن أبك... سيفعل أيي“.

شيءٍ لأجلِكِ“.

فَقَالَتْ لورا بصراحة: ”لن أكون بحاجة لأن يفعلَ شيئًا لأجلي مُدَّةً أطولَ كثيرًا منذُ الآنَ“.

”ماذا تعنين؟“

”سوف أتزوجُ أنا أيضًا“.

”سوف تتزوجين؟ ولكنْ لم يكنْ لكِ حتَّى مُعجَبٌ!“

”بل لي أيضًا“.

”ما علمنا بذلك قطُّ. مَنْ يكونُ...؟“

”ملت كونرز“. رَدَّت لورا مُحملقةً وقد بدا على وجهها تصميمٌ عنيِد، عالِمةً جيِّدًا دون شكٍّ برأيِ آلِ غراهام في الشابِّ المُتكلِّمِ عنه.

اضطربتْ ما غراهام داخليًّا، وقد جعلها الجَيْشانُ والذُّعْرُ ضَعيفةً حِيالَ ما أفصحت عنه لورا. فما كانت قطُّ في حياتها لِتُعطيَ ملت كونرز إحدى بناتها. ولا حتَّى لو توقَّفت حياتُها على ذلك؛ إذ كان شُرْبُه وعربدته معروفين جيِّدًا في هذه النواحي، وليسا مُجرَّدَ إشاعة.

ولمَّا استطاعت أخيرًا أن تتكلَّم من جديد، بذلت قُصارى جَهدِها لتكونَ حازمةً لكنْ لطيفة. فشرَّعت تقول: ”كَلَّا البتَّة! لن تفعلِي ذلك.

ما من بنتٍ في هذا البيت ستَقترِنُ بملت كونرز. إنْ لم أمنعكِ أنا، فأبوك سيمنعكِ“.

”لا يُمكنكما أن تمنعاني!“ بدا توكيدُ لورا هذا صادمًا لها كما لِمَا

غراهام. وَخَطَّتِ الْفَتَاةُ إِلَى الْوَرَاءِ خُطْوَةً مُتْرَدِّدَةً.

فَأَجَابَتْ مَا بِتَصْمِيمٍ مُمَاتِلٍ: ”بلى! يُمَكِّنُنَا“.

وَقَالَتْ لُورَا عَلَى الْفُورِ: ”فَاتِ الْأَوَانَ“.

”مَاذَا تَعْنِينَ؟“

”إِنِّي... إِنِّي سَأَلِدُ طِفْلَهُ“. وَالآنَ كَانَتْ عَيْنَا لُورَا مُسْبَلَتَيْنِ، وَمَا كَانَتْ لَتَنْظُرَ إِلَى مَا غَرَاهَامَ وَجْهًا لُوجَهُ.

أَخْبَرَتْ مَا مَارْتِي أَنَّهَا أَحْسَسَتْ ضِعْفًا يَدْبُ فِي أَوْصَالِهَا وَخُيِّلَ إِلَيْهَا أَنَّهُ سَيُعْمَى عَلَيْهَا. أَخِيرًا مَشَتْ مُتْرَنِّحَةً وَثَبَّتَتْ نَفْسَهَا عَلَى ظَهْرِ

كُرْسِيِّ، وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تَسْأَلَ: ”مَاذَا تَقُولِينَ، يَا بِنْتَ؟“

إِلَّا أَنَّ لُورَا أَصْرَتْ عَلَى مَوْقِفِهَا. لَيْسَتْ شَيْطُ أَبُوهَا وَأُمُّهَا غَضَبًا وَلِيُرْعِدَا أَوْ يَفْعَلَا أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ. فَحِينَ يَأْتِي الْوَقْتُ لِقُوفِ سَالِي آنَ أَمَامِ الْوَاعِظِ، سَتَقِفُ هِيَ أَيْضًا هُنَاكَ.

وَكَرَّرَتْ بِحَزْمٍ أَكْثَرَ هَذِهِ الْمَرَّةِ: ”إِنِّي سَأَلِدُ طِفْلَهُ“.

خَطَّتْ مَا إِلَى الْأَمَامِ، وَالْدُّمُوعُ تَنَسَابُ عَلَى وَجْهِهَا. ثُمَّ مَدَّتْ يَدَيْهَا لِلُورَا وَضَمَّتْهَا بِرَفْقٍ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا، مُطَوِّقَةً إِيَّاهَا مِنْ قُرْبٍ، وَرَأْسُهَا مَحْنِيئًا عَلَى الشَّعْرِ الْبُنِّيِّ الطَّوِيلِ.

وَقَالَتْ بَاكِئَةً: ”آه، يَا طِفْلَتِي الْمَسْكِينَةَ. طِفْلَتِي الْمَسْكِينَةَ“.

بَدَأَ أَنَّ مَحَبَّةَ مَا غَرَاهَامَ وَاهْتِمَامَهَا الْأَصِيلِينَ أَثَّرَا فِي لُورَا، وَلَكِنَّ الْفَتَاةَ أَصْرَتْ بِجُرْأَةٍ عَلَى أَنَّهَا تَحُبُّ مِلَتْ وَسَوْفَ تَتَزَوَّجُهُ مَهْمَا جَرَى.

كان الأسبوعان السابقان لوصولِ الواعظِ حافِلينِ بتحضيراتِ الزَّفَافِ، وأيضًا بالأسي الشديد، في بيتِ آلِ غراهام. ولمَّا سَمِعَتِ سالي أن بزفافِ لورا العتيد، عَرَضَتْ بِسَخَاءٍ أَنْ تُقَدِّمَ إِلَيْهَا بَعْضًا مِنْ حَاجِيَّاتِهَا الْمَنْزِلِيَّةِ الَّتِي دَأَبَتْ فِي تَقْطِيبِهَا وَتَحْضِيرِهَا. فَابْتِ لورا أَنْ تَأْخُذَ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، مُبَيِّنَةً أَنَّهَا لَنْ تَحْتَاجَ إِلَى الْكَثِيرِ، مَا دَامَ مِلَتْ قَدْ أَعَدَّ الْعُدَّةَ لِتَدْبِيرِ الشُّؤْنِ الْمَنْزِلِيَّةِ. وَرُغْمَ ذَلِكَ، فَقَدْ سَهَرَتْ مَا غَرَاهَمَ إِلَى وَقْتٍ مُتَأَخَّرٍ كُلِّ لَيْلَةٍ، مُنْجِدَّةً لِحَافًا وَمُهَدَّبَةً مَنَاشِفَ وَسَنَائِرَ.

وَاصِلَ بَنِ أَشْغَالِهِ الْمُعْتَادَةِ فِي الْمَرْعَةِ، وَلَكِنَّ كَتِفِيهِ ارْتَحَتَا، وَبَدَأَ وَجْهُهُ كَثِيْبًا. لَقَدْ سُرِقَ مِنْ آلِ غَرَاهَمَ فَرَحُ الْيَوْمِ الْكَبِيرِ. حَتَّى لورا لَمْ يَبْدُ عَلَيْهَا التَّوَرُّدُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِلْعُرُوسِ الْجَدِيدَةِ، إِلَّا أَنَّهَا ثَبَّتَتْ حَنْكَهَا بِعَزْمٍ وَطَيْدٍ وَسَاعَدَتْ فِي التَّحْضِيرَاتِ لِلْعُرْسِ الْمَزْدُوجِ.

اليوم الكبير

كان مُتوقِّعًا أن تتمَّ زيارةُ الواعظ صباحَ أحدِ القِيامةِ. وعندئذٍ يُقامُ أوَّلًا اجتماعُ عِبادةٍ لأهالي الحيِّ في الهواء الطَّلَق، ثمَّ تلي مراسمُ الزَّواجِ المُزدوجِ. ولا حَقًّا يُشاركُ الجيرانُ كلُّهم في غداءٍ من حواضِرِ البيتِ تَكرِيمًا للعرائسِ الجُدُد، وتُتاحُ فُرصةٌ للأحاديثِ الوُدِّيَّةِ قبل أن تستغرق أشغالُ الرِّبيعِ كثيرًا من وقتِهِم.

تشوَّقَتِ مارتِي إلى ذلكِ اليومِ. وكانت شَكورًا جدًّا من أجلِ الجيرانِ الذين تعرَّفَتِ إليهم والصَّدِيقَاتِ اللواتي كَسَبَتُهُنَّ. فإذ باتَ الشِّتَاءُ وراءَهُم ولاحَ في الهواءِ حِسُّ الرِّبيعِ، كانت مُتملِّمَةً للخُروجِ إلى مكانٍ ما... لأجلِ شيءٍ ما. وكانت أيضًا مُحِبَّةً للاطِّلاعِ بشأنِ الخِدْمَةِ الكَنسِيَّةِ وما سيقولُهُ الواعظُ. فقد كانت صِلَتُها الوحيدةَ بالكنيسةِ لأجلِ الرِّبِجاتِ والجنازاتِ، وآخِرَ مرَّةٍ رَأَتْ فيها هذا الواعظُ كان يغمُرُها أسَى شديدٌ واضطرابٌ عاطفيٌّ قويٌّ بحيثُ لم تكَدِ تقوى على تذكُّرِ الحدَثِ أو الواعظِ.

أحسَّتِ سعادةً سالي آن وبريقُ الحُبِّ على وجهها، إلا أنَّ قلبها

وَجَعَهَا عَلَى لُورَا. فَبَعْدَمَا أُسْرَتْ إِلَيْهَا مَا غَرَاهَام بِسَبَبِ مُوَافَقَتِهِمْ عَلَى الزَّوْاجِ، شَارَكَتْ مَا فِي قَلْبِهَا بِشَأْنِ الزَّيْجَةِ الْعَتِيدَةِ وَشَعَرَتْ بِعَجْزٍ شَدِيدٍ، عَالِمَةً أَنَّهُ لَمْ يُوجَدِ أَيُّ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ تَفْعَلَهُ أَيُّهُ وَاحِدَةً مِنْهُمَا لِلْحَيْلُولَةِ دُونَ حُصُولِ مَزِيدٍ مِنَ الْهَمِّ وَالغَمِّ لِهَذِهِ الْفِتَاةِ الْعَتِيدَةِ أَوْ لِعَائِلَتِهَا.

شَغَلَتْ مَارْتِي نَفْسَهَا بِتَطْرِيزِ مَجْمُوعَتِي أَكْيَاسِ وَسَائِدَ لِلْعُرُوسَيْنِ الْجَدِيدَتَيْنِ. وَخَشِيَتْ أَنْ تَتَبَدَّى مَشَاعِرُهَا الْحَقِيقِيَّةُ حَتَّى فِي تَقْطِيبِهَا. فَقَدْ كَانَ شُغْلُ إِحْدَى الْمَجْمُوعَتَيْنِ بَاعِثًا لكَثِيرٍ مِنَ الْفَرَحِ. أَمَّا الْمَجْمُوعَةُ الْأُخْرَى فَجَعَلَتْ أَصَابِعَهَا ثَقِيلَةً كَقَلْبِهَا.

ثُمَّ وَصَلَ الْيَوْمَ الْكَبِيرَ بِسُرْعَةٍ كَافِيَةٍ. وَبَشَّرَتْ الشَّمْسُ بِنَهَارٍ رِبْعِيٍّ دَافِئٍ، فِيمَا اسْتَعْجَلَتْ مَارْتِي تَحْضِيرَ قُدُورِ الطَّعَامِ الَّتِي سَتَأْخُذُهَا، وَالْبَاسَ مِسي وَكَلَارَ أَفْخَرَ ثِيَابِهِمَا.

وَقَرَّرَتْ أَنْ تَلْبَسَ فُسْتَانَهَا الْأَزْرَقَ الضَّارِبَ إِلَى الرَّمَادِيِّ، غَيْرَ الْمَلْبُوسِ بَعْدَ. إِذْ قَبِلَتْ أَخِيرًا أَنَّهَا سَتَشْعُرُ "شُعُورًا سَلِيمًا" وَهِيَ تَرْتَدِيهِ. وَقَدْ نَظَرَ كَلَارُكَ إِلَيْهَا بِإِعْجَابٍ فَعَلًّا، وَتَبَيَّنَ لَهَا أَنَّهَا لَمْ تَجِدْ بَأْسًا فِي ذَلِكَ. وَأَحْسَتْ نَفْسَهَا مُتَوَرِّدَةً تَحْتَ حَمَلَقَتِهِ.

سَرَحَتْ عَيْنَا مَارْتِي بِابْتِهَاجٍ فِي أَنْحَاءِ الْفِنَاءِ وَالتَّلَالِ الْمُحِيطَةِ لَدَى الصُّعُودِ إِلَى الْعَرَبَةِ. وَبُوجُودِ طِفْلَةٍ بِجَانِبِهَا وَطِفْلٍ عَلَى ذِرَاعَيْهَا، وَاجْهَتِ الصَّبَاحَ الْمُشْرِقَ بِقُرْبِ كَلَارُكَ، مُشِيرَةً إِلَى كُلِّ عِلَامَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ عِلَامَاتِ الرَّبِيعِ. فَمَعَ أَنَّ الْحُقُولَ كَانَتْ الْآنَ جَرْدَاءَ، وَقَدْ بَقِيَتْ فَقَطْ

رُفِعَ من الثَّلَجِ المُلَطَّخِ بِالثَّرَابِ فِي الأَمَاكِنِ المُسْتَوْرَةِ، فَقَد كَانَتِ الزُّهُورُ
الأُولَى تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا بِبُطْءٍ نَحْوِ الشَّمْسِ. وَبَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ، ظَهَرَتْ طُيُورٌ
عَائِدَةٌ عَلَى عَمُودِ سِيَاحٍ أَوْ غُصْنِ شَجَرَةٍ. غَيْرَ أَنَّ أَوْثَقَ عِلْمَةٍ لِلرَّبِيعِ
كَانَتْ فِي دَاخِلِهَا، إِذِ اسْتَنْشَقَتِ الهَوَاءَ الدَّافئَ العَطِرَ.

كَانُوا وَاحِدَةً مِنَ العَائِلَاتِ الأُولَى فِي الوُصُولِ إِلَى دَارِ آلِ غِرَاهَامِ،
وَأَرَادَتْ مَارْتِي أَنْ تُسَاعِدَ مَا فِي آخِرِ التَّحْضِيرَاتِ. فَطَمَأْنَهَا كَلَارِكُ بِأَنَّ
مِسي وَكَلَارِ سَيَكُونَانِ بَخِيرٍ إِذَا تَرَكَا مَعَهُ، مَا دَامَ الهَوَاءُ المُنْعَشِ
سَيَنْفَعُهُمَا كَثِيرًا. وَإِذْ دَارَتْ مَارْتِي لِتَدْخُلَ البَيْتَ بِسُرْعَةٍ، سَمِعَتْ
تَعْلِيقَاتِ بَنِ عَلِيٍّ كَوْنِ كَلَارِ ابْنًا وَسِيمًا جَدًّا، وَتَعْقِيبَاتِ كَلَارِكِ المُبَاهِيَةِ
بِمَا يَبْدُو فِعْلًا مِنْ قُوَّةِ الصَّبِيِّ وَوَعِيهِ، فَابْتَسَمَتْ لِنَفْسِهَا.

كَانَتْ بُنُوكٌ مُوقَّتَةٌ قَدْ وُضِعَتْ فِي السَّاحَةِ لِأَجْلِ اجْتِمَاعِ العِبَادَةِ،
وَطَوَالَاتٌ مُسْتَطِيلَةٌ قَدْ رُتِّبَتْ لِأَجْلِ الوَلِيمَةِ.

وَسَرْعَانَ مَا أَصْبَحَ مَنْزِلُ مَا غِرَاهَامِ خَلِيَّةَ نَشَاطٍ؛ لِأَنَّ زِيَارَةً مِنْ قِبَلِ
الوَاعِظِ وَعُرسًا مُزْدَوِجًا فِي اليَوْمِ نَفْسَهُ كَانَا سَبَبًا لِمِقْدَارٍ وَافِرٍ مِنَ الحَرَكَةِ
وَالنَّشَاطِ.

وَصَلَتْ عَائِلَةٌ اسْتَرْنَ، مِمَّا جَعَلَ وَجَهَ سَالِيٍّ أَنْ يَتَوَرَّدَ حَيَاءً بِحُمْرَةٍ
جَدَّابَةٍ. وَقَدْ سُرَّتْ مَارْتِي بِرُؤْيَا جَايسُونَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا بِفَخْرٍ وَحُبِّ
عَكَسَتْهُمَا عَيْنَاهُ.

وَقُبِيلَ بَدْءِ اجْتِمَاعِ العِبَادَةِ، ظَهَرَ مِلْتُ كُونَرِزِ، وَهُوَ يَبْدُو مَزْهُوًّا بِنَفْسِهِ

وَمُزْعِبًا كحالِهِ دَوْمًا. فوسَّعَ لَهُ الرَّجَالُ عَلَى الْبَنكِ مَوَانِسِينَ، وَلَكِنَّ مَارْتِي اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَفْهَمَ تَضَائِقَ آلِ غَرَاهَام. وَهِيَ أَيْضًا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَشْعُرَ بِالطَّمَأِينَةِ حِيَالَ هَذَا الرَّجُلِ.

بَعْدَمَا جَلَسَ الْجَمِيعُ عَلَى الْبُنُوكِ، وَقَفَ بَنُ غَرَاهَامَ عَلَى قَدَمَيْهِ، وَرَحَّبَ بِالْجِيرَانِ فِي مَزْرَعَتِهِ ”فِي هَذَا الْيَوْمِ الرَّبِيعِيِّ الْجَمِيلِ“. وَعَبَّرَ عَنِ ثِقَتِهِ بِأَنَّهُمْ سِينَالُونَ مِنْ خِدْمَةِ الْقِيَامَةِ ”بِرَكَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ“، وَدَعَا الْجَمِيعَ إِلَى الْمُشَارَكَةِ فِي عُرْسِ ابْنَتَيْهِ الْكُبْرَيَيْنِ، شَاكِرًا إِيَّاهُمْ بِلُطْفِ ”عَلَى جَمِيعِ الطَّعَامِ الْجَيِّدِ الظَّاهِرِ عَلَى الطَّائِلَاتِ“.

ثُمَّ عَرَفَ بِالْوَاعِظِ الزَّائِرِ، الْقِسِّيسِ سِيمُونِز، وَعَبَّرَ قَائِلًا: ”مَا أَجْمَلَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَنَا هُنَا فِي صَبَاحِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ جَمِيعًا نَتَشَوَّقُ إِلَى الْمُشَارَكَةِ فِي اجْتِمَاعِ الْعِبَادَةِ الصَّبَاحِيِّ“.

وَمِنْ ثَمَّ تَوَلَّى الْقِسِّيسُ الْأُمُورَ، فَعَلَّقَ عَلَى ”الْيَوْمِ الْجَمِيلِ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ“، وَعَبَّرَ عَنِ بَهْجَتِهِ بِرُؤْيَيْهِمْ جَمِيعًا حَاضِرِينَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ الْجَمَاعَةَ فِي الصَّلَاةِ. وَقَدْ رَنَّمُوا تَرَنِيمَاتٍ قَلِيلَةً مِنَ الذَّاكِرَةِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ كِتَابُ تَرَنِيمٍ. أَمَّا مَارْتِي، فَلَمْ تَعْرِفْ كَلِمَاتِ آيَةِ تَرَنِيمَةٍ، وَلَكِنَّهَا اسْتَمْتَعَتْ بِالِاسْتِمَاعِ إِلَى الْآخَرِينَ وَهُمْ يُرَنِّمُونَ. فَفَرَّرَتْ أَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تَطْلُبَ إِلَى كَلَارِكِ أَنْ يُعَلِّمَهَا بَعْضَ أَنْغَامِ التَّرَانِيمِ وَكَلِمَاتِهَا.

لَمَّا بَدَأَ الْقِسِّيسُ سِيمُونِزُ يَتَكَلَّمُ إِلَى الْحُضُورِ، أَصْغَتْ مَارْتِي بِانْتِبَاهٍ. وَقَدْ ابْتَدَأَتْ قِصَّةَ الْقِيَامَةِ الْبَسِيطَةِ، لَكِنْ الْقَوِيَّةِ، بِخِدْمَةِ الْمَسِيحِ لِأَهْلِ

زمانه، وإلقاء القبض عليه، والتُّهَمِ الباطلة التي على أساسها حُكِمَ عليه بالإعدام. تحدّث الواعظ بشأن الأحزاب السِّيَاسِيَّةِ في ذلك العصر، وبالأَسبابِ التَّارِيخِيَّةِ لموت المِسيحِ، لكنَّه فسَّرَ بعد ذلك الغايةَ الحَقِيقِيَّةَ لسماح الآب السَّمَاوِيِّ، بل لتخطيطه، بأن يموتَ ابنُه الحبيب.

انفطرَ قلبُ مارتِي وهي تُصغِي. كانت قد سمِعتَ قبلاً كيف عمَدَ أناسٌ قُساةً في أَيَّامِ المِسيحِ إلى قتله دونَ سبِّ عادِل، ولكنَّها لم تُدرِكْ قطُّ من قَبْلِ أَنَّهُ كانَ لذلكِ أَيَّةُ عَلاقَةٍ بها بتاتاً. أمَّا أن تسمعَ الآنَ حَقِيقَةَ كونه شخصيًّا قد تلقَى عقوبةَ خطاياها- وعقابَ خَطِيئَةِ البَشَرِ أَجمِعينَ أيضًا- فذلك كانَ اكتِشافًا مُذهلاً ومُصَحِّحًا.

ما كنتُ أدري... ما كنتُ أعلمُ حَقًّا أَنك مُتُّ من أَجلي! هكذا هتَفَ قلبُها وهي جالسةٌ على أَحَدِ المقاعدِ الطويلةِ، حاملةً كلَّارَ بقوَّةِ على ذِراعَيْها، ومِسي وكَلاركِ إلى كِلا جانِبَيْها. أنا آسفة... صِدقًا، أنا آسفة. يا رَبُّ، أَطَلُبُ إِلَيْكَ أن تَفعلَ في قَلبي ما تنوِيه. ثمَّ انزلتَ دموعٌ من عَينَيْها، وسالت على خَدَّيها. حَتَّى إنَّها لم تهتمَّ بأن تَمسحَها. وكانَ في وُسعِها أن تُحسَّ عَينِي كَلاركِ تنظرانِ إليها كَلِّما التفتَ صَوْبَها بينَ حينٍ وآخر. غيرَ أنَّ الواعظَ لم يتوقَّفَ هناك، بل مضى ليحكِي قِصَّةَ صَباحِ القِيامَةِ الأوَّلِ ذاك، لَمَّا ذهبتِ النِّساءُ باكرًا إلى القبرِ فوجدنَ أَنَّ الرَّبَّ قامَ من الموتِ حيًّا.

وقال الواعظ: "إنه حيٌّ! ولأنه مُتصِرٌّ على الخطيئة والموت، يُمكننا نحنُ أيضًا أن ننتصِرَ".

غمرت قلبَ مارتى موجةُ فرحٍ مُتدفِّقةٌ حتَّى شعرت بِمَيْلٍ إلى الهُتاف... إنَّما ليسَ هنا، وليس الآن، كما حذَّرت نفسها. ومع ذلك سيكونُ عليها أن تفعلَ هكذا في نهاية المطاف. لقد كان عليها أن تقول لشخصٍ ما إنَّها فهمت. فقالت لنفسها: لقد سلَّمتُ نفسي الآن كي أتعرفَ إلى إلهِ كلارك! وجعلتها هذه الفكرةُ تشعرُ بالرَّهبة. ثمَّ مدَّت يدها وزلَّقتها داخلَ يدِ كلارك. ولمَّا نظرَ كلارك إليها، ردَّت حَمَلقته. لا بُدَّ أنَّه قرأ الفرقَ في وجهها، وإذا باليدِ الكبيرة تضغطُ بشدَّة على يدها الأصغر حَجْمًا. فعلمت مارتى أنَّه شاركها في فرَحها كما شاركته الآن في معرفةِ إلهه. وكان ذلك كافيًا.



تلَّت الرِّيجتانِ اجتماعَ العبادة. فوقَفَ ملت ولورا معًا أمام القسيسِ أوَّلًا. وقد أرادت سالي أن يجريَ الأمرُ بهذه الطريقة. كان ملت ناظرًا إلى قدميه، مُترجِّحًا إلى الوراء وإلى الأمام بانتظام. وقد بدا بالأحرى لامباليًا في التَّصرفِ والهندام، مع أنَّه كان قد شدَّبَ لحيته، كما كان شعره قد قُصَّ. ونظرت لورا إليه مُستحييةً، بطريقةٍ جعلت مارتى تأملُ أنَّه بمُساعدةٍ من حُبِّ زوجةٍ صالحة قد يُتاح لهذا الرَّجُل أن يتغيَّرَ حقًا. لقد أرادت بكلِّ قلبها لِاثنيهما أن ينعما بالسَّعادة معًا.

ثمَّ وقفَ جايسون وسالي آن تاليًا، وعلمت مارتى أنَّ الفرَحَ والحُبَّ

الباديين على وجهيهما قد انعكس في قلوب آل غراهام، كما في قلبها شخصيًا. وما كان أسهل المشاركة في سعادتهم!



ما إن انتهت المراسم، حتى بدأ الجيران بالمرح الصاخب، راشين الرز، وقارين أجراس البقر، وواقفين في صف كي يقبلوا العروسين. وأخيرًا سُمح للعريسين والعروسين بأن يجلسوا إلى الطاولة التي كُدست فوقها الهدايا. وبينما انهمكت النساء في التحضيرات لطعام الغداء، فتحت العروستان هداياهما.

وفيما استمر الحديث الودّي والضحك في أثناء الوليمة، وصل آل لارسون. فمشى جد مُترنحًا نحو الطاولات، دون أن يُكلف نفسه حتى ربط حصانيه بحبل طويل ليرعيا. أمّا السيّدة لارسون فوضعت مقلاة خبز ذرة بين الأطباق الأخرى، وبعينين مُسبلتين نحو الأرض تقدّمت صغيرتيها إلى مكان يبدو آمنًا، إلى طاولة بعيدة. فقامت Marti، وإذ تظاهرت بإعادة ملء إبريق الماء، عبرت ووقفت بقرب المرأة.

قالت Marti برقة: "أهلاً بكم جميعًا. أنا مسرورة جدًا برؤيتكم". فلم ترفع المرأة عينها، بل ظهرت بقعة لون صغيرة في كلا خديها إذ أومأت برأسها ردًا. وتابعت Martي- مائة يدها لتشتت شعر كلتا الطفلتين- "الرّب الصّالح فعّل الكثير لأجلنا كلنا. لقد تكلم الواعظ عن ذلك في هذا الصّباح: كيف يستطيع الله أن يُطهر قلوب الناس ويُغيّر طرقهم. وقد وضعني الرّب على ذلك السبيل". قالت هذا وهي

غير مُتَيَقِّنَةٍ تمامًا كيف تُعَبِّرُ عَمَّا كانت تشعرُ به .

ثُمَّ حَلَقَتْ مشاعرُ مارتِي بالرَّضَى إذ لاحظَتْ نظرةَ السَّيِّدَةِ لارسون إلى فوق . ألم يكن ذلك تعبيرًا عن الأمل؟ وفي تلك الأثناء، ما كان من جدِّ إلا أن حمَلَ صَحْنَهُ وَقَعَدَ لِأَكْلِهِ . فلا بُدَّ أن يُجرى حديثُ إضافيٍّ مع السَّيِّدَةِ لارسون في وقتٍ آخر .

لَمَّا رُفِعَتِ الأطباقُ عن الطَّاوِلَاتِ ، حمَلَ الشَّائِيَانِ الجديدانِ الشَّابَّانِ عربتَيْهِمَا وودَّعا ما غراهام بالتَّقبيل . لقد تماسَّكَتِ السَّيِّدَةُ غراهام بشجاعةٍ ، ولكنَّ لَمَّا ودَّعت سالي آن مُقبِلَةً إِيَّاهَا ارتسمَ توقُّقٌ في عَيْنَيْهَا . إنَّما ظهرتْ سِمْماءُ قَلَقٍ عميقٍ لَمَّا جذبتْ لورا صوبَهَا من قُرْبٍ وضمَّتْهَا طويلاً قبلَ أن تُرخيَهَا . فأشاحتْ مارتِي وجهَهَا لِئَلَّا تسيلَ دُموعُهَا هي أيضًا .

تَرَيَّتْ كلارك ومارتِي إلى حين ، إذ أحسَّ كيف أنَّ وقتًا صعبًا في حياةِ آلِ غراهام قد جُعِلَ أصعبَ بعدُ ، ثُمَّ أحضرا ولَدَيْهِمَا وانطلقا راجِعِينَ إلى بَيْتِهِمَا .

وإذ قالتْ مارتِي لكلارك : ” كان هذا يومًا طيبًا بكلِّ ما فيه “ ، أومأ برأسِهِ مُبدئيًا اتِّفَاقَهُ معها .

زَرْع

حَمَلَتِ الشَّمْسُ مَزِيدًا مِنَ الدَّفءِ كُلِّ يَوْمٍ، وَسُرَّتْ مَارَتِي جَدًّا بِأَنْ تُخْرِجَ الْوَلَدَيْنِ خَارِجًا إِلَى الْهَوَاءِ الْمُنْعِشِ. وَكَانَ كَلَارِكٌ قَدْ أَنْجَزَ الْعَمَلَ فِي غُرْفَتِي النَّوْمِ الْجَدِيدَتَيْنِ، وَمَارَتِي قَدْ أَضَافَتْ لِمَسَاتِهَا الْخَاصَّةَ فِي السَّتَائِرِ وَالْبُسْطِ. وَقَدْ قَدَّرَا فَعَلًا وُجُودَ مَسَاحَةٍ إِضَافِيَّةٍ لِلشُّغْلِ وَاللَّعْبِ. وَكَانَتْ أَيَّامُ كَلَارِكٍ تَبْدَأُ بَاكِرًا وَلَا تَنْتَهِي إِلَّا حِينَ يَمْنَعُهُ الظَّلَامُ الشَّدِيدُ أَنْ يَرَى بَعْدُ فِي الْحَقُولِ الَّتِي يَحْرِثُهَا، وَكُلَّ يَوْمٍ كَانَ مَزِيدٌ مِنَ الْأَرْضِ مُعَدًّا لِلْبَذَارِ الْمَحْفُوظِ بِحِرْصٍ بَعْدَمَا نَجَا مِنَ الْحَرِيقِ.

كَانَ عَشْبٌ كَافٍ يَشْقُ طَرِيقَهُ إِلَى الطُّلُوعِ الْآنَ لَكِي تَرعى الْبَقَرَاتُ الثَّلَاثَ. وَكَانَ عَجَلٌ فَتِيٌّ فِي حَظِيرَةِ الْفِطَامِ، وَبَقْرَةٌ ثَانِيَةٌ يُنْتَظَرُ أَنْ تُنْتِجَ عَجَلًا، وَثَالِثَةٌ سَوْفَ تَتْبَعُهَا بَعْدَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ.

كَانَتْ إِحْدَى الْخِنْزِيرَتَيْنِ قَدْ أَنْتَجَتْ صِغَارًا بَاتَتْ تُلَازِمُهَا. وَقَدْ فُتِنَتْ مِسي خُصُوصًا بِالْخَنَانِيصِ الصَّغَارِ وَهِيَ تُحَاوِلُ أَنْ تَنَالَ حِصَّتَهَا الْوَافِيَةَ فِي أَوْقَاتِ الطَّعَامِ. لَمْ تُعْطِهُمَا الْخِنْزِيرَةُ بَطْنًا جَيِّدًا مِنَ الْمَوَالِيدِ كَمَا أَمَلَا، إِذْ أَنْتَجَتْ سِتَّةَ خَنَانِيصٍ فَقَطْ وَفَقَدَتِ اثْنَيْنِ، وَلَكِنَّهُمَا حَسِبَا أَنَّ

الخِزِيرَةَ الثَّانِيَةَ قَدْ تُبْلِي أَحْسَنَ. وَكَانَتْ ثَلَاثٌ مِنْ دَجَاجَاتِ مَارْتِي
الثَّمَانِي جَائِمَاتٍ عَلَى بَيْضٍ، فَأَمَلْتُ أَنْ تَمْلَأَ خُمَّ الدَّجَاجِ مِنْ جَدِيدٍ.
قَامَتِ الْحَظِيرَةُ الْجَدِيدَةُ شَامِخَةً وَمَتِينَةً، أَكْبَرَ قَلِيلًا مِنْ سَابِقَتِهَا.
كَانَتْ شَقُوقُهَا مَا تَزَالُ غَيْرَ مَسْدُودَةٍ حَتَّى الْآنَ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ يُمَكِّنُ أَنْ
يُنَجَّزَ فِي أَثْنَاءِ وَقْتِ الرُّكُودِ لَاحِقًا تِلْكَ السَّنَةَ. فَإِذَا كَانَ السَّقْفُ مَرْفُوعًا
وَالْأَرْضِيَّةُ مَرْصُوفَةً، كَانَ مِنْ شَأْنِ الْحَظِيرَةِ أَنْ تُوَدِّيَ دَوْرَهَا وَهِيَ عَلَى
تِلْكَ الْحَالِ إِلَى مَا بَعْدَ احْتِضَانِ الْأَرْضِ لِلزَّرْعِ.

كَانَتْ مَارْتِي تُدَنِّدُنِي بِأَحْدَى التَّرْنِيمَاتِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي تَتَعَلَّمُهَا، وَهِيَ
تَشْتَغِلُ بِتَحْضِيرَاتِ الْفَطُورِ، وَقَدْ طَلَبْتُ مِسي فِطَائِرَ الْبَانِكِيكِ بِالْتَّحْدِيدِ.
وَبَيْنَمَا مَارْتِي تُحَرِّكُ الْمِزِيجَ، تَذَكَّرْتُ تِلْكَ الْأَسَابِيعَ الْبَاكِرَةَ فِي هَذَا
الْمَنْزِلِ الصَّغِيرِ لَمَّا كَانَ كُلُّ مَا تَعْرِفُ كَيْفَ تَصْنَعُهُ هُوَ فِطَائِرَ الْبَانِكِيكِ.
ثُمَّ فَكَّرْتُ فِي الْعُرُوسَتَيْنِ الْجَدِيدَتَيْنِ وَتَسَاءَلْتُ كَيْفَ تَتَصَرَّفَانِ فِي
مَسْئُولِيَّاتِ طَبْخِهِمَا، فَكَانَتْ عَلَى يَقِينٍ بَأَنَّهُمَا سَتُبْلِيَانِ أَحْسَنَ بِكَثِيرٍ
بَعْدَمَا دَرَبْتَهُمَا مَا غَرَاهَمَ جَيِّدًا.

كَانَتْ سَالِي أَنْ قَدْ اسْتَقَرَّتْ عَلَى نَحْوِ جَيِّدٍ. وَقَدْ أَتَتْ مَعَ جَايسُونَ
ذَاتَ مَسَاءٍ لِإِرْجَاعِ حِصَانِ الرُّكُوبِ، فَتَلَأَلَتْ عَيْنَا جَايسُونَ فِخْرًا إِذْ
حَكَى مُتْبَاهِيًا كَيْفَ عَلَّقَتْ سَالِي أَنْ السَّتَائِرَ، وَمَدَّتِ الْبُسْطَ، وَرَبَّتْ
مِطْبَخَهَا الصَّغِيرَ. ثُمَّ مَضَى يَقُولُ إِنَّهَا طَاهِيَةٌ مَاهِرَةٌ بِالْفِعْلِ أَيْضًا، فَتَوَرَّدَ
خَدَّاهَا سُرُورًا. وَفِي مَا بَعْدُ قَهْقَهَةَ كَلَارِكِ وَمَارْتِي عَلَى ذَلِكَ. وَالْآنَ

ابْتَسَمَتْ مَارْتِي إِذْ تَصَوَّرَتْ الْعُرُوسَيْنِ الشَّائِبَيْنِ مُطْمَئِنِّينِ تَمَامًا فِي حُبِّهِمَا أَحَدِهِمَا لِلآخَرِ.

ثُمَّ انْتَقَلَتْ أَفْكَارُهَا إِلَى لُورَا، فَتَسَاءَلَتْ: كَيْفَ حَالُ لُورَا؟ كَانِ كَلَارِكٌ قَدْ رَأَاهَا مِنْذُ عَهْدٍ قَرِيبٍ بَعْدَمَا سَاقَ الْعَرَبَةَ فَوْقَ مُنْحَدَرٍ تَلٍّ، وَإِذَا بِلُورَا نَازِلَةً مَشِيًّا عَلَى الطَّرِيقِ. وَقَالَ إِنَّهَا بَدَتْ مُجْفَلَةً لَدَى رُؤْيَيْهِ الْمَفَاجِئَةِ، وَأَشَاحَتْ وَجْهَهَا بِحِدَّةٍ. وَلَمَّا أَوْقَفَ الْحِصَانَيْنِ لِيَعْرِضَ عَلَيْهَا أَنْ يُقَلِّهَا، نَظَرَتْ إِلَيْهِ مُجَدِّدًا لِنَقُولِ: "لَا، شُكْرًا. الْمَشْيُ مُفِيدٌ لِي تَمَامًا". وَلَكِنَّ عَيْنَيْهَا بَدَتَا مُضْطَرِبَتَيْنِ، وَقَدْ ظَهَرَتْ كَدْمَةٌ عَلَى خَدَّهَا. وَمِنْ ثَمَّ مَضَى فِي سَبِيلِهِ، وَلَكِنْ لَمَّا حَكَى قِصَّتَهُ لِمَارْتِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ كَانِ فِي وَسْعِهَا أَنْ تُلَاحِظَ أَنَّهُ كَانِ قَلِقًا جَدًّا بِشَأْنِ ذَلِكَ كُلِّهِ. فَفَكَّرَتْ مَارْتِي هَازَةً رَأْسَهَا: مَسْكِينَةُ لُورَا... أَنْ تَكُونَ مُنْتَظَرَةً طِفْلًا مَعَ هَذَا الرَّجُلِ وَهِيَ تَبْدُو تَعِيسَةً وَمُوحِشَةً جَدًّا! وَأَحْسَسْتُ أَلْمًا يَعْصِرُ قَلْبَهَا عَلَى لُورَا... وَعَلَى مَا غَرَاهَامِ.

اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَسْمَعَ كَلَارِكٌ صَافِرًا وَهُوَ آتٍ مِنَ الْحَظِيرَةِ، فَنَادَتْ مِسي كِي تَأْتِي بِسُرْعَةٍ إِلَى الطَّائِلَةِ. وَإِذْ سَاعَدَتِ الطُّفْلَةَ فِي الْجُلُوسِ عَلَى كُرْسِيِّهَا، فَكَّرَتْ: هَلْ يَجْعَلُ زَرْعُ الرَّبِيعِ الرَّجُلَ سَعِيدًا دَائِمًا هَكَذَا؟

كَانِ الرَّبِيعُ دَاخِلًا فِي دَمِهَا أَيْضًا، وَكَانَتْ مُتْلَهِّفَةً أَنْ تَغْرَزَ يَدَيْهَا فِي أَيْضًا فِي التُّرْبَةِ. وَكَانَ رَائِعًا جَدًّا أَنْ تَشْعُرَ بِأَنَّهَا نَحِيفَةٌ وَمُسْتَرِيحَةٌ مُجَدِّدًا. فَقَدْ أَحْسَسَتْ كَمَا لَوْ كَانَتْ تَنْزَلِقُ فَوْقَ الْأَرْضِ، غَيْرَ مُثْقَلَةٍ

وَحَرَاقَاءَ بَعْدُ ”وَأَنَا حَامِلَةٌ صَغِيرًا أَيْنَمَا أَذْهَبُ“، كَمَا عَيَّرَتْ عَنْ ذَلِكَ مَرَّةً لِمَا غَرَاهَامُ. وَكَانَتْ شَكُورًا مِنْ أَجْلِ وُجُودِ كَلَارِ الطِّفْلِ خَارِجَهَا، حَيْثُ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَضُمَّهُ مِنْ قُرْبٍ أَوْ تُمَدِّدَهُ عَلَى السَّرِيرِ أَوْ سِوَاهُ سَاعَةً تَشَاءُ.

فِي أَثْنَاءِ قِرَاءَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ صَبَاحًا، كَادَتْ مَارْتِي تَبْتَسِمُ لِمَا قَرَأَ كَلَارِكُ: ”تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتَعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الْأَحْمَالَ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ“. فَقَدْ شَعَرْتُ بِأَنَّهَا فَهِمَتْ مَعْنَى كَلِمَاتِ الْمَسِيحِ هَذِهِ بِطَرِيقَةٍ خَاصَّةٍ.

وَصَلَّتْ فِي قَلْبِهَا: أَشْكُرُكَ، يَا رَبُّ، إِذْ تُعَلِّمُنِي كَيْفَ أُسْتَرِيحُ فِيكَ. إِنَّكَ تُرِيحُنِي، وَأَنَا شَاكِرَةٌ عَلَى ذَلِكَ.

وَبَعْدَمَا أَنْهَى كَلَارِكُ الصَّلَاةَ وَتَسْلِيمَ يَوْمِهِمْ لِلَّهِ، سَأَلَتْهُ مَارْتِي: ”هَلْ حَانَ الْوَقْتُ لِزَرْعِ الْحَدِيقَةِ؟“

”بَعْضُ الْبُذُورِ يَجِبُ أَنْ تُدْخَلَ التُّرْبَةَ الْآنَ. وَكَنتُ أَفَكِّرُ هَذَا الصَّبَاحَ فِي أَنَّ الْأَحْسَنَ لِي هُوَ أَنْ أُسْتَعْمَلَ الْمِحْرَاثَ لِقَلْبِ التُّرْبَةِ. يَنْبَغِي أَنْ أُعِدَّهَا لَكَ فِي الْحَالِ. أَتُرِيدِينَ أَنْ تَزْرَعِيهَا الْيَوْمَ؟“

فَأَجَابَتْ مَارْتِي بِحِمَاسَةٍ: ”أَوْه، نَعَمْ. أَنَا مُتَشَوِّقَةٌ حَقًّا لِمُبَاشَرَةِ هَذِهِ الْمَهْمَةِ. إِنَّمَا...“.

وَلَمَّا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُفَكِّرَ كَيْفَ تَقُولُ لَهُ، سَأَلَ كَلَارِكُ بِإِصْرَارٍ: ”إِنَّمَا مَاذَا؟“

فَتَوَرَّدَ خَدًّا مَارْتِي. ”مَا زَرَعْتُ قَطُّ مِنْ قَبْلُ.“

”زرعتِ ماذا؟“

”ما زرعتُ أيَّ شيءٍ.“

”أما كانَ عندَ أهلكِ حديقةٌ؟“

”قالتِ أمِّي إنَّه كانَ أمرًا بغيضًا. وإنَّها تفضِّلُ الشِّراءَ من عندِ جارٍ أو بقالٍ. وأظنُّ أنَّها ما اهتَمَّت قطُّ بالتُّربة.“

”وأنتِ؟“

”أظنُّ أنَّه يروِّقني أن أشتغلَ بجعلِ شيءٍ ما ينمو. ولا أكادُ أطيق الانتظارَ حتَّى أُجربَ. إنَّما...“

فنظرَ كلاركُ إليها فوقَ الطاولةِ وسألَ ثانيةً في الحال: ”إنَّما ماذا؟“
وغصَّتْ مارتِي قائلةً: ”أعلِّمُ أنَّ الحديقةَ هي شُغلُ المرأةِ، ولكنِّي كنتُ أتساءلُ...“. ثمَّ قالتَ بعدَ تَرَدُّدٍ: ”هذه المرَّةَ فقط، هل يَسْعُكُ أن تُريني كيفَ أزرعُ البُذورَ، وكلَّ ما يتعلَّقُ بذلك؟“
بدا كلاركُ كأنَّه يُحاولُ ألاَّ يتبسَّم، وأجابَ على مهلٍ: ”أخمنُ أنَّه يَسْعُني ذلك... هذه المرَّةَ فقط، تذكِّري!“

نظرتِ مارتِي إليه، وإلى البريقِ في عينيهِ، وتنفَّستِ الصُّعداءَ. كانتِ تلكَ أوَّلَ مرَّةٍ فيها حمَلتِ نفسَها على أن تطلِّبَ إليه شيئاً ما، وبدا أنَّ ذلكَ سرَّه بدلًا أن يسوءه. فقالت: ”أفضِّلُ وقتَ هو بعدَ الغداءِ مُباشرةً، فيما يكونُ الصَّغيرانِ نائمينِ نومتَهُما القصيرة. هل تكونُ التُّربةُ قد حُرِّتْ وأعدَّتْ قبلَ ذلكَ الحينِ؟“

فأوماً كلارك برأسه إيجاباً. ثُمَّ قال بجِدِّية زائفة وهو يقوم مُتَّجِهاً إلى رَكوة القهوة: ”أظنُّ أنّي أستطيعُ أن أتفضَّلَ عليكِ بهذه الإضافة إلى برنامَج يومي“. وكادت مارتِي تُعصُّ بلُقمة فطائرِ البانكيك. إذ كانت تلك أوَّل مرّةٍ فيها تُفوّتُ إحصارَ فِنجانِ قهوته الثَّاني على مدى بضعة أشهر. وبدا كلارك غيرَ مُنزعِجٍ إذ صبَّ لِكِلَيْهِما ثُمَّ عاد إلى مكانه.

وفوقَ كَأْسَيْهِما المُبَخَّرِينَ تناقشا بشأنِ البُذورِ التي يجب أن تُزرَع، ثُمَّ مدَّ يدهُ لِيأخذَ قُبْعَتَهُ. وإذ خرَجَ من الباب، قال: ”تلك قهوةٌ جيِّدة!“ ثُمَّ عِنْدَ الظُّهرِ، بعدَ الانتهاء من غَسْلِ الصُّحونِ، وإراحةِ الوالِدَيْنِ، بَسَطَ كلارك ومارتِي بُذورَ الحديقة على طاوِلَةِ المَطبخِ لِيُقرِّرا ماذا ينبغي أن يُوضَعَ في التُّربة عندَ الزَّرْعِ الأوَّلِ وماذا يُتركُ حتَّى وقتٍ لاحقٍ. وقد أراها كلارك بصبرٍ مُختلفِ البُذورِ، مُطليعاً إيَّاهَا على ماهيَّتِها وعلى خصوصيَّةِ عاداتِ زرعِها. فأصغَتِ مارتِي مَشدوهةً. لقد كان يعرفُ الكثيرَ فعلاً، وفيما هو يتحدَّثُ بشأنِ البُذورِ بدتْ هذه مُكتسبةً شخصيَّاتٍ أمامَ عيني مارتِي تماماً... كالأولاد من حيثِ الاحتياجِ إلى اعتناءٍ واهتمامٍ خاصِّين.

سُرعانَ ما جَمَعَ البُذورَ وتوجَّها إلى الحديقة. وكانتِ الشَّمسُ قد أدفأتِ الأرضَ، جاعلةً التُّربةَ المقلوبةَ حديثاً ذاتَ رائحةٍ جذَّابة على نحوٍ مُبهجٍ. فضحكُ الاثنانِ معاً إذ ذكرا كيف أنَّ مِسي، وعاجلاً كلارك أيضاً، سيرغبان في وَضْعِ أيديهما- فضلاً عن باقي جِسمَيْهِما

الصَّغِيرِينَ - دَاخِلَ التُّرَابِ .

ثُمَّ انْحَنَتْ مَارْتِي فَالْتَقَطَتْ قَبْضَةً تُرَابٍ ، وَجَعَلَتْهَا تَجْرِي بَرَقَّةً مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهَا . أَرَادَتْ أَنْ تَقُولَ : إِنَّهَا جَمِيلَةٌ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ بَدَتْ سَخِيفَةً جَدًّا فِي وَصْفِ التُّرَابِ . وَفَجْأَةً تَوَقَّفَتْ ، وَإِذَا أَدَارَتْ ظَهْرَهَا نَحْوَ كَلَارِكٍ زَلَّقتْ حِذَاءَهَا مِنْ قَدَمَيْهَا . ثُمَّ رَفَعَتْ تَنْوَرَتَهَا بِاحْتِشَامٍ ، وَنَزَعَتْ جَوْرِيَّهَا وَدَسَّتْهُمَا بِاعْتِنَاءٍ دَاخِلَ مُقَدَّمِي فِرْدَتِي الْحِذَاءِ . وَإِذَا وَقَفَتْ حَافِيَةً الْقَدَمِينَ ، وَأَحَسَّتْ تَرْفَ الْأَرْضِ الدَّافِئَةَ ، غَرَزَتْ أَصَابِعَ قَدَمَيْهَا عَمِيقًا دَاخِلَ خِصْبِهَا النَّدِيِّ . فَشَعَرَتْ كَأَنَّهَا طِفْلَةٌ مِنْ جَدِيدٍ . . . صَغِيرَةٌ وَحُرَّةٌ ، مُجَرَّدَةٌ إِلَى حِينٍ مِنْ أَعْبَائِهَا وَمَسْئُولِيَّاتِهَا .

وَفَكَّرَتْ : لَا عَجَبَ أَنْ تُحِبَّ "الأَحْصِنَّةَ الْاسْتِلقاءَ وَالتَّمْرِغَ عِنْدَمَا تُنْزَعُ عُدَّتُهَا . فَمِنْ جِهَتِي ، أَحِبُّ أَنْ أَحْدُوَ حَذْوَهَا!

كَانَ كَلَارِكٌ قَدْ انْهَمَكَ فِعْلًا فِي تَحْضِيرِ أَتْلَامٍ لَهَا كِي تَزْرَعَهَا . فَجَثَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا وَبَدَأَتْ تُلْقِي الْبُذُورَ دَاخِلَ التُّرْبَةِ الْخَصِيبَةِ .

وَفِيمَا بُذُورُ الْجَزْرِ الضَّئِيلَةُ تُنْشَرُ مِنْ يَدِهَا ، قَالَتْ فِي سَرِّهَا : "ذَاتَ يَوْمٍ عَاجِلًا ، سَأَكُونُ مُرَاقِبَةً لِكَ وَأَنْتِ تَنْمِينَ!"

ثُمَّ رَجَعَ كَلَارِكٌ كِي يُعْطِي التَّلَمَ بَعْدَمَا وَضَعَتْ مَارْتِي الْبُذُورَ . إِنَّهُ يَبْدُو مُسْتَمْتِعًا بِالْأَمْرِ بِمِقْدَارِ اسْتِمْتَاعِي أَنَا بِهِ . هَكَذَا فَكَّرَتْ مَارْتِي . ثُمَّ لَمَحَتْ الْعِجَلَ الْقَافِرَ مَرَحًا ، فَتَمَنَّتْ لَوْ كَانَتْ لَهَا الْجُرْأَةُ حَتَّى تَقْفِرَ هُنَا وَهَنَّاكَ عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ . جَيِّدٌ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ حَيًّا فِي يَوْمٍ كَهَذَا!

اشتغل الاثنان معًا، مُعظَمَ الوقت في صمت، وكانت مارتى شاعرةً
برفقةٍ جديدة للأرض، ولهذا الرَّجُلِ الطَّوِيلِ الصَّبُورِ الذي تدعوه زوجها.
وقبيلَ فروغهما من مهمَّتهما، جلس كلارك القرفصاءَ لكي يُمَلِّسَ
باعتياءِ التُّرابِ فوقَ بُدُورِ الذُّرَّةِ الحُلُوةِ التي كانت مارتى قد أسقطتها تَوًّا
داخلَ التُّربةِ.

فإذ رأت مارتى وضعيَّته المُتَقَلِّبَةَ جدًّا، انسَلَّت وراءه ودفعته دفعةً
مُمازحةً. وإذا به ينبطُحُ على التُّرابِ الرَّخِو فيما ألقى نظرةً خاطفةً عليها
وهي تُحاولُ إخفاءَ ضحكها وراءَ يديها.

فنهَضَ مُسرِعًا ومدَّ يده إلى قبضةٍ من الذُّرَّةِ، قائلاً: "أظنُّ أنَّ ههنا
امرأةٌ تطلُبُ ذرَّةً حُلُوةً مُنهالةً على رقبتيها!"

انطلقت مارتى هاربةً رَكْضًا. ومع كونها رشيقةً إلى حدِّ بعيد،
فُسرعانَ ما أدركتها خُطى كلارك الواسعةُ. وإذا كِلتا الذَّرَاعَيْنِ الطَّوِيلَتَيْنِ
تُطَوِّقَانِهَا وتحولانِ دونَ هروبها. فتلوَّت وتململت عليه، مُحاولَةً أن
تحررَ، ولكنَّ ضحكها جعلَ جهودها غيرَ مُجديةٍ إلى أبعدِ حدٍّ. وحاول
كلارك أن يُبقِيها بلزقه ليتسنى له أن يُحررَ إحدى يديه مع حبوبِ
الذُّرَّةِ، غيرَ أنَّ ضحكهُ شخصيًّا كان مُعرقلاً لجهوده.

أدركت مارتى قُربَه بطريقةٍ ما أدركتها قطُّ من قبل. فقُوَّةُ الذَّرَاعَيْنِ
اللَّتَيْنِ طَوَّقَتَاهَا، وخفقتانِ القلبِ على خدَّها، ورائحةُ صابونِ الحِلَاقَةِ
النَّظِيفَةِ التي ما زالت عالقةً به، بل كلُّ شيءٍ في هذا الرَّجُلِ الذي

ضَمَّهَا بَثَّ وَخَزًا خَفِيفًا فِي أَوْصَالِهَا. وَقَدْ بَدَأَ نَفْسُهَا يَأْتِي فِي لَهْثَاتٍ قَصِيرَةٍ، فَمَا عَادَتْ تَقْوَى عَلَى الْكِفَاحِ.

تَبَّتَتْهَا الذَّرَاعُ الْوَاحِدَةُ الْقَوِيَّةُ بِأَمَانٍ عَلَى صَدْرِهِ، وَأَفْرَعَتْ الْيَدُ الْأُخْرَى حَمَلَهَا مِنْ حُبُوبِ الذُّرَّةِ دَاخِلَ مُقَدَّمِ فُسْتَانِهَا. فَرَفَعَتْ نَظَرَهَا إِلَى دَاخِلِ عَيْنَيْنِ مُنْحَنِيَتَيْنِ فَوْقَهَا، قَرِيبَتَيْنِ إِلَى عَيْنَيْهَا عَلَى نَحْوِ مُحْرَجٍ. وَاحْتَبَسَ النَّفْسُ فِي حَنْجَرَتِهَا إِذْ اجْتَاخَتْهَا عَاطِفَةٌ مَأْلُوفَةٌ عَلَى نَحْوِ غَرِيبٍ. وَبَاتَتْ السَّيْمَاءُ عَلَى وَجْهِ كَلَارِكٍ مُتَغَيِّرَةً، بِطَرِيقَةٍ مَا، مِنْ الْمُغَايِظَةِ إِلَى شَيْءٍ مَا سِوَاهَا.

انْسَحَبَتْ مَارْتِي مُتَرَاجِعَةً فَجَاءَةً، وَقَدْ غَمَرَ قَلْبَهَا خَوْفٌ مُفْرِطٌ وَضَعْفٌ جِسْمُهَا.

وَإِذْ ضَغَطَتْ بِيَدَيْنِ مُرْتَجِفَتَيْنِ عَلَى صَدْرِ كَلَارِكٍ، قَالَتْ بِسُرْعَةٍ: "ذَاكَ كَلَارِكُ!"

فَأَفْلَتْهَا كَلَارِكُ، وَتَوَجَّهَتْ إِلَى الْبَيْتِ نِصْفَ رَاكِضَةٍ وَنِصْفَ مُتَعَثِّرَةٍ، وَخَدَّاهَا مُشْتَعِلَانِ.

وَفِي الدَّاخِلِ، أَسْنَدَتْ رَأْسَهَا إِلَى بَابِ غُرْفَةِ النَّوْمِ، مُحَاوِلَةً أَنْ تُحَلِّلَ أَسْبَابَ قَلْبِهَا الْخَافِقِ وَرُوحَهَا الْمُضْطَّرَبَةَ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَعَثُرَ عَلَى أَيِّ جَوَابٍ. وَبَعْدَمَا أَمَهَلَتْ نَفْسَهَا بِضَعِّ دَقَائِقٍ كَيْ تَسْتَعِيدَ السَّيْطِرَةَ عَلَى نَفْسِهَا، اسْتَجْمَعَتْ شَجَاعَتَهَا وَرَجَعَتْ إِلَى الْحَدِيقَةِ. إِلَّا أَنَّ كَلَارِكُ كَانَ يُعِيدُ الْأَدْوَاتِ إِلَى أَمَاكِنِهَا فَعَلًّا. لَقَدْ أَنْجَزَتْ الْمَهْمَةَ!

حُزْنٌ

نظرتِ مارتِي خارجَ النَّافذةِ كلَّ صباحٍ لِتَتَفَقَّدَ تَقَدُّمَ الحديقةِ. كانتِ سيقانُ خُضْرٍ نَحيفاتٌ قد بدأتِ تشقُّ التُّربةَ صعودًا، وقد سُرَّتِ مِسي كَسْرورِ مارتِي إذ شاهدتِ السُّويقاتِ تنمو. وسُرعانَ ما تعلَّمتِ الفتاةُ الصَّغيرةُ أنَّ عليها ألاَّ تدعَسَ تلكَ النَّباتِ الرِّقيقةَ أو تقتلعِها لِتَفحَّصَ جُذورَها.

كانتِ الأَنْشِطَةُ والأَحاديثُ في البيتِ عاديَّةً في ما يبدو، ولكنَّ مارتِي في عُمقِ كِيانِها علِمَتِ أنَّ شيئًا ما قد تغيَّرَ. كانِ كلاركُ عَطوفًا كحالِهِ دائِمًا، وما زالِ الاثنانِ يُناقِشانِ الأمورَ ويستمتعانِ بالولَدَيْنِ. ولكنَّ وُجْدَ إِقْرارِ قَلِقٍ بأنَّ الأمورَ باتتِ مُخْتَلِفَةً. وما كانتِ مارتِي لِتَسْمَحَ لِنَفْسِها بأنْ تُفَكِّرَ في ذلكَ تفكيرًا أعمقَ من اللازمِ. فكانِ سهلًا عليها إلى حدِّ ما أنْ تُودِّيَ أشغالَها اليوميَّةَ بالطَّريقةِ المُنظَّمةِ التي تعلَّمتِ أنْ تعتمدَها تامًّا.

ظَلَّتِ تستيقظُ باكراً، فتُطعمُ كلارَ الطَّفلِ وتُعدُّ الفَطورَ وتلبسُ مِسي. ثمَّ يقرأونَ الكِتابَ المُقدَّسَ ويصَلُّونَ ويتناولونَ وجبةَ الصَّباحِ. كانِ في

وُسْعَهَا أَنْ تَجْلِسَ قُبَالَهَ كَلَارِكْ، وَكَانَ فِي وُسْعِهَا أَيْضًا أَنْ تَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ وَتُطَلِّعَهُ عَلَى خُطَطِ يَوْمِهَا بِطَرِيقَةٍ عَادِيَّةٍ كَمَا فِي كُلِّ حِينٍ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَدْعُ عَيْنَيْهَا تُطِيلَانَ النَّظَرَ إِلَى عَيْنَيْهِ وَقَتًا طَوِيلًا جَدًّا. لَقَدْ تَأَقَّتْ أَنْ تَبْقَى الْأُمُورُ كَمَا كَانَتْ. وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ خَشِيَتْ أَنْ تَبْقَى.

وَانْتَحَبَتْ: يَا إِلَهِي! مَاذَا يَجْرِي؟ وَمَاذَا سَيَجْرِي...؟

ثُمَّ جَالَتْ خَارِجًا فِي الْحَدِيقَةِ لِتَرَى الْأَشْيَاءَ النَّامِيَةَ، أَمَلَةً أَنْ تَنَأَى بِذِهْنِهَا عَنِ جَمِيعِ الْأَفْكَارِ وَالْمَشَاعِرِ الْمُرْبِكَةِ. وَبَطَرِيقَةً مَا، كَانَتْ الْحَدِيقَةُ دَائِمًا تَوْتِيهَا شَعُورًا بِالْإِنْجَازِ وَالْفَرَحِ. حَتَّى إِنَّهَا وَجَدَتْ نَفْسَهَا مُتَحَدِّثَةً إِلَى الذُّرَّةِ، ثُمَّ دَفَعَتْ بَعْضَ التُّرَابِ حَوْلَ نَبْتَةِ بَطَاطَا، وَتَمَلَّقَتْ الْبَصَلَ وَالخَسَّ أَنْ يُسْرِعَا قَلِيلًا، وَتَسَاءَلَتْ لِمَاذَا أُرْبِكْتَ نَفْسَهَا بِكَثِيرٍ مِنَ الْفَاصُولِيَا.

تَابَعَتْ الْمَشْيَ نَحْوَ الْأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ، وَبَيْنَمَا كَانَتْ تُعْجَبُ بِكُلِّ وَرَقَةٍ جَدِيدَةٍ لَاحَظَتْ أَنَّ إِحْدَى الْأَشْجَارِ حَمَلَتْ زَهْرًا. فَوَثَبَ قَلْبُهَا... تَفَّاح! تَصَوَّرِي، تَفَّاح! يَا لَيْتَهَا تَسْتَطِيعُ فَقَطْ أَنْ تُرِيَ كَلَارِكْ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَزْرَعُ فِي الْحَقُولِ. وَمَا لَيْتَ أَنْ فُوجِئَتْ إِذْ رَأَتْهُ مُقْبِلًا نَحْوَهَا بِخُطَى وَاسِعَةٍ حَثِيثَةٍ.

فَنَادَتْ بِتَوَقُّ: ”كَلَارِكْ، كَلَارِكْ، تَعَالَ انظُرْ!“

وَفِيمَا عَيْنَاهَا مُثَبَّتَتَانِ عَلَى الشَّجَرَةِ، مَدَّتْ يَدَهَا إِلَى يَدِهِ لِتُقَرِّبَهُ أَكْثَرَ. ثُمَّ قَالَتْ مَتَحَمُّسَةً: ”انظُرْ، كَلَارِكْ! زَهْرُ تَفَّاحِ. سَيَكُونُ عِنْدَنَا تَفَّاحِ.“

انظرُ فقط!“

لم يكن جواب. رفعت نظرها حائرةً حيال الصمت. وإذا كلارك واقفٌ ينظرُ إليها ووجهه مشحوب، وتسنى لها أن تقرأ حزنًا بالغًا في عينيه، فانقبض قلبها خوفًا.

فهمست عبرَ شفتين مُرتعشتين: ”ماذا؟ ما الخطبُ؟“

عندئذٍ مدَّ يديه نحوها، فوضع يداً على كُلى كتيف، ونظرَ إليها بعُمق كما لو رغبَ في منحها شيئاً من قوته ليُساعدَها على تحمُّلِ الخبرِ الذي جاء به.

”إنها لورا. لقد وجدوها في مجرى الجدولِ فوق بُقربِ كُوخِ آلِ كونرز.“

”أهي... أهي...؟“

”هي ميته، يا مارتى!“

فارتخت عليه، ويدها ضاغطةٌ على فمها. وأخيراً سألت: ”وما غراهام؟“

”إنها بحاجةٌ إليك.“

وما لبثت أن شرعت تنسج، ووجهها مُلقى على صدره. فمسدت يده شعرها إذ ضمَّها من قُرب. وقد بكت من أجلِ ما غراهام، ومن أجلِ لورا، ومن أجلِ بن، بل أيضاً من أجلِ سالي آن.

ثمَّ صلَّت: آه، يا الله. أنت الوحيدُ الذي يُعينُ في وقتِ كهذا. أعنَّا كُنَّا الآن.

رجاءً يا الله، أعننا الآن. وبطريقةٍ ما، علّمت أن كلارك كان يُصَلِّي في سرِّه الصَّلَاةَ عَيْنَهَا.



كانت مارتى حاضرةً هناك لَمَّا جيءَ بِجُثْمَانِ لورا إلى بيتِ آلِ غراهام. ولن تنسى البتّة المشهد الذي يفطرُ القلبَ. فقد حملت ما غراهام على ذراعَيْهَا الجَسَدَ الهامد، باكيةً كأنَّ قلبَهَا سينشَقُّ، ومُتَرَجِّحةً إلى الأمام والوراء، قائلةً مرارًا وتكرارًا: ”يا طِفْلَتِي المِسْكِينَةَ، يا حبيبتِي الصَّغِيرَةَ المِسْكِينَةَ!“ وبعدَ حينٍ، مسحَت دُموعَهَا، وقَوَّمتَ كَتِفَيْهَا بعَزمٍ ثابتٍ، وبأشْرَتِ إعدَادِ الجُثْمَانِ بِرِفْقَةٍ للدَّفْنِ. يقينًا أنَّ أَسَى بَنِ ضَاهِي أَسَى ما غراهام، غيرَ أَنَّهُ لم يشعُرْ بحُرِيَّةٍ مُمَاتِلَةٍ كي يُعَبِّرَ عنه. وما كانت مارتى قد رأت قطُّ وَجْهًا مشحوبًا هكذا، ولا ذُهوْلًا وكَرَبًا مُمَاتِلَيْنِ، نظيرَ ما رأت لدى بَنِ. حتَّى إنَّهَا كانت قلقَةً من أَجلِ بَنِ أَكثَرَ ممَّا كانت قلقَةً من أَجلِ ما غراهام.

أصرَّ بَنِ على الرُّكُوبِ إلى كُوخِ آلِ كوتنرز. وعلى غيرِ عِلْمٍ من بَنِ، كان كلارك قد ذهب إلى هُنَاكَ قَبْلًا. وقد وَجَدَ مِلتَ سَكَرَانًا تَمَامًا، وأقْسَمَ مِلتَ إِنَّهُ لا يَعْرِفُ أَيَّ شَيْءٍ عن مَوْتِ لورا. اعترفَ بأنَّه ربَّما خَاشَنَهَا قَلِيلًا، ولكنَّه أصرَّ على أَنَّهَا كانت حَيَّةً تَمَامًا لَمَّا رآهَا آخِرَ مَرَّةٍ. وقد أَقْنَعَ كلارك مِلتَ، بصريحِ العِبَارَةِ، بأنَّه يتصرَّفُ بِحِكْمَةٍ إذا انتقلَ إلى أَقْصَى الغُربِ، وبأن يفعل ذلك في الحال.

رَكِبَ كلارك إلى هُنَاكَ ثَانِيَةً بِصُحْبَةِ بَنِ، دون أن يَأْتِيَ على ذِكْرِ

زيارته السابقة. وبدا الكوخ مهجوراً، وقد غادره مَنْ فيه على عَجَلٍ. وفي ما بعد، قال كلارك لِمارتي إِنَّه استراحَ جَدًّا لَأَنَّ مِلتَ كان قد رَحَلَ فعلاً، خَشِيَةً مِمَّا كان مُمكِنًا أن يفعلَه بَن في حالته الرَّاهنة.

أَقْبَلَ الجيرانَ وباشروا العَمَلَ بِمَوَدَّة. فَصَنَعَ التَّابوتَ وَحُفِرَ القبر، وَدُفِنَ جَسَدُ الفتاةِ الضَّئِيلُ في التُّراب. وفي غِيَابِ واعِظ، طُلِبَ إلى كلارك أن يتلوَ ”كَلِماتِ الدَّفن“. وكان في وسعِ ما غراهام أن تُحَسَّ كم كان صعبًا عليه أن يحمِلَ الكتابَ المقدَّسَ مفتوحًا ويقرأَ الكَلِماتِ الجليلة: ”لأنَّكَ من تُراب، وإلى تُرابٍ تعود...“.

وَبِمَهَابَةٍ عادوا جميعًا من كُومةِ التُّرابِ الجديدة، تاركينَ بَن وما غراهام كي يتجلَّدا ويتكَيِّفا معَ أساهُما. وبعَدا كانت ما غراهام قد عَزَّت بِحِكمتها واهتمامها كثيرًا من الجيران في الأوضاعِ المأساويَّة، قالَت مرَّةً أُخرى ودُموعُها منسابةٌ إِنَّ الزَّمَنَ هو الحَلُّ، إِنَّمَا هذه المرَّةَ كانت تقولُ ذلكَ لِنفسها.

قُوَّةٌ جَدِيدَةٌ

لَمَّا أَقْبَلَ شَهْرُ حَزِيرَانَ، كَانَتِ الْبَقْرَةُ الثَّانِيَةَ قَدْ أَنْتَجَتْ، وَلَدَهْشَةَ كَلَارِكٍ وَضَعَتْ عِجْلَتَيْنِ تَوَامِينَ، هَدِيَّةً خَاصَّةً مِنَ اللَّهِ كَمَا صَرَّحَ كَلَارِكٌ. وَقَالَ لِمَارْتِي: ”نَحْنُ عَلَى يَقِينٍ بَأَنَّ فِي وُسْعِنَا أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ عِجْلٍ آخَرَ بَعْدَ“. كَانِ كَلَارِكٌ حَامِلًا كَلَارَ الصَّغِيرِ، وَمَارْتِي مُمَسِكَةً جَيِّدًا بِيَدِ مِيسِي، فِيمَا شَاهَدُوا الْعِجْلَتَيْنِ تُحَاوِلَانِ بَاضِطْرَابٍ أَنْ تَقِفَا. وَقَدْ حَسَبَتْ مِيسِي ذَلِكَ مُضْحِكٌ جَدًّا، وَكَانَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُحِبَّ التَّسَلُّقَ فِي الْحَظِيرَةِ مَعَهُمَا.

بَعْدَ ذَلِكَ بِأُسْبُوعٍ، وَضَعَتِ الْخَزِيرَةُ الْأُخْرَى خَنَانِيصَهَا. وَلَمْ يَكُنْ بَطْنًا اسْتِثْنَائِيًّا مِنَ الْجِرَاءِ، بَلْ كَانَ بَطْنًا مَقْبُولًا، وَقَدْ احْتَفَظَتْ بِصِغَارِهَا الثَّمَانِيَةَ جَمِيعًا.

أَمَّا تَفْقِيسُ الصَّيْصَانِ فَعَنَى ثَلَاثَ دَجَاجَاتٍ أُمَّاتٍ فَخُورَاتٍ يَطْفَنَ مُتَبَخِّرَاتٍ فِي الْأَرْجَاءِ، وَمَعَهُنَّ مَجْمُوعَةٌ مِنْ سَبْعَةٍ وَعِشْرِينَ صُوصًا تُرْفَرُ بَيْنَهُنَّ. وَقَدْ أَصْرَتِ مِيسِي إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ عَلَى أَنَّ الصَّيْصَانَ يَرْغَبُ فِي أَنْ يُحْمَلَ، وَلَكِنْ مِنَ الْخَيْرِ أَنْهُمْ كُنَّ قَادِرَاتٍ عَلَى الْبَقَاءِ بَعِيدًا مِنْ

يَدِيهَا اللَّحِيمَتَيْنِ.

كانت مارتى ما تزال عاجزةً عن نَفْصِ الحُزْنِ على مَوْتِ لورا المَأساويِّ، إذ بدا حائماً حَوْلَهَا، خانقاً السَّعَادَةَ التي أَرَادَتْ أَنْ تَشعُرَ بِهَا.

أُصِيبَتْ مِسي بِالْحَصْبَةِ، ومع أَنَّهَا لم تُكُنْ مَرِيضَةً علي نحوِ مُرَوِّعٍ رَفَرَتْ مارتى عَلَيْهَا، قَلِقَةً من أَنْ تحلَّ مَأسَاءُ أُخْرَى. إِلَّا أَنَّ الطِّفْلَةَ شُفِيَتْ بِسُرْعَةٍ زَائِدَةٍ، وَاسْتَأْنَفَتْ نَشَاطَهَا وَتَنقَّلَهَا، مُتَظَاهِرَةً بِأَنَّ دُمِيَّتَهَا أُصِيبَتْ بِالْحَصْبَةِ ”وَتَحْتَاجُ إِلَى خِرْقَةٍ مُبَلَّلَةٍ عَلَى رَأْسِهَا أَيْضًا“.

وَحَدَّثَ أَنَّهُ بَيْنَمَا كَانَتْ مِسي ما تزالُ مُبْقَعَةً بِالبُثورِ الحُمْرِ وَمَحْمُومَةً جَاءَ خَبْرُ مَرُورِ أَوَّلِ قَافِلَةِ عَرَبَاتِ عَبْرَ المَدِينَةِ، مُتَّجِهَةً نَحْوَ الشَّرْقِ. وَإِذْ كَانَتْ مارتى مَشغُولَةً بِتَطْيِيبِ مِسي، قَالَتْ لِنَفْسِهَا إِنَّ قَوَافِلَ أُخْرَى سَتَمُرُّ.

وَفِي نَهَارٍ دَافئٍ من حَزِيرَانِ/يُونِيُو، بَعْدَمَا عَادَتْ إِلَى مِسي صِحَّتْهَا، غَطَّتْ مارتى الصَّغِيرِينَ فِي فِرَاشَيْهِمَا لِأَجْلِ قِيلُولَةِ العَصْرِ، وَقَرَّرَتْ أَنْ تَتَمَشَّى خَارِجًا طَلَبًا لِنَسْمَةِ هَوَاءٍ مُنْعِشَةٍ؛ فَقَدْ ظَلَّتْ مَحْبُوسَةً مُدَّةً طَوِيلَةً كَافِيَةً، وَقَدْ شَعَرَتْ تَقْرِيْبًا بِالضَّجَرِ وَالانزِعَاجِ.

تَمَشَّتْ فِي أَنْحَاءِ حَدِيقَتِهَا المَحْبُوبَةِ جَدًّا، مُلَاحِظَةً كَمِ نَمَتِ الزُّرُوعِ فِي أَثْنَاءِ مَرَضِ مِسي. وَكَانَتْ الزُّهُورُ عَلَى شَجَرَةِ التُّفَّاحِ قَدْ أَسْقَطَتْ نُوْجِيَّاتِهَا، سَامِحَةً بِتَكُونِ الثَّمَرِ عَلَى الأَغْصَانِ.

ثُمَّ مَشَتْ مُتَخَطِيَّةً الْمَبَانِي، وَنَزَلَتْ إِلَى الْجَدُولِ. لَقَدْ بَدَتْ مُنْجَذِبَةً
إِلَى تِلْكَ الْبُقْعَةِ الْهَادِئَةِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ اِكْتَشَفْتَهَا مِنْ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ لَمَّا
كَانَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى عِزَاءٍ... آنَازْكَ بِسَبَبِ خَسَارَتِهَا الشَّخْصِيَّةِ، وَالآنَ
بِسَبَبِ الْخَسَارَةِ الَّتِي أَلَمَّتْ بِمَا غَرَاهَامَ.

كَانَتْ فِي الْوَاقِعِ بِحَاجَةٍ إِلَى مَكَانٍ فِيهِ تُفَكِّرُ وَتُحَلِّلُ الْأُمُورَ جَيِّدًا.
فَالْحَيَاةُ كَانَتْ مُرَبِّكَةً جَدًّا... حَيْثُ اخْتَلَطَ مَا هُوَ حَسَنٌ بِمَا هُوَ سَيِّئٌ،
فِي تَرْكِيبَةِ غَرِيبَةٍ مِنَ السُّرُورِ وَالْحُزَنِ.

جَلَسَتْ مُسْنِدَةً ظَهَرَهَا إِلَى جِذْعِ شَجَرَةٍ، مُرَاقِبَةً الْمِيَاءَ الصَّافِيَةَ تَجْرِي
مُفْرَقَةً.

وَقَالَتْ هَمْسًا: ”يَا رَبُّ، عَلَامَ تَدُورُ الْحَيَاةُ كُلُّهَا؟ لَسْتُ أَفْهَمُ الْكَثِيرَ
عِنْدَكَ. أَعْلَمُ فِعْلًا أَنَّكَ صَالِحٌ. وَأَعْلَمُ أَنَّكَ تُحِبُّنِي، وَأَنَّكَ مُتٌّ مِنْ
أَجْلِي؛ وَلَكِنِّي لَا أَفْهَمُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْخُسْرَانِ، بِالْأَلَمِ الَّذِي يَغُوصُ عَمِيقًا
جَدًّا بِحَيْثُ لَا أَرَى نِهَآيَتَهُ. لَسْتُ أَفْهَمُ بَتَاتًا“.

وَمَا لَبِثَتْ أَنْ أَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا، شَاعِرَةً بِقُوَّةِ جِذْعِ الشَّجَرَةِ الثَّابِتِ
وَرَاءَهَا، مُصْغِيَةً إِلَى حَفِيفِ الْأَوْرَاقِ، شَاعِرَةً بِالنَّسِيمِ الْخَفِيفِ عَابثًا
بَشَعْرِهَا.

ثُمَّ أَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا بِأَحْكَامٍ أَكْثَرَ، مُسْتَمِدَّةً قِسطًا مِنْ سَكِينَةِ الْغَابَةِ
وَجَمَالِهَا. وَلَمَّا فَتَحَتْهُمَا، كَانَ كَلَارِكُ هُنَاكَ، مُسْتَنِدًّا إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى،
وَعَيْنَاهُ نَحْوَ وَجْهِهَا.

فأجفَلتْ أوَّلَ الأمرِ، وهبَّتْ واقِفَةً بِسرعة.

فقال لها: ”أنا آسفٌ لإخافَتِكِ. رأيتُك آتيةً إلى هنا، وخمَّنتُ أنَّك ربَّما لا تُمانِعينَ أنْ أنضمَّ إليكِ.“
”بالتأكيد لا...“.

وقَعَ الصَّمْتُ عليهما. والتقطَ كلاركُ عُصنًا فكسَّرَ منه قِطْعًا صغيرة. وراقبتْ مارتِي الجدولَ يَحْمِلُ القِطْعَ مُدَوِّمةً ومُبْتَعِدَةً في التِّيَّارِ. وعلَّقَ كلاركُ بهُدوءٍ: ”تخميني أنَّ الحياةَ تُشبهُ ذاكَ الجدولَ إلى حدِّ بعيدٍ“.

”ماذا تعني؟“

”تحصُّلُ أشياء. الأوراقُ تملأه... الحيواناتُ تُلقِي أقذارها فيه... سيولُ الرِّيعِ تملأه وَحَلًا“. ثُمَّ تَرَدَّد. ”أشعةُ الشمسِ السَّاطعةُ تجعله مثلَ مرآةٍ زُجاجيةٍ. والمطرُ الغزيرُ يجعل مجراه أوسع، ولكنَّه يظلُّ يجري- دونَ تغييرٍ كما يبدو- ويبقى هو الجدولُ نفسه، حتَّى مع جميع الأشياءِ التي تحصُّلُ له. فهو يخترِقُ الأوراقَ، ويُنظِّفُ نفسه من أقذار الحيوانات... والمياهُ الموحِلةُ تعودُ نقيَّةً من جديد. أمَّا أشعةُ الشمسِ والمطرُ فيقبَلُها، لأنَّها تُعطي حياةً وتُقويهِ كذلك، ولكنَّ بالحقيقة كان مُمكنًا أن يستغني عنها. فهي أشبهُ بإضافاتٍ“. وإذ كسَّرَ عُصنًا آخرَ أضاف إلى الجدولَ مزيدًا من الشَّطَّايا.

ثُمَّ استأنفَ قائلاً: ”الحياةُ تُشبهُ ذلك. إذ تأتي أمورٌ سيِّئةٌ، ولكنَّ

الحياة تظلُّ تجري، مُنْقِيَةً مجراها بالتدرّج، مُخَفَّفَةً حِمْلَهَا. والأوقاتُ الجيدة تأتي أيضًا، ورُبَّمَا أمكننا أن نستغني عنها، إِلَّا أَنَّ الرَّبَّ يَعْلَمُ أَنَّنَا بحاجة إليها كي تُضفي معنى... كي تُقوِّنا وتُساعدنا حتَّى نعكس أشعة الشمس.

”تخميني أنَّ الإنسان يجب أن يتوقَّع الجيّد والرّديء، ما دُمنا على قيد الحياة، باذلاً قُصارى جهده ليجعل الرّديء يؤلِّم أقلَّ ما يُمكن. أمّا الجيّد، فعلى المرء أن يُسهِّم في جعله ينمو إلى أبعد حدٍّ، جاعلاً جميع الأمور الجيدة داخلةً في الحساب“.

كانت مارتي قد أغمضت عينيها من جديد فيما كان كلارك يتكلّم. وها هي الآن واقفةٌ هناك، مُغمضة العينين، مُستنشقةً بعُمقٍ من الغابة ومن الجدول.

لقد كانت الحياة مثل ذلك الجدول. إذ استمرتّ مهما حصلَ لها. وباتت مارتي على استعدادٍ للاستمرار الآن، هي أيضًا. إنَّها استمدتّ قوَّةً من الغابة. لا، ليس ذلك، بل استمدتّ قوَّةً من الإله الذي خلق الغابة.

الْحُبُّ يَأْتِي بِهَدْوٍ

تعجّلت مارتى في إصلاح الثياب، إذ أرادت أن تنتهي من ذلك قبل اضطرارها إلى تحضير العشاء. وكانت تشتغل في واحد من سراويل كلارك، وهو آخر غرض في سلّة الأغراض التي تحتاج إلى إصلاح. وإذ أمسكت السروال، تذكّرت مجدداً أنه رجلٌ ضخمٌ حقاً.

ولمّا رفعت السروالَ عاليًا أمامها، قالت مُقهقهةً: ”عجبًا، من شأنه أن يبتلعني!“ وحسبت مِسي أيضًا ذلك مُضحكًا.

كانت مِسي تُحاول أن تُقلد أمّها في كلِّ ما تعمله. وقد أعطتها مارتى قِصاصة قُماشٍ وزرًّا، وأسَلكت لها خيطًا في ثقبِ إبرةٍ، وعلمت مِسي الصّغيرة فنَّ تقطيبِ الأزرار.

وقالت لها: ”يحسُنُ بك أن تتعلّمي كيف تفعلين هذا. ستحتاجين لأن تكوني عارفةً كيف تُنجزين الأمر قبل أن نعلمَ ذلك“.

شغلت مِسي نفسها بغيرِ الإبرة وسحبها داخلًا وخارجًا في القماش. وابتسمت مارتى حِيالَ جهودِ الطّفلة، إذ برزَ الخيطُ في بعضِ المواضع

الغريبة جدًا، ولكنَّ مِسي كانت مسرورةً تمامًا بمهارتها التي تعلَّمتها حديثًا.

كان الطُّفلُ كلار مُمددًا على بساط، يُناغي ويُثرثرُ لنفسه ولأبيِّ شخصٍ آخر يهمله أن يُصغي. كان عمره الآن أربعة أشهر، وكان ولدًا وضاءً سعيدًا مُعافى، لم يُتَمَّ بعدُ تنبؤاتِ كلارك المُقلِقةَ لما قال: ”انتظري حتى تبدأ أسنانه بالطلوع“. إنَّ أفرادَ عائلتهِ الثلاثةَ كلَّهم كانوا مَشغوفينَ به، فلماذا لا ينبغي أن يكونَ راضيًا؟

تكلَّمت مِسي إليه وهي تشتغل: ”انظُر، يا طفل. انظر أختك الكبيرة. إنَّها تَخيَط. هل يُعجِبُكَ الشُّغل؟ انظري، ماما. هو يتبسَّم. كلار يُعجِبُه شُغلي... خياطتي.“

أوماتِ مارتِي برأسها لكليهما استِحسانًا، وتابعتْ تقطِيبَ رُقعةِ السُّروال. وإذا بصوتِ تحطُّمِ عالٍ يجعلُها تقفزُ، وما لبثت أن سمِعت مِسي هاتفةً ”اللَّعنة!“ وهي تنظرُ إلى عُلبةِ الأزرارِ المُتناثرة.

”مِسي، إيَّاكَ أن تقولي هذه الكَلِمة!“

فحدقت مِسي صُعودًا إلى أمِّها. ”أنتِ قُلْتِها.“

”ما عدتُ أقولُها، ولا أريدُ منك أن تقوليها أيضًا. والآن، لننزلُ ونلتقطُ جميعَ الأزرارِ عن الأرضِ قبلَ أن يَضَعها كلار في فَمِه.“

فأطاعت مِسي، وساعدت في إرجاعِ الأزرارِ إلى عُلبَتِها ووَضَعها على ماكينَةِ الخِياطة.

أَكَمَلْتُ مَارْتِي تَقْطِيبَ الرُّقْعَةِ وَأَسْرَعْتُ لِتَحْضِيرِ الْعِشَاءِ. كَانَ كَلَارِكٌ عَلَى وَشِكِ الرَّجُوعِ مِنَ الْقِيَامِ بِالْمَهَامِّ، وَقَدْ نَوَتْ مَارْتِي أَنْ تُكَلِّمَهُ بِشَأْنِ نَقْلِ سِرِيرِي الْوَالِدَيْنِ إِلَى غُرْفَةِ نَوْمِهِمَا الْجَدِيدَةِ. فَمِنْ شَأْنِ ذَلِكَ أَنْ يُتِيحَ لَهَا مَزِيدًا مِنَ الْمَكَانِ كَيْ تَتَحَرَّكَ بَحْرِيَّةً فِي غُرْفَةِ نَوْمِهَا الصَّغِيرَةِ. وَكَانَ كَلَارِكٌ قَدْ نَقَلَ أَشْيَاءَهُ إِلَى الْغُرْفَةِ الْأُخْرَى حَالِمًا تَمَكَّنَ مِنْ سَقْفِهَا وَرَصَفِ أَرْضِيَّتِهَا. وَإِذْ بَاتَ كَلَارِ الْآنَ يَنَامُ طَوَالَ اللَّيْلِ، وَقَدْ صَارَ الْجَوُّ أَدْفًا، مَا عَادَتْ مَارْتِي مُضْطَّرَّةً لِأَنَّ تَقْلُقَ بِشَأْنِ كَشْفِ الْوَالِدَيْنِ أَغْطَيْتَهُمَا. فَسَيَكُونُ حَسَنًا أَنْ تَتَمَكَّنَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى أَغْرَاضِهَا دُونَ أَنْ تَصْدِمَ قَصَبَتِي سَاقِيهَا بِسِرِيرٍ صَغِيرٍ، أَوْ تَتَعَثَّرَ بِدُمِيَّةِ مِسي.

وَمَا إِنْ وَضَعْتَ الطَّعَامَ عَلَى الطَّالُوَّةِ حَتَّى أَقْبَلْتَ مِسي رَاكِضَةً عَبْرَ الْبَابِ.

”ماما... ماما... كَلَارِ مَرِيضٌ.“

فَدَارَتْ مَارْتِي مُسْرِعَةً لِتَنْظُرَ إِلَيْهَا: ”مَاذَا تَعْنِينَ؟“

فَتَشَبَّهَتْ الْفَتَاةُ بِيَدِهَا، شَادَّةً إِيَّاهَا صَوْبَ غُرْفَةِ الْجُلُوسِ.

وَصَرَخَتْ: ”هُوَ مَرِيضٌ!“

فَرَكَّضَتْ مَارْتِي نَحْوَ الصَّوْتِ الْمُخْرَجِ الْمُقَرَّرِ.

وَنَتَرَتْ الطِّفْلَ الَّذِي كَانَ يُكَافِحُ بَاهْتِيَاغٍ، وَقَبَضَتْهُ الصَّغِيرَتَانِ تَخْبِطَانِ الْهَوَاءِ فِيمَا هُوَ يُجَاهِدُ لِأَخْذِ نَفْسٍ.

صَرَخَتْ مَارْتِي: ”إِنَّهُ يَخْتَنِقُ!“ وَقَلْبَتُهُ رَأْسًا عَلَى عَقَبِ ثُمَّ ضَرَبَتْهُ بِقُوَّةٍ

على ظهره بين عظمي كتفيه الصغيرتين جدًا.
وظلّ كلار يُكافح.

فقلتَ مارتي للفتاة الصغيرة: ”اركُضي وأحضري بابا!“ وقد حاولتُ
إبقاء الذعر بعيدًا عن صوتها. فركضت مسي.

عكستَ مارتي وضعَ الطفل وأقحمتُ بحذرٍ إصبعًا داخلَ حنجرتِه.
وخُيِّلَ إليها أنها استطاعتَ لمسَ شيءٍ ما، إلاَّ أنَّ طرفَ إصبعِها مسَّهُ
مسًا خفيفًا فحسب. فهمَّ كلار بأن يتقيًا، ولكن لم يطلع أيُّ شيء.

دخلَ كلارك راکضًا عبرَ الباب، وعيناهُ ضابجتانٍ بالقلق.

قالت له مارتي: ”إنَّه يخبثق!“

”اضربيه على ظهره“.

فردتَ مارتي، دامعةً الآن: ”فعلتُ ذلك“.

”ضعي إصبعك...“.

”حاولتُ“.

”سأحضرُ الطيب“.

”لا وقتَ لذلك“.

فقال كلارك مُوجِّهًا بصوتٍ حازمٍ: ”لَلفِيه جيِّدًا. سأحضرُ

الحصانين“.

كان الطُّفلُ ما يزال يتنفس... مُكافحًا، لاهثًا أنفاسًا قصيرة، ولكنَّه ما

زال يتنفس... بصعوبة.

وصلت مارتى مُتلهفةً: ”آه، يا الله، رجاءً، ساعدنا. رجاءً، ساعدنا، أبقه مُتنفّسًا حتى نصلَ إلى الطَّيِّب“.

ثمَّ التقطت بطَّائِيَّةً ولقَّتها حول كلَّار، فيما وقفت مِسي وعيناها مفتوحتانِ بانْشِداهِ، وهي أشدُّ خوفًا من أن تبكي مُجرَّدَ بُكاء.

فقالَت مارتى أَمْرَةً: ”مِسي، البِسي مَعِطْفِكِ، وأحضِري بطَّائِيَّةً عن سِيرِكِ لكي تقَدِري أن تستَلقي في العَرَبَةِ“.

فأسرَعَتِ الطَّفلةُ لِتُطِيعَ.

ساق كلَّارك الحِصانَيْنِ نحوَ المنزلِ بِسُرعة. فركضت مارتى نحو العَرَبَةِ حاملةً الطِّفْلَ على ذِراعَيْها وساجِبَةً مِسي بيدها. ودونَ كلام، شالَ كلَّارك مِسي، واضعًا إيَّها مع بطَّائِيَّتِها في مكانٍ آمِنٍ على أرضِيَّةِ العَرَبَةِ، ثمَّ ساعد مارتى والطِّفْلَ على الصُّعودِ فوق العَجَلَةِ، وانطلقوا حالًا.

كانتِ السَّفَرَةُ الطَّوِيلَةُ إلى المَدِينَةِ كابوسًا. فتَنفَّسُ الطِّفْلِ الخَشِنُ كان يقطعُه فقط نوباتُ سعالِهِ. وقد اندَفَعَ الحِصانانِ بِسُرعةٍ بالغةٍ، وطَقْمُهُما يُصدِرُ صَريْرًا فيما العَرَقُ يُنقَطُ على رِقَبَتَيْهِما وكفَلِيهِما. وحثَّهُما كلَّارك على التقدُّمِ أَكثَرَ فأكثر. أمَّا مارتى فتشَبَّثتِ بِالطِّفْلِ كلَّار، وقد هَزَهَزَتِ العَرَبَةُ عِظامَها ونقَّطَ ذِراعَيْها ووجْهَها عَرَقَ الحِصانَيْنِ.

صاحت مارتى فى داخلها: لن نصلى... لن نصلى بتاتا! اذ بدا ان نفس
كلار اللاهث اخذ يضعف وخفت سرعة الحصانين القاصمة للظهر.
غير انهما جريا عدوا باطراد، وبدا انهما استمدا القوة من مخزون
احتياطي ما صورت مارتى قط انهما كانا يملكانه.

بات تنفس الطفل اكثر غرابة بعد لما لاحت للعيان اخيرا أضواء
المدينة. وكلّم كلارك الحصانين من جديد فتقدما مسرعين. كيف
أمكنهما أن يستمررا راكضين هكذا؟ لا بد انهما كانا على وشك أن
ينهارا تحت طقمهما، ولكن صوت كلارك الملائف قواهما على ما
بدا.

جرى الحصانان اللاهثان عدوا إلى مكان الطبيب مباشرة، وجذب
كلارك زمامهما ليتوقفا، وترجل قفزا قبلما كفت عجلات العربة عن
الدوران. ثم مدّ يديه لأخذ كلار الصغير، فناولته مارتى إياه، وشاهدته
يتوجه نحو الباب ركضا. ودارت مارتى لتساعد مسي على النهوض عن
أرضية العربة. فتشبّثت لحظات بالفتاة الصغيرة، مُريدة أن تُطمئنّها بأن
كلّ شيء سيكُون بخير... ولكن هل يكون؟ ثمّ تسلّقت فوق العجلة
ومدّت ذراعها لحمل الطفلة.

حين دخلت مارتى الغرفة التي أدت دور مكتب الطبيب، كان
الطفل قد وُضع على طاولة صغيرة تحت ما بدا لها أنه ضوء ساطع
جدا. وكان الطبيب مُنحنيا فوقه، وقد بدا أنه يهيمن تماما على الجسم

الصَّغِيرِ اللّاهِثِ وَهُوَ يَفْحَصُهُ.

وَمَا لَيْتَ أَنْ قَالَ بَوَاقِيَّةً: ”عِنْدَهُ شَيْءٌ صَغِيرٌ جَدًّا عَالِقٌ فِي حَنْجَرَتِهِ!“ وَكَأَنَّ عَالِمَ مَارْتِي كَلَّمَهُ لَمْ يَكُنْ دَائِرًا حَوْلَ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ. ”سَيَكُونُ عَلَيَّ أَنْ أُخْرِجَ ذَاكَ الشَّيْءَ. سَنُضْطَرُّ إِلَى تَنْوِيمِ الطِّفْلِ. ادْعُ زَوْجَتِي، مِنْ فَضْلِكَ! إِنَّهَا تُسَاعِدُنِي فِي هَذَا... لَقَدْ تَلَقَّتْ تَدْرِيًّا خَاصًّا“.

طَرَقَ كَلَارِكٌ عَالِيًّا عَلَى الْبَابِ الْفَاصِلِ مَا بَيْنَ الْمَكْتَبِ وَالْمَسْكَنِ، فَدَخَلَتْ امْرَأَةٌ إِلَى الْغُرْفَةِ. وَإِذْ رَأَتْ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ يُكَافِحُ لِأَجْلِ كُلِّ نَفْسٍ، نَمَّتْ عَيْنَاهَا عَنِ اهْتِمَامٍ فَوْرِيٍّ.

”يَا إِلَهِي! مَا مُشْكِلَتُهُ؟“

”عِنْدَهُ شَيْءٌ مَا فِي حَنْجَرَتِهِ. سَنُضْطَرُّ إِلَى تَنْوِيمِهِ وَإِزَالَةِ مَا هُوَ عَالِقٌ“.

كَانَ الطَّيِّبُ قَدْ بَدَأَ يَشْتَغِلُ لَمَّا تَكَلَّمَ، وَسُرْعَانَ مَا انضَمَّتِ الْمَرْأَةُ إِلَيْهِ، وَأَخَذَ الْاِثْنَانِ يَشْتَغِلَانِ كِحِصَانَيْنِ قُرْنَا جَيِّدًا.

بَدَأَ أَنَّ الطَّيِّبَ نَسِيَ بَاقِيَ الْعَائِلَةِ فِيمَا كَانَ يَتَأَهَّبُ عَلَى عَجَلٍ، ثُمَّ رَفَعَ عَيْنَيْهِ فَجَاءَتْ. ”فِي وَسْعِكُمْ، أَنْتُمْ الْبَاقِيْنَ، أَنْ تَقْعُدُوا عَلَى مَقَاعِدَ فِي غُرْفَةِ جُلُوسِنَا. لَنْ يَسْتَعْرِقَ الْأَمْرُ وَقْتًا طَوِيلًا، وَلَكِنَّا نَشْتَغِلُ عَلَى أَفْضَلِ نَحْوِ وَحَدْنَا“.

أَمْسَكَ كَلَارِكٌ بِذِرَاعِ مَارْتِي وَاصْطَحَبَهَا مِنَ الْغُرْفَةِ. فَمَضَتْ عَلَى

مَضَض، كارهةً أن تتركَ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ الغَالِيَّ وحده، وهي تخشى أن يكونَ كلُّ نفسٍ نفسَه الأخير.

ساعدها كلارك لتريحَ جِسْمَهَا الخَدِرَ على كُرْسِيٍّ، وكانت ما تزال مُتَشَبِّهَةً بِمِسي. فاقترحَ أَنَّهُ في وُسْعِ مِسي أن تقعدَ على كُرْسِيٍّ آخَرَ بجانبها، ولكنها هزَّتْ رَأْسَهَا رِفْضًا. أمَّا كلارك نفسه، فلم يقعد بل راحَ يسيُرُ في الغرفة ذهابًا وإيابًا والقلقُ مُرتَسِمٌ على وجهه. وقد علِمَتِ مارتِي أَنَّهُ كان يتضرَّعُ إلى الله. وارتجفتُ يداها إذ نزعَ القُبَّعة التي كان قد نَسِيَهَا. وإذ راقبته مارتِي، أدركتُ كم أحبُّ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ. وفكرتُ: إِنَّهُ يحبُّ كلارك كما لو كان ابنه! ولم تستغربِ هذا قَطًّا. فرغَمَ كلُّ شيءٍ، فقد أحبَّتْ هي مِسي بالطريقة نفسها، وكادت تنسى أَنَّهُ في وقتٍ ما كانتِ الفتاةُ الصَّغيرةُ مُجرَّدَ غريبةٍ ضئيلة.

بدا دهرٌ يمرُّ بِبطءٍ، وأخيرًا تلوَّتْ مِسي مُغادرَةَ ذِرَاعِي مارتِي، واستسلمت للنوم على بَطَانِيَّتِهَا في إحدى زوايا الغُرفة. ولكن أخيرًا ظهرَ الطَّيِّبُ عند الباب. فعبرَ كلارك إلى مارتِي، واضعًا إحدى يديه على كتفها كأنه يتغني حمايتها من سَماعِ الأسوأ، إلاَّ أنَّ الطَّيِّبَ ابتسمَ لهُما.

نظرَ الطَّيِّبُ إلى كلارك الذي كان المسؤولَ عن قُدمِهِ إلى هذه المدينة قائلًا: ”سَيِّدُ ديفيس. سيكونُ ابْنُكَ بخيرٍ تمامًا. كان هذا الزُّرُّ مُستَقَرًّا في حَنجرتِهِ. من حُسنِ الحَظِّ أَنَّهُ قَلِبَ إلى وَضْعِ انْحِرَافٍ،

وإلا...“.

فردّ كلارك: ”ما كان ذلك خطأ“.

وهزّ الطَّيِّبُ كَتِفَيْهِ لَامْبَالِيًا. ”سَمَّه ما شِئْتَ! لقد أُخْرِجَ الزُّرُّ الآنَ. وِيُمْكِنُكُمْ أَنْ تَرَوْا الطُّفْلَ إِذَا رَغِبْتُمْ“.

هَبَّتْ مَارْتِي وَاقْفَةً. إِنَّهُ بَخِيرٌ. طِفْلِي بَخِيرٌ. وَلَمْ تَكُنْ واثِقَةً بِأَنَّ رِجْلَيْهَا سَتَحْمِلَانِهَا. ثُمَّ هَتَفَتْ: ”أوه، يا الله، إِنَّهُ بَخِيرٌ. شُكْرًا لَكَ. شُكْرًا لَكَ!“

لولا ذِرَاعَا كَلَارِكِ اللَّتَانِ طَوَّقَتَاهَا، لَانْهَارَتْ كُومَةً وَاحِدَةً. فَقَدْ جَذَبَهَا إِلَيْهِ، وَبَكِيًا مَعًا شَاكِرِينَ.

وَقَفَ كَلَارِكُ وَمَارْتِي يَنْظُرَانِ مِنْ فَوْقَ إِلَى الْوَجْهِ الصَّغِيرِ الْمُنْبَسِطِ، لَكِنِ الْمَشْحُوبِ، وَقَدْ سَرَى الْاطْمِئْنَانُ فِي أَوْصَالِهِمَا. مَا كَانَتْ مَارْتِي قَدْ أَفْلَتَتْ يَدَ كَلَارِكِ، وَمَا زَالَتْ ذِرَاعُهُ تُثَبِّتُهَا.

قَالَ الطَّيِّبُ مُتَعَاظِفًا: ”لقد عانى كثيرًا صاحبنا الصَّغِيرُ الْمِسْكِينُ!“

وَشَعَرَتْ مَارْتِي بِأَنَّهَا سَتَكُونُ مَدْيُونَةً إِلَى الْأَبَدِ لِهَذَا الرَّجُلِ اللَّطِيفِ.

ثُمَّ قَالَ الطَّيِّبُ: ”إِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى نَوْمٍ طَوِيلٍ مُرِيحٍ الْآنَ. مَا زَالَ تَحْتَ تَأْثِيرِ جَرَعَةِ التَّنْوِيمِ الَّتِي أُعْطِيْنَاهُ إِيَّاهَا. وَأَتَوَقَّعُ أَنْ يَنَامَ اللَّيْلَ بِطُولِهِ دُونَ حَرَكَةٍ. سَتَنْتَاوَبُ أَنَا وَزَوْجَتِي عَلَى الْجُلُوسِ مَعَهُ. الْأَحْسَنُ لَكُمْ، أَنْتُمْ الْأَهْلَ، أَنْ تُحَاوِلُوا نَيْلَ قِسْطٍ مِنَ الرَّاحَةِ. وَأَنَا وَاثِقٌ بِأَنَّ الْفُنْدُقَ فِي الْجِهَةِ الْمُقَابِلَةِ مِنَ الشَّارِعِ سَيَكُونُ فِيهِ مَكَانٌ لثَلَاثَتِكُمْ“.

أخيراً، استعادت مارتى صوتها قائلة: ”ألا ينبغي... ألا ينبغي لنا أن نبقى معه؟“

فأجاب الطبيب: ”لا لزوم، سيّدتى. سينام، ويبدو لي أنّ في وسعك أنتِ أيضًا أن تستفيدي من بعضِ النوم“.

وقال كلارك: ”هُوَ على حقّ. أنتِ بحاجة إلى بعضِ الرَّاحة... وإلى عشاءٍ ما أيضًا. تعالِي. لِنَعْبُرْ إلى الفُنْدُق“.

بعدما أَلَقَتْ مارتى نظرةً أخيرةً على الطِّفْلِ النَّائِمِ، وربَّتْ خَدَّهُ لِطَمَآنَةٍ نَفْسِهَا بِأَنَّهُ على ما يُرام، سَمَحَتْ بِأَنْ تُقْتَادَ إلى الخارجِ. فحَمَلَ كلاركِ مِسي المُتَعَبَةَ والجائِعَةَ وحَمَلَهَا عَبْرَ الشَّارِعِ.

سُرَّتْ مارتى بِأَنْ تُلْقِي بِنَفْسِهَا على الكُرْسِيِّ وتَحْتَضِنَ مِسي من قُرْبِ مُدْنَدِنَةٍ لَهَا بِكَلِمَاتِ المَحَبَّةِ، فيما أَجْرَى كلاركِ التَّرْتِيبَاتِ عِنْدَ الطَّائِلَةِ.

ثُمَّ رَجَعَ كلاركِ إليها. ”سَيُعِدُّونَ عِشَاءً ما بِسُرْعَةٍ، ثُمَّ سَيُعْطُونَكَ مِفْتَاحَ العُرْفَةِ“.

”وماذا عنك؟“

”سَأُضْطَرُّ إلى الاعتناء بِالْحِصَانَيْنِ. إِنَّهُمَا يَحْتَاجَانِ إلى تَدْلِيكِ جَيِّدٍ وقليلٍ من العِناية الخاصَّة؟“

أومأت مارتى برأسها مُوافقةً. فالآنَ أَحَبَّتْ دان وتشارلي العجوزينِ. وأومأت برأسها ثانيةً: ”سَنَنْتَظِرُكَ“.

فباشَرَ كلارك يقول: ”لا لُزومَ...“.

”بلى، لا بُدَّ أن ننتظِرَكَ“.

فأبدى كلارك مُوافقته وخرج خارجًا. وفي أثناء غيابه، قالت مارتى لمِسي أَيْةَ فتاةٍ شُجاعَةٍ كانت، وكيفَ ساعدت كلارَ الطفلَ بمُناداتها لماما وإحضارها لبابا، وتمدُّدها هادئةً على أرضيَّة العرَبَةِ، وعدمَ بُكائها عندَ الطَّبيب. لقد كانت فتاةً كبيرةً، وماما أحبَّتها كثيرًا جدًّا.

ولإرباك مارتى، اغرورقت عينا مِسي بدموعٍ كثيرةٍ وبدأت تبكي.

ولدى حثِّ مارتى، قالت مِسي أخيرًا وهي تَنسِج: ”ولكن... أنا أوقعتُ... أنا أوقعتُ الأزرار“.

شدَّتها مارتى إليها من قُربٍ، مُرَجِّحةً إيَّها برفق. ”مِسي، مِسي ما كانت غلطتكِ أنَّ الطفلَ كلار وجدَ زِرًّا أهملناه عند التقاطِ الأزرار وردَّها إلى مكانها. لقد حصلَ الأمرُ فحسب، وذلك هو كلُّ شيءٍ. فلا تقلقي بشأنه. ماما وبابا يُحبَّبانِكَ جدًّا، وأنتِ كُنْتِ فتاةً شُجاعَةً حتَّى تصرَّفْتِ أحسنَ تصرُّفٍ. فاسكُتي الآن“.

وأخيرًا أفلحت في تعزية البنت الصَّغيرة.

رجَعَ كلارك مُخبرًا بأنَّ دان وتشارلي سيكونان بخير بعدَ راحةٍ جيِّدة. وأكَّدَ أنَّهما سيَنالانها أيضًا... وقد استحقَّها.

ثمَّ دخلَ الثلاثةُ معًا إلى حُجرةِ الطَّعام في الفُنْدُق. ولكنَّ أيًّا منهم لم يشعُر بميلٍ شديديٍّ إلى الأكل. إذ كانت مِسي مُتعبَةً إلى أقصى

حدّ، ومارتي منهوكة القوى جدًّا، كما كان كلارك أكثر راحةً من أن يرغب في الطَّعام.

وبعدما بذلوا جهدًا لا يتلَّع وجبة خفيفة، تحرَّكوا إلى غرفتهم.

كان سريرٌ نقل صغير قد وُضِعَ في إحدى الزَّوایا، فكان أوَّل شيء فعلته مارتي إعدادُ مِسي للنَّوم كأفضل ما أمكنها. لم تُوجد منامة ناعمة دافئة، ولكنَّ مِسي لم يهتمَّ الأمر. وإذا بالنَّوم يُغطَّط عليها، تقريبًا قبلما أكملت صَلَّاتها.

جلست مارتي بقرب الطِّفلة حتَّى تيقَّنت بأنَّها نائمة، ثمَّ قبَّلتها ثانيةً، وتوجَّهت إلى كلارك المرهق جدًّا، وكان يُحاول أن يستريح على مقعدٍ طويل.

ماذا عساها تقول لهذا الرَّجُلِ الجالسِ أمامها؟ هذا الرَّجُلِ الذي عزَّاهَا لَمَّا حلَّ بها الأسي، وفهم أفرآحها، وأمدَّها بالقوَّة لما راحت قُوَّتها تتلاشى، وأشركها في إيمانه، وعرفَّها بالهه. لقد شعرت بالكثير الكثير. تلك اللَّهفة العميقة الغريبة في داخلها... قد فهمتها الآن. لقد كانت تَوْقًا إلى هذا الرَّجُلِ، إلى حُبِّه. إنَّها أرادتَه، وقد علمت ذلك الآن. ولكنَّ كيف... كيف يُمكنها أن تخبره؟

وقفت هناك بكُماء، راغبةً في أن تبوح بالأمرِ كُلِّه، ولكنَّ لم تُوافها أيُّه كلمات. ثمَّ وقفَ ومدَّ يده إلى قُبَّعته.

عندئذٍ استرجعت صوتها. ”إلى أين أنت ذاهب؟“

”أظنُّ أنني سامضي اللَّيْلَ هُنَاكَ عِنْدَ الطَّيِّبِ. إِذَا اسْتَيْقَظَ كَلَارُ الصَّغِيرِ، أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَرَى عِنْدَمَا يَسْتَيْقِظُ بَعْضَ أَوْجِهٍ أَهْلِهِ بَدَلًا مِنَ الْغُرَبَاءِ“.

”وَلَكِنَّ الطَّيِّبَ يَقُولُ إِنَّهُ لَنْ يَسْتَيْقِظَ قَبْلَ الصَّبَاحِ“.

”رَبِّمًا! مَعَ ذَلِكَ سَاجِدٌ عِزَاءً فِي مُجَرَّدِ مُشَاهَدَتِهِ نَائِمًا بِسَلَامٍ. وَسَاتِي إِلَى هُنَا صَبَاحًا لِأَتَيْقَنَ بِأَنَّكُمْ لَا تَحْتَاجَانِ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ“.

وَدَارَ لِيَمْضِي، غَيْرَ أَنَّهَا عَلِمَتْ أَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تَحُولَ دُونَ ذَلِكَ. فَإِذَا مَضَى الْآنَ دُونَ أَنْ يَعْلَمَ...

أَبَى صَوْتُهَا أَنْ يُطِيعَ أَمْرَهَا بَعْدَ. فَمَدَّتْ يَدَهَا وَأَمْسَكَتْ بِكُمِّهِ. فَالْتَفَتَتْ صَوْبَهَا. وَلَمْ تَسْتَطِعْ إِلَّا أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، مُتَوَسِّلَةً إِلَيْهِ أَنْ يَقْرَأَ فِي عَيْنَيْهَا مَا لَمْ تَقْدِرْ أَنْ تَقُولَهُ بِشَفَتَيْهَا.

نَظَرَ إِلَى وَجْهِهَا مُتَفَحِّصًا، ثُمَّ تَقَدَّمَ نَحْوَهَا أَقْرَبَ، وَامْتَدَّتْ يَدَاهُ إِلَى كَتِفَيْهَا، جَاذِبَتَيْنِ إِلَيْهَا صَوْبَهُ.

لَا بُدَّ أَنَّهُ قَرَأَ هُنَاكَ مَا أَرَادَتْ مِنْهُ أَنْ يَرَاهُ، وَمَعَ ذَلِكَ تَرَدَّدَ لِحِظَاتٍ بَعْدَ.

وَسَأَلَهَا: ”أَنْتِ وَاثِقَةٌ؟“

فَأَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا إِجَابًا، نَازِرَةً بِعُمُقٍ دَاخِلَ عَيْنَيْهِ. وَمَا لَبِثَتْ أَنْ غَدَتْ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ، وَقَدْ ضَمَّهَا كَمَا تَلَهَّفَتْ أَنْ يَضُمَّهَا، شَاعِرَةً بِقُوَّةِ جِسْمِهِ مُلْتَصِقَةً بِهَا بِشِدَّةٍ، رَافِعَةً شَفَتَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ إِلَى شَفَتَيْهِ.

كم من الزَّمنِ ظَلَّتْ تُرِيدُ هذا؟ لم تُكُنْ على يقين. لقد عَلِمْتَ فقط
أَنَّ ذلك بدأ أَشْبَهَ بِدَهر. إِنَّها أَحَبَّتْهُ كَثِيرًا جدًّا، وعليها في ما بعد أن
تَجِدَ الكَلِماتِ لِتَقولَ له ذلك. إِنَّمَا الآنَ سَتُرضي نَفْسَها بِكونِها
مضمومةً من قُربِ، سامعةً كَلِماتِ حُبِّه مَهْموسةً بِرِقَّةٍ مُقابلَ شَعْرِها.
كيف حَصَلَتْ مُعْجِزَةُ الحُبِّ هذه؟ إِنَّها لم تَدْرِ! لقد وافاها الحُبُّ
لأشعوريًّا... بهدوء.

الكتاب الثاني من سلسلة ”الحُبُّ يأتي بهدوء“



وعز الدين

Love's Enduring Promise

بعدهما جَمَعَتْ كارثةٌ مارتي وكلاارك بطريقةٍ استثنائيةٍ، وتسَلَّلَ الحُبُّ بهدوءٍ إلى قلوبِهِمَا، بدأ هذا الحُبُّ ينمو ويُزهر. وهكذا تُطَلِّعنا الرواية الثانية على الأحداثِ التي تزخرُ بها حياتُهُمَا معًا بعد أن عَزَمَا على خَوْضِهَا يَدًا بِيَدٍ. وتتخطى هذه الرواية مُجرياتِ العلاقةِ بينهما لتُلقِي بظلالها أيضًا على ما يَشْهَدانه من ألمٍ ونجاحٍ في حياة أولادِهِمَا وبين الجيران وأهل المنطقة.

فكيف سيتعاملُ كلاارك ومارتي مع كلِّ هذه التغييرات؟ وإلى أين ستأخُذُهُمَا رحلة الإيمان بينما يخوضان أحداث الحياة الاعتيادية وتلك الاستثنائية؟ هذا ما سنعرِّفه في الجزء الثاني من هذه السلسلة.